



الفضائل والسير

• وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (١)

• الخطبة الأولى:

الحمد لله؛ بلطفه تنكشف الشدائد، وبصدق التوكل عليه يندفع كيد كل كائد، ويُتقى شر كل حاسد، أحمده سبحانه وأشكره على جميع العوائد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له في كل شيء آية تدل على أنه الأحد الواحد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، جاء بالحق وأقام الحجّة على كل معاند، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه السادة الأماجد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، فبتقواه تُنال الدرجات، وتزكو الأعمال، وتزودوا من ممرِّكم لمقرِّكم، فأنتم في فترة الإمهال، فالدنيا غرارة مكّارة، والموت آت لا محالة، والأجل قريب، والأهمال ثقال. فاغتنموا رحماني الله وإياكم سُويعات أعماركم، فالأيام فانية، ولسوف يندم أصحاب القلوب القاسية، وطهّروا درن الذنوب بفيض العبرات، واستثيروا رقة القلوب بذكر يوم الحسرات، فالناس فيه سكارى من طول الوقوف، حيارى من هول يومٍ مخوف، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أيها المسلمون: لقد جاء الإسلام وأمم الأرض تشتبك في حروب لا تُحصى، ولأغراضٍ من المطامع شتى، دولٌ في القديم كبرى كان القتال بينها سجالاتاً، فنيت فيها جيوشها، وناءت بمغارمها شعوبها، لم يكن وقود تلك الحروب إلا مطامع الكبار، ولم يشعل فتيلها إلا شهوة التوسع والمباهاة في الاستبداد.

(١) صالح بن حميد.



لقد جاء الإسلام وجاءت حضارته والعالم تحكمه قوانين الغاب، وتسوده شريعة الوحوش، القوي يقتل الضعيف، والمسلح يهيب الأعزل، والحرب تنشب من غير قيد أو حد، فكل من ملك قوة امتطى صهوة جواده، وشهر سلاحه ليستذل الأمة الضعيفة على أرضها، ويغلبها على قوتها، ويكرهها على عقيدتها، فيشعلها حرباً آثمة، ويوقدها على الضعفاء ناراً تظنى.

وأما العرب أنفسهم في تلك الأحقاب فقد أكلتهم غاراتهم، فكان الاقتتال لهم طبعاً، والقتل بينهم عادةً، حتى إذا لم يجدوا غارةً على البعيد أغاروا على القريب، فهم على بكرٍ أخيهم إن لم يجدوا إلا أخاهم.

كما قال قائلهم:

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

في هذه العصور المظلمة والظروف الكالحة تفجّر ينبوع الإسلام، فلانت القلوب الصلدة، وترطبت العصور الجافة، وأقبل فيه العالم على دين جعل الإيمان صنو الأمان، والإسلام قرين السلام، فانشحرت مطامع النفوس، وتجاقت وساوس الشيطان، وتقاصرت العدوان على الحقوق، وكان النداء لأهل الإيمان: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاقَةِ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

بهذه الروح وبهذه المبادئ انتشر الإسلام في سنواته الأولى، حتى بلغ مشارق الأرض المعمورة ومغاربها في أقل من قرن من الزمان، ومن المعلوم قطعاً أن المسلمين لم يكن لهم في ذلك الوقت من القوة العددية ولا من الآلات العسكرية ولا من تقنيات الاتصالات ولا من وسائل المواصلات ما يمكنهم من قهر الشعوب على ترك دينها، ولا فرض الحكم على الديار التي دخلوها، لولا أنه دين حق، وحضارة سلام، وسياسة عدل. فالشعوب المفتوحة لم تدن بالإسلام ولم تتعلم لغة القرآن ولم تخضع للمسلمين إلا لأنه لامس القلوب لما ظهر لها فيه من الحق والرحمة والعدل الموصل لسعادة الدنيا والأخرى.

إن الإسلام دين الفطرة، سمته البارزة وعلامته المسجلة نشر الحق وفعل الخير وهداية الخلق، ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ



هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. تلکم من حقيقة الإسلام ووظيفته التي يجب أن تعرف في أروقة الأمم ومحافل الدول ومجامع العالم.

أيها المسلمون: والإسلام في غايته والدين في مبادئه لا ينظر إلى مصلحة أمةٍ دون أمةٍ، ولا يقصد إلى نهوض شعب على حساب آخر، ولا يهيم في قليل أو كثير تملك أرض أو سيادة سلطان هذا أو ذاك، بل كان يقر كل حاكم على بلده كما هو سيداً مطاعاً، إن هو آمن بالله ودان بشريعة الإسلام وساس رعيته بالعدل، فمقصود الدين وغايته سعادة البشرية وفلاحها وبسط الحق والعدل فيها، وكل توجه غير هذا وكل هدف سوى هذا لا اعتبار له في الإسلام، بل إذا كانت التوجهات تتضمن ظلماً أو تقود إلى غمط حق فلا بد حينئذ من مقاومتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فالأرض كلها لله، ويرثها الصالحون من عباد الله.

أمة الإسلام: ولئن كان الإسلام دين رحمة وعدل وسلام فإنه في الوقت نفسه دين قوة وإباء ضيم؛ لأنه دين عملي يأخذ الحياة من واقعها، ويعامل الخلائق من طبائعها، وفي الحياة والطبائع ميل إلى المشاحنات وتوجه نحو المنازعات ودخول في المنافسات، من أجل ذلك وبجانب عدله ورحمته أمر بإعداد القوة التي تحمي الحق، وتبسط العدل، وتزرع الخير، وتنشر السلام، بل إن القوة العادلة أقوى ضمان لتحقيق السلام، وحذر من أن يفهم الناس أن السلام معناه القعود عن الاستعداد ما دام في الدنيا أقوامٌ وفتاتٌ لا تعرف قيمة السلام، ولا تحترم حرية غيرها في أن تعيش أمنة مطمئنة في بلادها.

ومن أجل ذلك كله أمر المسلمون بإعداد القوة وأخذ الأهبة، والقوة المأمور بها قوة شاملة تُحشد فيها كل مصادر القوة، الاقتصادية منها والساسية، والاجتماعية والعسكرية، والأخلاقية والمعنوية، وقبل ذلك وبعده قوة الإيمان والاستمسك بالشرع المتين، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ. عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والأمة القوية والدولة القوية تُحفظ مهابتها ما دامت صفة القوة ملازمة لها، وتلكم سنة إلهية من السنن التي تبنى عليها الحياة، فلا خير في حق لا نفاذ له، ولا يقوم حق ما لم تُحط به



قوةً تحفظه وتسندة، وما فتئت أمم الأرض ودولها تُعدُّ نفسها بالقوة، بمختلف الأنواع والأساليب، حسب مقتضيات العصر ومتطلبات الظروف في الزمان والمكان.

أيها المسلمون: ولعل من المناسب الوقوف عند صورة من صور القوة، تلكم هي قوة الروح المعنوية. إن من يقلِّب النظر في تاريخ الأمم التي تتمتع بالعزِّ والسيادة مجدها لم تبلغ ما بلغت إلا بما تربت عليه من قوَّة الروح قبل البناء العسكري، فبقوة الروح وارتفاع المعنويات بإذن الله تسلم من خطر يمتدُّ إليها من الخارج، ويستتبُّ لها الأمن من الداخل، وتكون ذات شوكة ومهابة، ولا عجب أن يُولي القرآن الكريم ذلك ما يستحق من عناية، فتنزلت الآيات التي تربِّي النفوس على خلق البطولة وتحفز الدواعي لإعداد الوسائل واتباع النظم، فالظفر بعيد عن الجبناء، وبعيد عن المهازيل، ولقد توجَّهت الآيات الكريمة إلى النفوس تنقيها من رذلية الجبن والإحجام، وتذرها بسوء عاقبة الجبناء، اقرؤوا وتدبروا قول الله عزو جل:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]، إن الآية صريحة في أن الجبان يُبتلى بذي قوة لا يعرف للعهد رحمة، ولا يقيم للعدل وزنا، ولا يعرف للحق طريقاً.

ولقد سجَّل الشجعان وصدَّقت الحكماء أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يكسوها الذل ويغمرها الهوان، والحر يلاقي المنايا ولا يلاقي الهوان، ومن العجز أن يموت الفتى جبناً.

وآية أخرى في كتاب الله تفضح فئات من الجبناء الخوارين، أنكروا رجولتهم، ودفنوا كرامتهم، وقعدوا مع فئات لم تُخلق للضرب ولا للطعان، ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]. ولا يتوارى عن هواتف الشرف أو دواعي البطولة إلا من كان حظه من الرجولة ضئيلاً، ومن الكرامة منقوصاً.

وبثُّ القوة الروحية أيها المسلمون ورفع المعنويات يكون بتربية النشء على خلق الشجاعة وصرامة العزم والاستهانة بالموت. وإخواننا وأولادنا في فلسطين المحتلة قد ضربوا من ذلك بسهم وافر، أعلى الله قدرهم، ورحم شهداءهم، وشفى مرضاهم، وعوَّضهم ما فقدوا، وحقق لهم النصر على عدونا وعدوهم.



إن الأمة التي تأبى الضيم بحق هي الأمة التي تلد أبطالاً، وتبذل كل مجهود في إعداد وسائل الدفاع، لا يقعد بها بخل، ولا يُلهيها ترف.

إن تفاضل الأمم في التمتع بالحرية والسلامة من أرجاس الضيم لا يتبين إلا بقدر ما فيها من شهامة الرجال، وما تدّخره من أدوات الرمي والطعان، فإذا ما اجتمع للأمة رأي وسيف وعزّة تجافت عنها المظالم.

إن العزة وإبء الضيم خلقٌ عظيم، ومركب عزيز، أول ما يقع في نفوس الرجال الموكول إليهم تدير شؤون الأمة، وتنفيذ آمالها، وتحقيق طموحها، ورسم خططها.

إن إبء الضيم يدفعها إلى أن تذود عن حياضها، وتدافع عن حماها، ولو كان خصمها أعزّ نفراً وأقوى جنداً وأكثر نفيراً، بل تقف موقف الرجولة والاحتفاظ بالكرامة ولو غلب على ظنّها أنها ستُغلب على أمرها، تفعل هذا إثارةً لحياة العزة على حياة المهانة، وتجاوياً عن خزي وعار تتناقله الأجيال: الخصوم يبغون الفتنة وهم يبغون السلام.

بإبء الضيم تكون الأمة قوية القنى، جليلة الجاه، وفيرة السنا، تزحزح سحائب الظلم والاستعباد، لا تستكين لقوة، ولا ترهب لسطوة.

أمة الإسلام: ذلك شيء مما يتعلق بالقوة المعنوية والعزة النفسية، أما القوة المادية فلا تحتاج إلى مزيد حديث. إنها إعداد ما يتطلبه الدفاع من وسائل الانتصار على العدو، ولقد تفتقت أذهان أبناء العصر عن مكتشفات ومخترعات لأنواع من القوى وأساليب من الاستعداد والإنذار فاقت كل تصوّر.

أيها المسلمون: إن الاستعداد بالقوة يمنع الحرب من أن يتّقد أوارها، ويجعل الأمة المستعدة في منعةٍ من أن تهضم حقوقها، إعدادٌ واستعدادٌ من أجل اتقاء بأس العدو وهجومه. ولقد جاء هذا العرض جلياً واضحاً في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، إنه استعداد ليكون سبباً في منع الحرب قبل أن يكون استعداداً عند نشوبها واشتعالها.

نعم، إنه السلام المسلَّح، ذلكم أن الضعف يغري الأقوى بالتعدِّي على الضعفاء. إن القوي المستعدَّ للمقاومة قلماً يُعتدى عليه، وإن اعتدى عليه قلماً يظفر به عدوُّه أو ينال منه. إن ترك الاستعداد يُغري بالعدوان ويُسرِّع بالاستسلام.

إن أخطر ما تتعرض له الأمة هو الغفلة عن الخطر المحدق بها، والتفاسس عن إعداد القوة القادرة على الدفاع.

إن على الأمة الأبية أن تُعدَّ ذلك مسألة حياة أو موت، اقرؤوا قول ربكم في محكم كتابه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾

[النساء: ١٠٢]. ومن دقائق تعاليم ديننا وآدابه وشريف غاياته أن العدو إذا عدل عن العدوان وأرهبه السلام المسلَّح كان التوجه حينئذ نحو السلم والحرص عليه وقبوله، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وإن أبى العدو إلا الحرب والقوة فالقوة لا تُدفع إلا بالقوة، والعدوان لا يرد إلا بمثله، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، ففي آداب القتال عندنا: لا يقاتل غيرُ مقاتل، ولا يُجاسب إلا المعتدي.

وبعد عباد الله إنما تسقط الأمم في هاوية الذلة إذا صغرت هممة رجالها، فلا يُحسبون بظلم، ولا يأنفون لعزة، ولا يأترون لكرامة، يُساقون بذلتهم ومهانتهم إلى جهل ونفرة وشقاق، العاجز لا يُرجى لدفع ملِّمه، ولا يُؤمَّل في النهوض بهمة، كما أنه ليس من العقل ولا من الحكمة الوقوف مع الهزائم، واستعادة الأحران، والتعثرُ في عقابيلها، وتبادل كلمات اللوم وآهات التحسر: ليت ولو أن، فما كان ذلك من أخلاق الأقوياء، ولا من مسالك ذوي العزة والأنفة وأبابة الضيم، وفي التنزيل العزيز حثُّ لأهل الإيمان أن لا يكونوا مثل أصحاب هذه المسالك: ﴿يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقَتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

نعفني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الإله الحق، لا تُحصى دلائل وحدانيته ولا تُعد، أحمدُه سبحانه وأشكره، لا ينتهي كرمه ولا يحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تنزهه عن الصاحبة والولد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله أشرف من ركع وسجد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان وسلك مسالك الرشد.

أما بعد:

لا تزال الأمم تستبق في إعداد القوة، لكن هل كل من أعد القوة عدّ ناجحاً؟ وهل كل من ملكها استعملها في حقها؟ كلا، ولكن ينبغي لأصحاب الحق أن يكونوا أحرص على الأخذ بالأسباب وإعداد القوة؛ ليستخدموها في حقها ويضعوها في محلها، فإن القوة متمدحة حين تكون في طرق الخير ووجوه المنافع للنفس والأهل والناس أجمعين، قوة تحقّق الحق وتبطل الباطل، تسير في المسار الصحيح والغايات الشريفة.

أما حينما توظّف القوة في سبيل الشر والأنانية والمصالح الضيقة وإيذاء الناس وبسط النفوذ المستكبر تكون وبالأعلى البشرية، بل إنها في المآل وبألّ حتى على أصحابها، ولقد قالت قوم عاد الأولى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَاقُوتَةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال لهم نبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ محذراً ومنذراً: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [الشعراء: ١٣٠-١٣١].

وفي مراجعة القوة في العصور الراهنة، تلك القوة المتسلطة التي صحبت عهد الاستعمار، إنها قوى شر تسلطت على أمم ضعيفة، جاسوا خلال الديار، يفتشون عن الثروات ويقطعون طرق التجارات، ويستأثرون بالمنافع، في قلوب ملأى بالجشع، ونفوس مفتوحة بالشره، تتقدمها معدات مجنزرة، وتظللها طائرات مُزججة، في عساكر مدربة وإرساليات ماكرة، يقطعون على أهل البلاد أرزاقهم، ويكدرون على الوادعين أمنهم، لم تكن تلك القوى في سبيل الله، ولم تكن لإعلاء كلمة الله، بل كانت للشهوات والمصالح الضيقة.

ولقد علم من استقرأ التاريخ أن الحروب المعاصرة أشدّ حروب البشر ضراوة، وأقساها معاناة، وأضرّها أثراً، ولا يزال كثير من الدول الكبير منها والصغير تنفق على الاستعداد



للحروب فوق ما تنفق على المصالح الأخرى الضرورية للدولة وللأمة، بل إن فيها من يُرهق شعوبه بالضرائب لأجلها.

ولولا سوء النية وفساد الطوية في بعض النفوس وقلة الثقة المتبادلة بين كثير من الدول لأمكن الاتفاق سراً وجهراً على ما ينادي به الفضلاء ويقترحه العقلاء من تقليل الاستعداد لهذه الحروب المدمرة، والتي كثرت أسبابها، واتسعت اختراعاتها، وتنوّعت تقانياتها، فصارت خطرًا على غير المقاتلين، تُهلك الحرث والنسل، بل تقضي على كل آثار الحضارة والعمران، ولكن مع الأسف إذا ساد قانون الغاب فلا يُسمع لضعيف قول، ولا يُعترف له بحق، ولو أقام كلّ البراهين وأدلى بكل الصحيح من الحجج. وحينما يكون العقل لشريعة الاستبداد فالقول قول القوي، والنافذ فعل الظالم، يأخذ وينهب، وليس معنيًا بحجة، ولا سائلًا عن برهان.

ألا فاتقوا الله أيها المسلمون ما استطعتم، وأعدوا من قوة الخير والحق ما استطعتم، ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد نبي الرحمة والملحمة، فقد أمركم بذلك ربكم فقال في محكم تنزيله وهو الصادق في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر والخلق الأكمل، وعلى آله الطيبين الطاهرين...



تعريف المسلمين بسبيل النصر والتمكين^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله العزيز الحميد، القوي المجيد، أنذر الطغاة بطشه الشديد، وأذل بالقهر كل جبار عنيد، نحمده ونستنصره وهو على كل شيء شهيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يبدئ ويعيد، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله، أنذر بالقرآن من يخاف وعيد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة لا تزال على كر الجديدين في تجديد، وسلم تسليًا يكثر ويزيد.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله فإن تقواه أفضل عدّة عند البلاء وأمضى مكيّدَةً عند اللقاء، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

أيها المسلمون: الأمم تتقلب في أطوار وأطباق، ما بين عزة وذلة، وكثرة وقلة، وغنى وفقر، وعلم وصناعة، وجهل وإضاعة، وأحوال متقبلة مشاعة. والأمة الواعية مهما عانت من ضراء، وعالجت من بلاء، وكابدت من كيد أعداء، فإنها سرعان ما تُفيق من غفلتها، وتصحو من رقتها، فتقيم المائد، وتقوّم الحائد، وترقق الفتق، وترقع الوهي والخرق، لتعود عزيزة الجانب لا يتجاسر عليها غادر، ولا ينهاها عدو ماكر.

والأمة المسلمة لا تزال تعايش حروبًا نائرة وشرورًا متطائرة، تشتت نظامها، وتشعب التثامها، حروب قدرة، يقودها قوم كفره فجرة، غدرة مكرة، خونة خسرة، لا يرقبون في مؤمن إلا وذمة.

أنسى اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوًّا جناحاه

(١) صلاح البدير.

فهذه فلسطين المباركة، تصبح وتمسي تحت مرارة الفادحة، وألم الفازعة، وصور المأساة، ومشاهد المعاناة، وصرخات الصغار، وصيحات التعذيب والحصار، ولوعات الثكالي، وآهات اليتامى، تصبح وتمسي على صفوف الأكفان المتتالية، وتشيع الجنازات المحملة، والبيوتات المهذمة، والمساجد المتهككة، أحداثٌ جسام، تُدمي القلوب وتفتّر الأكباد، ويقشعر لهولها الفؤاد. أحداثٌ تنادي المسلمين وتستنفرهم، تستصرخهم وتستنصرهم، فهل من مجيب لهذا النداء؟! وهل من مغيث لتلك الدماء والأشلاء؟! هل يليق بالمسلمين وهم أكثر الناس عددًا وأغناهم موارد أن يُسلموا إخوانهم لعُصبة الضلال ويهود البغي والاحتلال، النفوسِ الغاوية، والذئابِ العاوية، ليصبحوا هدفًا للدبابات والبارجات، وصدفًا للصواريخ والطائرات، وطعمة للكافرين ونهبة للجائرين؟!!

إن تلك الأحداث والصور ما هي إلا صرخات إيقاظ واعتبار واعيظ، ليعرف المسلمون واقعهم ومواقعهم، ويفيدوا من مآسيهم الدروس والعبر، ويقفوا على أسباب النصر والظفر، بعيدًا عن ردود الفعل الوقتية التائهة، والهتافات الضعيفة الضائعة، ويصلحوا المسار، ويتجنبوا أسباب الذل والخسار.

أيها المسلمون: لله أن يفعل ما يشاء، ويسلّط مَنْ يشاء على من يشاء إذا شاء، تقويةً وإقدارًا وتغليبًا وإظهارًا، بما رأى من الحكمة وسبق من الكلمة، إمّا عقوبةً ونقمةً وعذابًا، وإمّا تمحيصًا وابتلاءً واختبارًا، قال جل في علاه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وقال جل في علاه: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، إلا أن يصيبوا من الذنوب ما يكون سببًا لتسليط الأعداء وحلولِ البلاء ونزولِ البأساء والضراء، وما تقاعس قومٌ عن التوبة وتواصوا بالباطل ولم يتناهوا عن إذاعة المنكر وظهور المعاصي والشر إلا أحلّوا أنفسهم الحُسرَ والخذلان والذلّ والهوان، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله يقول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١)، ويقول

(١) رواه أبو داود وصححه الألباني (٣٤٦٢).



رسول الهدى: «يا معشر المهاجرين: خمسٌ إن ابتليتم بهن ونزلنَ بكم أعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطَّ حتى يُعلنوا بها إلاَّ ظهرَ فيهم الطَّاعونُ والأوجاعُ التي لم تكن مصَّتْ في أسلافِهم، ولم ينقُصوا المكيالَ والميزانَ إلاَّ أخذوا بالسنينِ وشدَّةِ المؤونةِ وجورِ السلطانِ عليهم، ولم يمنَعوا الزكاةَ إلاَّ مُنعوا القطرَ من السماء، ولولا البهائمُ لم يُمطرُوا، ولم ينقُصوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلاَّ سلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرهم وأخذوا بعضَ ما كانَ في أيديهم، وما لم تحكُم أئمَّتُهم بكتابِ اللهِ إلاَّ ألقى اللهُ بأسَهُم بينهم»^(١).

ووقع صدقُ الخبرِ وصدقَ سيِّدُ البشرِ محمَّد، فها هي قوَى الظلمِ المخذولةُ وقد حلَّت في العُقرِ والدارِ وغَلَبت على الأرضِ والذَّمَّارِ في عدَدٍ من الأمصارِ والأقطارِ..

أيها المسلمون: إن الواجب على الأمة أن تعلم أن ما أصابها فإنما هو بسبب تقصيرها في جنب ملك الملوك، وتفريطها في الحكم بشريعته، واحترام أحكامها ومعالمها، والوقوف عند حدودها، وعدم تصدِّيها لرياح الإفساد ومسيرة التغريب التي نخرت في الأمة وشبابها وفتياتها، حتى صارت تعاني ويلات الانحراف المرَّ في صفوف ناشئتها، بعد أن خان المستأمن، وفرط المستحفظ، وغش المستودع، ودلَّس المستشهد، في أعظم وديعة وأعلى أمانة، وهي حفظ الدين وتحصين مجتمعات المسلمين من عاديات التغريب وحملات التخريب.

أيها المسلمون: إن الناظر بعين البصر والبصيرة يرى الفرق الشاسع والبون الواسع بين مبادئ الإسلام وقيمه ونظمه، وبين واقع المسلمين اليوم. وإن من أمانة الكلمة وصدق الحديث وصراحة المنطق وواجب النصح والبيان القول بأن الأمة ما لم تعترف بتقصيرها الكبير وتفريطها الخطير وأثره المستطير على حاضرها ومستقبلها، وتقم بواجب المراجعة والمعالجة والإصلاح، فإن الحديث عن استرداد ديارها المستباحة وأموالها المجتاحة وإيقاف الاعتداءات الآثمة لا يعدو أن يكون إمعاناً في الوهم، وإسرافاً في الظن، ومغالطة فاحشة، تجرُّ على الأمة آثاراً سيئة لا يُعرف مداها ولا منتهاها. وإذا كان أصحاب رسول الله قاموا بمخالفةٍ واحدة لأمره في غزوة أحد، فأصابهم ما أصابهم، وهم أفضل جيش تحت قيادة

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/١٣٣٢) (٤٠١٩) والحاكم في المستدرک، والبيهقي، وحسنه الالباني.



أفضل الخلق؛ فما بالكم بما يقترفه أبناء الأمة اليوم من المنكرات الفاضحة، والمخالفات الواضحة!

أيها المسلمون: إن أرادت الأمة نصر الله وتأييده، وأن يعود لها التأثير في مجريات الأحداث، فعليها أن تُعيد صياغة الحياة في بلادها وفق رسالة الإسلام، وأن تسوس الدنيا بالدين، وتمحو آثار المفسدين، وتحفّف منابع الشر، وتحسّم مواد الإفساد، وأن تعمل على تحقيق أهدافها، وبناء قوتها واستعدادها، وأن تسعى لتربية الجيل وإصلاح أوضاعها إصلاحًا شاملًا كاملاً، عقديًا وأخلاقيًا وسلوكيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، حتى لا تتحول جهودها في مواجهة التحديات والمؤامرات لسلسلة من الذل والإجباطات، والصدمات والانتكاسات، وإن الإصلاح الصادق ليس إصلاحًا تحرّكه بواعث وقتية، أو ملابسات ظرفية، وإنما هو إصلاح صادر عن إيمان راسخ وعقيدة صادقة، واستشعار بأنها مسؤولية أمام الله عزّ وجلّ، يوم يسأل كل عبد عما استرعاه مولاه: أَدَّى أم تعدي؟ يقول رسول الله: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه البخاري^(١).

أيها المسلمون: إن أعداء الدين من اليهود والنصارى والملحدّين لا يألون إقدامًا ولا ينكسون إحجامًا في التخطيط لإقصاء الإسلام عن الحياة، وإزاحته عن أرض الواقع، ومحاولة تهميشه وحصره وقصره، وتطويع العالم الإسلامي بتبعية الحياة الغربية، يساندهم في ذلك فسّاق مستغربون، ومنافقون علمانيون، تارةً بتأويل نصوص الوحيين ولوي أعناقها، وتارةً بالنيل من علماء الإسلام، وتارةً بالنيل من الدعاة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وغمزههم ولزهم والتطاول عليهم، واتهامهم بما ليس فيهم، وتارةً بالدعوة إلى الاختلاط، وتحرير المرأة، ونبذ قوامة الرجل عليها، جهالاتٌ مطبقة، وأفكار موبقة، تثير البلبلة، وتخلق الخلخلة، وتزرع بذور الفرقة، يلبسون ثياب الإصلاح على أفئدة عشعش فيها النفاق، فهم كالثمرة الفجّة الملقاة، انفصلت من شجرة الطهر والعفاف والحياة، فسقطت

(١) رواه البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

وتعفنت، وأنتنت وفسدت، فأنتى يستفاد منها، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿الْبَقَرَةُ: ١١-١٢﴾.

فعلى الأمة وهي تتلمس معالم الإصلاح ومنهجيته ومقوماته وأسسها ووسائله أن تحذر أدعياء الإصلاح الذين تربوا في حجر الأعداء، فلم تجن الأمة من جهودهم إلا كل حنظل، ومن أفكارهم إلا الأحسак والأشواك والهلاك. وعلى الأمة أن تأخذ الرأي والمشورة من علمائها الأمناء الذين ليس لهم بائقة، ولا يُخاف منهم غائلة، وهم ضمير الأمة وغيظ عدوِّها، وحُرّاس عقيدتها والفضيلة فيها، حتى يصدر التذبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، يقول الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن ملكة بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، وفي صحيح البخاري: (كانت الأئمة بعد النبي يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة، ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداءً بالنبي ﷺ^(١)). ويقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأي الواحد كالخيط الواحد، والرأيان كالخيط السحيل، والثلاثة كالحبل».

أيها المسلمون: إن معرفة مكانم الداء وبواعث التجاوزات والأخطاء، مع العمل على سدها وصدّها من أعظم وسائل الإصلاح والبناء، وإن استعمال غير الأكفاء الأمناء الأقوياء وإسداء الأمور والثغور إلى من لا يؤمن في توجّهه وأفكاره وولائه وانتائه هو جرثومة الفساد، وخراب العباد والبلاد، وقد قال رسول الهدى: «إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة» قيل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٢). يقول ابن بطال: (معنى «وأسند الأمر إلى غير أهله»: أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلّدوا غير أهل الدين فقد ضيّعوا الأمانة التي قلّدهم الله تعالى إياها)^(٣).

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

(٢) رواه البخاري (٥٩).

(٣) فتح الباري (١١ / ٣٣٤).

وعلى كل من ولاه الله أمراً من أمور المسلمين خلافةً أو وزارةً أو أمانةً أو قضاءً أو رئاسةً أو قيادةً أن يتخذ بطانةً سالحةً وجماعةً ناصحةً، تحثه على الخير والرشاد، وتنهيه عن البغي والفساد، يقول رسول الله الهدى: «ما بعث الله من نبي ولا كان بعده من خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً أي: لا تقصّر في إفساد أمره فمن وُقي شرها فقد وقي»^(١) وزاد: «وهو إلى من يغلب عليه منها»^(٢).

أيها المسلمون: وعلى الأمة أن تعمل جاهدةً وهي تلتمس الحلول والمخارج أن لا تنطق الروبيضة أو الفويسقة من الناس في أمورها العامة، وأحداثها الهامة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدّق فيها الكاذب، ويكذّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الروبيضة، قيل: وما الروبيضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»^(٣).

أيها المسلمون: إن الواجب على الأمة أن تقدّم مقتضيات العقيدة وموجبات الشريعة ومصالحة الدين وحب الله ورسوله على كل أواصر القربى ومناصب الدنيا ولذائدها، في كل مواقفها وعلائقها، وفي جميع أمورها وشؤونها، وأن تكون على يقين لا يساوره شك أن ذلك سبيل صلاح دنياها وانكشاف بلواها. وإن لا تفعل ذلك فهي على خطر أن ينالها ذلك الوعيد الذي تنقذ منه الضلوع والتهديد الذي تنهات منه القلوب وتسيل الدموع، الوارد في قوله جل في علاه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له»^(٤).

(١) رواه البخاري (٧١٩٨)، والنسائي (٤٢٠٢) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

(٢) هذه الزيادة عند النسائي في البيعة (٤٢٠١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٩١)، وابن ماجه (٤٠٣٦) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٦٥) السلسلة الصحيحة (٩٤٩، ٩٥٠).



تعريف المسلمين بسبيل النصر والتمكين

ومن نقض عهد الله وعهد رسوله سلط الله عليه عدوه فأذله وأخذ بعض ما في يده، يقول رسول الهدى: «يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم، وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم»^(١).

فاتقوا الله عباد الله: وكونوا ممن آمن بربه حق الإيمان وأسلم، وفوض أمره إلى مولاه وسلم، وانقاد لأوامره واستسلم، فقد أسال عليكم من وابل الآلاء وأزال عنكم من وبيء اللأواء وأسبل عليكم من جميل الغطاء وواسع العطاء ما يوجب الخجل منه والحياء. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعي وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره، وصححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٠٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون: إن الأمة المسلمة لا يجوز أن تقيس مسيرتها السلوكية والتربوية والأخلاقية بمن هم دونها من حثالة البشر، ولا يجوز لها أن تبرر تقصيرها بذلك، ولكن عليها أن تعرض أوضاعها الحاضرة وحياتها المعاصرة على نصوص الوحيين الشريفيين؛ لأنها الميزان الحق والمقياس الصدق على تقدم الأمم وتأخرها، وزينها وشينها، قال بعض أهل العلم: (من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة فلا تعدّه في ديوان الرجال). وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنْ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ: «ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

أيها المسلمون: وواجب على الأمة أن ترعى في مسيرتها الإصلاحية المباركة قاعدة سدّ الذرائع والوسائل المفضية للمفاسد، سواء كانت موضوعة للإفشاء إلى مفسدة، أو موضوعة للمباح قصد بها التوصل إلى مفسدة، أو موضوعة للمباح لم يقصد بها التوصل إلى مفسدة، ولكنها مفضية إليها غالباً، ومفسدتها راجحة على مصلحتها.

أيها المسلمون: أليس صلاح الأمم بصلاح أبنائها، علماً وأدباً، قولاً وفعلًا؟

إذا ليُتم كل واحد منكم بواجبه في مسيرة الأمة الإصلاحية، بإصلاح نفسه؛ لأن مسيرة الإصلاح تبدأ بإصلاح الذات، ثم تنصدي لإصلاح الأهل والأولاد ومن استطعنا من

(١) صحيح الترمذي (٣٢٦٧).



تعريف المسلمين بسبيل النصر والتمكين

القرابات، ومن ثم إلى سائر الفئات والطبقات، من كان يظن أن أم أحمد ابن حنبل ستُخرج للأمة علماء من أعلامها؟ وكذلك أم البخاري، وأم سفيان الثوري التي كانت تقول لابنها: يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي، فإذا تعلمت عشرة أحاديث، فانظر هل يزيد إيمانك وخشيتك لله، وإلا فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك. أي: أنها ستكون حجة عليه!

من كان يظن أن ذلك العالم المربي الذي ربّى محمدًا الفاتح، سوف يصوغ شخصية هي التي فتحت مدينة قيصر التي عجز عن فتحها القادة المسلمون الأوائل؟

إن على المربين وعلى العلماء والدعاة والمصلحين أن يقوموا بدورهم في نشر العلم والأدب، وغرس الفضائل والقيم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهمة لا تعرف الفتور، وعزيمة لا تعرف العجز، وقوة لا تعرف الضعف، وحكمة وحنكة لا تعرف التهور، لعل الله سبحانه أن يستنقذ بنا الجيل ويصلح بنا النشء، فإن تحقق الهدف كان هذا هو المطلوب، وإن حان أجل قبل بلوغه كانت النية أبلغ من الأمل، وكما قيل:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالبُ

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية، وأزكى البشرية، فقد أمركم الله بذلك فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[الأحزاب: ٥٦].



المستقبل لهذا الدين (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله المتفرد بكمال الذات والصفات، أحاط علمه بجميع الكائنات، أحمدُه سبحانه وأشكرُه على ما أولاه من النعم والخيرات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُبليغ بفضلِه ومنه عليّ الدرجات، وأشهد أن سيّدنا ونبينا محمداً عبدُ الله ورسولُه ذو الفضلِ والشرفِ والمكرّمات، صلّى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الكرام السادات، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ ما دامت الأرضُ والسموات، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد:

فاتقوا الله عباد الله، اجعلوا تقواه شعارًا لكم ودينًا، واستشعروا مراقبته سرًا وجهارًا، يفتح الله لكم بها من الخير أبوابًا وسدودًا، ويحلُّ بها من الضيق أوثقًا وقيودًا، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وبعد:

أمّة الإسلام، أمّة الهادي محمد بن عبد الله، أمّة الصحابة الفاتحين والسلف البانين، أمّة العلم والحضارة والسلم والإغارة، تمرُّ أمّتكم اليوم بعصرٍ ليس هو أحلك عصورها، وسنينٍ ليست هي أتعس سنينها، لقد رأت هذه الأمّة في تاريخها الطويل من مواقف النصر والهزيمة

والنَّحْسُ والسُّعْدُ ما تراه كُلُّ أُمَّةٍ، ولكنَّ الخاتمةَ الثابتةَ في كُلِّ حَسْنٍ العاقبةُ وخيرُ المآلِ. وأعيدوا النظرَ في التاريخِ تجِدوه ناطقًا بهذا بأبلغِ لسانٍ وأوضحِ بيانٍ.

ألم يرمنا الشُّرْقُ بدواهيهِ، فساقَ إلينا جيوشَ التَّترِ كالسَّيلِ الأُطمِ، يحطُّ على بلدانِ الإسلامِ العامرةِ، كما يحطُّ الجرادُ على الحقولِ الزَّاهرةِ، حتَّى أبادت هذه الجيوشُ الممالكَ، وبلغَ هولاءُكو عرشَ الخليفةِ ببغدادِ، فذبحَ الخليفةُ، وهَدَّ العرشَ، وقوَّضَ الدَّولةَ، فإذا ببغدادُ العظيمةَ حاضرةَ الدُّنيا وعاصمةَ الإسلامِ دمارًا بعدَ عمارِ، وخرابًا وأطلالِ، ثمَّ ساحوا في الأرضِ لا يردُّهم شيءٌ، حتَّى حَسِبَ الضَّعفاءُ أنَّها نهايةُ الإسلامِ، فَنُعِيَ الإسلامَ على المنابرِ، ورُثِيَ المسلمونَ في الدَّفاتِرِ، حتَّى قال مؤرِّخُ الإسلامِ ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللهُ: (لقد بقيتُ عدَّةَ سنينَ معرِّضًا عن ذكرِ هذه الحادثةِ استعظامًا لها، كارهاً لذكرها، فَمَنْ الذي يسهِّلُ عليه أن يكتبَ نعيَ الإسلامِ والمسلمينَ؟! ومن الذي يهونُ عليه ذكرُ ذلك؟! فيا ليتَ أُمِّي لم تلِدني، يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتَ نسيًّا منسياً. هي الحادثةُ العظُمى والمصيبةُ الكبرى التي عمَّمتَ الليالي والأيامَ عن مثلها، عمَّمتَ الخلائقَ وخَصَّتَ المسلمينَ، فلو قال قائلٌ: إنَّ العالمَ منذَ خلقَ اللهُ تعالى آدمَ إلى الآنِ لم يُبتلوا بمثلها لكانَ صادقًا، فإنَّ التواريخَ لم تتضمَّنَ ما يقارِبها، ولا ما يدانيها) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ولكنَّ الذي لم يدركه ابنُ الأثيرِ ولم يُلحِقْه بمقولتهِ تلكَ أنَّ الإسلامَ طوى التَّترَ تحتَ جناحِهِ، وظلَّ لهم برايتهِ، وانطَوَّوا تحتَ لوائِهِ، فانطلقوا فاتحينَ لبلادِ الهندِ، فألحقوها بديارِ الإسلامِ وأهلها بالمسلمينَ، وصارَ منهم الملوِكُ العادلونَ والقادةُ الفاتحونَ، وغدوا عمقَ أُمَّتِنَا في المشرقِ، ونُسِبتِ المصيبةُ حتَّى لا يدري أكثرُ النَّاسِ اليومَ ما خبرُ التَّترِ.

ألم يقذفِ إلينا البحرُ المتوسِّطَ سفائنَ النصرارى تحمِلُ السيفَ والصَّليبَ، فبسطوا نفوذَهم على بلادِ الإسلامِ، وأقاموا على كُلِّ جبلٍ قلعةً، وفي كُلِّ وادٍ حاميةً، فما هي إلا سنواتٌ حتَّى ساقتهم الجيوشُ المسلمةُ إلى أسوارِ فينَّا عاصمةِ النَّمسا.

ألم يأتِ الغزاةُ في العصورِ المتأخِّرةِ إلى بلادِ المسلمين بزعمهم مستعمرينَ، ولم تبقَ أرضٌ لم تطأها أقدامُهم إلا وسطَ جزيرةِ العربِ، واستحكمتَ غربةُ الدِّينِ، وغابت أو ضُعفت علومُ

المسلمين، ثم حال بهم الحال إلى أن كانوا كسحابٍ استدبرته الرياح، فعادَ في السماء مِرْعَا، وقامت على أطلالهم صحوةٌ دينية، وأعقبت جلاءهم تحطُّبنا في مراقي المدينة.

فكم لهذه الأمة من وثباتٍ بعد كبواتٍ وإغاراتٍ بعد غفواتٍ، كيف لا؟! وهي الأمة المرحومة المنصورة التي لا يدري خيرها في أولها أو في آخرها، كما نطق بذلك المعصوم. فهي أمة تمرض ولا تموت، وتُجرح ولا تُدبح.

أيها المسلمون: إن أعظم ما يُمكن أن يواجهه المسلم في وقتِ الأزمات والفِتْن خلخلةٌ قناعته بهذا الدين وضعفُ ثقته بربِّ العالمين، فهذه ورِي الطعنة النَّجلاء، والتي يهون دونهما سلبُ الديار وفوات الأعمار.

إن من سنن الله تعالى في خلقه بقاء الصِّراع بين الحقِّ والباطل؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليصطفي بالتمحيص أهل الإيمان، وليرفع بالابتلاءات درجاتهم، وما يجري للأمة من أحداثٍ ضخام تطوي على أمورٍ قد تكرهها النفوس وأحداثٍ تضيق بها القلوب سيكون مآلها الأخير بإذن الله النصرُ والعزةُ للمسلمين، والتمكينُ لعباد الله المؤمنين، وانقشاع أسباب الذلَّة والهوان، فهذه الأمة ليست كغيرها، فهي الأمة الموعودة بالنصر والعاقبة، وهي الأمة المحفوظة من الهلاك العام، وهي أمة الاستعلاء رغم الجراح، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، قالها الله تعالى لجيش الإسلام وقد خرج للتو من معركة أحد، وقد خلف سبعين شهيداً من خيرة رجاله مجندلين على سفح أحد، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ قالها الله سبحانه لأمة الإسلام وجراحها تثعب ونيبها مشجوج الجبين مكسور الرباعية، وذلك لأن الله تعالى كتب العزة والعلو والرفعة لهذه الأمة في كلِّ أحوالها، في انتصارها وانكسارها، في قتلها وكثرتها، ما دامت مؤمنة، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

أيها المسلمون: إن ممَّا يجب اعتقاده وتذكير النفس به خصوصاً في أوقات الشدائد والمحن أنه لا يقع في هذا الكون حادثٌ صغير ولا كبير إلا بعلمٍ وتقديرٍ وتدبيرٍ اللطيف الخبير، وأنه لا يخرج عن قدر الله وقدرته شيء في السموات ولا في الأرض، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرِمْتُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

الأسباب والتتائج من صنعه وتقديره، والوسائل والغايات من خلقه وتديره. إذا علمنا ذلك كان لزاماً علينا الفرارُ إلى الله والاعتصام بحبله وطلب النجاة والنصر من عنده، فهو سبحانه الذي يعطي ويمنع ويخفف ويرفع، وقد جعل في خلقه نواميسَ وسُنناً، ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ومن سننه سبحانه أن يبتلي عباده ويمحصهم، ثم يجعل العاقبة لهم، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿الْعَمَّ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ ٢﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وما يقع على الأمة من بلايا ومحن ومصائب وفتن لهي حلقة في سلسلة التمحيص، وطريق إلى التمكين، فلا يجوز أن تكون هذه الأحداث سبيلاً إلى اليأس والإحباط، وإن تداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، بل إنه بقدر ما فيها من شدة وضيق فإن في طياتها خيراً كثيراً، وفي ثناياها الله حكمةً وتديراً، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ولقد كان من هدي النبي في الشدائد التبشير والتشجيع وضرب المثل بالسباقين إشارة إلى سنة الله تعالى في خلقه، يقول خباب بن الارت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شكونا إلى رسول الله وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو لنا؟! فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله، ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يأتي الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

(١) رواه البخاري (٦٩٤٣).



والنبيّ بيّن لنا بذلك أن المستقبل لهذا الدين، وأنّ العاقبة للإسلام والمسلمين، ولا يجوز إطلاقاً أن نشكّ في ذلك، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، عن تميم الداريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مدبرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزٍّ عزيزٍ أو بذلٍّ ذليل، عزًّا يعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يذلُّ الله به الكفر»^(١).

أمّة الإسلام، إنَّ يقيننا بالتصّر وثقتنا بوعده الله تعالى وظهور البشائر بذلك لا يعني القعود والاتكال، كما لا يعني غضّ الطرف عن الخطأ والخلل والنقص والتقصير الذي لا زال موجوداً في الأمّة، بل الواجب مع إذكاء جانبِ الثقة بوعده الله العودَةُ الصّادقة إلى الله سبحانه، فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِع إلا بتوبة، والله تعالى لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. إذاً فالتغيير يأتي من الدّاخل ومن إصلاح الذات، وسنةُ الله لا تتخلف.

إنَّ أمّة نزل البلاء في نواحيها واستهدفها العدوُّ في دينها وأراضيها يجب أن تكونَ أبعدَ الناس عن اللهو والترفّ والركون إلى الدنيا وزينتها، وأن تصرف جهودها وطاقاتها للتقرّب إلى خالقها وباريها، وأن تخلّص له الدّين، وتوحّد لله ربّ العالمين، وأن تقلعَ عن المعاصي والشهوات، وتهجرَ الذنوبَ والمنكرات، فهي التي أبحرت بفتام من الأمّة إلى بحارٍ من الظلمات، كما يجب على كلّ مسلمٍ أن يتذكّر دائماً أنّه لا طريق لسعادة الدنيا والآخرة ولا سبيل إلى الفوز والفلاح والأمن والنّجاح إلا بالتمسك بصراط الله المستقيم، وتحكيم أمر الله ونهيه، وتقديم حكمه وشرعه في كلّ التصرفات والتصوّرات في النّفس وفي الجماعة، وأنّ العبد لا يكون مؤمناً حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به النبي، وهذا يقتضي عودةً صادقة إلى منهل الوحي الصّافي، وتمسكاً حقيقياً بالكتاب والسنة، وأتباعاً لهدي النبيّ في كلّ الأمور، بعيداً عمّا تملّيه أذهانُ البشر، أو معارضةً الوحي بالاستحسان والنظر.

(١) رواه الحاكم (٦١٥/٥) وغيره، وصححه الألباني في تحذير الساجد (١٥٨).

إِنَّ الْإِسْلَامَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ دِينٌ حَيٌّ يَبْعَثُ الْحَيَاةَ فَيَمُنُّ بِالْأَخْذِ بِهِ، فَإِذَا أَتَى جَيْلٌ مَعْرُضٌ أَوْ مُعْرَضٌ أَحْتَفِظُ الدِّينَ بِحَيَوِيَّتِهِ حَتَّى يَسْلَمَهَا إِلَى جَيْلٍ مَا زَالَ فِي سُدْفِ الْغَيْبِ وَرَجَمَ الْمُسْتَقْبَلَ، لِيَأْخُذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا وإياكم بما فيه من الآيات والذِّكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب وخطيئة، فاستغفروا وتوبوا إليه، إنَّه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ومنَّ علينا ببعثة خير الأنام، أحمدته تعالى على نعمه العظام، وأشكره على آلائه الجسام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله القدوة الإمام، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة.

أيها المسلمون: لقد أظهرت الأيام الخوالي إفلاس الحضارة الجوفاء من الدين، أظهرت إفلاسها من القيم والأخلاق، ومخالفتها للعهود والمواثيق، وخواءها من الرحمة والعدل؛ لأنّها ببساطة لم تُضبط بميزان الشرع، ولم تستمدّ تعاليمها من نور الوحي. وهذه حقيقة أعلنها علماء الإسلام منذ بداية النهضة الحديثة، وها هي تجلّت أكثر من ذي قبل في التعامل مع قضايا المسلمين من قبل ومن بعد. وهي فرصة ليتنبّه المسلمون لواقعهم، ويعرفوا حقيقة عدوّهم، ويزدادوا ثقةً بإسلامهم وصدق وعدالة ما نحن عليه من دينٍ وأحقّية وخيرية ما نطالبُ به من قضايا، ولنتّجه جميعًا إلى ربّنا لنستمدّ منه النصر، ونطلب منه أسباب الحياة، لا من غيره.

أيها المسلمون: ومّا يجدر التذكيرُ به وإعادةُ التأكيد عليه خصوصًا في الأزمان والفتن الالتزام بالمنهج الشرعيّ عند وقوع الفتن من الصبر والمصابرة، ولزوم جماعة المسلمين، ونبذ الفرقة والخلاف، والبعد عن الاستعجال في المواقف، والمحافظة على أمن بلاد المسلمين ووحدها، وأن لا يكون المسلم معول هدم لإيقاع الفتنة في بلاد المسلمين من حيث يشعر أو لا يشعر، فإنّ مصلحة العدو المتربّص أن يرى الفتن في بلاد المسلمين قائمة، وأن يشتغل بعضهم ببعض، ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

كما يجب حفظُ اللسان عن الوقوع في أعراضِ المسلمين أو الاستهانة بالحكم على الآخرين، «وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم؟!»^(١). وحين تُنشر الصِّحف ستعرفُ ما نطقَ به فاك وما كتبه يداك.

عباد الله: الزموا التضرع إلى الله وسؤاله ودعائه ورجاءه، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

واعلموا أن هذه الأمة تمرض، لكنها لا تموت، وتخبو لكنها لا تنطفئ، ولقد جاء التتار في حقبة من حقب التاريخ كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، حتى ظن البعض أن أمة الإسلام قد قُضي عليها، أو أن القيامة قد قامت.. وما هي إلا مدة يسيرة حتى ابتلعهم الإسلام، فأسلم كثير منهم، ومن بقي منهم هُزموا شر هزيمة وولوا عن ديار الإسلام مدبرين، وانتهت أسطورة: إن التتار قوة لا تُغلب، وهكذا كل قوة ذاهبة إلا قوة الله، ﴿وَاللَّهُ مَتِّمٌ ثَوْرِهِمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، فلا تياسوا ولا تقنطوا، ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين..

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية..



(١) صحيح الترمذي (٢٦١٦).

• قيمة الوقت بين الواقع والمأمول (١)

• الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله طاعته أفضل مُكْتَسَب، وتقواه أعلى نَسَب، أحمدُه سبحانه وأشكرُه، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما سَلَب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو بها النجاة، يوم الشدائد والكرب.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، النبيُّ المُتَّجِب، والرسولُ المُتَّخَب، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارك عليه، وعلى أصحابه حازوا أعلى المقامات وعالي الرُتَب، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً مزيداً، ما أضاع شهاب ونجم غرب.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، ألا تطمعون في اللحاق بالصالحين؟! ألا تتسابقون في الخيرات مع المُتسابقين؟! كم بين الساعي والقاعد والراغب والزاهد؟! السابقون السابقون شغلهم حبُّ مولاهم عن ملذات دنياهم، والمتنافسون المتنافسون دموعهم على وجناتهم تتدفق، يشتاقون إلى الحبيب، والحبيب إليهم أشوق، ما أبهى منظرهم في ظلمات الدُّجى ونورهم قد أشرق، تعرفهم بسياهم وللصدق نورق.

أيها الناس: لقد عني القرآن والسنة بالوقت من نواحٍ شتى وبصور عديدة، فقد أقسم الله به في مطالع سور عديدة بأجزاء منه مثل الليل، والنهار، والفجر، والضحى، والعصر.

كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ﴾ [الليل: ١-٢]، ﴿وَالْفَجْرِ ۝ ١ ۖ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾ [الفجر: ١-٢]، ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ ١ ۖ وَاللَّيْلِ ۝﴾ [الضحى: ١-٢]، ﴿وَالْعَصْرِ ۝ ١ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٍ خَسِيرٍ ۝﴾



[العصر: ١-٢]. ومعروف أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه دل ذلك على أهميته وعظمته، وليلفت الأنظار إليه وينبه على جليل منفعته.

وجاءت السنة لتؤكد على أهمية الوقت وقيمة الزمن، وتقرر أن الإنسان مسئول عنه يوم القيامة، فعن معاذ بن جبل أن رسول الله قال: «لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمَلَ فِيهِ»^(١). وأخبر النبي أن الوقت نعمة من نعم الله على خلقه ولا بد للعبد من شكر النعمة وإلا سلبت وذهبت. وشكر نعمة الوقت يكون باستعمالها في الطاعات، واستثمارها في الباقيات الصالحات، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(٢) ومعنى قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] أي الذي يُوقَفُ لذلك قليلٌ فقد يكون الإنسان صحيحًا، ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا، ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا - الصحة والفرغ - فغلب على الإنسان الكسل عن الطاعة فهو المغبون، والغبن أن تشتري بأضعاف الثمن، وأن تباع بأقل من ثمن المثل.

فآيات والأحاديث تشير إلى أهمية الوقت في حياة المسلم؛ لذلك فلا بد من الحفاظ عليه وعدم تضييعه في أعمال قد تجلب لنا الشر وتبعدنا عن طريق الخير، فالوقت يمضي ولا يعود مرة أخرى.

إن الإنسان إذا عرف قيمة شيء ما وأهميته حرص عليه وعزَّ عليه ضياعه وفواته، وهذا شيء بديهي، فالمسلم إذا أدرك قيمة وقته وأهميته، كان أكثر حرصًا على حفظه واغتنامه فيما يقربه من ربه، وها هو الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يبين هذه الحقيقة بقوله: (وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمرّ السحاب، فمن كان وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس

(١) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤١٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤١٢).



قيمة الوقت بين الواقع والمأمول

محبوبًا من حياته... فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأمانى الباطلة وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير من حياته).

ويقول ابن الجوزي: (ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل).

إن الوقت أغلى من المال لأن الإنسان حينما يحرق مبلغًا كبيرًا من المال يُحكّم عليه بالسّفه، ويُجبر على تصرفاته، ولأنه مركبٌ في أعماق الإنسان أن الوقت أثمن من المال، بدليل أنه يبيع بيته الذي يسكنه ولا يملك شيئًا سواه ليُجري بثمنه عمليةً جراحيةً، متوهّمًا أنّها تزيد في حياته سنواتٍ عدةً، فالوقت عند كلِّ إنسانٍ أثمن من المال، وبناءً على هذه المسلّمة فإنّ الذي يتلف وقته أشدُّ سَفهًا من الذي يتلف ماله.

قال الحسن البصري: (يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا ذهب يوم ذهب بعضك). وقال: (يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بدمك، وكذلك ليلتك). وقال: (الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلك لا تدركه، وأما اليوم فلك فاعمل فيه).

لذلك كانوا لا يندمون إلا على فوات الوقت الذي لم يرفعهم درجة، قال ابن مسعود: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي». وقال ابن القيم: (إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها).

وقال السري بن المفلس: (إن اغتممت بما ينقص من مالك، فابك على ما ينقص من عمرك).

أحبتني في الله: هذه قيمة الوقت وأهميته فعلينا أن نستغل الأوقات وأن نجعل حياتنا كلها لله، فلا نضيع من أوقاتنا ما نتحسر عليه يوم القيامة، فالوقت سريع الانقضاء فهو يمر مر السحاب.



أيها المسلمون: لقد حرص السلف الصالح علي وقتهم بما يعجز عنه الوصف والتعبير، وصفهم الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ بقوله: أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم.

ونقل عن عامر بن قيس من التابعين: (أن رجلاً قال له: تعال أكلمك، قال: أمسك الشمس)، يعني أوقفها لي واحبسها عن المسير لأكلمك، فإن الزمن سريع المضي لا يعود بعد مروره، فخسارته لا يمكن تعويضها واستدراكها.

قيل لسفيان الثوري: اجلس معنا نتحدث. قال: (كيف نتحدث والنهارُ يعملُ عمله، ما طلعت الشمس إلا كانت شاهدةً على العبادِ فيما فعلوا؟!).

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: (إني لا يجلي لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حالة راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره)^(١).

فانظر كيف يستغل وقت طعامه وراحته في إعمال فكره فيسطره بعد قضاء حوائجه الشخصية!!!

ويقول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما» وقال بعضهم: (من أمضى يومًا من عمره في غير حقِّ قضاءه، أو فرض أداه، أو مجيد أصله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عرق يومه وظلم نفسه).

فكم نضيع من أوقاتنا بلا فائدة في ديننا أو ديانا، ومن أقوال الفاروق رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ: إني لأكره أن أرى أحدكم سهلاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة. وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (صحبتُ الصوفية فما انتفعتُ منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون: الوقتُ سيفٌ، فإن قطعتَه وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتك بالباطل).

حتى إن ساعات الأكل لقوام حياتهم ومعاشهم كانت ثقيلة عليهم، فقد سألوا الخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ اللهُ: ما هي أنقل الساعات عليك؟ قال: (ساعة أكل فيها). وَكَانَ دَاوُدُ

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٤٥).



الطَّائِي يُشْرَبُ الْفَتِيَّتَ وَلَا يَأْكُلُ الْخُبْزَ، فِقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: (بَيْنَ مَضْغِ الْخُبْزِ وَشُرْبِ الْفَتِيَّتِ قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً)^(١).

يا الله!! كم نضيع من الساعات في اللهو واللغو وما لا يرضي الله؟! إذا كانوا حريصين على الوقت في طعامهم وشرابهم ويعتبرونه مضيعةً فكيف بنا؟! يا الله! لطفك بنا يا رحمن. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها)^(٢).

وهناك قصة طريفة للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ مع النجَّار وباب المكتبة، تبين مدى حرصهم على الوقت، فقد نادى النجَّار-نجَّارًا من النجَّارين ناداه مرة- قال له: (أريد أن تقلب باب المكتبة، بدل من أن يفتح على الجهة اليمين تجعله يفتح على الجهة الشمال. نظر إليه النجار - يعني ما السر؟ قال يا شيخ يعني يمين أو شمال ما المشكلة؟ قال- يعني الشيخ الألباني:- تستطيع؟ قال- النجار- طبعاً أستطيع لكن قل لي ما السبب؟ قال- الشيخ الألباني- أنا وضعت مكتبي هنا فإذا كان الباب يفتح هكذا سأضطر أن أمشي خمس خطوات زائدة كي أصل إلى المكتب، فأنا أخرج من المكتب خمس صلوات في اليوم واللييلة؛ وقد أخرج مشواراً لأغراض البيت أو لمحاضرة أو كذا فهذه سبع مرات كل مرة بين ذهاب وإياب، هاذي حوالي ربع ساعة أو ثلث ساعة ضاعت مني، في الأسبوع كم سيضيع؟! في الشهر كم سيضيع؟! لكن إذا فعلنا هكذا تكون رجل في الباب ورجل على المكتب فلا أضيع وقتي).

وَالْوَقْتُ أَنْفُسُ مَا عُنِيَتْ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسهَلَ مَا عَلَيَّ يَضِيعُ

يقول عبد الرحمن ابن الإمام أبي حاتم الرازي: (ربما كان أبي يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه) فكانت ثمرة هذا المجهود وهذا الحرص على استغلال الوقت كتاب الجرح والتعديل في تسعة مجلدات وكتاب التفسير في مجلدات عدة وكتاب السند في ألف جزء.

(١) المجالسة وجواهر العلم (١/ ٣٤٦).

(٢) الفوائد (ص ٤٤).



لهذا فتح الله لهم قلوبًا غلغا وأعينًا عميًا وآذانًا صمًا!!! فإذا كنت تريد اللحاق بهم فاعمل عملهم؛ فالله يسر لك سبل العلم والتقنيات الحديثة ما لم يصل إليه أحدهم، ومع كل ذلك أقول: لا يصل إليهم أحدكم!!! أليس كذلك؟!!!

لقد ضرب لنا السلف الصالح أروع الأمثلة في اغتنام الأوقات حتى آخر رمق في حياتهم، سواءً كان العمل دنيويًا أم أخرويًا، فمن العمل الدنيوي ما أخرجه الطبراني في الجامع الكبير: عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: «ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدا فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها، فقال عمارة: فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرستها بيده مع أبي».

ومن العمل الأخروي ما روى عن الجنيد ابن محمد أن الوفاة حضرته، فأخذ يقرأ القرآن في سكرات الموت ويبكي، فقالوا له تقرأ القرآن وأنت في سكرات الموت! قال: (سبحان الله، من أحوج مني بقراءة القرآن وقد أصبحت لحظات تعدُّ علي).

لذلك قال سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إني لأمقت الرجل أن أراه فارغا ليس في شي من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة».

ولذلك شكى وبكى الصالحون والطلحون ضيقَ العمر، وبكى الأخيارُ والفجارُ انصرام الأوقات، فأما الأخيارُ فبكوا وندموا على أنهم ما تزودوا أكثر، وأما الفجارُ فتأسفوا على ما فعلوا في الأيام الخالية.

قال أهل السير: (حضرت الوفاة نوحا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقيل له يا نوح كيف وجدت الحياة؟ قال والذي نفسي بيده ما وجدت الحياة إلا كبيتٍ له بابان دخلتُ من هذا وخرجتُ من الآخر. فإبن الستينَ والسبعين أنت ما عشت ألف سنة، فكيف تصفُ الستينَ والسبعينَ في معاصي الله، وفي انتهاكِ حدودِ الله، وفي التجرؤ على حُرْمَاتِ الله؟!).

عباد الله: إن تقارب الوقت والزمن وسرعة مروره دون فائدة علامة على قرب الساعة، فقد أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ



الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرْمَةِ بِالنَّارِ»^(١) وفي رواية «وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاخْتِرَاقِ السَّعْفَةِ الْخُوصَةِ»^(٢) أي ورق الجريد اليابس، وعن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ وَتَظْهَرُ الْفِتْنُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ. قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ الْقَتْلُ»^(٣) فهذه العلامة من علامات الساعة من أوضح العلامات وأظهرها اليوم؛ إذ أننا نشهد وقوعها اليوم ونراها واضحة جلية، فالوقت يمر على الناس بصورة سريعة تدعو للدهشة والتأمل، فلا بركة في الوقت؛ حتى يخيّل إلى الواحد أن السنة كالشهر والشهر كالأسبوع والأسبوع كاليوم؛ ولا أصدق من وصف النبي ﷺ. قال ابن حجر: (قد وجد ذلك في زماننا هذا، فإننا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا).

قلت: كيف لو رأى زماننا اليوم! فنحن اليوم نشهد بوضوح هذه المعاني لتقارب الزمان فلا يوجد بركة في الوقت وأصبح الناس يتحدثون عن السنوات وكأنها أشهر ناهيك عن الأيام والأسابيع!
نسأل الله التوفيق لمرضاته..

(١) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٣٢).

(٢) حسنه الوادعي في الصحيح المسند (١٤٦٠).

(٣) رواه البخاري (٧٠٦١) ومسلم (١٥٧).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:
أحبتني في الله: تعالوا بنا إلى تطبيق واقعنا المأمول، وكيف نستثمر وقتنا كما فعل سلفنا الصالح، وذلك من خلال الأسباب التي تعين على حفظ الوقت وتتلخص فيما يلي:
أولاً: محاسبة النفس: وهي من أعظم الوسائل التي تعين المسلم على اغتنام وقته في طاعة الله. وهي دأب الصالحين وطريق المتقين، فحاسب نفسك أخي المسلم واسألها ماذا عملت في يومها الذي انقضى؟ وأين أنفقت وقتك؟ وفي أي شيء أمضيت ساعات يومك؟ هل ازدادت فيه من الحسنات أم ازدادت فيه من السيئات؟!!

ثانياً: تربية النفس على علو المهمة: فمن ربى نفسه على معالي الأمور والتباعد عن سفسافها، كان أحرص على اغتنام وقته، ومن علت همته لم يقنع بالدون، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

ثالثاً: صحبة الأشخاص المحافظين على أوقاتهم: فإن صحبة هؤلاء ومخالطتهم، والحرص على القرب منهم والتأسي بهم، تعين على اغتنام الوقت، وتقوي النفس على استغلال ساعات العمر في طاعة الله، ورحم الله من قال:

إذا كنتَ في قومٍ فصاحِبِ خيارَهُم ولا تصحِبِ الأَرْدَى فتردى مع الرّدي
عن المرءِ لا تسَلْ وسلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي

كما يجب الابتعاد عن صحبة مضيعة الأوقات فإن مصاحبة الكسالى ومخالطة مضيعة الأوقات، مهدرة لطاقات الإنسان، مضيعة لأوقاته، والمرء يقاس بجليسه وقرينه، ولهذا يقول عبد الله بن مسعود: «اعتبروا الرجل بمن يصاحب، فإنما يصاحب الرجل من هو مثله».

رابعاً: معرفة حال السلف مع الوقت: فإن معرفة أحوالهم وقراءة سيرهم لأكبر عون للمسلم على حسن استغلال وقته، فهم خير من أدرك قيمة الوقت وأهمية العمر، وهم أروع



قيمة الوقت بين الواقع والمأمول

الأمثلة في اغتنام دقائق العمر واستغلال أنفاسه في طاعة الله، وقد سبقت صور مشرقة لذلك.

خامساً: تنويع ما يُستغل به الوقت: فإن النفس بطبيعتها سريعة الملل، وتنفر من الشيء المكرر، وتنويع الأعمال يساعد النفس على استغلال أكبر قدر ممكن من الوقت.

سادساً: إدراك أن ما مضى من الوقت لا يعود ولا يُعوّض: فكل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر، ليس في الإمكان استعادتها، وبالتالي لا يمكن تعويضها. وهذا معنى ما قاله الحسن: (ما من يوم يمرُّ على ابن آدم إلا وهو يقول: يا ابن آدم، أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدّم ما شئت تجده بين يديك، وأخر ما شئت فلن يعود إليك أبداً).

سابعاً: تذكُّر الموت وساعة الاحتضار: فحين يستدبر الإنسان الدنيا، ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو مُنح مهلة من الزمن، ليصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات، ولكن هيهات هيهات، فقد انتهى زمن العمل وحان زمن الحساب والجزاء. فتذكُّر الإنسان لهذا يجعله حريصاً على اغتنام وقته في مرضاة الله تعالى.

ثامناً: تذكُّر السؤال عن الوقت يوم القيامة: فحين يقف الإنسان أمام ربه في ذلك اليوم العصيب فيسأله عن وقته وعمره، كيف قضاها؟ وأين أنفقها؟ وفيم استغله؟ وبأي شيء ملأه؟ فتذكُّر هذا يعين المسلم على حفظ وقته، واغتنامه في مرضاة الله.

تاسعاً: الحرص على الاستفادة من الوقت: فإذا كان الإنسان شديد الحرص على المال، شديد المحافظة عليه والاستفادة منه، وهو يعلم أن المال يأتي ويروح، فلا بد أن يكون حرصه على وقته والاستفادة منه كله فيما ينفعه في دينه ودنياه، وما يعود عليه بالخير والسعادة أكبر، خاصة إذا علم أن ما يذهب منه لا يعود. ولقد كان السلف الصالح أحرص على ألا يمر يوم أو أوقاتهم؛ لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها، وكانوا يحرصون كل الحرص على ألا يمر يوم أو بعض يوم أو برهة من الزمان وإن قصرت دون أن يتزودوا منها بعلم نافع أو عمل صالح أو مجاهدة للنفس أو إسداء نفع إلى الغير، يقول الحسن: (أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم).



عاشراً: تنظيم الوقت: بين الواجبات والأعمال المختلفة دينية كانت أو دنيوية بحيث لا يطغى بعضها على بعض، ولا يطغى غير المهم على المهم. يقول أحد الصالحين: (أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية: فمن كان وقته الطاعة فسيبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووقفه للقيام بها، ومن كان وقته النعمة فسيبيله الشكر، ومن كان وقته المعصية فسيبيله التوبة والاستغفار، ومن كان وقته البلية فسيبيله الرضا والصبر).

السبب الحادي عشر لحفظ الوقت: اغتنام وقت فراغه: الفراغ نعمة يغفل عنها كثير من الناس فنراهم لا يؤدون شكرها، ولا يقدرونها حق قدرها، يقول أحد الصالحين: (فراغ الوقت من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر العبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجرَّ في قياد الشهوات، شوّش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء قلبه). فلا بد للعاقل أن يشغل وقت فراغه بالخير وإلا انقلبت نعمة الفراغ نقمة على صاحبها، ولهذا قيل: (الفراغ للرجال غفلة، وللنساء غُلْمَة) أي محرك للشهوة.

أحبتني في الله: هيا إلى اغتنام الأوقات والعودة إلى رب الأرض والسموات، وإياكم والتسوية فإن التسوية آفة تدمر الوقت وتقتل العمر، قال الحسن: (إياك والتسوية، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غداً لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم). وللأسف فقد أصبح ضياع الوقت والكسل والتأجيل شعاراً لكثير من المسلمين وطابعاً لهم، فإياك أخي المسلم من التسوية فإنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد، وإن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوقات من مرض طارئ أو شغل عارض أو بلاء نازل، واعلم أن لكل يوم عملاً، ولكل وقت واجباته، فليس هناك وقت فراغ في حياة المسلم، كما أن التسوية في فعل الطاعات يجعل النفس تعتاد تركها، يقول عبد الله بن عمر: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك».



قيمة الوقت بين الواقع والمأمول

تزوّد من التقوى فإنك لا تدري
إذا جنّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجرِ
فكم من سليمٍ مات من غيرِ علّةٍ
وكم من فتىٍ يمسي ويصبحُ آمنًا
وكم من سقيمٍ عاش حينًا من الدهرِ
وقد نسجتُ أكفانهُ وهو لا يدري

فبادر أخي المسلم باغتنام أوقات عمرك في طاعة الله، واحذر من التسويف والكسل،
فكم في المقابر من قتيل سوف. والتسويف سيف يقطع المرء عن استغلال أنفاسه في طاعة
ربه، فاحذر أن تكون من قتلاه وضحاياه.



القدوة الصالحة والأسوة الحسنة (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله ليس لفضله مُنتهى، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿طه: ٥-٨﴾، أحمدُه سبحانه وأشكرُه، نعمُه لا تُحصَى، وجودُه لا يُستقصى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيّدنا ونبيّنا محمّدًا عبدَ الله ورسولُه المبعوثُ بالرحمة والهدى، صلّى الله وسلّم وبارك عليه، سلّم عليه الشجر، وسبّح بين يديه الحصى، وعلى آله السادة الطيبين النُجباء، وأصحابه الغرّ الميامين الأصفياء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسارَ على نهجهم فاهتدى.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيها الناس: القدوة الحسنة أو القدوة الصالحة، أو المثل الأعلى في دنيا الناس..

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد فطر الله الناس على أن يتشبه بعضهم ببعض، قال ابن تيمية: (كم من الناس من لم يُرد خيرًا ولا شرًا حتى رأى غيره - لا سيما نظيره - يفعلُه ففعله؛ فإن الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض؛ ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه).

ومن هنا كانت حاجة الناس ماسةً إلى القدوة، فاختار الله برحمته لهم أفضل الخلق ليكون لهم أسوة.

إن منهج الإسلام يحتاج إلى بشر يحمله ويتبرجه بسلوكه وتصرفاته، فيحوّله إلى واقع محسوس وعمل ملموس، ولذلك فالمسلم لا يتخطب في اختيار قدواته كما يتخطب غيره، لأن الله قد اختار له أفضل قدوة على الإطلاق، خير البشر وأكملهم خلقاً وأرجحهم عقلاً وأصدقهم حالاً ومقالاً، أرحم الخلق بالخلق وأتبعهم للحق، بعد أن وضع في شخصيته الصورة الكاملة للمنهج - ليرجم هذا المنهج ويكون خير قدوة وأفضل أسوة لكل الأمة. فمن كان يرجو لقاء ربه والفلاح في الدنيا والآخرة فلا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ ليعبر مجرى التاريخ، ويبيض وجه الأرض، وينظم شؤون الحياة، بالوحي الذي جاء به من عند الله، فتجمعت في شخصه الكريم كل الصفات الحميدة، والأخلاق الحسنة التي تفرقت في البشر السوي...!! كان ﷺ مع ربه العبد الطائع، وكان مع الناس الفقير الجائع، وكان مع زوجاته المحب الودود، وكان مع جيرانه الكريم الجواد وهذه إنما تتوفر في القائد القدوة.

إن رحمة الله نالت رسول الله ﷺ ونالت كذلك صحابته الكرام فجعلته رحيماً بهم، لينا معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم... ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

لقد كان أباً روحياً ورب أسرة يقوم على شؤونها لا المادية فقط وإنما النفسية والاجتماعية، والأخلاقية والسلوكية. «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» صحيح.

كما كان رجلاً عابداً لله عَزَّوَجَلَّ وكأنه ما خلق إلا للعبادة وحدها فيقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيُسأل في ذلك فيقول «أفلا أكون عبداً شكوراً» ومن هنا يجب أن يكون هو القدوة لكل من أراد أن يقتدي ويقود، لمن أراد أن يهتدي ويسود، لمن أراد أن يصلح ويصلح.

إن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الإنسان الفذ الذي يستطيع بمنهاجه أن يقود العالم، ويستطيع بسيرته أن يحشد خلفه الشعوب، والقاسم المشترك بينه وبين الناس هو العقل الصافي والقلب السليم، واشتراك الأرض مع السماء في التسبيح بحمد الخالق والثناء عليه بما هو أهله، وإعلان السمع والطاعة له وحده.

كان عليه الصلاة والسلام فصيحاً بليغاً في قوله، صادقاً سويّاً في فعله. قال عنه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لطف العرب وسمعت إلى فصاحتهم فلم أجد أفصح من رسول الله لساناً». وقالت عنه السيدة عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان خلقه القرآن، أو كان قرآناً يمشي على الأرض». وقالت له السيدة خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق» متفق عليه.

وقال عنه القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] فهو النور، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وكان وصف الرسول عليه الصلاة والسلام في التوراة «أنت عبدي ورسولي. سميتك المتوكل. ليس بفظاً ولا غليظاً. ولا صخاباً في الأسواق. ولا يدفع السيئة بالسيئة. ولكن يعفو ويصفح. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عمياً واذاناً صماً وقلوباً غلفاً»، أخرجه الإمام البخاري في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥].

إن محمد ﷺ هو القدوة الصالحة التي أصلحت الكون كله سياسياً واجتماعياً وصحياً واقتصادياً ونفسياً، وفي كل شؤون الحياة، فانتشر الأمن والأمان، وعم العدل الإحسان، حُفظت الحدود، وتحققت العهود، وأديت الحقوق، وعلا القران، زاد الإيمان، فمن أراد أن يقتدي ومن أراد أن يصلح ومن أراد أن يغير..!! من هنا يبدأ الإصلاح. ! ومن هنا يبدأ



التغيير...!! ومن هنا يبدأ الحل لكل مشاكل الحياة...!!! ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن حاجة العالم إليه ﷺ الآن حاجة المريض إلى الشفاء، والعطشان إلى الماء، والعليل إلى الدواء، والنظر تتمناه العين العمياء. ولقد صدق أحد أشهر الأدباء الغرب حين قال بعد أن استقرأ السيرة العطرة للنبي الخاتم: (لو كان محمد حياً لحلّ مشاكل العالم كله وهو يحتسي فنجائاً من القهوة!).

لقد كانت حياة النبي ﷺ نموذجاً بشرياً متكاملًا في جميع المراحل وفي جميع جوانب الحياة العملية، ونموذجاً عملياً في صياغة الإسلام إلى واقع يشاهده الناس ويقتدون به، كانت حياته قبل البعثة وبعدها حياة شريفة، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حساباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهاً وتكرماً حتى صار معروفاً بالأمين. لقد نشأ سليم العقيدة، صادق الإيثار، عميق التفكير، غير خاضع لثرهات الجاهلية، فما عُرف عنه أنه سجد لصنم، أو تمسح به، أو ذهب إلى عراف أو كاهن، بل بُغضت إليه عبادة الأصنام، والتمسح بها. وكذلك بُغض إليه شرب خمرًا قط، فلم يتناوله قط.

هذا هو النبي العظيم، الذي أحب أمته وأحبه أمته، فلا بد من اتخاذه قدوة مثلى وتقديم محبته وأقواله وأوامره على من سواه: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما... ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وفي الحديث «المرء مع من أحب» البخاري. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. إن محبة الرسول ﷺ أصل من أصول الإيمان الذي لا يتم إلا به: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». البخاري.



القدوة الصالحة والأسوة الحسنة

إن القدوة المطلقة هو النبي ﷺ وغير النبي ﷺ يُقتدى بهم على قدر موافقتهم لما جاء به النبي ﷺ فيقتدى بهم على قدر إرثهم من العمل النبوي، وخير من يقتدى به بعد النبي ﷺ الصحابة، الذين جمعوا بين العلم والعمل، ومن أتى بعدهم من الصادقين من هذه الأمة.

فيا شباب الإسلام، لا تسيروا دون إرادة ولا تفكير وراء أي قدوة.. فقدوتك لا تحد فقط مصيرك في دنياك، بل تؤثر - وبصورة أكبر - على آخرتك، فاختر رفيقك تختار طريقك، وحدد قدوتك تحدد مصيرك. أسأل الله لنا جميعاً الهداية والرشاد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه، وبعد:

يذكر أنه انتقل امام أحد المساجد في بريطانيا الى لندن، وكان يركب دائماً من منزله الى المسجد، وخلال تنقله بالحافلة كان كثيراً ما يركب نفس الحافلة فيلتقي بنفس السائق، وذات مرة دفع أجر السائق وجلس فاكتشف أن السائق أعاد له ٢٠ بنساً زيادة عن المبلغ المفترض.

فكر الامام وقال في نفسه: عليّ ارجاع المبلغ الزائد لأنه ليس من حقي، ثم فكر مرة اخرى وقال في نفسه: المبلغ زهيد وضئيل ولن يهتم به أحد، كما أن الحافلات تحصل على الكثير من المال ولن ينقص عليهم شيئاً هذا المبلغ وسأحتفظ به واعتبره رزقا من الله وأسكت..

توقفت الحافلة عند المحطة التي يريد هذا الإمام، ولكنه قبل أن يخرج من باب الحافلة قرر أن يردّ المبلغ الزائد للسائق، فمد يده وأعطى السائق العشرين بنساً وقال له: تفضل، اعطيني اكثر مما استحق من المال. سأله السائق: لماذا أعدت هذا المبلغ الزهيد؟ قال الامام: لأنه ليس من حقي وأنا رجل مسلم، والمسلم ملزم بأن يكون أميناً وأن لا يأخذ من مال غيره بغير حق حتى وإن كان مبلغاً زهيداً.. عندها ابتسم السائق وسأله: ألسنت الإمام الجديد في هذه المنطقة؟ قال: بلى. قال السائق: إني أفكر منذ مدة في الذهاب الى المسجد لأنني أحببت الإسلام وأفكر في اعتناقه والدخول فيه، وقد أعطيتك المبلغ الزائد عمداً لأرى ما يأمركم به دينكم من الأخلاق والقيم، وكيف سيكون تصرفك!

عندما نزل الإمام من الحافلة شعر بضعف ووهن في ساقيه وكاد أن يقع أرضاً من هول الموقف، فاستند إلى أقرب جدار ونظر الى السماء ودعا باكياً: يا الله كم قدّمت للإسلام بعشرين بنساً، بعد أن كدتُ أتسبب في صدّ عيدٍ من عبادك عن الدخول في دينك!!

أيها الأحبة: لقد انتشر الاسلام في أصقاع كثيرة وبلاد متفرقة فقط عن طريق القدوة الصالحة والتعامل الحسن، وهذه هي مضمون دعوته ﷺ..

وللأسف فإنه لما قلّ وجود القدوات الصالحة وعُيّب الموجود منها، استطاع دعاة الشر وشياطين الفساد أن يغزونا في عُقر دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر إعلامهم



حتى وجد في أبناء الجيل من فتياننا وفتياتنا من يقلد الساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبسهم، ويتلقون عنهم كل شيء دون مراعاة للحدود الشرعية والآداب المرعية.

إن هذه المظاهر هي أوضح دليل على الشعور بالنقص والانهمزام النفسي لدى هؤلاء المقلدون والأتباع، وصدق ابن خلدون في قوله: (المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبداً).

ومن هنا ندرك أن القدوة الحسنة عنصر هام في كل مجتمع، وفي كل دعوة ومنهج، فمهما كان أفرادها صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكركم بالله رؤيتهم، كيف لا وقد أمر الله نبيه بالافتداء بمن سبق من الأنبياء فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وتشتد الحاجة إلى القدوة وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وجدت قدوات سيئة فاسدة تُحسِّن عَرَضَ باطلها. فالمسلم الذي يعيش بين ظهрани الكفرة ينبغي أن يكون قدوة لهم وممثلاً للإسلام؛ لعله أن يكون سبباً في دخولهم الإسلام كما حصل في تاريخ الإسلام. وأهل الطاعة ينبغي أن يكونوا قدوة لأهل المعصية؛ بظهور أثر الطاعة وثارها كالأمن النفسي والأخلاق الفاضلة.

إن الشباب في أمة الإسلام يعانون من افتقاد القدوة الصالحة.. وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات، وفعل رجل في ألف رجل خيرٌ من قول ألف رجل في رجل..

إن المربي الذي يخالف فعله قوله واهمُّ في اعتقاده أنه يربي.. بل هو يهدم، وإن كانت كلماته هي كلمات البناء؛ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

فأيُّ هدم للقيم يتسبب فيه المدرس بانحيازه لبعض الطلاب؟! والأب لأبنائه، فأيُّ هدم للقيم يباشره الأب حين يكذب أمام أبنائه مهما كان المبرر؟! والحاكم لشعبه، فأيُّ مصيبة تقع عندما يظلم الحاكم شعبه أو لا يقيم العدل بينهم؟! والرئيس لمرؤوسيه، فأيُّ دعوة للتسيب يبثها الرئيس بين موظفيه بتأخره عن الدوام دائماً؟! والداعية لمن يدعوه، فأيُّ فتنة يحدثها الداعية للمدعو حين يعاهده ويخلف؟!!

فهؤلاء الأصناف لا مندوحة لهم ولا خيار لهم أن لا يكونوا قدواتٍ صالحةً؛ لأنهم تحت المجهر والمراقبة شاؤوا أم أبوا، وخطؤهم ليس كخطأ فرد بل هو خطأ تظهر نتيجته على جماعة، فهل يكونون أهلاً للتحدي؟! وهل يستشعرون مسؤولياتهم؟! وهل يحسبون خطواتهم؟!

ما الظن بأبٍ يأمر أولاده بعدم التدخين -مثلاً- والسيجارة لا تفارق يده؟! أو كيف يأمره بحسن معاملة الجار وهو في شجارٍ دائم مع جيرانه؟ أو بحفظ اللسان وهو يتناول كل من أغضبه بالسباب والشتائم؟ أو بالحلم وهو غضبان؟ أو بالعدل وهو ظالم؟

كيف يمكن للوالدين أو للدعاة أن يأمرُوا الجيل بالانسجام والتآخي والتآلف، والخلافات والشجارات تسود أجواء البيوت والمحاضن التربوية والدعوية؟!

كيف يمكن لحاكم أو شرطي أن يأمر الناس بعدم العنف بينما هو يتعامل بكل قسوة وعنف وبطش وإرهاب مع عموم الناس؟! كيف يمكن أن تكون هناك تربية بغير قدوة؟!

أخي، إذا كنتَ قُدوةً حسنةً، فأنتَ تدعو الناس إلى الخير، وتحثُّهم عليه بحالك ولو من غير قول، فكنتَ داعياً إلى الخير بحالك، فدخلتَ في عموم قوله ﷺ: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثلُ أُجور مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

أيها المسلمون: إن الحاجة إلى القدوة الحسنة ماسة في كل زمان، وفي هذا الزَّمن أحوَجُ مما مضى، فبالقدوة الحسنة تحصل المحاكاة وتترسَّم الخطي من الصَّغير والكبير، شاهدوا حال الصَّغار، ذُكُورًا وإناثًا، وهم يُحاكون تصرُّف آبائهم وأمهاتهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

إن القدوة أعظم أثرًا وأكثر إقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُّ في إرسالِ الله رسلاً من البشر ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، ودليلٌ على واقعية الشرع، وحجةٌ على البشر الذين هم مثلهم.

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فرغ من قضية الكتاب أي: بنود الصلح قال رسول الله لأصحابه: «قوموا، فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا نبي الله، أتحبّ ذلك؟ اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُذُنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُذنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً^(١).

إن هذا التأثير القوي والمباشر للقدوة يرجع إلى أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيراً ما يكتسب معارفه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهل وأيسر بل وأسرع، والنفوس بطبعها تحبّ الحصول على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرماً، لكن الشرع والعقل يضبطها.

أيها الناس: محلّ القدوة إذا بدر منه تقصير وخطأ، كان من حكمة الشرع التغليظ في العقوبة على مثله، وقد قال الله: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وهذا الحكم الإلهي اتخذ عمر منهجاً له في تعامله مع أقاربه، فربّما احتّموا بقرابتهم، فحصل منهم تعدّد مجرئ غيرهم على المخالفة، فجعل عليهم مضاعفة العقوبة؛ فعن عبدالله بن عمر قال: «كان عمر بن الخطاب إذا نهى الناس عن شيء دخل إلى أهله - أو قال: جمع - فقال: إني نهيت عن كذا وكذا، والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتهم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الناس، إلا أضعفت له العقوبة؛ لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم، ومن شاء فليتأخر»^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) رواه عبدالرزاق (٢٠٧١٣) بإسناد صحيح.



أيها الأحبة: خمسة أمور هي الحد الأدنى لما ينبغي أن يتحلى به القدوة من محاسن الصفات:

أولها: الاستقامة على منهج الله؛ وذلك بسلامة المعتقد وأداء الفرائض والتخلق بأخلاق الإسلام واجتناب الكبائر.

الثاني: موافقة الأفعال للأقوال، ويكفي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢-٣].

الأمر الثالث: البعد عن مواطن الشبهات، قال رسول الله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»^(١)، وإذا رُئي في موطن الشبهة بين ذلك، فقد فعله من لا يشك فيه البتة سيد المرسلين، فعن أم المؤمنين صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ مُعْتَكِفًا فَاتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكُنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، فَإِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ». فَقَالَا: «سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ»^(٢)، قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قَلْبِكُمَا سُوءًا»، أو قال: شيئًا.^(٣)

الأمر الرابع: التقليل من الترخص وتغليب الأخذ بالعزائم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الخامس: إتقان التخصص ومتابعة التطوير والإبداع، ويكفي قول المصطفى: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(٤).

أيها المقتدي: يجب أن تعلم أن القدوة مهما حرص على الكمال فهو بشر غير معصوم، وعمله ليس حجة على الإسلام، بل الحجة قال الله قال رسوله، فالتمس لأخيك العذر عند

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أي: أنشكُ فيك؟

(٣) رواه البخاري (٣٢٨١) ومسلم (٢١٧٥).

(٤) حسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).



التقصير، وإذا أبيت إلا اللوم فلم نفسك أولاً، فقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۗ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

فخذ الخير من أهله، واكتسب الفضائل من أصحابها، وما رأيت من خلل أو زلل فليس ذلك بحجة لك في اتباعه، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].. فمن كان يرجو لقاء ربه فليكن محمد قدوته في حله وترحاله، وليكن هو مقياس لسائر القدوات في شتى المجالات، ليأخذ منها ما ينفعه في دينه ودنياه... نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين.



دروس من غزوة أحد (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين؛ يتبلى عباده بالسراء وبالضراء؛ ليجزيهم على صبرهم أعظم الجزاء، نحمده كما ينبغي له أن يحمد، ونشكره فقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ عظيم في ملكه وربوبيته وألوهيته، حكيم في مقاديره وأحكامه، لا يقضي قضاء لمؤمن إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ ابتلي بالسراء فشكر، وبالضراء فصبر، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ بذلوا أنفسهم وأموالهم، وأخرجوا من ديارهم وأبنائهم في سبيل الله تعالى، وابتغاء مرضاته، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله تعالى حقَّ التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أيها المسلمون: في يوم السبت، السابع من شوال، في السنة الثالثة للهجرة، والذي يصادف الثالث والعشرين من مارس لعام ٦٢٥م، كانت غزوة أحد.

ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري، ومع ذلك نجد جسر النور والهدى والعتاء في السيرة النبوية المشرفة، من عهد النبي ﷺ إلى وقتنا الحاضر، نستنبط منها بعض الدروس والعبر مما جرى من الأحداث التي وقعت في تلك الغزوة، والتي تكشف لنا حقائق الواقع

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



المعاصر، وتبين لنا ما ينبغي أن نعلمه تجاه ما نواجه في هذه الحياة الدنيا من العبر والعظات، والدروس والوقفات.

الدرس الأول من دروس هذه الغزوة: الشورى: فحين علم النبي ﷺ بقدم أهل مكة وأحبابيها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة للأخذ بثأر قتلاهم في بدر، استشار أصحابه في الخروج للقائهم خارج حدود المدينة أو البقاء في المدينة والتحصن بها؛ حتى إذا دخل عليهم أعداؤهم فيها كانوا أبصر بما يعوقهم عن الدخول وبها ينزل فيهم الهزيمة.

وقد كان رأيه ﷺ البقاء في المدينة، إلا أنه جعل الأمر شورى بينه وبين أصحابه؛ امتثالاً لأمر ربه، وبيانا للأمة من بعده وللولاة والقادة من بعده أنه لا بد لهم أن يستخلصوا الآراء، وأن يعرفوا ما ينبغي أن يعرفوه من أهل الحل والعقد وأهل العلم والرأي والمشورة.

وفي هذه المشورة غلبت آراء الذين كانوا يتحفزون للخروج للقضاء الأعداء؛ رغبة منهم في إظهار الحمية لدين الله والاعتزاز بدينه، وتطلعا منهم في الاستشهاد في سبيل الله، وشغفا ممن لم يشهد بدرا أن يلقوا أعداءهم، فيعوضوا ما فاتهم من الجهاد والاستشهاد في بدر.

ثم دخل النبي ﷺ بعد أن رأى هذا الرأي من أصحابه أو كثرة منهم، فلبس عدته ولأمته، ثم خرج فرأى القوم أنهم قد أكرهوه ﷺ على ما لا يجب، فرجعوا عن رأيهم، وجعلوا الأمر إليه ﷺ، فما كان منه إلا أن قال لهم ﷺ: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، انظروا ما أمركم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله تعالى، فلكم النصر ما صبرتم»^(١).

ومضى النبي ﷺ على عزمه الذي قضت به الشورى؛ وذلك حتى يكون للشورى أصحابها ومقامها، وحتى لا يعود هناك استخفاف بالرأي، ولا تهوين ولا تسفيه للقول، فالنبي المؤيد بالوحي جعل الأمر شورى بينه وبين أصحابه، فكيف بمن هو أدنى منه منزلة، وأقل منه علما، وأبعد عن التثبيت والإلهام والتوجيه والتسديد الذي كان يؤتاه النبي ﷺ،

(١) السلسلة الصحيحة (٣/٩١).



وهو الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ في قوله وفعله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، فمن سواه -وكل الناس أدنى منه منزلة- أجدر بأن يلتزموا الشورى بينهم وبين قادتهم وعلمائهم.

ومن تأكيدات الله عَزَّوَجَلَّ لأمر الشورى أنه بعد أن ظهرت النتائج في غزوة أحد، وبعد أن ظهر ذلك الرأي ومع ما فيه من علة، وبعد أن ظهر أثر المخالفة لأمر النبي ﷺ جاءت الآيات التي نزلت في أعقاب غزوة أحد، لتؤكد مرة أخرى على الشورى؛ لكي لا تكون النتيجة السلبية أو التطبيق الخاطيء يقودان إلى إلغائها وعدم الاكتراث بها، فيقول الله: ﴿فِمَارْحَمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، اعف عنهم عما كان من إكراه لك في الرأي، واستغفر لهم عما كان منهم من معصية بعضهم في الغزوة، ولا يمنع ذلك أن تأخذ رأيهم وأن تلزم الشورى معهم.

إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته، ولا يفرض على الأمة الوصاية السياسية من فرد أو جماعة بحجة تربية الأمة وإعدادها لتحمل المسؤولية، وإن الأخطاء في مزاولة الشورى مهما بلغت من الجسامة لا تبرر إلغاء مبدأ: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]؛ إذ إن للشورى على أقل تقدير ميزتين مهمتين:

أولاً: الاستدراك للأخطاء والاستكمال للنقص قبل الشروع في العمل؛ إذ مهما بلغ الرجل أو القائد من ذكاء مفرط وعلم غزير ورأي حصيف؛ فإن رأيه قد يقصر، وعلمه قد يغيب، وذهنه قد ينسى ويكل، فمن هنا تأتي الشورى بالآراء الأخرى لتنظر للأمر من جهات أخرى، فتقوم الخطأ، وتكمل النقص، وتذكر بالنسيان، فحينئذ تكون الأمة قد استجمعت كل الشروط التي ينبغي استكمالها لإعداد العدة للعمل واستكمال شروط النجاح.

ثانياً: توزيع تحمل المسؤولية؛ فلئن كان هذا رأي الجماعة كلها، ولئن كان هذا رأي الشورى وأهل العلم منهم؛ فإن وجد فيها خطأ فليس هو خطأ فرد، وليس هو مما يتحمله إنسان بعينه، بل تشترك الأمة كلها في تحمل تبعته، وهذا أدعى إلى أن تقوم قائمتها مرة أخرى، ولا تتلاوم فيما بينها، ويحصل الشقاق في صفها.



ومن ثم نخرج بهذا الدرس العظيم من غزوة أحد، وهو أن الشورى ليست أمراً عارضاً، وليس هوىً متبعاً لقائد أو أمير أو إمام بحيث يفعله متى ما يحلو له أو يدع، وليس أمراً له أن يختار منه ثم يتركه، وليس مبدأ مرتبطاً بالنتائج والأخطاء التي قد تقع في بعض تطبيقاته، بل حتى لو نتج عنه خطأ فإنه أقلّ خطأً من عدمه، وفوق كل ذلك فهو أمر إلهي لا محيص عنه ولا حياذ عنه، تؤكد سيرة النبي ﷺ التي ترعاها آيات القرآن الكريم.

الدرس الثاني من غزوة أحد: الحزم والجزم: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إذا كنتَ ذار رأيي فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تترددا

ويظهر ذلك في موقف النبي ﷺ الذي ذكرناه عندما ندم الناس على رأيهم بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، وظنوا أنهم قد أكرهوا نبيهم ﷺ على ما لا يجب، فقال ﷺ قولته المشهورة: «لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يقاتل عدوه»^(١). فعلى مثل هذا يجب أن تكون القيادة الإسلامية؛ إذ ينبغي أن تكون صورتها صورة الحزم والعزم والقوة والمضي، لا التراجع والتردد، فالنبي ﷺ عندما رجعوا عن رأيهم، لم يرجع عن رأيه، وإلا كانت هذه صورة من صور القيادة المهزوزة التي تكون ألعوبة في أيدي الذين يترددون بعد أن تقدموا، أو من يقولون: نعم، ثم يقولون: لا... وهكذا؛ لئلا الظان أن ذلك نوع من الجبن والخوف، وعندما تكون القيادة موقّدة لا قائدة؛ فإن ذلك هو عين الفوضى والاضطراب، وهذا درس عظيم مفاده أن يعلم المرء أن أمر اتخاذ الموقف والحزم والجزم هو سمة من السمات القيادة الفذة.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم..

(١) صححه الألباني في الصحيحة وفي فقه السيرة (٢٥٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

الدرس الثالث: آثار التنازع والمعصية: لقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في أعقاب معركة أحد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، والدرس هنا أن مخالفة يسيرة في أمر واحد من فئة قليلة أوجبت هذا الدرس القاسي الذي قضى فيه سبعون من خيرة الصحابة شهداء، والذي سُجَّ فيه وجه النبي ﷺ وكُسرت رباعيته، فلم يجامل الله أفضل جيش تحت قيادة أفضل قائد، فكيف بمخالفات كثيرة من الأمة في أوامر عديدة من كثرة كاثرة وفيرة؟! أفلا يستحق لأجلها المسلمون الخذلان والضعف وتسلب الأعداء وتوالي الهزائم!؟

لقد تركت معركة أحد آثارًا غائرة في نفس النبي ﷺ؛ أُصِيبَ في بدنه إذ كُسِرَتْ سِنُّهُ، وَجُرِحَ وَجْهُهُ، وَشُجَّ رَأْسُهُ، فلم تزل دماؤه الزكية تسيل على وجهه الطاهر حتى أُحْرِقَتْ قطعة من حصير فأصقَّت به فكف عنه الدم، وأجهده العطش حتى جعل يقع على رُكْبَتَيْهِ، وَأُصِيبَ فِي أَتْبَاعِهِ؛ إِذْ أودع في سفح الجبل سبعين رجلًا من أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وفهم أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب، الذي قُتل ومُثل به، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فكان ذلك من أشد المواقف وأقساها على النبي ﷺ في حياته.

أيها الأحبة: إن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بأصحاب النبي ﷺ أن أوقع بهم العقوبة عند حصول المخالفة؛ حتى يكون التصحيح أولاً بأول، وليس كما يكون أحياناً لمن لم يحب الله عَزَّوَجَلَّ أن ينبهه ويحذره، فيستدرجه ويملي له ليبقى في غيه وفي ضلاله دون أن تحل به عقوبة تذكره، فيبقى سادراً في غيه، مقيماً على المعاصي حتى يأخذه الله عَزَّوَجَلَّ أخذ عزيز مقتدر، فكان هذا من لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهم، ليكونوا أشد حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان.

كل هذا التخلف عن طاعة الرسول ﷺ رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أرسدنا بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ويين أن اتباع النبي ﷺ دليل المحبة الصادقة لله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، ثم جاء التحذير والوعيد من المخالفة: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فليس هناك خيار عند مخالفة أمر النبي ﷺ إلا وقوع الفتنة والهزيمة، وما أكثر الفتن في صفوف المسلمين، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وما أكثر العذاب الذي صبه الله عز وجل على المسلمين جراء مخالفتهم لأمر المصطفى ﷺ، وحتى على المستوى الفردي قد بيئت لنا السيرة النتيجة المباشرة والعذاب المباشر لمخالفتي أمر النبي ﷺ؛ ورد في صحيح مسلم أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كل بيمينك»، قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه^(١). سُلت يده فما استطاع أن يجر كها؛ لأنه خالف أمر النبي ﷺ لا عن تقصير وغفلة، بل عن كبر واستهانة، أعاذنا الله من ذلك..

ونحن الآن يجب أن نعي هذا الدرس جيداً؛ لأننا إذا نظرنا في واقع الأمة الإسلامية، نرى مقداراً عظيماً من المخالفات للرسول ﷺ، ومن التخلف عن طاعته، بل والمجاهرة بمعصيته؛ ما استوجب حرمان الأمة من النصر، وحلول الخذلان والهزيمة بها.

إننا حين نتأمل كيف أنه بمعصية واحدة هُزم أفضل جيش ومعه أفضل قائد بل أفضل البشر وسيد المرسلين بمعصية واحدة، فكيف بمعاصينا ومخالفاتنا وغفلتنا، لا نقول هذا ياساً ولكن تذكيراً لأنفسنا بحتمية الرجوع إلى الله تعالى.

أياها المؤمنون.. يقول تعالى: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤٠] وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]. إن تعاقب الشدة والرخاء تكشف معادن النفوس وطبائع القلوب، ودرجة الهلع فيها والصبر، ومدى الثقة فيها بالله أو القنوط.

(١) رواه مسلم (٢٠٢١).



وإن من مصلحة الأمة أن تُصابَ برجاتٍ عنيفةٍ تعزِلُ الخبثَ عنها، وقد اقتضت حكمةُ الله أن يقعَ هذا التمحيصُ في أحد، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فالنفسُ لا تنتصرُ في الحروبِ إلا حين تنتصرُ في القِيمِ والمبادئ، والذين تولّوا يوم التقي الجمعانِ في أحدٍ إنما استزهم الشيطانُ ببعضِ ما كسبوا من الذنوب، فالذنوب سبب ما يحصل للعبد من الزلل والخلل، والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدؤوا المعركة بالاستغفار من الذنوب، والالتجاء إلى الله، والتطهّر من المعاصي.

ولعل ما ترتبَ على عصيان الرّامة لأمر الرسول القائد في معركة أحد درسٌ عميقٌ يتعلّم منه المسلمون في كلِّ مواجهةٍ قيمة الطاعة، وأن الجماعة التي لا يحكمها أمرٌ واحدٌ ويغلبُ على أفرادها وطوائفها النزاعاتُ الفردية لن تنجحَ في معركةٍ، ولن تُفلحَ في مواجهةٍ، ما لم تتفق على رغبةٍ واحدةٍ ووجهةٍ واحدةٍ، وما لم تُحمدَ كلُّ شذوذٍ يحصلُ في صفوفها، ﴿وَلَا تَنزَعُوا فَنفُسُكُمُ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ فَتَبَدَّدُوا﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولما دُهِشَ المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور قال الله لهم: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتُمْ مُمْسِكِينَ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ومع ذلك فإن المؤمنين مهما أصابهم في سبيلِ الله فإنهم لا يفقدون صلّتهم برّبهم، وثقتهم بوعدِهِ الصادقِ لجنّده بأنهم هم الغالبون، وأن لن يخذلهم؛ بل سوف ينصّرهم ويؤيّدهم ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم، ويظهرهم عليهم.

لقد ترفّق القرآن الكريمُ في خطابِ المؤمنين بعد ما أصابهم في أحدٍ؛ لكي لا يتحوّل انكسارهم في الميدان إلى قنوطٍ يفلُّ قواهم، وحسرةٍ تشلُّ إنتاجهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُوتُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].



فجمع سبحانه في خطابه لهم بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهمهم، وبين حسن التعزية وذكر الحكمة الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، وعزى الله نبيه وأوليائه عمّن قُتِلَ منهم في سبيله أحسن تعزية وأطفها، وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم، وأخبرهم بما نالوه من ثوابه وكرامته؛ لينافسوهم فيه، ولا يجزنوا عليهم، وأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليؤخذوا ويتكلموا، ولا يخافوا غيره، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرًا وأعظم خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة.

فلقد كانت حصيلة معركة أُحُدٍ ومن بعدها التوجيهات القرآنية بعد الأحداث أكبر من حصيلة النصر والغنيمة، ولقد علم المؤمنون أن الهزيمة حين تقع؛ فإنها جارية على سنة الله وفق ما يقع من تقصير وتفريط، وأنها مُحَقَّقُ غايات يُقدِّرها الله بحكمته وعلمه لتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وتجليّة الحقائق، وإقرار القيم، وإقامة الموازين، وجلاء الشنن للمستبصرين.

أيها الأحبة: لئن تكلف المسلمون الأوائل عشرات من الرجال وأشهرًا من الزمان، ليستفيدوا من أخطائهم ويستعيدوا قوتهم ويتفوقوا في الوقائع اللاحقة؛ فإن المسلمين في هذا الزمان استنزفوا الملايين من أرواحهم وعقودًا من أعمارهم، ولم يتغيّر حالهم، وكان الفارق بينهم وبين سلفهم هو الفرق في تعلّمهم الدروس واستلهاهم العبر.

لئن كان المسلمون الأوائل بعد كل خسارة يثوبون لدينهم، ويلجؤون لربهم، ويحيطون بنبيهم ﷺ؛ فإن المسلمين اليوم يذادون عن دينهم، ويقصون عن شريعتهم، ويحال بينهم وبين وسائل النصر ومدده. ولك أن تُجِيلَ بصرَكَ في كثير من بلاد المسلمين خلال القرن الماضي بعد استعمارهم من قوى الكفر وذهاب شوكتهم وحتى اليوم، لقد جرّبوا كلَّ طريق، وطرقوا كلَّ باب، وأخذوا من العلوم العصرية، وسالت تحت أيديهم كُنُوزَ العالم، ونبع وقوده. ومع ذلك أصبَحوا ولا يسيل من الدماء إلا دماؤهم، ولا نُجْتاحُ إلا أراضيهم، ولا يُقهرُ إلا رجالهم. بل حتى في بلادهم تتحكّم أقليّات الطوائف في مصائرهم.

يا أيها المسلمون: هيبُ الأحداث يسوقكم لدينكم، وسيياط المقادير تلجئكم لخالقكم، وفجائع الدهر تُناديكم: أن هلمّوا لما عزّ به سلفكم، واستقوى به أوائلكم، فلن يصلح آخر



هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فهلاً راجعنا أنفسنا؟ وهلا اعتبرنا بياضينا وحاضرنا؟ وهلا سعينا لاستحقاق نصر الله لنا؟!

أيها المسلمون: راجعوا أنفسكم، وابنوا جيلكم، وربوا على الفضيلة أبناءكم؛ ففي الفضاء إعلامٌ وقنواتٌ لا تنتمي لماضٍ مُحَافِظٍ، ولا تُبالي بواقعٍ مُؤلمٍ، وفي الناس غفلةٌ، والجراحاتُ في كلٍ وادٍ تسيلُ.

كيف يكون السرفُ والتسرفُ وفي المسلمين أوجاعٌ، وبهم جِيعاً؟! ألم تروا أن الأيام دُؤلٌ، والدهرُ قُلبٌ؟!

إن النصرَ لا ينزل إلا على المؤمنين: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وإنه لا يتوقفُ إلا على نُصرة ربِّ العالمين؛ فمن نصره الله فلا غالبَ له من الناس، ولن يُضِرَّه خذلانُ الخاذلين. ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. وفي كل هذا دروسٌ وعبرٌ للمسلمين هذا اليوم في كل أرضٍ وتحت كلِّ سماءٍ. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنَيِّتَ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

نسأل الله أن يُعلي كلمته، وينصر أوليائه، وأن يجعلنا ممن يُنصرون ولا يستبدل بنا غيرنا..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



وفاة الحبيب ﷺ (١)
(أعظم مصاب أصيبت به الأمة)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتفرد بالخلق إيجادًا وإفناءً، أحمده سبحانه وأشكره، هو القيوم دوامًا وبقاءً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجو بها اتباعًا واهتداءً، وأشهد أن نبينا وحبينا محمدًا عبد الله ورسوله خير البرية سيرة بلجاءً، وسريرة مُطَهَّرَةً زهراء، اللهم صلِّ وسلِّم عليه صلاة تُوفي حقه كفاءً، وبارك يا ربنا على آله الساميين زكاءً وصفاءً، وصحبه الكرام حبًّا وولاءً واصطفاءً، ومن تبعهم بإحسان يرجو في الجنان ارتقاءً، وبالأبرار التقاءً.

أما بعد:

فخير ما يُستفتح به الكلام: الوصية بتقوى الله على الدوام، وطاعة الملك العلام، ولزوم سنة سيد الأنام، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرًا كَثِيرًا﴾ [النور: ٥٢].
عباد الله: كل قضية إلى نسيانٍ ودُروس، وكل أمر مُلِمٍّ إلى انمحاءٍ وطُموس، وكلُّ اعتلاءٍ إلى ارتدادٍ ونكوص، ولكنَّ دينَ الإسلام العالمي الرباني بفضل الله إلى ثباتٍ وخلودٍ وانطلاق، وسيرة المصطفى ﷺ في انتشارٍ وامتدادٍ وائتلاق، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أمة الإسلام: السيرة النبوية المباركة هي المعين السلسال، والأنموذج المُشرق في الكمال، الهادي دون مَبَاة الضلال، وهي النور الوضاء لكل المجتمعات والأجيال، وإن التوارد على حكمتها وآدابها، وفقهها ولُبَّابها، والذَّبَّ عن مقاصدها وآرابها، لمن دلائل النجح والتوفيق، والاهتداء إلى أقوم طريق.



يَبْدُ أَنْ مِنْ جَوَانِبِ السَّيْرَةِ الْعَطْرَةِ حَدَثًا عَظِيمًا أَثَّرَ عَلَى مَجْرَى التَّارِيخِ، وَكَانَتْ بِهِ خَاتِمَةَ السَّيْرَةِ الْعَطْرَةِ، إِنَّهُ حَدَثٌ يَذْهَبُ بِالْأَلْبَابِ وَيَطِيشُ بِالْحِجَابِ وَالصَّوَابِ، إِنَّهُ رُزْءٌ مُفْجِعٌ فَادِحٌ، وَجَلَلٌ مُفَزِّعٌ قَادِحٌ، هَزَّ الْآفَاقَ وَقَرَّحَ الْأَحْدَاقَ؛ إِذْ لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ خَطْبًا هَزَّ الْعَالَمَ مِثْلَهُ، وَلَمْ تُصَبِّ الْأُمَّةُ بِرُزْيَةٍ أَعْظَمَ مِنْهُ؛ ذَلِكَ هُوَ مُصَابٌ وَفَاةُ النَّبِيِّ وَفِرَاقُهُ، وَنَبَأُ مَوْتِهِ وَالتَّحَاقُّهُ، بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ﷺ.

فالتذكير بمُصَابِ خَيْرِ الْبَشَرِ إِنَّمَا يَرِدُ لِاسْتِكْنَاهِ الْعِظَةَ وَالْعِبَرَ، لَا لِاسْتِجَاشَةِ الدَّمُوعِ الدَّرَرِ، فَكَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ ﷺ مُتَدَفِّقَةً دَعْوَةً وَهِدَايَةً وَبِنَاءً، فَكَذَلِكَ كَانَتْ وَفَاتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَضَاحَةً دَرُوسًا وَعِبْرًا وَاقْتِدَاءً، تَسْتَخْلِصُ الْأُمَّةَ عَبَقَ مَعَاذِيهَا، وَتَتَرَسَّمُ شَمَّ مَعَالِيهَا؛ إِذْ كَيْفَ لِأُمَّةٍ الْإِتْبَاعَ وَالْهِدَايَةَ أَنْ تُحْدِثَ فِي إِشْرَاقَةِ الْبَدَايَةِ وَتَغْفُلَ عَنِ مَوَاطِنِ الْأَذْكَارِ فِي النِّهَايَةِ؟! بَلْ كَيْفَ تَذْهَلُ الْعُقُولُ عَنِ فَاجِعَةِ الْوَفَاةِ فِي إِعْرَاضِ وَانْجِفَالِ، وَتِيَمُّ شَطْرَ الْمَوْلِدِ لِلْإِحْدَاثِ وَالْإِحْتِفَالِ؟! فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَكُونُ الْفَرْحُ بِيَوْمِ حَيَاتِهِ أَوْلَى مِنَ الْحُزْنِ عَلَى يَوْمِ وَفَاتِهِ؟! وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وَالْمُصْطَفَى ﷺ يُوَكِّدُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (١).

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: بَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ اللَّهُ الدِّينَ وَأَتَمَّ عَلَى عِبَادِهِ النِّعْمَةَ، وَبَلَّغَ نَبِيِّهِ الْأَمَانَةَ، وَأَدَّى الرِّسَالَةَ، وَهَدَى الْبَشَرِيَّةَ مِنَ الضَّلَالَةِ وَعَلَّمَهَا مِنَ الْجَهَالَةِ، وَانْتَحَى بِهَا إِلَى قِيَمِ الْمَجْدِ وَالْعِزِّ وَالْجَلَالَةِ؛ أَنْزَلَ الْحَقُّ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّصْرِ؛ نَاعِيًا إِيَّاهُ فِي أَوَّلِ مَقَدِّمَاتِ الْوَفَاةِ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْكَمَالِ إِلَّا النِّقْصَانُ، وَكُلُّ أَمْرٍ اكْتَمَلَ وَاسْتَتَمَّ فَالتَّسْبِيحُ وَالِاسْتِغْفَارُ عَقِبَهُ خَيْرٌ مُحْتَمٌّ، وَفِيهِ أَيْضًا أَنْ الْاسْتِغْفَارَ سَاعَةَ الْإِنْتِصَارِ دَلِيلُ الشُّكْرِ وَالذَّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ، وَقَدْ أَوْمَأَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَعَرَّضَ بِاقْتِرَابِ فِرَاقِهِ، فَفِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ مِنَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ خَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ النَّاسَ وَوَدَّعَهُمْ، قَائِلًا: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لِعَلِّي لَا أَحْجُبُ بَعْدَ حَاجَّتِي هَذِهِ» (٢).

(١) خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ (١٧١٨).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٢٩٧).

إخوة الإسلام: لقد ناضل ﷺ في إبلاغ دعوة ربه، وجاهد في الله حق جهاده، فمنذ أن بعث في رأس الأربعين من عمره، مكث بعدها بمكة ثلاثة عشر عامًا، ثم هاجر إلى المدينة فظل فيها عشرة أعوام إلى السنة العاشرة من هجرته من مكة، وكان عمره إذ ذاك قد بلغ ثلاثًا وستين سنة.

ولما حضرت الحبيب ﷺ الوفاة أخذته أم في رأسه، ثم ثقل عليه الوجع، فكانت حمى شديدة تتاب جسده الشريف، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه وهو معصوب الرأس، فقام على المنبر فقال: «إِنَّ عَبْدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ»، فلم يَفْطَنَ لها أَحَدٌ من القومِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: بأبي وأمي، بل نَفَدِكِ بِأَمْوَالِنَا وَأَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا^(١).

وفي البخاري: خطب النبي ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ» فبكى أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال ابن مسعود: فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكُ، إِنَّ أَمَنَ النَّاسَ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامَ وَمُودَتَهُ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابَ إِلَّا سُدًّا، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»^(٢).

فلم يفهم المراد غير حفيبه ونجيه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، وأعلم الأمة بمقاصد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ولا غرو فهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، فأكرم بصديق هذه الأمة صفي النبي المختار.

ولما تفاقم المرض بالمصطفى ﷺ استأذن زوجته أن يمرض في بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وذلك من خلقه العظيم وودّه المكين، فخرج من بيت ميمونة يتوكأ بين الفضل بن عباس وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أجمعين، لا يستطيع مسيرًا. ومع اشتداد الألم كانت زهرة حياته فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تلتاع

(١) صحيح ابن حبان (٦٥٩٣).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦).



وفاة الحبيب ﷺ أعظم مصاب أصيبت به الأمة

فيا أمة الإسلام: الله الله في حفظِ عمودِ الإسلام؛ فإنها وصية خير الأنام، ومفتاح الخير والسعادة، ومعراج الروح والإفادة، وركنُ الإسلام الذي رَحِمَ الله به عباده. وأما ما ملكت أيانكم فمن نساءٍ وبنينٍ وخدمٍ ومأمورين، فاجتهدوا في معاملتهم بالحسنى واللطف، واحتسبوا الأجر فيهم بالرفق والعطف، فذو المرتبة يحنو على ذي المرتبة، وصولاً إلى المجتمع الإسلامي المتراحم المتلاحم.

أحبة المصطفى ﷺ.. وعن آخر النظرات لسيد البريات التي تُجهِشُ باللوعات والزفرات، يصف لنا أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مشهداً مهيباً ومُطَمِّعاً للحبيب رغبياً، الله ما كان أنداه وأباه وأروعه، وما كان أزكاه وأسناه وأبدعه! يقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «حتى إذا كان يومُ الاثنين وهم صفوفُ أي: الصحابة الكرام في الصلاة، كشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم، كأنَّ وجهه ورقة مصحف أي: في الحُسن والاستنارة، ثم تبسَّم ﷺ يضحك، فهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَنَ مِنْ الْفَرَحِ بِرُؤْيَيْهِ، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِيَصِلَ الْصَّفَّ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَمْشُوا صَلَاتِكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ، فَتُوِّفِّي مِنْ يَوْمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ».

وَمُدَّتْ أَكْفٌ لِلوَدَاعِ تَصَافَحَتْ وَكَادَتْ عَيُونٌَ لِلْفِرَاقِ تَسِيلُ
هَمَمْتُ بِتَوْدِيْعِ الْحَبِيْبِ فَلَمْ أُطِقْ فَوَدَّعْتُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ

إخوة الإيمان: إثر ذلك حَمَّ القضاء، وأبرم في الأرض ما قدره الله في السماء، واشتدَّت بحبيبتنا حُمَاهُ، واستباح الموتُ حِمَاهُ، قالت أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وكانت بين يديه ﷺ ركوة، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إنَّ للموت لسكرات»، ثم نصب يده فجعل يقول: «اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى»، يُردِّدها حتى قبض ومالت يده^(١).

فيا الله ما أعظمها من فاجعة، وما أشدها من واقعة!

لا إله إلا الله، بتلك الكلمات من دُرر الخلود وبتلك المعاني من نفحات النور والقدس التحق حبيب القلوب ورسول علام الغيوب بالرفيق الأعلى. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

(١) رواه البخاري (٦٥١٠) ومسلم (٢٤٤٤).

قوله ﷺ: «إِنَّ لِمَوْتِ لِسَكَرَاتٍ» دليلٌ على جوازِ توجُّعِ المريضِ، والمَعْوَلُ في ذلك على عمل القلب، لا على نطق اللسان، فكم من ساكتٍ وهو ساخط، وكم من شاكٍ وهو راضٍ).
 حَطْبٌ أَجْلٌ أَنَاخَ بِالإِسْلَامِ بَيْنَ النَّخِيلِ وَمَعْقِدِ الأَطَامِ
 قَبْضَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ فَعِيُونُنَا تَذْرِي الدَّمْعَ عَلَيْهِ بِالتَّسْجَامِ
 وسرى خبرُ الفاجعة بينَ الجموع، وانحدرت العبرات والدموع، وغدت المحاجر في انهمارٍ وهُموع، واستحكمت الذهول بالعقول، لوفاة أعظم نبيٍّ وأكرم رسول..
 يقول حسان:

فبَكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةٍ وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمُدُ
 وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى القِيَامَةِ يُفْقَدُ

وانفتل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متَّجِهاً شَطَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فوجده مُسَجًى بثوبِ حَبْرَةٍ، فقبَّله وبكى، وقال: «بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً». وخرج على الناس وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مأخوذاً بهول الحطْب، يردد ويهدد كل من يزعم أن النبي قد مات، وحال الصَّحب الكرام في هذه الرزية كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية؛ لا تهتدي سبيلاً، فقام أبو بكر خطيباً، وقال قولته الشهيرة: «من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فكانَّ الناس لم يعلموا هذه الآية حتى تُليت عليهم. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي صدره من غصص الأسي ما يُذهِبُ الحشا: «والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكرٍ تلاها فعُقرت حتى ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض، وعلمتُ أن النبي ﷺ قد مات»^(١).

أيُّها المسلمون: تُوفي سيِّد الأنام عليه الصلاة والسلام في السنة الحادية عشرة من الهجرة، عن ثلاثة وستين عاماً، قضاها في الدعوة والبلاغ والهداية والإصلاح، وغُسل في ثيابه كرامةً له، وصُلِّي عليه أرسالاً؛ الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، دون أن يؤمَّهم أحد، ودُفن حيثُ



وفاة الحبيب ﷺ أعظم مصاب أصيبت به الأمة

قُبِضَ، صلوات رب البرية، عليه بكره وعشية، وفارق الصحب الكرام من كان لهم نوراً وضياء وسراجاً منيراً.

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لما كان اليوم الذي قدم فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنما لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا».

تَكَدَّرَ مَنْ بَعَدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ سَلَامٌ كُلُّ مَا كَانَ صَافِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ الْعَرْشِ أَبْقَاكَ بَيْنَنَا سَعِدْنَا وَلَكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا
وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعَزُّ، قَوْلُ الْمَوْلَى جَلَّ وَعَزَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

تقول فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يا أبتاه، أجب رباً دعاه، يا أبتاه، إلى جبريل نعاها، يا أبتاه، جنّة الفردوس مأواه»، ثم قالت: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟!
وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيهم وقد ذهبَت منهم ظهورٌ وأعضدٌ
وهل عدلت يوماً رزية هالكٍ رزية يوم مات فيه محمدٌ؟!!

ولكن إلى الرفيق الأعلى؛ حيث المآب الكريم والثواب العظيم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ
الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً
وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

صلواتُ ربي الزكية، وتسليماته السنّية، على خير البرية، وأزكى البشرية، وعلى آله أُولي المناقب العليّة، وصحبه أُولي السجايا الرضية، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، امتنَّ علينا ببعثة خير البشر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من خضع لله واتَّمَّر، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله إمام المرسلين العُرر، الشافع المُشَفِّع في المحشر، صلى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه السَّادات الخَيْر، ومن تبعهم بإحسانٍ ما تَأَلَّفَ خُبْرٌ وخَبْرٌ، وما همى سحاب بمطر، وما اتَّصلت عينٌ بنظر، وأذنٌ بخبر. أمَّا بعد:

اصبر لكلِّ مُصِيبَةٍ وتجلَّد
واعلم بأنَّ الأمرءَ غيرُ مُخلَّد
وإذا أتتكَ مُصِيبَةٌ تُشجى
بها فاذكر مُصابك بالنبيِّ محمد

أيها المسلمون: لقد توفي النبي ﷺ الدنيا وهو أكرم مخلوق على الله، ولم يترك دينارًا ولا درهماً ولا مالاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في شعير، توفي وما شيع ثلاثة أيام تباغاً، ذاق اليتم، وتحمل أعباء الرسالة، وواجه في سبيل الله التكذيب والأذى، والمطاردة وفراق الأوطان، صبرَ وصابر، واجتهد وجاهد، وعفا وسامح، وربى أمة خالدة، فيها الهداية والإيمان والشريعة الباقية، ترك أمة هي خير الأمم وأوسطها، ترك سيرة عطرة لتكون منها جالاً للأمة إلى يوم القيامة.

أمة السيرة الزكية والمسيرة السنية، لقد التحق المجتبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وإنَّ حبه حيٌّ في قلوبنا مغروس، وسيرته تُعطر الأرجاء والنفوس، وقد أورثنا شريعة خالدة وقرآناً، وأمة خير الأمم بُرهاناً.

فبالرغم من عظم المصيبة بموت النبي ﷺ وشدها على المسلمين إلا أنهم لم يضعفوا في تبليغ دينهم ولم يتوانوا في إعلاء كلمة الدين ورفع لواء الشريعة، بل انطلقوا بدينهم الحق يتخطون الحدود والسدود، ويعلون الوهاد، ويطوون الأرض، حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأظهره الله على الدين كله، ولئن ضعفت حال المسلمين في يوم فإن الجولة الأخيرة للإسلام، والنصر آت لا محالة.



وإنه لمن العزة والنصر والثبات في الأمر أن نعلم أنفسنا وأجيانا قصة السيرة النبوية، والآداب المحمدية، والشاغل المصطفوية، وأن تكون مرفاً لانطلاقنا عقيدةً وعلماً وخلقاً وسلوكاً، وأن نطبع أنفسنا وقيمنا على غرارها، وحياتنا على هديها ومنازلها؛ لأنها للعالمين الأولين والآخرين النور الوهاج والهدى البهاج، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فهلاً تفقدنا سلوكنا وآدابنا، وأقوالنا وأفعالنا، بما أحبه النبي الرؤوف الرحيم، الذي لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا بخيلاً ولا كذاباً، ولا مغتاباً ولا نماماً، ولا شتاماً ولا لعاناً، ولا صحاباً بالأسواق، كان أرحم الناس، وأرأف الناس، وأكثرهم رفقاً وليناً وحلماً وتواضعاً؟ هلاً أحيينا في أنفسنا الاعتزاز بأن لدينا أفضل البشر قدوة، فلا نتخط في اختيار القدوات؟: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إخوة الإسلام: إن محبة النبي ﷺ من أصول الإيمان، والشوق إلى لقائه من دلائل الإحسان، ومن أحب لقاءه فليتبع سنته حتى يوافيه على الحوض، ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

عباد الله: هذه شذرات من حادثة وفاة سيد البشر، لناخذ منها الدروس والعبر، ولا بد في ختام هذه الحياة من الموت وهجمته، والقبر وضجته، فاحذروا غرور الدنيا ومكائدها، وفتنها ومصائبها، ملتزمين سنة خير البرية، مُتَدَرِّعِينَ بِالصَّبْرِ عند كل محنة وبليّة، وبالشكر عند كل نعمة وعطية.

هذا، واعملوا وفقكم الله أن من دلائل الحب والافتداء، دوام الصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وسيد الأتقياء، فمن داوم على ذلك كشف الله عنه هوماً لا تُحصى، ونفس عنه كرباً لا تُستقصى.

فيا فوز من صلى عليه من الورى فذاك بتثقيل لميزانه خصاً

وقد قال المولى عز وجل قولاً كريماً، تشریفاً لنبينا وتكريماً، وإرشاداً للعباد وتعليماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفاة الحبيب ﷺ أعظم مصاب أصيبت به الأمة

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبيِّنا وحيينا وقدوتنا وسيِّدنا محمَّد بن عبد الله الهاشميِّ القرشيِّ، من شرفته على سائر الأنام، ورَفَعته إلى أشرفِ مقام، وجعلته دليلاً لنا إلى دارِ السلام، اللهم فكما أمرتنا بالصلاة والسلام عليه فاسلُكنا في زمرته، واجعلنا ممن اهتدى بسنته، وفاز بمحجَّته، واتَّممَّ بشرعته.

اللهم أكرِّمنا بشفاعته، وأوردنا حوضه، واسقنا بيده الشريفة شربةً لا نظماً بعدها أبداً، واجزه عنَّا خيرَ ما جزيتَ نبيًّا عن قومه.

جزى الله عنَّا كلَّ خيرٍ محمَّداً فقد
وكان رسول الله روحاً ورحمةً
كان مهدياً وقد كان هاديّاً
ونوراً وبرهاناً من الله باديّاً



أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الهادي إلى صراطٍ مستقيم، أحمده سبحانه على إحسانه القديم وفضله العَمِيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الإله الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبداً لله ورسوله إمام المتقين وخاتم النبيين، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه العُرِّ الميامين، والتابعين ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله حقَّ التقوى، فتقوى الله ذِكْرَى لكلِّ أَوَابٍ ونجاةٌ للعبادِ من العذاب. أيتها المسلمون: تسعد المرأة المسلمة باقتناء أثر خير نساءِ عِشْنِ في أفضلِ القرون، وتربين في أجلِّ البيوتِ: بيتِ النبوةِ، أعلى الله مكانتهن، وأجلَّ قدرهن، ونزل القرآن بالثناء عليهن، قال عزَّ وجلَّ: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فهن زوجاتُ مباركات، ونساء عظيمات.

أولاهن تلك المرأة العاقلة الحاذقة، ذات الدين والنسب، خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نشأت على التخلق بالفضائل والتحلي بالآداب والكرم، واتصفت بالعفة والشرف، كانت تدعى بين نساء مكة بالطاهرة. تزوجها المصطفى ﷺ فكانت نعم الزوجة له، أنسته بنفسها، وواسته بهاها، وناصرته ورجاحة عقلها، وفي أحزانه ﷺ كان يأوي إليها ويبتئ إليها همومه. نزل عليه الوحي أول نزوله فرجع إليها يرجف فؤاده من هول ما رأى، وقال لها: «يا خديجة؟! لقد خشيتُ على نفسي»، فتلقته بقلبٍ ثابت وقالت له: كلاً والله، لا يخزيك الله أبداً،

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نواب الحق^(١).

لاح الإسلام في دارها فكانت أول من آمن من هذه الأمة، قال ابن الأثير رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (خديجة أول خلق الله إسلاماً بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة).

عظمت الشدايد على النبي ﷺ في مطلع دعوته، واشتد الإيذاء، فكانت له قلباً حانياً ورأياً ثاقباً، لا يسمع من الناس شيئاً يكرهه ثم يرجع إليها إلا تبتته وهونت عليه، يقول النبي ﷺ: «آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»^(٢). عظمة بارّة بزوجها وأمّ حنون على أولادها، جميع أولاد النبي ﷺ منها سوى إبراهيم، أدبها رفيع، وخلقها جَمٌّ، لم تراجع المصطفى ﷺ يوماً في الكلام، ولم تؤذ في خصام، يقول النبي ﷺ: «أتاني جبريل فقال: بشرها ببيت في الجنة من قصب أي: لؤلؤ مجوّف لا صحب ولا نصب»^(٣)، قال السهيلي رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (إنما بشرها ببيت في الجنة؛ لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ، ولم تتعبه يوماً من الدهر، فلم تصحب عليه يوماً، ولا آذته أبداً).

كانت خديجة راضية مرضية عند ربها، يقول ﷺ: «قال لي جبريل: إذا أتتك خديجة فأقرئ عليها السلام من ربها ومني»^(٤) قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (وهي فضيلة لا تُعرف لامرأة سواها). أحبها الله وأحبها الملائكة وأحبها النبي ﷺ، يقول ﷺ: «إني رزقت حبها»^(٥). وكان إذا ذكرها أعلى شأها وشكر صحبتها، تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها واستغفار لها. حفظ لها ودها ووفاءها، فكان يكرم صاحباتها بعد وفاتها، تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها إلى صويجات خديجة،

(١) رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

(٢) رواه أحمد (٢٤٩٠٨) قال شعيب الأرنؤوط: (حديث صحيح).

(٣) رواه البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٣).

(٤) رواه البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٣).

(٥) رواه مسلم (٢٤٣٥).



فربما قُلْتُ له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأةً إلا خديجة! فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»^(١). وكان النبي ﷺ إذا سمع صوتَ أختها بعد وفاتها هَشَّ لذلك وذكر صوتَ خديجة، كما في الصحيحين: عن عائشة قالت: استأذنت هالة بنتُ خويلدٍ، أختُ خديجةَ، على رسولِ الله ﷺ، فعرف استئذانَ خديجةَ فارتاح لذلك فقال: «اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ»^(٢).

كَمَلَتْ في دينها وعقلها وخلقتها، يقول ﷺ: «سَيِّدَاتُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ: فَاطِمَةُ، وَخَدِيجَةُ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ»^(٣).

سَبَقَتْ نِسَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْخَيْرِيَّةِ وَالشَّرْفِ وَالسَّنَاءِ، يَقُولُ ﷺ: «خَيْرُ نِسَائِهَا أَيُّ فِي زَمَانِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا أَيُّ: مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»^(٤). صَلَّحَتْ فِي نَفْسِهَا وَأَصْلَحَتْ بَيْتَهَا، فَجَنَّتْ ثَمْرَةَ جُهِدِهَا، فَأَصْبَحَتْ هِيَ وَابْنَتُهَا خَيْرَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ فِي الْجَنَّةِ، يَقُولُ ﷺ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ وَفَاطِمَةُ وَمَرْيَمُ وَأَسِيَةُ»^(٥). كَانَتْ عَظِيمَةً فِي فَوَادِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَتَزَوَّجْ امْرَأَةً قَبْلَهَا وَلَمْ يَتَزَوَّجْ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَا تَسْرَى إِلَى أَنْ قَضَتْ نَحْبَهَا، فَحَزِنَ لِفَقْدِهَا، يَقُولُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (كَانَتْ عَاقِلَةً جَلِيلَةً، دِينَةً مَصُونَةً، كَرِيمَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

وَمِنْ خَيْرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ: عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، الَّتِي وَلَدَتْ فِي بَيْتِ صَدِيقٍ وَتَقْوَى، وَنَشَأَتْ فِي دَارِ إِيْمَانٍ، فَأُمُّهَا صَحَابِيَّةٌ، وَأَخْتُهَا أَسْمَاءُ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ صَحَابِيَّةٌ، وَأَخْوَهَا صَحَابِيٌّ، وَوَالِدُهَا صَدِيقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ. تَرَعَرَعَتْ فِي بَيْتِ عِلْمٍ، كَانَ أَبُوهَا عَلَامَةً قَرِيشٍ وَنَسَابَتِهَا، مَنْحَهَا اللهُ ذِكَاةً مُتَدَفِّقًا وَحِفْظًا ثَاقِبًا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: (لَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَّمِ مِثْلُ عَائِشَةَ فِي حِفْظِهَا وَعِلْمِهَا وَفَصَاحَتِهَا وَعَقْلِهَا). فَآتَتْ نِسَاءَ جِنْسِهَا فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، رَزَقَتْ فِي الْفِقْهِ فَهْمًا، وَفِي الشَّعْرِ حِفْظًا، وَكَانَتْ لِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَعِوَاءً، يَقُولُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (أَفْقَهُ

(١) رواه البخاري (٣٨١٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧).

(٣) السلسلة الصحيحة (١٣/٤).

(٤) رواه البخاري (٣١٧٨) ومسلم (٤٤٥٨).

(٥) رواه أحمد.



نساء الأمة على الإطلاق، ولا أعلم في أمة محمد بل ولا في النساء مطلقاً امرأة أعلم منها، سمّت على النساء بفصائلها وجميل عَشْرَتِهَا، يقول المصطفى ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١). أحبّها النبي ﷺ، وما كان ليحبّ إلا طيباً، يقول عمرو بن العاص: أيّ الناس أحبّ إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة»، قلت: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»^(٢).

لم يتزوج بكراً غيرها، ولا نزل الوحي في لحاف امرأة سواها، عفيفةٌ في نفسها، عابدة لرّبّها، لا تخرج من دارها إلا ليلاً لثلاثاً يراها الرجال، تقول عن نفسها: كنّا لا نخرج إلا ليلاً، محققة قول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال القرطبي رحمه الله: (والشريعة طافحةٌ بلزوم النساء بيوتهنّ والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة.. فإن مسّت الحاجة إلى الخروج فليكن على تبدّلٍ وتستر تام. والله يبتلي من يحبّ، والابتلاء على قدر الإيمان، هُتّت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَعُمُرُهَا اثْنَا عَشَرَ عَامًا، قالت: فبكِت حتى لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع، حتى ظنّ أبوأي أن البكاء فائق كبدِي، واشتدّها البلاء، قالت: حتى قلصّ دمعي فلا أحسّ منه قطرة). قال ابن كثير رحمه الله: (فغار الله لها، وأنزل براءتها في عشر آيات تُتلى على مر الزمان، فسما ذكرها وعلا شأنها؛ لتسمع عفاها وهي في صباها، فشهد الله لها بأنها من الطيبات، ووعدها بمغفرة ورزق كريم. لم تزل ساهرة على نبينا ﷺ، تمرّضه وتقوم على خدمته، حتى توفّي في بيتها، وفي ليلتها، وبين سحرها ونحرها).

وقد اختلف أهل العلم في التفضيل بين خديجة وعائشة، قال ابن عثيمين: (وفصل بعضهم فقال: إنّ لكل منهما مزية لم تلحقها الأخرى فيها، ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك، وبعد موت الرسول ﷺ حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة، فلا يصح أن تفضل إحداها على الأخرى تفضيلاً مطلقاً، بل نقول: هذه أفضل من

(١) رواه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٤٥٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢).

وجه، وهذه أفضل من وجه، ونكون قد سلطنا مسلك العدل، وعند التفصيل يحصل التحصيل، وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معاً).

وسليمة القلب سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد خديجة، وانفردت به نحواً من ثلاث سنين، كانت جليلاً نبيلة، رزقت صفاء السريرة، وهبت يومها لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رعاية لقلب النبي ﷺ بتبغى رضا ربها.

والقوامه الصوامه حفصة بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نشأت في بيت نصرة الدين وإظهار الحق، سبعة من أهلها شهدوا بدرًا، تقول عنها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ.

والمنفقة زينب بنت خزيمة الهلالية، ذات البذل والمسارة في الخيرات، مكثت عند النبي ﷺ شهرين ثم توفيت.

والمهاجرة المحتسبة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ليس في أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، ولا فيمن تزوج بها وهي نائبة الدار أبعدَ منها، عقدَ عليها وهي في الحبسة فارةً بدينها، وأصدقها عنه النجاشي صاحب الحبسة وجهرها إليه.

والصابرة الحية أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هند بنت أبي أمية من المهاجرات الأول، ولما أرادت الهجرة إلى المدينة مع زوجها أبي سلمة فرّق قومها بينها وبين زوجها وطفلها، قالت: فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة كاملة أو قريباً منها، حتى أشفقوا عليّ فأعادوا إليّ طفلي. يقينها بالله راسخ، توفي عنها زوجها أبو سلمة فأمرها النبي ﷺ أن تدعو بدعاء عظيم، فعوضها الله برسول الله ﷺ زوجها، تقول: سمعتُ النبي يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها»، قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: وأي المسلمين خير



من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله؟! ثم إني قلتها فأخلف لي رسول الله ﷺ^(١). فاجعل هذا الدعاء ذخرًا لك عند حلول المصاب يعوضك خيرًا من مصيبتك. وأم المساكين زينب بنت جحش، بنت عمّة رسول الله ﷺ، نعتت بالحسب والنسب والشرف والبهاء، زوجها الله نبيّه بنصّ كتابه من فوق سبع سموات، بلا وليّ ولا شاهد، قال عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. زواج النبي ﷺ بها بركة على المسلمين إلى قيام الساعة، حين فرض الحجاب على بنات حواء بعد أن تزوّجها؛ ليكون صيانة للشرف والعفاف والنقاء، سخية العطاء للفقراء والضعفاء، كثيرة البرّ والصدقة، ومع شريف مكاتبتها وعلو شأنها كانت تعمل بيدها، تدبغ وتخزّ وتصدّق من كسبها، قالت عنها عائشة رضي الله عنها: ما رأيت امرأة خيرًا في الدّين من زينب؛ أتقى الله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة.

والعابدة جويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنها، من بني المصطلق، أبوها سيّد مطاع في قومه، وهي مباركة في نفسها وعلى أهلها، تقول عائشة رضي الله عنها: ما رأيت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. كثيرة العبّد لربّها، قانتة لمولاهها، كانت تجلس في مصلاّها تذكّر الله إلى نصف النهار، تقول: أتى عليّ رسول الله ﷺ غدوةً وأنا أسبح، ثم انطلق لحاجته، ثم رجعت قريبًا من نصف النهار، فقال: «أما زلت قاعدة؟» يعني: تذكّرين الله، قالت: نعم. قال: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بها قلت لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنه عرشه، ومداد كلماته»^(٢).

والوجهة صفية بنت حيي رضي الله عنها، من ذرية هارون بن عمران عليه السلام، كانت شريفة عاقلة ذات مكانة ودين، وحلم ووقار، قال لها النبي ﷺ: «إنك لابنة نبيّ أي: هارون، وإن عمك لنبيّ أي: موسى، وإنك لتحت نبيّ»^(٣). وكانت وليمة النبي ﷺ عليها في زواجها السمن والأقط والتمر، فكان زواجًا ميسرًا مباركًا.

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٩٤).

وواصلت الرحم أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من عطاء النساء، منحها الله صفاء القلب، ونقاء السريرة، وملازمة العبادة، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أما إنَّها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم.

رضي الله عن أمهات المؤمنين، زوجات خير المرسلين، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:
 ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّكَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنَّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

أيها المسلمون: زوجات النبي ﷺ عشن معه في بيت متواضع، في حجرات بُنيت من اللبن وسعف النخل، ولكنه مليء بالإيمان والتقوى، صبرن مع النبي ﷺ على الفقر والجوع، كان يأتي عليهن الشهر والشهران وما يوقد في بيوتهن نار، وتأتي أيام وليس في بيوتهن سوى تمر واحدة، ويمر زمن من الدهر ليس فيها سوى الماء بدون طعام، وهن صابرات محتسبات، قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، قناعة في العيش وصبر على موعود الله، ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]. أجورهن مضاعفة مرتين: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُنَّ رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

خمسٌ منهن تزوجن عليه الصلاة والسلام وأعمارهن من الأربعين إلى الستين عامًا، حقق بذلك رعاية الأرمال وكفالة صبيانهن الأيتام، فتزوج خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعمرها أربعون عامًا ولها ثلاثة أولادٍ من غيره، وهو لم يتزوج بعد، وتزوج زينب بنت خزيمة وهي أرملة ناهزت الستين من عمرها، وتزوج أم سلمة وهي أرملة ولها ستة أولاد، وتزوج سودة وهي أرملة وعمرها خمسة وخمسون عامًا.

تزوج من الأقارب من بنات عمه وعماته، وتزوج من الأبعد، وكان لهن زوجًا رحيماً، برًا كريماً، جميل العشرة معهن، دائم البشر متلطفاً بهن، فمن طلب السعادة في بيته فليجعل خير البشر قدوةً له، وقد قيل: ينال المسلم مع أهله من السعادة، بقدر اقتدائه بالنبي ﷺ وأدبه ورفقه وتعامله مع أزواجه، فقد كان خير الناس لأهله، وأرفقه بزوجه، وأكثرهم إغضاءً عن أخطائهن، وكان إذا دخل بيته لم يدخل عابسًا متجهماً، ولا غليظًا مستكبرًا، ولا متتبعًا للعثرات، متقبًا عن العيوب والزلات، بل يكون في مهنة أهله، فيكنس بيته، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، وهو رسول الله ﷺ، قائد الدولة، ومعلم الناس، وصاحب

الحكم. كان ﷺ يتغافل عن واضح الخطأ، ويستتر صريح الزلة، ويطلب مواطن الشناء والشكر، ويتتقى أطيب الكلام، فصلوات ربي وسلامه عليه.

ولتلحق المسلمة بركاب زوجاته الصالحات، فلا فلاح للمرأة إلا بالافتقار بماثرهن في الستر والصلاح، والصبر والتقوى، والإحسان إلى الزوج والولد.

ينبغي الاقتداء بالمؤمنات الصالحات، عبادة وعملاً، وأدباً وخلقاً، وصبراً وقناعة، وسترًا وعفة، وعناية بالبيت، ورعاية للعيال، وتلطفاً مع الزوج، وطلباً لمواطن الرضى منه، وتحرياً لما يجب ويرضى، وتباعداً من كل ما يكدر عليه عيشته، قولاً وفعلاً، فإنها بذلك تنال رضى الله تعالى وتوفيقه وحسن العاقبة منه.

ثم اعلّموا أن الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في محكم التنزيل:
 ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





فضل آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (عند أهل السنة والجماعة)^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفى للشرف من شاء من الأخيار، شرف رسوله محمداً ﷺ على كل البرية، وجعل ذريته أشرف ذرية، أحمد ربي تعالى وأشكره وأثني عليه وأستغفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نتقرب إلى الله تعالى بمحبة رسوله وأصحابه، وآله وعترته الطاهرة الزكية، صلى الله وسلم وبارك عليهم وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فوصية الله تعالى للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. أيها المسلمون.. الشريف في ذاته يفيض بالشرف على من حوله، والكريم في معدنه يسري كرمه في المحيطين به، انظر إلى زجاجة العطر كيف تبقى فواحة بعد نفاذ ما فيها، تطلع إلى جوار المصباح وكيف استحال هالة من نور، وسواراً من ضياء، وكذلك البشر تفيض بركة السعداء منهم وتتعداهم إلى غيرهم. فكثير من سلالة إبراهيم الخليل غدوا أنبياء وأصحاب عيسى صاروا حواريين ورفاق محمد ﷺ شرفوا بالصحبة وأزواجه أمهات للمؤمنين. ونسله استحقوا وصف الشرف والسيادة، كيف لا وفيهم من دمائه دم، وفيهم من روحه نبض، ومن نوره قبس، ومن شذاه عقب، ومن وجوده بقية صلى الله عليه وصلى على آله وأزواجه وصلى على صحابته وسلم تسليماً كثيراً.

ولا شك أن القلب إذا أحب أحداً أحب من يشبهه أو يخالطه، ومن أعظم المحبة في الإسلام بعد محبة الله تعالى، محبة النبي ﷺ، ومن محبة النبي ﷺ محبة آل بيته، أبناء النبي وبناته

(١) صالح بن محمد آل طالب.



وعمه العباس وحمة رضوان الله عليهما، وأبناء أعمامه من المسلمين كعلي بن أبي طالب وابن عباس -رضوان الله عليهما-، وكذا أزواجه الطاهرات -رضي الله عنهن جميعاً-، فكل هؤلاء امتداد لعقبه وذكره ونوره.

ولكرم النبي ﷺ كرمت ذريته، ولشرفه شرف آل بيته، وكانت مودتهم ومحبتهم جزءاً من شريعة المسلمين، فاعتقدوا المودة لهم ومحبتهم وموالاتهم، شهدت بذلك كتبهم المدونة وتفاسيرهم المبسوطة وشروحات السنن ومسائل الفقه. كيف لا، وهم وصية نبينا محمد ﷺ هم وصيته وهم بقيته، إذ يقول: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(١) وكل بيته ﷺ هم أزواجه وذريته وقربته الذين حرمت عليهم الصدقة هم أشرف الناس، وقد قال النبي ﷺ كما روت ذلك عائشة الصديقة في صحيح البخاري: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»^(٢).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني»^(٣). وفي رواية فيها أيضاً: «فاطمة بضعة مني، يربني ما رابها ويؤذني ما آذاها»^(٤).

وروى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت مني وأنا منك»^(٥)، كما قال النبي ﷺ عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال للحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحبه من يحبه»^(٧). وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم وقرآنه العظيم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣٧١٤) ومسلم (٢٤٤٩).

(٤) رواه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٥) رواه البخاري (٤٢٥١).

(٦) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٧) رواه البخاري (٥٨٨٤) ومسلم (٢٤٢١).



الرَّحْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُ تَطْهِيراً ﴿ [الأحزاب: ٣٣] ومعلوم أن هذه الآية نزلت في أزواج النبي ﷺ؛ لأن ما قبلها وما بعدها كله خطاب لمن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لأصحابه: قولوا: «اللهم! صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١). وهذا يفسر اللفظ الآخر للحديث: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد؛ فالآل هنا هم الأزواج والذرية في الحديث الأول.

عباد الله: هذه بعض فضائل آل بيت النبوة كما حفظتها كتب السنة والتزمها المسلمون منذ صدر الإسلام الأول وأنزلوهم منازلهم اللائقة من غير إفراط ولا تفريط. ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ارقبوا محمداً في أهل بيته»^(٢).

وفي الصحيحين أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده! لقراءة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي»^(٣). وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شهد بالرضا لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والسبق والفضل، ولما وضع الديوان بدأ بأهل بيت النبي ﷺ، وكان يقول للعباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والله! لإسلامك أحب إلي من إسلام الخطاب؛ لحب النبي ﷺ لإسلامك»، كما استسقى بالعباس وأكرم عبد الله بن عباس وأدخله مع الأشياخ في مجلسه وهو غلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم، ويحفظون وصية رسول الله ﷺ فيهم حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»)^(٤).

وقال الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: (ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. ومن أحسن القول في

(١) رواه البخاري (٦٣٦٠) ومسلم (٤٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٧١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٢٤٠) ومسلم (١٧٥٩).

(٤) رواه مسلم (٢٤٠٨).



أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس؛ فقد برئ من النفاق).

عباد الله: إن مما ينبغي على كل مسلم اتباع سنة رسول الله ﷺ وسنة آل بيته وتعظيمهم ومحبتهم واقتفاء أثرهم والدفاع عنهم وعن منهجهم ودينهم الحق. واتخاذ ذلك ديناً وقربة إلى الله عز وجل. وتحمل طعون الطاعنين ولمز الشائنين في سبيل هذا المنهج العدل، ولا ينبغي أن يزيد ذلك إلا ثباتاً على الحق وتمسكاً بمنهج الوسط، واتباعاً لسنة آل البيت حقاً، وليس أحدٌ أتبع لمنهجهم اليوم من أهل السنة عامتها وعلماؤها. قال الإمام المجدد محمد بن سليمان التميمي رَحِمَهُ اللهُ: (لآله ﷺ حق لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاتة ما لا يستحقه سائر قريش.. وقريش يستحقون ما لا يستحقه غيرهم من القبائل).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موضع آخر: (وقد أوجب الله لأهل بيت رسول الله ﷺ على الناس حقوقاً، فلا يجوز لمسلم أن يسقط حقوقهم ويظن أنه من التوحيد، بل هو من الغلو والجفاء، ونحن ما أنكرنا إلا ادعاء الألوهية فيهم) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ومع كل الكلام المتقدم إلا أنه ينبغي أن نعلم أن الله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة، وأن الله الملك الحق يجازي كل عبد بعمله، ولذلك فإن الإنسان لا يبلغ الدرجات العلى والفضل العظيم عند الله تعالى إلا بعمله الصالح، وإن نسبه -ولو كان من آل البيت- لا يُغني عنه من الله شيئاً إذا كان فاسقاً فاجراً، يعمل الموبقات والمعاصي، ويترك الواجبات من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك، بل قد يكون وبال ذلك عليه أكثر من غيره.

وقد سئل الإمام الشوكاني - رَحِمَهُ اللهُ وأكرم مثواه - عما قيل في أن العصاة من أهل بيت النبوة لا يُعاقبون على ما يرتكبون من الذنوب، بل هم من أهل الجنة على كل حال تكريماً وتشريفاً! هل ذلك صحيح أم لا؟

فأجاب بقوله: (أقول: لا شك ولا ريب أن أهل هذا البيت المطهَّر لهم من المزايا والخصائص والمناقب ما ليس لغيرهم، وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية شاهدة لهم بما خصهم الله به من التشريف والتكريم، والتبجيل والتعظيم، وأما القول برفع العقوبات عن عصاتهم، وأنهم لا يُخاطَبون بما اقترفوه من المآثم، ولا يُطالَبون بما جنوه من



العظام، فهذه مقالة باطلة ليس عليها أثارة من علم، ولم يصح في ذلك عن الله ولا عن رسوله ﷺ حرف واحد.

وجميع ما أورده علماء السوء المتقربون إلى المتعلقين بالرياسات من أهل هذا البيت الشريف فهو إما باطل موضوع، أو خارج عن محل النزاع؛ بل القرآن أعدل شاهد وأصدق دليل على زجر قول كل مكابر جاحد، فإنه قال عَزَّوَجَلَّ فِي نَسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وليس ذلك إلا لما هن من رفعة القدر، وشرافة المحل بالقرب من رسول الله ﷺ، إلى أن قال: ولو كان الأمر كما زعم هذا الزاعم لم يكن لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، معنى ولا كبير فائدة.

وإذا كان المصطفى يقول لفاطمة البتول - التي هي بضعة منه، يغضبه ما يغضبها ويرضيه ما يرضيها -: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١)، فليت شعري من هذا من أولادها الذي خصه الله بما لم يخصها، ورفعها إلى درجة قصرت عنها؟! فأبعد الله علماء السوء وقتل عددهم؛ فإن العاصي من أهل هذا البيت الشريف المطهر إذا لم يكن مستحقاً على معصيته مضاعفة العقوبة، فأقل الأحوال أن يكون كسائر الناس.

فيا من شرفه الله بهذا النسب الشريف! إياك أن تغتر بما ينمقه لك أهل التبديل (التحريف) انتهت الفتوى^(٢).

إن مجرد الانتساب إلى بيت النبوة لا يكون شرفاً بحد ذاته، إذا لم يصاحبه عمل صالح يقرب صاحبه من الله تعالى، وكم من أناس صالحين من خارج النسب النبوي أفضل من كثير ممن هم من سلالة آل البيت الذين لا يعرفون من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه! وهل أغنى عن أبي لهب قربه من الرسول ﷺ؟! وهل أغنى عن أبي طالب قربه من رسول الله وقد مات على ملة الأسياد والآباء من قريش؟! وقد قال الحسن بن الحسن لرجل يغلو فيهم:

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) إرشاد السائل، نقلاً عن مجلة البيان عدد (١١٥) (ص ١٦).



«ويحك! أحبونا لله، فإن أطعنا الله فأحبونا، وإن عصينا الله فأبغضونا، ولو كان الله نافعا أحداً بقرابة من رسول الله بغير طاعة، لنفنع بذلك أباه وأمه، قولوا فينا الحق، فإنه أبلغ فيما تريدون، ونحن نرضى منكم»^(١).

وقد قرر النبي ﷺ قاعدة واضحة في ذلك فقال: «وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(٢)، فَمَنْ أَخَّرَهُ عَمَلُهُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي ذَلِكَ الْإِيْمَانَ وَالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ كَمَا أَكْرَمْتُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال ابن رجب: (معناه أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ فَيَبْلُغُهُ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١])، إلى أن قال: وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه	فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس	وقد وضع الشرك الشقي أباهب
فما الحسب الموروث إن در دره	لمحتسب إلا بأخر مكتسب
إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة	من الثمرات اعتده الناس في الخطب

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعنا بما فيها من الآيات والحكمة. أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

(١) رواه اللالكائي (٧/١٤٠٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).



الخطبة الثانية:

الحمد لله طاعته أشرف مُكْتَسَبٍ، وطاعته أعلى نسب، سبحانه وبحمده لا مانع لما أعطى، ولا مُعْطَى لما سَلَبَ، وأشكره على مَنَحِهِ العُظْمَى، ونعمه الكبرى تفوق عدَّ العَادِّين وحساب من حَسَبَ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أرجو بها النجاة يوم تشتد الكُرْبُ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله عليُّ المقام وعالي الرُّتَب، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه المتقين الأبرار، ومن إلى دين الحنيفية انتسب، وسلّم تسليماً كثيراً؛ أما بعد:

أيها المسلمون.. نبي الإسلام محمد -صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم-، فهو المختار المصطفى، والنبى المُجْتَبَى، صادق اللهجة إذا تحدّث، طَلَقَ اليَدَ إذا بَدَّلَ، واسع الحلم إذا أُوذِيَ، عظيم النفس، راجح العقل، قد امتلأَ رَحْمَةً وِبرًا، وحكمةً وِحْجَى، لم يُجَالِطَ شيئاً من سيرته شائبةً عبثٍ أو هُو، إخلاصٌ شديد، وِجْدٌ راسخ، لم يُؤَثِّرْ عنه قولٌ ولا عمل يدل على حُبِّ في الرئاسة، أو تطلُّعٍ إلى زعامة، منحه ربُّه من العقل والفهم والإدراك في تدبير بواطن الخلق وظواهرهم، وسياستهم العامة والخاصة، مع عجب شائله، وبديع سيرته، علوٌّ في الذات، وعلوٌّ في القدر، ومقامٌ أرفع في خُلُقٍ كريم، وسيرة حميدة، ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن محمدًا -صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- لم يُخَصَّ آل بيته بوسائل التنعم الأُسْرِيَّة، ولم يجعل لهم مزايا دنيوية خاصة؛ بل رباهم على حياة الزهد والقناعة والإيثار، حتى إنه لم يرض أن يتخذ عليٌّ وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خادِمًا، وأرشدهم إلى الاستعانة بذكر الله والتسبيح والتحميد، ولقد فقه آل بيت رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأرضاهم، فقهوا عن نبهم وأبيهم

محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك، فكانوا في سيرهم وتاريخهم رضوان الله عليهم كانوا بعيدين كل البعد عن كسب الدنيا بانتسابهم وأنسابهم.

لقد كانوا غيارى على نزاهة الرَّحِمِ الذي يَصِلُهُم برسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فما كانوا يستغلون هذا النسب لمصالح دنيوية، شأن المعتاد في أبناء أسر الوجهاء والكُبراء، يقول جويرية بن أسماء - وهو من أخص خَدَم سيدنا علي بن الحسين زين العابدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن آبائه - يقول جويرية: (ما أكل علي بن الحسين بقرايته من رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ درهماً قط).

وفضل أهل بيت رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المعلوم بالاضطرار عند أهل الإسلام في سيادتهم، وفضلهم، وفضلائهم، وحسن سيرهم، وأخلاقهم، وعلو هممهم وعزائمهم، فهم السادة أهل البيت، أسباط رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأولاد أسد الله وأسد رسوله الإمام الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكرم وجهه - ورضي عن العترة الطاهرين، وعن الصحابة الأكرمين أجمعين -.

أهل البيت لهم مكانتهم في مرتبتهم الدينية ومقامهم العلمي، فالأمة تحفظ لهم الحب والتقدير، والاحترام والمودة، على حد قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، هذا هو محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهؤلاء هم آل بيته سر من أسرار الدين وبقائه، وحفظه، وعلوه، وحُجَّتْ، وبرهانه.

فالإسلام دين الله، ومحمد رسول الله، ورسالته خاتمة الرسالات، تولى الله حفظ الدين، وتكفل بخلود كتابه، وأحاط مبادئه وشعائره ومقاصده بحياطته الصمدية، وحفظها ويسرها غصّة سليمة، سهلة تبهر الناس بكمال لا يُدانيه كمال، وصلاحية لا يُخالطها بلى، وتجدد لا يُنازعه تقادم.

وإن المسلمين إنما أحبوا أصحاب النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما لهم من صلة بالنبي سبباً، وإنما أحبوا آل بيته لما لهم من صلة به نسباً، فكان ذلك الحب إنما هو ترجمة لحبهم دينهم ونيهم.

ولأن آل بيت نبينا محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومحبتهم، أمر تهفو إليه النفوس وشعور تجثو عنده العواطف، وحس يتحرك له الوجدان فقد دخل من هذا الباب من استغله وتاجر به واستخدمه من



ادّعى خدمته، تحت شعار محبة آل البيت والانتصار لهم، فتستروا خلف ادعاء حب آل البيت وموالاتهم، وغلوا فيهم حتى اشتروا لذلك سب أصحاب النبي ﷺ وبغضهم وتكفيرهم، وادّعوا لبعض الآل من صفات الكمال ما لا يليق إلا بالله ذي الجلال، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فظهرت فيهم النُصب والمشاهد على القبور، وادعوا الولاية للمقبورين في هذه الأضرحة، وعظموها وطافوا بها، وادعوا أن لأصحابها تحكم في أمور الناس ومصائرهم، فوقعوا في شرك عظيم بذبحهم وتوسلهم وسؤالهم من دون الله من لا يملك ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا، ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْيَاةً ﴾ [الإسراء: ٥٦].

وفي الوقت الذي ينكر فيه المعروفون من آل البيت تلك العقائد الدخيلة، تنشط في الوقت نفسه عناصر ليسوا عرباً ولا من نسل العرب، في الحديث باسم آل البيت وممارسة طقوس واحتفالات وبدع ومحدثات، لم يثبت عن أئمة آل البيت منها شيء، لا في كتبهم ولا في كتب غيرهم!

ويقودنا هذا إلى تأكيد على دور العلماء وطلبة العلم خاصة من النسل الشريف وآل البيت المنيف ممن جرت في عروقهم الدماء الزكية أن يملكوا زمام المبادرة في الحفاظ على عقيدة جدهم ﷺ، وألا يتركوا الصوت العالي يذهب لغيرهم ممن يتاجر باسمهم ويتسلق على ظهورهم ويتنفع بالحديث عنهم، مفسداً أديان الناس وعقائدهم. إن عليهم وعلى عموم الأمة مسؤولية عظمى لهداية الناس وتبصيرهم بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ واكتمل بوفاته، وتنقية فطر المسلمين من لوثات الغلو والجفاء لئلا تحيدهم الأهواء عن صراط الله الذي قال فيه سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].



إن محبة آل البيت دينٌ وقربة، وهي عبادة من ضمن العبادات التي ينبغي أن نقف في حدود الشريعة ولا نعدوها، فلا غلو ولا جفاء، ولكن بعدل وإنصاف واتباع للدليل الشرعي، حتى يقبلها الله تبارك وتعالى.

اللهم ارزقنا حب نبيك وأصحابه وآل بيته، وألحقنا بهم في عبادك الصالحين..

ثم اعلّموا رحمكم الله أن الله تعالى أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه فقال جل في علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ

وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





فضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله طاعته أشرف مُكْتَسَب، وطاعته أعلى نسب، سبحانه وبحمده لا مانع لما أعطى، ولا مُعْطِي لما سَلَب، وأشكره على مَنَحِه العُظمى، ونعمه الكبرى تفوق عدَّ العادِّين وحساب من حَسَب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو بها النجاة يوم تشتد الكُرب، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله عليّ المقام وعالي الرُتب، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه المتقين الأبرار، ومن إلى دين الحنيفية انتسب، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله- فالموعد يوم المعاد، والحشر يوم التناد، يوم يُنفخ في الصور، ويُنقَر في الناقور، أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرّم الله، وصدق النية فيما عند الله، والسعي من وُعط بغيره، والمال قد يجمعه غير آكله، ويأكله غير جامع، والقوي من داوم على طاعة الله، والضعيف من غلبه هواه فانتهك محارم الله، ورأس التقوى مخافة الله، ورأس الفضائل حفظ اللسان، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أيها المؤمنون: إنَّ الله اصطفى محمداً على سائر الأنبياء والمرسلين، وجعله رسولاً للعالمين أجمعين، فاختر له صحابة أختياراً صالحين، آمنوا به حين كفر الناس، وأقدموا حين أحجم الناس، ونصروه حين خذله الناس، واتبعوه وآزره وعزروه وفدوه بالنفس والنفيس، صبروا على الشدة والأواء، والبأساء والضراء، طلباً لرضى الله، ويقيناً بوعد الله، هم القوم

(١) يزيد بن الخضر بن قاسي.



يقولون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع، فكانوا خير صحبة لخير نبي، حتى توفاه الله عزَّوَجَلَّ. ثم بعد وفاته قاموا بدعوته خير قيام، فرفعوا لواء الملة في الأقطار، ونشروا مبادئ الشريعة في الأمصار، حتى اتسعت دولة الإسلام في أقل من قرن من جدار الصين إلى بحر الظلمات المحيط الأطلسي.

قامت على أكتاف أولئك الرجال دولة الإسلام حَقَبًا عديدة، ودهورًا مديدة، فأشرقت بنور الحق، ودخلت القلوب بدين الفضل، ومبادئ التُّبُل، وضيء الهدى، فلم يترك دينُ الله بيتَ مَدَرٍ ولا حجرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بالغًا ما بلغ الليل والنهار، دين الحق قبلت لغته الأرواح قبل الأشباح، تتبع فتوحاته الحضارة والمدنية، والعدل والرحمة، والعلوم الثقيلة والعقلية، على أيدي هذه الأمة الأمية حديثة العهد بالعلم، التي كانت خير أمة أخرجت للناس، وقدوة لهم في الرخاء والبأس.

إنهم صحابة رسول الله ﷺ، هذا الجيل العظيم الذي رباه النبي ﷺ وأحسن تربيته، فأصبحوا صدارة هذه البشرية بعد الأنبياء والرسول، تحقق فيهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ما لم يتحقق في غيرهم منذ بدء الخليقة، ولن يتحقق في غيرهم حتى قيام الساعة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الله عزَّوَجَلَّ نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ»^(١)، وقال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله عزَّوَجَلَّ لصحبة نبيه ونقل دينه»^(٢).

لقد اجتمع في أصحاب محمد ﷺ من عوامل الخير ما لم يتجمع في جيل قبلهم، ولن يتجمع في جيل بعدهم، فتعالوا لنسمع ما وصفهم الله به في كتابه، وما شهد لهم رسول الله ﷺ به في سنته.

(١) الصحيح المسند للوادعي (٨٥٦).

(٢) حلية الأولياء (١/٣٠٥-٣٠٦).

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

هكذا يصف القرآن محمداً ﷺ وأصحابه، ذلك الجيل القرآني المثالي، فقد كانوا كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وصفهم الله بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها مع احتساب جزيل الثواب عند الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ثم قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: ترى في وجوههم السمات الحسن والخشوع والتواضع، لكثرة صلاتهم وسجودهم، فما من شيء يحسن الله به الوجه مثل الصلاة والسجود، وكما قال بعض السلف: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار). ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾، لقد عظم الله فضل الصحابة وكبر شأنهم بأن نوه بذكرهم في الكتب السماوية السابقة التوراة والإنجيل، فمثلهم الله فيها بالزرع، فقال سبحانه: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي: مثل الصحابة في قوة وجودهم، وامتدادهم، ونصرتهم، وتأزرهم، وتأيدهم، وجهادهم؛ كمثل الزرع الذي يتفرع وينتشر، ويزداد ويقوى، ويطول ويشد ساقه، فيعجب أهله الذين غرسوه، ليغيب بهم الكفار، وهل هناك أعيظ على اليهود وغيرهم من الكفار وأشد حنقا على قلوبهم ما رأوه من نصره الصحابة للنبي ﷺ، وجهادهم لأعداء الله، حتى هزموا المجوس والروم، وأذلوا أهل الشرك وطواغيت الكفر في الأرض جميعا.

ومما جاء في بيان فضلهم من الآيات قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ هَجَرْتُمْ وَرِضْوَانًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِنْهُ وَعَدَدْتُمْ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقد أخبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض بعضهم أو سب بعضهم).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

فهذه بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وعدد المبايعين فيها من الصحابة ألف وخمسة مائة، فأخبر الله أنه قد رضي عنهم جميعاً، وعلم ما في قلوبهم من الصدق والإيمان، وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد؛ الذين بايعوا تحتها»^(١).

والصحابه عباد الله هم الجيل الذي وصفه النبي ﷺ بالخيرية والأفضلية المطلقة على سائر الأجيال، فقد روى البخاري عن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢).

وهذه الخيرية تجعل من جيل الصحابة مثلاً عالياً للمسلمين في كل زمان ومكان، فهم يتطلعون إليهم، ويعتزون بهم، ويتراضون عليهم، ويسترشدون بسيرهم، تلك السير المتنوعة في الحرب والعبادة والمجاهدة والمعاملة، مما يكفل للمسلمين في مختلف العصور نماذج متنوعة صالحة للاقتداء.

فالصحابه كانوا في السلم هداة معلمين، مصلحين عاملين، وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم أمانة لأمتهم، ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما تُوعَد، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبَت أتى أصحابي ما يوعَدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعَدون»^(٣).

ولقد كان الصحابة في الحرب مؤمنين محتسبين مجاهدين ثابتين، وما أجمل موقفهم في نصرة النبي ﷺ حين لقي العدو في بدر على غير ميعاد، وعلى غير استعداد، فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس»، فقام الصديق فقال وأحسن القول، ثم قام عمر

(١) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥١).

(٣) رواه مسلم (٢٥٣١).



فقال وأحسن القول، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه. ولا زال عليه الصلاة والسلام يقول: «أشيروا عليّ أيها الناس». فقام سعد بن معاذ فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل»، قال: «إنا قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فيسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»^(١).

وما أجمل ما وصفهم القرآن به بعد غزوة أحد، حين همّ المشركون أن يهجموا عليهم إلى المدينة بعد انصرافهم من غزوة أحد، فبإيادهم فيها، فلما علم النبي ﷺ بأن قريشاً قد أجمعت أمرها على ذلك، دعا أصحابه للخروج إلى حمراء الأسد، ليرد كيد قريش، ويقذف الرعب في قلوبهم، فبادروا واستجابوا رغم أنهم كانوا مثنخين بالجراح، فخرجوا حتى بلغوا حمراء الأسد، فلما علم كفار قريش بخروجهم ارتدوا على أعقابهم، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَأُولَئِكَ يَخْرُجُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

وكذلك أثنى الله على موقفهم في غزوة الأحزاب فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٣].

(١) صححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (١٠٣/٢).

لقد كان أصحاب النبي ﷺ مثلاً أعلى في العطاء والبذل، والسخاء والإيثار، فوالله الذي لا إله إلا هو لم تشهد الأرض في مسيرة بني آدم الطويلة أن توارث قوم فيما بينهم من غير قرابة ولا نسب، وعن طواعية واختيار، إلا في أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يظهر السخاء والكرم والإيثار في أمة من الأمم كما ظهر في صحابة رسول الله ﷺ، ولذلك استحقوا ثناء الله عزَّ وجلَّ عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ نَبَّؤُوا الدَّارَ وَالْآيْمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ولم يكن الصحابة متساوين في الفضل والدرجة، بل كانوا يتفاضلون في السابقة والجهاد وكثرة البذل في سبيل الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَن أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا أَوْلِيَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، فلا يستوي من هاجر وجاهد وأنفق قبل فتح مكة، مع من جاهد وأنفق بعد الفتح، ومع ذلك فقد قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] أي: الجنة، وهذه فضيلة اختصوا بها دون غيرهم، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

وقد فصلت الأحاديث الشريفة مقامات الصحابة وتفاضلهم ودرجاتهم، وقد بشر رسول الله ﷺ العديد من أصحابه بالجنة، مما يدل على سبقهم وفضلهم، فقال ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة» وعاشرهم سعيد بن زيد راوي الحديث، فهؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة^(١).

أصحاب رسول الله ﷺ هم الكوكبة الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ليتلقوا الوحي غُضًّا طرياً من رسول الله ﷺ، ليكونوا المبلِّغين الأوائل عن الله وعن رسوله، إنهم القوم الذين سعدوا بتربية المصطفى عليه الصلاة والسلام، إنهم جيلٌ لم يكن للإنسانية به عهد، دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه وحكّموه، واستتفروا للجهاد فسلّوا السيوف من

(١) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٤٩).



أغمادها، فأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وساروا إلى الهيجاء صفّاً صفّاً، لا يُبشرون بالأحياء، ولا يُعزّون في الموتى، بيض العيون من البكاء، تُحص البطون من الصيام، على وجوههم صلاح الخاشعين، وعملهم عمل الوجلين.

هم حفظة الدين وأمناءه، رجيل الإسلام الأول، قلّ نظيرهم، وعزّ مثلهم، أوفياء لله ولرسوله، محوا رسوم الجهل، وهدموا أنصاب الكهانة، هجروا الديار والأموال، وتبوؤوا الدار والإيمان، ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، استقامة على الدين، ولزوم المنهج، ومحاسبة للنفس، في تربية نبوية لا تطاؤها تربية الحكماء، ولا خبراء التعليم، ولا معلمي الأخلاق، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

اللهم صل على محمد وآل محمد، وارض اللهم عن أصحابه الكرام، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد:

اعلموا أيها الأحبة أنّ الصحابي هو كل من رأى النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام. وقد بلغ عدد الصحابة يوم فتح مكة عشرة آلاف صحابي، وقد توفي رسول الله ﷺ وترك ما يزيد عن مائة ألف صحابي من رجل وامرأة، ولم يمض القرن الأول الهجري حتى مات جميع أصحاب النبي ﷺ، وقد كان آخرهم وفاة وائلة بن الأسقع الليثي سنة ٨٥هـ.

لقد خرج أصحاب النبي ﷺ إلى الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى دين الله وتعليم الناس في مختلف بقاع الأرض، فغادروا أوطانهم وهي عزيزة عليهم، وخرجوا إلى أراضٍ لا عهد لهم بها، وذهبوا إلى أمم لا نسب لهم بها، ولا ألفة بينهم وبين أهلها، فبدلوا في سبيل نشر دين الله قصارى جهدهم، سهروا وضحوا من أجل تبليغ كلمة الله تعالى ونشرها ليلاً ونهاراً، دون ملل ولا كلل، بل كانوا كما قال الله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، حتى أعز الله دينه، ونصر جنده، وأعلى كلمته، وانتشر الإسلام في بقاع الأرض، حتى قال الله فيهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولقد نزلت هذه الآية على النبي وأصحابه، فكانوا هم المعنيون بهذا الشاء قبل غيرهم، حيث أثبت الله عز وجل لهم الخيرية على سائر الأمم. ولقد أجمع الصحابة على تقديم أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم بقية العشرة المبشرين، ثم البدرين أي: من شهد بدرًا، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم بقية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

يقول الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان).



وهذه هي العقيدة الصحيحة في أصحاب النبي ﷺ. وقوله رَضِيَ اللَّهُ: (ولا نذكرهم إلا بخير) فيه إشارة إلى الكف عن أعراضهم، وعدم الخوض فيما شجر بينهم، وأن ذلك فتنة وابتلاء من الله لهم بعد وفاة النبي ﷺ، فهم أحق من غيرهم بقول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقد أخبرهم النبي ﷺ من قبل في حياته بوقوع ذلك، فالصحابه لم يكونوا معصومين ألبتة، وكانوا مجتهدين في ذلك، ومعذورين عند الله، ومنزلتهم ثابتة، وخيرهم سابق، وفضلهم غالب.

فنحن نحب الصحابة لأن الله رضي عنهم وزكاهم في القرآن، وشهد لهم النبي ﷺ بالخيرية والأفضلية، وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في صحيحه أبواباً في فضائل الصحابة والمهاجرين، ثم قال: (باب حب الأنصار من الإيمان)، وخرَّج فيه حديثاً عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ قال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»^(١).

لقد حرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ حتى أخذوا عنه الكتاب والسنة، ثم نشروا دين الله في الأمصار، وبلغوه إلى سائر الأقطار، فهم الوسطة بين الرسول ﷺ وبين كل الأمة ممن جاء بعدهم. فمن قدح في تلك الوسطة فقدح في الدين وسعى للتشكيك في الرسالة، يقول عليه الصلاة والسلام كما في صحيح البخاري: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(٢)، وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدكم ساعة يعني مع النبي ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة»!

أيها المؤمنون: كم يعرف الأولاد والشباب، من مواقف الأصحاب؟ وكم تعرف البنات والأمهات، من قصص الصحابيات؟ هلاً تساءلتم لم يتخبط الجيل في اختيار القدوات، حتى نراه يتيه هنا وهناك، فيلهث وراء الممثلين والممثلات، والساقطين والساقطات؟ ذلك لأننا لم

(١) رواه البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣).

نغرس في قلوبهم حب الفضلاء والعظماء، ولم نقصّ عليهم قصص العلماء والحكماء، وأهل
الصلاح والمروءات، وأصحاب النبوغ في شتى المجالات، فالله الله في حسن التربية، فكلكم
راعٍ ومسؤول عن رعيته.

علّموا أولادكم سيرة النبي ﷺ، وقصّوا عليهم بطولات الصحابة الكرام، والعلماء
الأعلام، اغرسوا محبتهم في قلوب أبنائكم، وازرعوا شمائل وفضائل الصحابييات وأمّهات
المؤمنين في قلوب بناتكم، لعلنا أن نُنير للنشء طريق الحق والعدل، والعلم
والفضل، والأدب والنبيل.

هذا، وصلّوا وسلّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيكم محمد رسول الله، فقد
أمركم بذلك ربُّكم، فقال في محكم تنزيله، وهو الصادق في قوله، قال قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



• صَدِيقُ الْأُمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْمَوَاقِفُ الْعِظَامُ (١)

• الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرح بفضله صدور المؤمنين بالهدى، وأضل الظالمين بحكمته وعدله فلن تجد له ولياً مرشداً، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً فرداً صمداً، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، كرم أصلاً وطاب محتداً، خصه ربه بالمقام المحمود وسماه محمداً، ﷺ وبارك وعلى آله وأصحابه، هم النجوم بهم يهتدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتدى.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله، فإن تقوى الله خلفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ءَ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها المسلمون: ما كان حديثاً يُفترى، ذلك الحديث الذي روى به التاريخ أنباء أعظم ثلثة ظهرت على وجه الأرض في دنيا الناس، إن التاريخ الإنساني بطوله وعرضه لم يشهد من الصدق والتوثيق وتحرّي الحق والحقيقة مثل ما شهد تاريخ الإسلام في سير رجاله السابقين، أولئك القوم الذين ناصرُوا سيد الأنام، وعلى أكتافهم قامت دولة الإسلام.

إن التاريخ الإنساني لم يشهد رجالاً اشتدت بالله عزائمهم، وصدقت لله نواياهم ولرضاه نذروا حياتهم، كما شهد الرجال الأبطال صَحَبَ رسول الله ﷺ وأرضاهم أجمعين.

نعم، فتحوا الفتوح مجاهدين، وحطموا أعظم إمبراطوريات العالم في بضع سنين، وشادوا بالقرآن وكلماته نظاماً جديداً، وعالمًا فريداً، راع روعته الدنيا من أقصاها إلى أدناها، كل هذا يدعونا دعوة مُلحَّة إلى أن نغوص في أعماق حياة أولئك الرجال، ونتمثل سيرهم وحياتهم التي صاغ الدين فضائلها وهذب بالقرآن سجاياها.

سائلوا التاريخ عنا كيف كنا نحن أسسنا بناءً أحمديا

وإن أمر هذه الأمة يا رعاكم الله لن يصلح إلا بما صلح به أولها، ما أحوجنا إلى دراسة السير والتاريخ لسلفنا الصالح، لنقدم رجالاته ونسائه للجيل الناشئ وللأمة كلها لتعلم تاريخها، ومن هم آباؤها وأجدادها، وعلى أكتاف من قام تاريخها ومجدها.

ما أحوجنا إلى ذلك في زمن قلت فيه القدوات التي تُتخذى، بل لمعت أبواق الشرِّ أعداداً من المغنين والمغنيات، والممثلين والممثلات، والتافهين والتافهات، ليكونوا قدوات للشباب الصاعد والجيل الواعد.

أيها الإخوة: إننا اليوم أمام سيرة رجل من أعظم الرجال، رجل حق للأمة أن تفاخر بسيرته أمام الأمم، وأن تبرز بحياته سائر متبعي الملل، رجل انتصر الإسلام بإسلامه، وأعز الله الدين بإيمانه، كاد عمود الدين أن يسقط فأقامه الله به، وارتدت العرب فثبت الله أصحابه به، إنه رجل عظيم القدر، رفيع المنزلة، جليل المكانة، لكم وكم جعل روحه فداء لرسول الله قولاً وفعلاً، إنه من نصر الرسول يوم خذله الناس، وآمن به يوم كفر به الناس، وصدقه يوم كذبه الناس، إنه عبد الله بن عثمان بن عامر أفضل الصحابة، إنه أبو بكر الصديق، ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين والمرسلين خير من أبي بكر.

إنه أول من آمن من الرجال، إنه من لو وضع إيمان الأمة في كفة وإيمان أبي بكر في كفة لرجحت كفة أبي بكر، إنه الورع الفهيم، الحازم الرحيم، التاجر الكريم، أعلم الناس بأنساب قريش في الجاهلية والإسلام، وله اليد الطولى في علم تفسير الأحلام، لم يؤثر عنه أنه شرب خمرًا قط، ولم يؤثر عنه أنه سجد لصنم قط، ولم يؤثر عنه كذب قط، دُعي إلى الإسلام فما تردد ولا كبا، ولا تلعثم ولا نبا، وإنما بادر بالتصديق بما جاء به الصادق المصدوق، فأنزل الله:



﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، فالذي جاء بالصدق محمد ﷺ، والذي صدق به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هو العتيق من النار، وهو ﴿ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وفي الاستباق للخير لا يُشَقُّ له غبار، يسابقه الفاروق فيأتي بنصف ماله متصدقاً، فيجد أبا بكر قد ذهب إلى رسول الله بجميع ماله سابقاً.

يعلنها النبي ﷺ من على المنبر خطيباً فيقول: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَى فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةَ الْإِسْلَامِ وَمُودَتَهُ، لَا يَبْقَى بَابٌ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»^(١)، مكافأته يوم القيامة يقولها: «مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَكَافِيَانَا بِهَا مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنْ لَهُ يَدًا يَكْفِيَانَا اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

يقدم أبو بكر يوم القيامة وفي ميزان حسناته ستة من العشرة المبشرين بالجنة قد أسلموا على يديه.

يقدم أبو بكر يوم القيامة وفي كفة درجاته عشرون صحابياً أعتقهم من ربقة العبودية بأربعين ألف دينار هي لله وفي الله. يتقدم أبو بكر يوم القيامة ليدعى من أبواب الجنة الثانية كلها.

عُذْرًا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنِّي أَقْفُ عَاجِزًا عَنِ أَنْ أُوفِيكَ حَقَّكَ، أَوْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِفَضَائِلِكَ الَّتِي طَفَحَتْ بِهَا الْكُتُبُ.

عُذْرًا فَأَنَا أَمَامَ بَحْرِ لَا يُدْرِكُ قَاعَهُ، وَلَا يُسْبِرُ غُورَهُ، وَلَكِنْ سَنَرْتَشَفُ رَشَفَاتٍ، وَنَقْفُ وَقَفَاتٍ، لَنَلْتَقِطُ بَعْضَ الدُّرْرِ وَنَسْتَلْهُمُ شَيْئًا مِنَ الْعَبْرِ، مِنْ حَيَاةِ صَدِّيقِ الْأُمَّةِ، فِيهَا الذِّكْرَى لِمَنْ تَذَكَّرَ، وَالْعَبْرَةَ لِمَنْ اعْتَبَرَ.

الموقف الأول: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا اجْتَمَعَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ وَكَانُوا قَرَابَةَ تِسْعَةِ وَثَلَاثِينَ رَجُلًا أَلْحَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي الظُّهُورِ وَعَدَمَ الْاِخْتِفَاءِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّا

(١) رواه البخاري (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢).

(٢) صحيح الجامع (٥٦٦١).



قليل»، فلم يزل أبو بكر يلحّ حتى وافقه، وكان رسول الله والمسلمون تفرقوا في نواحي المسجد، وقام أبو بكر خطيباً في الناس، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله، فثار عليه المشركون، وثاروا على المسلمين معه، فضربوا أبا بكر ضرباً شديداً، حتى إن عتبة دنا منه وجعل يضرب وجهه بنعلين مخصوصتين، ثم نزّوا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، حتى جاء بنو تيم قوم أبي بكر وأجلّوا عنه المشركين، فحمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَغْمَى عَلَيْهِ إِلَى بَيْتِ أَهْلِهِ وَقَدْ سَالَتْ دِمَاؤُهُ، وَلَمْ يُفَقْ مِنْ غَشِيَّتِهِ إِلَّا آخِرَ النَّهَارِ، وَأُمُّهُ عِنْدَ رَأْسِهِ تَبْكِي بِيَدِهَا الطَّعَامَ وَالْمَاءَ، وَتَفْتَحُ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَرَى أُمَّهُ، فَيَنْسَى جِرَاحَهُ وَآلَمَهُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا قَالَ: أُمَاهُ! مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَتَغْضَبُ أُمُّهُ وَتَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَوْعَكَ فِيمَا أَنْتَ فِيهِ إِلَّا صَاحِبِكَ، مَا لِي عِلْمٌ بِهِ، فَيَقُولُ: أُمَاهُ، اسْأَلِي لِي عَنْ خَبْرِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أُمِّ جَمِيلٍ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخَطَّابِ، فَقَدِمَتْ وَبَشَّرَتْهُ بِأَنَّهُ سَالِمٌ بِحَمْدِ اللَّهِ، فَأَقْبَلَتْ عِنْدَهَا أُمَّهُ بِطَعَامِهَا وَشَرَابِهَا عَلَّهْ يَشْرَبُ أَوْ يَأْكُلُ، فَقَالَ: يَا أُمَاهُ، اللَّهُ عَلِيٌّ أَنْ لَا أَذُوقَ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى آتِي رَسُولَ اللَّهِ وَأَرَاهُ!!».

يا الله، أيُّ حُبِّ هَذَا؟! أَيُّ وِلَاءِ هَذَا؟! هَلْ سَمِعَ التَّارِيخُ بِمِثْلِهِ؟! فَلْتَرِ الْأُمَّةَ كُلَّهَا كَيْفَ كَانَ الْإِيْمَانُ الْعَظِيمَ وَالْحُبَّ الْكَبِيرَ لِرَسُولِ اللَّهِ فِي قَلْبِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ أَبُو بَكْرٍ وَرَجُلَاهُ تَحْطُّ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَمَا إِنْ يَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ وَيَرَى جِرَاحَهُ وَدِمَاءَهُ إِلَّا وَيَنْكَبُ عَلَيْهِ وَيَقْبَلُهُ، فَيَنْكَبُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ يَقْبَلُونَهُ.

فماذا يقول عندها أبو بكر لحبيبه وصفيه؟ يقول له: بأبي أنت وأمي، ليس بي من بأس إلا ما ناله الفاسق من وجهي يا رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، هذه أُمِّي بَرَّةٌ بَوْلدها وَأَنْتَ مَبَارِكٌ فَادَعِ اللَّهَ لَهَا وَادْعَهَا إِلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَنْقِذَهَا مِنَ النَّارِ، فَدَعَا لَهَا وَدَعَاها، فَمَا أَنْ رَأَتْ ذَلِكَ الْحُبَّ وَذَلِكَ الْمَشْهَدَ حَتَّى قَالَتْ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ.

الله أكبر! هُمُّهُ الدَّعْوَةُ، وَهُمُّهُ هِدَايَةُ النَّاسِ، يَدْعُو أُمَّهُ وَيُرِيدُ بِرَهَا، وَأَعْظَمُ الْبِرِّ أَنْ يَدْعُوها لِدِينِ اللَّهِ، وَأَنْ يَسْتَنْقِذَهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِنَّهُ أَبُو بَكْرٍ لَطَالَمَا اقْتَرَبَ الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ يَرِيدُونَ أَذِيَّتَهُ فَمَا يَقِفُ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ يَدْفَعُ وَيُنَاضِلُ عَنْهُ، إِنَّهُ الْإِيْمَانُ الرَّاسِخُ وَالْحُبُّ الصَّادِقُ، إِنَّهَا الشُّجَاعَةُ وَالْبَطُولَةُ، يَعْتَرِفُ بِهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِذْ قَالَ يَوْمًا: «أَخْبَرُونِي بِأَشْجَعِ النَّاسِ، قَالُوا: أَنْتَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي مَا بَارَزْتُ أَحَدًا إِلَّا انْتَصَفْتُ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ أَبُو بَكْرٍ، لَقَدْ



رأيت رسول الله وقريش تشده وتجُرُّه، يقول علي: والله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر يجاهدهم ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع علي عنه بردة كانت عليه وبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم الله أمؤ من آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعة من أبي بكر خير منه، ذلك رجل يكتُم إيمانه وهذا يعلن إيمانه^(١).

الموقف الثاني: من الذي له الشأن الأعلى والقدر المعلى في هجرة رسول الله إلا أبا بكر، يعرض الرسول الهجرة فيبكي، يا لله أيبكى لأنه سيفارق موطنه وملاعب صباه؟ أم يبكي لأنه سيفارق أهله وأمه وأباه؟ لا والله بل يبكي فرحاً، لا لأنه سيسير في موكب مهيب، بل لأنه سيرافق الحبيب، ﷺ، فيجهز راحلتين، ويعد النفقة، ويوظف مولاة، وابنته أسماء، ثم في الغار يدخل قبل النبي ﷺ ليتفقده، وعندما خرجوا إذا بأبي بكر يمشي عن يمينه وشماله، ويكثر التلفت خوفاً وقلقاً عليه، فداءً وتضحية، وإقداماً وشجاعة، حتى وصلوا إلى المدينة، فكان الصديق خير رفيق في خير طريق لخير صديق.

فاللهم ارض عنه وجاهزه عن الإسلام خيراً، واحشرننا معه، وأقر أعيننا برؤياه في جنات النعيم.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البزار، وأصل القصة في البخاري.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رفع قدر أولي الأقدار، وأشكره على فضله المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار.

أما بعد:

فمن مواقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما جاء في صحيح البخاري عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالساً عند النبي إذ أقبل أبو بكرٍ أخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي: «أما صاحبكم فقد غامر»، فسلم وقال: يا رسول الله! إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً»، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي فجعل وجه النبي يتمعر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، والله أنا كنت أظلم، فقال النبي: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟! فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟!» مرتين، فما أودى أبو بكر بعدها^(١).

يا الله، إنه درسٌ عظيم في العفو والتسامح، إنه درس في صفاء القلوب، إنه درس في عظم منزلة الصديق عند رسول الله، وفي الحديث فوائد لمن استفاد، وذكرى لمن تذكر.

الوقف الرابع: في يومٍ عسير من أيام المسلمين، كادت فيه قاعدة الإسلام أن تموج، لكنّ رجل المواقف الصديق لها، ذاك يوم أن توفي رسول الله، وهاج الناس وماجوا وتضاربت الأقوال، وأغلق باب النبي فلا يُفتح حتى يأتي أبو بكر، ويأتي والناس ينتظرون، فيدخل ويتجه شطر رسول الله ﷺ، فيجده مُسجى بثوبٍ حبرة، فيكشف عن وجهه ويقبله ويبكي قائلاً: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً. ثم يخرج على الناس وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مأخوذاً بهول

(١) رواه البخاري (٣٦٦١).



الْحَطْبُ، لم يصدّق بعد ما سمع، بل يهدد ويتوعد كل من يزعم أن النبي قد مات، وحال الصّحب الكرام في هذه الرزية كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية؛ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فيقوم أبو بكر خطيباً، ويقول قوله الشهيرة: «من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فوعدت هذه الآية على الناس كالصاعقة، وكأتمهم لم يعلموا هذه الآية حتى تليت عليهم، ويقول عمر رضي الله عنه وفي صدره من غصص الأسي ما يُذيب الحشا: «والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض، وعلمت أن النبي ﷺ قد مات».

وفي هذا الموقف الحاسم دليل على شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه ورباطة جأشه عند حلول المصائب، وهو الأسيف الرقيق، وذلك برهان وفرة علمه حيث كشف اضطراب الصحابة بنور الوحي والإصابة.

الموقف الخامس: بعد وفاة النبي مباشرة حدثت في الجزيرة العربية فتنة من أشد الفتن التي مرت على الأمة الإسلامية، وكان الله يتلي هؤلاء القوم بأمر بعد أمر، فابتلاههم أولاً بوفاة الرسول، ثم بهذا الأمر الشديد والموقف العصيب، فما إن علمت العرب بوفاة الرسول، حتى نقضت عهدها، وتركت دينها، ولم يثبت من الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول إلا ثلاث مدن، وقرية واحدة. فارتدت قبائل بني حنيفة، وأسد، وعبس، وذيبيان، وقضاعة، وكندة، وتميم، وقبائل اليمن، وعمان، والبحرين، ومهرة، وتهامة، وغير ذلك من قبائل الجزيرة، ولم يبق على الإسلام إلا المدينة المنورة، ومكة، والطائف، وقرية جوثا بشرق الجزيرة العربية..

وكان النبي ﷺ قد وجه أسامة بن زيد بجيش إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قبض رسول الله، وارتدت العرب حول المدينة، فلما ولي أبو بكر اجتمع إليه أصحاب رسول الله، فقالوا: يا أبا بكر ردّ هؤلاء، تُوجه هؤلاء إلى الروم، وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: «والذي لا إله غيره، لو جرّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ما رددت جيشاً وجه رسول الله، ولا حللت لواء عقده رسول الله». ثم يأتيه عمر ويقول عن الأنصار: «أمروني أن أبلغك لو وليت

أمر الجيش من هو أقدم سنًا من أسامة حيث كان أسامة قريب الثمان عشرة سنة!»، فوثب أبو بكر وكان جالسًا وأخذ بلحية عمر وقال: «ثكلتك أمك وعمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه؟!»، وأمر بالجيش فجمع وأوصاهم بوصاياهم العظيمة في الحرب، ويركب أسامة فرسه وأبو بكر تحت عنقها يمشي معه يودعه ويوصيه، فقال له أسامة: «يا خليفة رسول الله، والله لتركن أو لأنزلن»، قال: «والله لا تنزل، والله لا أركب، وما علي أن أغبر قديمي في سبيل الله ساعة. لله دره من حزم وثبات وشجاعة وإقدام».

ثم يحارب المرتدين من العرب، ويبعث البعث، ويعقد الألوية، ويجهز الجيوش، والصحابة يراجعون أبا بكر، وعمر يأتيه ويقول: «علام نقاتلهم؟! دعهم ما أقاموا الصلاة»، وأبو بكر يرفض، ويجأر بأعلى صوته: «والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»، ويمضى جيش المسلمين لحرب المرتدين، ويعود مظفرًا منصورًا، فما كان من عمر بعدها إلا أن قبل رأس أبي بكر وقال: «وجدتك والله أحسم مني وأمضى».

لقد كان من الممكن أن تكون لهذه الفتنة العظيمة آثار وخيمة، لولا أن الله منّ على الأمة في ذلك الوقت بنعمة عظيمة، تلك هي نعمة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لقد كان الصديق نعمة من الله أيد بها هذه الأمة، وحفظ بها الدين والقرآن، وقمع به المشركين والمرتدين، وحقّ لهذا الرجل أن يوزن بأمة، ولا سيما عندما نعلم أن هذا الموقف كان بعد أيام قليلة جدًا من استلامه للحكم، ومن المعتاد أن قائد الدولة يحتاج إلى فترة للتأقلم على الوضع الجديد، ولاكتساب الخبرة، ولكن الصديق أدار الأمور بحزم وعزم وكفاءة واقتدار، وكأنه يحكم الدولة منذ سنوات، ثم إن مصيبة الردة جاءت بعد أيام قلائل من مصيبة أبي بكر بفقد حبيبه، ولا شك أن مصاب الصديق كان كبيرًا، فهو أقرب الناس إلى رسول الله، وأشهدهم حزنًا على فراقه، ولكن الله رزقه الثبات، والثبات نعمة جليلة لا توهب إلا لمن كان مؤمنًا حقًا ﴿اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].



الموقف السادس: روي في السير عن عمر بن الخطاب قال: كنت أفتقد أبا بكر أيام خلافته ما بين فترة وأخرى، فلحقته يوماً فإذا هو بظاهر المدينة خارجاً متسللاً، فأدركته وقد دخل بيتاً حقيراً في ضواحي المدينة، فمكثت هناك مدة، ثم خرج وعاد إلى المدينة، فقلت: لأدخلن هذا البيت، فدخلت فإذا امرأة عجوز عمياء وحولها صبية صغار، فقلت: يرحمك الله يا أمة الله من هذا الرجل الذي خرج منكم الآن؟ قالت: إنه ليرتدّ علينا، ووالله إني لا أعرفه، فقلت: فما يفعل؟ فقالت: إنه يأتي إلينا فيكنس دارنا، ويطبخ عشاءنا، وينظف قدورنا، ويجلب لنا الماء، ثم يذهب، فبكى عمر حينذاك وقال: الله أكبر، والله لقد أتعبت من بعدك يا أبا بكر.

وتنتهي هذه الحياة الحافلة بالعبادة، ويمرض أبو بكر الصديق خمسة عشر يوماً، يثقل يوماً بعد يوم، ولما حضرته الوفاة إذ بالصديقة عائشة عند رأسه تبكي وتقول:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فيقول أبو بكر: «لا تقولي هكذا يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]». ثم يموت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدفن إلى جانب حبيبه رسول الله، وتأتي عائشة ابنته، فتقف على قبره والدموع في عينيها وتقول: نصر الله وجهك يا أبتاه، وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للعالمين مذكوراً بإعراضك عنها، وللآخرة مغزاً بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعذب بالعزاء عنك حسن العوض منك، فأنا أنتجز من الله مواعده فيك بالصبر عليك، وأستعوضه منك بالدعاء لك، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك.

رحم الله صديق الأمة أبا بكر، ورضي عنه، وجزاه عن أمة محمد خيراً، فإننا والله نتقرب إلى الله بحبه، ولسنا نحبه أو نحب أحداً من أصحاب النبي إلا حباً لنبينا ولديننا، فليست مكائنتهم عندنا إلا لأنهم آمنوا بالله ورسوله، وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولولاهم بعد الله لما وصل إلينا دين الله، فلهم الفضل علينا بعد الله ورسوله، ومن أحبهم

فلحِبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَأَلْحَقْنَا بِهِمْ فِي عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ، إِنَّهُ بِكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيلٌ،
وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ..

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى، وَالرَّسُولِ الْمُجْتَبَى، اللَّهُمَّ وَاَرْضَ عَنِ الْأَرْبَعَةِ
الْخُلَفَاءِ، الْأُمَّةِ الْحَنَفَاءِ، ذَوِي الْقَدْرِ الْعَلِيِّ، وَالشَّرَفِ الْجَلِيِّ: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعِثْمَانَ وَعَلِيًّا، وَمَنْ
سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى، يَا خَيْرَ مَنْ تَجَاوَزَ وَعَفَا.





مواقف من سيرة الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله واهب النعم، ومؤتي الحكم، جعل في كل الأيام معتبراً، وفي قلب الزمان مزدجراً. أحمده سبحانه وأشكره، يقلب الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء، وجعله قدوة الحنفاء، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آل بيته وأهل صحبته وأنصار دعوته، ما رقت القلوب، وراقبت ربها علام الغيوب، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها المسلمون- بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، وأقلوا الركون إلى الدنيا، فإن ما أمامكم عقبه كثود، ومنازل مخوفة لا بد من ورودها والوقوف عندها. فالمنية دانية، وأظفارها ناشبة، واحذروا التسويف وطول الأمل: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الثَّقَوِيَّ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أيها الناس: إن هذه الأمة أمة عظيمة، كريمة مجيدة، ما شهد التاريخ مثلها، وما عرف المخاض مولوداً أكرم على الله منها، أمة تغفو ولكنها لا تنام، قد تمرض ولكنها لا تموت، أمة أنجبت للدنيا علماء فقهاء، وأخرجت للكون أبطالا عظماء، ولنا اليوم وقفة مع تاريخ هذه الأمة، لنقلب الصفحات نلتمس العبر والعظات.

اقروا التاريخ إذ فيه العبر ظل قوم ليس يدرون الخبر

ووقفة اليوم مع علم من أعلام هذه الأمة، ورجلٍ من خيرة رجالها، صائم إذا ذكر الصائمون، وقائم إذا ذكر القائمون، وبطل مغوار إذا ذكر المجاهدون، إذا ذكر الخوف من الله قيل: كان له خطآن أسودان من البكاء، وإذا ذكر الزهد والإيثار قيل: لم يكن يأكل حتى يشبع المسلمون، وإذا ذكرت الشدة في الحق قيل: هو الذي كان إبليس يفرق من ظله، والشياطين تسلك فجاً غير فجّه.

أحسبكم قد عرفتموه، إنه الفاروق عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، صاحب رسول الله ورفيقه في دعوته وجهاده، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، قوي الإيمان، ذو الفراسة والفظنة والذكاء، والهيبه والشجاعة والدهاء، من أشرف قريش في الجاهلية، وله المكانة الرفيعة عندهم، رجل ملهم، كلامه من أجمع الكلام وأكمله؛ ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، أسلم وعمره سبعة وعشرون عامًا، كان إسلامه بعد إسلام حمزة بأيام، وذلك بعد خروج المسلمين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى في السنة الخامسة من البعثة، أعز الله به الإسلام، قال عبدالله بن مسعود: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر.

أسلم عمر فأعزّ الله به الإسلام، وهاجر جهراً، وشهد مع رسول الله بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها، وهو أوّل خليفة دعي بأمر المؤمنين، وأوّل من كتب التاريخ للمسلمين، وأوّل من جمع القرآن في المصحف، وأوّل من جمع الناس على صلاة التراويح، وأوّل من طاف بالليل يتفقّد أحوال المسلمين، فتح الفتوح، وحمل الدرّة فأدّب بها كل نفس جموح، وضع الخراج، ومصرّ الأمصار، واستقصى القضاة، ودوّن الدواوين، وفرض الأعطيات، وحجّ بأزواج رسول الله في آخر حجّة حجّها، قال ابن عمر: سمعت رسول الله يقول: «بينما أنا نائم أوتيت بقدر من لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الرّي يجري في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر»، قالوا: فما أوّلت ذلك؟ قال: «العلم»^(١).

كان يُحب الصلاة، ويأمر بها، وكان يقول: «لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة». قال سعيد بن المسيب: (كان عمر يحب الصلاة في جوف الليل). وكان إذا صلى بالناس فبكى، يُسمع نشيجه إلى آخر الصفوف.

(١) رواه البخاري (٧٠٠٦) ومسلم (٢٣٩١).



قال عبد الله بن مسعود: «إذا ذكِرَ الصالحون فحيَّها بعمر، إنَّ عمرَ كان أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله، كان عمر شديد الخوف من ربِّه، عظيم الخشية له، وكان يقول: «لومات جدِّي بطفِّ الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر».

وعن عبد الله بن عامر قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تينة من الأرض فقال: «ليتني كنتُ هذه التينة، ليتني لم أُخلق، ليت أمِّي لم تلدني، ليتني لم أكن شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً». وقال الحسن: (كان عمر يمرُّ بالآية من ورده فيسقط حتى يُعاد منها أياماً). عرَّف عمر ربَّه، وعرف قدرَ نفسه، فتواضع لله، فرفع الله ذكره وأعلى شأنه، قال عبيد الله بن عمر ابن حفص: إنَّ عمر بن الخطاب حمل قربةً على عنقه فقيل له في ذلك فقال: «إنَّ نفسي أعجبتني فأردتُ أن أذلَّها».

بوع بالخلافة فكان سيفاً على أهل الباطل شديداً عليهم، وسنداً لأهل الحقِّ ليُنَّا معهم، قام على الأرامل والأيتام، ففرض لهم الحاجات، وفرَّج عنهم الكربات.

ولما رجع من الشام إلى المدينة انفرد عن الناس ليتفقَّد أحوال الرعية، فمرَّ بعجوزٍ في خِباء لها فقصدها، فقالت: يا هذا، ما فعل عمر؟ قال: «قد أقبل من الشام سالماً، فقالت: لا جزاه الله خيراً، قال: ولم؟ قالت: لأنَّه والله ما نالني من عطائه منذ تولَّى أمرَ المسلمين ديناراً ولا درهماً، قال: وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع؟! فقالت: سبحان الله! والله ما ظننت أن أحداً يلي على النَّاس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها، فبكى عمر وقال: واعمرها، كلُّ أحدٍ أفاقه منك يا عمر، حتى العجائز. ثم قال لها: يا أمة الله، بكم تبيعيني ظلامتك من عمر، فإني أرحمه من النَّار، فقالت: لا تستهزئ بنا يرحمك الله، فقال: لست بهزءاً، فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسةٍ وعشرين ديناراً. فبينما هو كذلك إذ أقبل عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت: واسوأناه! شتمتُ أمير المؤمنين في وجهه، فقال لها عمر: ما عليك يرحمك الله، ثم طلب رقعةً من جلد يكتب عليها فلم يجد، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، هذا ما اشترى به عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً، فما تدعي عند وقوفه في الحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه بريء.

شهد على ذلك علي وابن مسعود»، ثم دفع الكتاب إلى أحدهما وقال: إذا أنا مت فاجعله في كفني ألقى به ربي».

فرحم الله عمر، جُمعت له الدنيا فأعرض عنها وزهد فيها، قال معاوية: «أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردّها». قال قتادة: (كان عمر يلبس وهو خليفة جُبَّةً من صوف مرقوعا بعضها). وعن أبي عثمان النهدي قال: (رأيت عمر يطوف بالبيت وعليه جبّة صوف فيها اثنتا عشرة رقعة).

وجيء بهال كثير من العراق فقيل: أدخله بيت المال، فقال: «لا وربّ الكعبة، لا يرى تحت سقفه حتى أقسمه بين المسلمين»، فجعل بالمسجد وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار، فلما أصبح نظر إلى الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والدرّ يتلأأ فبكى، فقال له العباس: «يا أمير المؤمنين، ما هذا بيوم بكاء، ولكنه يوم بشرى، فقال: والله، ما ذهبْتُ حيث ذهبت، ولكنه ما كثر هذا في قوم قطّ إلا وقع بأسهم بينهم، ثم أقبل على القبلة فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مُستدرجاً، فإني أسمعك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]».

ويدخل عام الرمادة سنة ثمانى عشرة للهجرة، فيقضي على الأخضر واليابس، ويموت الناس جوعاً، فحلف عمر ألا يأكل سمناً حتى يرفع الله الضائقة عن المسلمين، وضرب لنفسه خيمة مع المسلمين حتى يُبَاشِرَ بنفسه توزيع الطّعام على الناس؛ عن طاووس عن أبيه، قال: «أجذب النَّاسَ على عهد عمر، فما أكل سمناً ولا دسماً حتى أكل الناس»، قال أسلم: «كنا نقول: لو لم يرفع الله الضّائقة عام الرمادة، لظننا أن عمر يموت همماً بأمر المسلمين».

ومرض مرّة فوصف له الأطباء العسل، وكان في بيت المال عكّة فيها شيء من العسل، فلم يأخذ منها حتى جاء المنبر، وقال للناس: «إن أذنتم لي فيها أخذت منها، وإلاّ فهي عليّ حرام»، فأذنوا له.

وروي أنّه كان يقسم شيئاً من بيت المال فدخلت ابنة له صغيرة فأخذت درهماً، فنهض في طلبها حتى سقطت ملحفته عن منكبيه، ودخلت الصبيّة إلى بيت أهلها تبكي، وجعلت الدرهم في فمها، فأدخل عمر أصبعه في فمها فأخرج الدرهم وطرحه مع مال المسلمين.



وجاءته يوماً قافلة من مصر تحمل اللحم والسمن والطعام والكساء، فوزَّعها على الناس بنفسه وأبى أن يأكل شيئاً، وقال لقائد القافلة: «ستأكل معي في البيت»، ومنى الرجل نفسه وهو يظن أن طعام أمير المؤمنين خير من طعام الناس. وجاء عمر والرجل إلى البيت جائعين بعد التعب، ونادى عمر بالطعام فإذا هو خبز مكسّر يابس مع صحنٍ من الزيت، فاندھش الرجل وتعجّب، وقال: لم منعني من أن أكل مع الناس لحماً وسمناً؟! فقال عمر: «ما أطعمك إلا ما أطعم نفسي»، فقال الرجل: وما يمنعك أن تأكل كما يأكل الناس وقد وزَّعت اللحم والطعام عليهم؟! قال عمر: «لقد آليتُ على نفسي أن لا أذوق السمن واللحم حتى يشبع منها المسلمون جميعاً».

ومن ورعه وتقشّفه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما روي من أن امرأته اشتھت الحلوى، فأدّخرت لذلك من نفقة بيتها حتى جمعت ما يكفي لصنعها، فلما بلغ عمر ذلك ردّ ما ادّخرته إلى بيت المال وأنقص من النفقة بقدر ما ادّخرت.

لله درُّك أيها الفاروق، فلقد أتعبت من بعدك، وكنت قدوة لكل مسلم صادق، وخليفة عادل.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لقد كان للفاروق عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سياسةً خاصةً مع نفسه، فقد كان أشد الناس على نفسه وأهله، وكان إذا أمر الناس بأمر أو نهاهم عن شيء جاء إلى أهله فصاح بهم: إني قد أمرت الناس بكذا، أو نهيتهم عن كذا، والله لا أوتينُّ بأحد منكم قد خالف ما عليه المسلمون، إلا أضعفتُ له العقوبة!

تلك هي السياسة العمرية، التي مدارها على الترفع عن شهوات النفوس، ومخالفة أهوائها ونزواتها.

قيل إنه دخل يوماً على ابنه عبد الله، وإذا عندهم لحم، فقال: ما هذا اللحم؟ فقال: «اشتهيته». قال: أو كلما اشتهيت شيئاً اشتريته؟! كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهاه». ويخرج رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذات مرةً إلى السوق، فيرى إبلاً سماناً تميزت عن الإبل، فيسأل: إبل من هذه؟ فيقولون: إبل عبد الله بن عمر، فيرسل في طلبه، ويسأل عن الإبل، فيقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنها إبل هزيلة اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحمى لأرعاها، فقال له عمر: «ويقول الناس حين يرونها: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين واسقوها، وهكذا تسمن إبلك، ويروبو ربحك يا ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله، خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل، واجعل الربح في بيت مال المسلمين!».

يأتي الهرمزان مستشار كسرى لابساً تاجاً من ذهب وزبرجد، وعليه الحرير يدخل المدينة فيقول: أين قصر الخليفة؟ قالوا: ليس له قصر. قال أين بيته؟ فذهبوا فأروه بيتاً من طين وقالوا له: هذا بيت الخليفة، قال أين حرسه؟ قالوا ليس له حرس.

طرق الهرمزان الباب، خرج ولده، قال له: أين الخليفة؟ فقال: التمسوه في المسجد أو في ضاحية من ضواحي المدينة، فذهبوا إلى المسجد فلم يجدوه، بحثوا عنه، فوجدوه نائماً تحت شجرة، وقد وضع درّته بجانبه، وعليه ثوبه المرقع وقد توسد ذراعه، في أنعم نومة عرفها



زعيم. تعجب المهرمان مما رأى، هو الذي فتح الدنيا ودرج الملوك والسلاطين، ينام بهذه الهيئة، تحت شجرة، وقال كلمته المشهورة: (حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر).

وراع صاحب كسرى أن رأى
عمرًا بين الرعية عطلاً وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح
مشملاً ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره
من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حقٍ أصبحت مثلاً
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو
فمنت نوم قريير العين هانيها
فمن يباري أبا حفصٍ وسيرته
أو من يحاول للفاروق تشبيها

حجَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالمسلمين آخر حجة له، ووقف يوم عرفة، فخطب الناس، ثم استدعى أمراء الأقاليم، وحاسبهم جميعاً أمام الناس، واقتصَّ للناس منهم، وبعد أن انتهى ذهب ليرمي الجمرات، فرماه أحدُ الحجاج بحصاة في رأسه، فسال دمه، فقال عمر: «هذا قتلي - يعني: أنني سوف أقتل» قال سعيد بن المسيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا صدر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من منى، أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة من بطحاء، ثم طرح عليها رداءه، واستلقى، ثم مدَّ يديه إلى السماء، فقال: «اللَّهُم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط».

فرجع إلى المدينة وهو يتمنى الشهادة، قالت له حفصة ابنته: يا أبت، موت في سبيل الله، وقتل في مدينة رسول الله ﷺ؟! إن من أراد أن يقتل، فليذهب إلى الثُّغور، فيجيب عمر: «سألت ربِّي، وأرجو أن يُلبي لي ربي ما سألت».

وَصَلَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى المدينة، ورأى في المنام أن ديكاً ينقره نقرتين أو ثلاثاً، فعبروا له الرؤيا، فقالوا: يقتلك رجل من العجم، فقام وخطب الناس، وقدم نفسه للمُحاسبة، وجسّمه للقصاص، وماله للمُصادرة، وأعلن في الناس: إن كان ضيع أحداً أو ظلم أحداً أو سفك دم أحد، فهذا جسمي، فليقتص منه، فلما فعل ذلك، ارتجَّ المسجد بالبكاء، وأحسَّ المسلمون أنه

يودعهم، ثُمَّ نزل من على المنبر، واستودع الله الأُمَّة، وكانت هذه هي آخر جمعة يلتقي فيها أمير المؤمنين بأُمَّة محمد ﷺ.

فبينما عمر يصلي بالناس صلاة الفجر إذ طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً، فقال عمر: «قتلني الكلب»، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه لیتّم الصلاة، وأهل المسجد لا يدرون ما يجري إلا من كان خلف عمر، غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله! سبحان الله! فصلّى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال عمر: «يا ابن عباس، انظر من قتلني»، فذهب ابن عباس ثم عاد فقال: قتلك غلام المغيرة، قال عمر: «قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتي بيد رجل يدعي الإسلام»، فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقاتل يقول: لا بأس، وقاتل يقول: أخاف عليه، فأتي بنيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس يشنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشريا أمير المؤمنين بشري الله لك من صحبة رسول الله وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال عمر: «وددت أن ذلك كفاف، لا لي ولا علي»، فلما أدبر الشاب إذا إزاره يمس الأرض، فقال عمر: «ردّوا عليّ الغلام، قال: ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك».

ثم دعا ابنه عبد الله فأمره أن يقضي ما عليه من الديون، ثم أمره أن ينطلق إلى عائشة ليستأذنها في أن يدفن مع صاحبيه، فأذنت له وآثرته بالمكان على نفسها، فلما رجع عبد الله وأخبر عمر الخبر قال عمر: «إن أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت فأدخلوني، وإن ردّتني ردّوني إلى مقابر المسلمين».

قال عثمان بن عفان: «أنا آخركم عهدا بعمر، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله، فقال له: ضع خدي على الأرض، فقال عبد الله: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟! فقال عمر: ضع خدي بالأرض لا أم لك، وسمعتة يقول: ويلى ويلى أمي إن لم تغفر لي حتى فاضت نفسه».



من بليغ مواعظه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله: «إن في العزلة راحلة من أخلاق السوء، أو قال من أخلاق السوء».

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين».

وكان يقول: «كل يوم يقال: مات فلان وفلان، ولا بد من يوم يقال فيه: مات عمر».

وقال له رجل: إن فلاناً رجل صدق. فقال له: «هل سافرت معه؟» قال: لا. قال: «فهل

كانت بينك وبينه معاملة بالدينار والدرهم؟» قال: لا. قال: «فهل ائتمتته على شيء؟» قال:

لا. قال: «فأنت الذي لا علم لك به، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد».

وكان يقول: «لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا

حدث، وأمانته إذا ائتمن، وورعه إذا أشفى، أي: قدر على ما تشتهي نفسه من الحرام».

وهو القائل لأبي عبيدة حينما استقبله مع الناس في الشام، فرآه يخوض في الماء والطين

حافياً، وهو يقود بغلته، وغلामه راكب، فقال أبو عبيده: «يا أمير المؤمنين، ما يسرني أن أهل

البلد استشر فوك. فقال عمر: لو قالها غيرك يا أبا عبيدة! إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام،

فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله».

هذا هو عمر الذي عجزت نساء الدنيا أن يلدن مثله، وقصرت أرحامهن أن تخرج

للأرض رجلاً على شاكلته، يلبس رداءه المرقع، ويتوسد حذاءه، ويضطجع تحت ظل شجرة،

وبطنه يقرقر من الجوع، وهو رجل زلزل عروش الأباطرة، من الأكاسرة والقيصرة..

يا من يرى عمراً تكسوه بُردته والزيت أدمٌ له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسیه فرقاً من خوفه وملوك الروم تخشاه

ما بلغ عمر وأصحابه ما بلغوا إلا بهذا الدين الذي أعزهم الله به، حين تأدبوا بأدابه،

وصدقوا مع ربهم في تربية أنفسهم، ومخالفة أهوائهم، وكبح جماح شهواتهم، فكانوا هم

الرجال حقاً، ومن أراد أن يدرك الركب فليأخذ بما أخذوا، وليلتزم ما التزموا، ومن يفعل

ذلك فقد هدي إلى صراط مستقيم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

• ذو النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١)

• الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضِلِّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى.

أيها المسلمون: لقد اصطفى الله لهذه الأمة خيرَ الرسل، واختار سبحانه لصُحْبَةِ نبيه خيرَ رجالٍ في أمته لا كان ولا يكون مثلهم، غفر الله ذنوبهم ورفع مكانتهم ورضي عنهم؛ بإيمانهم وإخلاصهم وصُحبتهم وصدق نُصرتهم للنبي ﷺ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّيْفُوكَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومما يزيد في الإيمان: معرفته سيرة من اتَّصَفَ بِالصُّحْبَةِ وَبَادَرَ إِلَى التَّصَدِيقِ وَأَزَّرَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَصَرَهُ، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: (ومن السنة: ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين).

والدعاء لهم قربة، والافتداء بهم وسيلة، ومحبتهم من أصول الدين، قال الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ).

وأفضل أولئك الجليل الفدّ: أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أرسخهم إيماناً وأغزرهم علماً، وأكثرهم ملازمةً للنبي ﷺ.

ثم عمر الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يليه في الفضل والخلافة كان حصناً حصيناً للإسلام في قوة سيرته وكمال عدله، وما لقيّه الشيطان قطُّ سالكاً فجاً إلا وسلك فجاً غير فجّه.

وثالثهم عظيم اليد كريم النفس: أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبي العاص، ذو النورين أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين، وصاحبُ الهجرتين، وأحدُ العشرة المبشرين بالجنة، له مزية لا يشاركه فيها أحد من العالمين، إذ لم يتزوج رجلٌ من الأولين والآخرين ابنتي نبيٍّ غيره.

وسوف نقف اليوم وقفات مع سيرة هذا الإمام الصالح، والخليفة الراشد، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

يجتمع عثمان مع النبي ﷺ في جدّه الثالث، وهو حفيدُ عمّة النبي ﷺ البيضاء بنت عبد المطلب، أسلم قديماً على يدي أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فكان رابع أربعة في الإسلام، وباع عنه ﷺ بيده في بيعة الرضوان وقال: «هذه يدي وهذه يدُ عثمان»؛^(١).

هو أطول الخلفاء الراشدين خلافة، مكث أميراً للمؤمنين اثني عشر عاماً، كانت كلها أمناً ورخاءً، وعدلاً وسخاءً، كثيرُ العبادة خاشعٌ لله، لما نزل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]، قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هو عثمان».

مُطِيعٌ للنبي ﷺ مُقْتَفٍ أثره، وفيَّ له ولصاحبيّه أبي بكرٍ وعمر، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «صحبتُ رسولَ الله ﷺ وباعته، فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله عزّ وجلّ، ثم أبو بكر مثله، ثم عمر مثله»؛ رواه البخاري.

قال عبدالرحمن بن سمرة: «تُوفِّي رسولُ الله ﷺ وهو عنه راضٍ».

وجلٌّ من ربه، يتذكّر آخرته، كثيرُ الزيارة للمقابر، إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتلّ لحيته، ثابتٌ بيقينه قدوةٌ لغيره، أمر النبي ﷺ بالاعتداء به عند حلول الفتن، ووصفه بالأمين،

(١) رواه أحمد (٢٠٨/١) وصححه أحمد شاكر.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنكم تلقون بعدي فتنةً واختلافًا»، فقال له قائلٌ من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه» وهو يُشير إلى عثمان بذلك^(١).

ومن تعرّف على الله في الرخاء عرفه في الشدة وعصمه من الفتن، ذكر النبي ﷺ الفتن ذات يوم، فقال: «هذا يومئذٍ على الهدى» - وأشار إلى عثمان^(٢). سليمٌ الصدر لا يحمل حسدًا أو حقدًا على أحد، قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ [الأعراف: ٤٣]».

عفيفٌ حافظٌ لدينه، يقول: «والله ما زينتُ في جاهليةٍ ولا إسلامٍ». دمثٌ الأخلاق، وهبه الله علمًا وحلمًا، فكان الصحابة يرجعون إليه، قال ابن سيرين: (كانوا يرون أعلمهم بالمناسك عثمان).

ومنحه الله إيمانًا راسخًا وعقلًا راجحًا، بعثه النبي ﷺ يفاورُ قريشًا في الحديدية، قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لو كان أحدٌ أعزُّ بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه»؛ رواه البخاري. قال الشعبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كان عثمان في قريشٍ محبوبًا يُوصون إليه ويُعظمونه).

وجعله عمرٌ أحدَ أصحاب الشورى الستة من بعده، فكان خيرهم، فاختاروه خليفةً للمؤمنين ولم يعدلوا به أحدًا، قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين بايعوه بالخلافة: «بايعنا خيرنا ولم نأل».

قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لم يجتمعوا على بيعة أحدٍ ما اجتمعوا على بيعة عثمان). والإنفاق في مرضاة الله من علامات صدق الإيمان ومحبة المؤمنين والتوكل على الله، ولعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اليدُ الطولى في البذل والعطاء، نظر النبي ﷺ في وجوه القوم يوم جيش العسرة، والمسلمون يومئذٍ في شدةٍ وفاقة، قال: «من يُجهز هؤلاء غفر الله له»، فجهزهم عثمان حتى ما يفقدون خطأً ولا عقلاً^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٢٤ / ١٦) وصححه أحمد شاكر، والألباني في الصحيحة (٣١٨٨).

(٢) صحيح الترمذي (٣٧٠٤).

(٣) مسند أحمد (٢٤٨ / ١) وصححه أحمد شاكر.

واشترى بيتاً لتوسعة مسجد النبي ﷺ في عهده عليه الصلاة والسلام لما سمع النبي ﷺ يقول: «من يوسع لنا هذا البيت في المسجد بييت في الجنة»؛^(١).

وأعتق من المماليك ما لا يُحصى، كان يقول: «ما أتت عليّ جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبةً منذ أسلمت»، ومن ورعه في سفك الدماء، قوله لمواليه يوم أن حُوصر في الدار: «من أغمَد سيفه فهو حرٌّ».

والحياءُ خلقٌ رفيعٌ يجمعُ المروءات، وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان حَيِّياً حتى مع نفسه، يكون في بيته وحده والبابُ مُغلقٌ عليه فما يخلعُ عنه ثوبه لِيُفِيضَ المَاءَ عليه، ويمنعه الحياءُ أن يُقيمَ صَلْبَهُ وهو يغتسل، وليس في هذه الأمة من يُدانيه في حياته.

وكان النبي ﷺ يستحي منه، قعد عليه الصلاة والسلام ذات يومٍ في مكانٍ فيه ماءٌ قد انكشَفَ ثوبه عن ركبته، فلما دخل عثمان غطَّاهَا^(٢).

والملائكةُ تستحي منه، كان عليه الصلاة والسلام مُضطجعاً على فراشه، فلما دخل عثمان جلس وقال: «ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكةُ؟!»^(٣).

وبعد أيها المسلمون:

فواجبٌ محبة صحابة النبي ﷺ والذَّبُّ عنهم ولزومُ طريقتهم، فقد حفظوا دينَ الله وشريعته، وكانوا أكمل الناس حباً للنبي ﷺ وتعظيماً له وتأسياً به.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنبٍ، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه أحمد (٢٠٨/١) وصححه أحمد شاكر.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم (٢٤٠١).



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي لم يزل حميدًا مجيدًا، والصلاة والسلام على محمد الذي بعثه ربه قائلاً قولاً سديداً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً مزيداً.

أما بعد:

أيها المؤمنون: القرآن كلام رب العالمين، وصَفَّه الله بالبركة والكرم والهدى، من قُرْبٍ منه نالته البركة وعلت عند الله درجته، ولقد كان عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أشد الناس حباً لكلام الله، قال الحسن: «ما مات عثمان حتى خَلِقَ مصحفُه» - أي: بلي - من كثرة ما يُدِيمُ تقلبيه والنظر فيه. وقرأ القرآن كاملاً مراراً في ركعةٍ من العشاء إلى الفجر، وكان يقول: «لو أن قلوبنا طهُرَتْ ما شَبِعْنَا من كلام ربنا».

ومن حسناته العظيمة: جمع الناس على قراءةٍ عظيمة، وكتبه المصحف على العَرْضَةِ الأخيرة التي دارَسَ فيها جبريلُ النبي ﷺ في آخر حياته، فأمرَ عثمان زيدَ بن ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكتب المصحف كاملاً بخط يده ويُفَرِّقَه في الأمصار، وسُمِّي نوع خط المصحف باسمه فقيل: الرسم العثماني؛ نسبةً إلى أمره وزمانه وإمارته، نفعه القرآن ونفع الناس به، ولا فلاح لهذه الأمة إلا بالقرآن والعمل به.

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وفي عصر عثمان بن عفان امتدَّت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن).

ولتعلُّقه بكتاب الله فقد كانت خاتمته بين يديه، فقتل المصحف في حجره وسال الدم على مصحفه، ومع عبادته وخشيته لله كان خليفةً راشداً مُحَنِّكاً، فتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار، واتسعت رقعة المسلمين، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مملكتها ما زوى لي منها»؛^(١).

قال ابن كثير في البداية والنهاية: (وهذا كله تحقَّق وقوعه وتأكد وتوطن في زمان عثمان).

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

وكان الناس في خلافته في عيشٍ رغيدٍ، وأمنٍ وطيِّدٍ، وفي ألفةٍ واتفاقٍ، وصفَ الحسنُ حالَهُم بقوله: «الأعطياتُ في خلافته جارية، والأرزاقُ دارة، والعدو مُتَقَى، وذاتُ البين حسن، والخيرُ كثير، وما مؤمنٌ يخافُ مؤمناً، من لقيهِ فهو أخوه من كان».

ونَهَجُ الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: سلامةُ قلوبهم لبعضهم، ومحبتهم لبعضهم، وتوقيرُ أحدهم الآخر، وكان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يُجِلُّونه في حياة النبي ﷺ وبعد مماته، وكان مُفَضَّلاً عندهم، قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كنا نعدُّ ورسولَ الله ﷺ حيًّا وأصحابه متوافرون: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان».

وقال عليُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد وفاة أبي بكرٍ وعمر: «كان عثمان خيرنا وأحسننا طهوراً».

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إنه لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب».

وكان يحب صحابة رسول الله ﷺ، فكَنَّى نفسه باسم أبي بكرٍ عبد الله، ومن أبنائه من اسمُه عمر، ومن بناته من سَمَّاهَا: عائشة.

ولما عمَّ الرخاء ورسخ الأمنُ وانتشر الإسلامُ في الأرض في خلافته استعجل مرضى القلوب موته، واستطالوا حياته، فثاروا عليه وحاصروه في داره، مستغلين غياب أكثر الصحابة في الحج، وورع الخليفة العادل الرحيم، الذي كان أشد الناس حرصاً على أن لا يلقي الله بدم مسلم، ثم دخلوا عليه وقتلوه، وكان عمره إذ ذاك اثنان وثمانون عاماً، وهو صائم والمصحف في حجره وهو يتلو كتاب الله، وكان مقتله أول الفتن في هذه الأمة، قال حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أول الفتن قتلُ عثمان، وآخرُ الفتن الدجال».

وقد حزنَ الصحابة لمقتله، قال عليُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم مقتل عثمان: «أنكرتُ نفسي»، ولما بلغ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خبرَ قتله استغفرَ له وترحَّم عليه ودعا على من قتله بقوله: «اللهم أندِمهم ثم خذهم»، وكان سعدٌ مُجَابَ الدعوة. وقد أقسمَ بعضُ السلف أنه ما مات أحدٌ من قتلة عثمان إلا مقتولاً.

أيها المسلمون: وإن من العبر في سيرة عثمان، أن نعلم أن من بركة المؤمن أن يكون نفعه مُتعدِّياً لغيره، وما قدَّمه عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لنفسه وللإسلام وللمسلمين من الأعمال والفتوحات



ودخول الناس في الدين وجمعه القرآن، كل ذلك حسنةٌ من حسنات أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،
إذ هو الذي دعاه للإسلام، فكان أحد السابقين ومن الخلفاء الراشدين المأمور بالافتداء بهم.
فما أجمل أن يكون الإنسان قدوة لغيره، داعياً للناس إلى الخير، لعله أن يكون مباركاً يلقي
الله بطاعاتٍ لا تُحصى، فالسعيد من إذا مات تموت معه سيئاته، وتبقى له حسنات، وأعمال دَلَّ
غيره عليها، من تعليم قرآن، أو سنة، أو آداب، أو طاعات، فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً
خيرٌ لك من حُمر النعم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ثم اعلموا أن الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في محكم التنزيل:
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله أوجد الكائنات فأبدعها صنعاً، وأحكمها خلقاً، وهدى عباده النجدين، فأسعد فريقاً وفريقاً أشقى، أحمده سبحانه وأشكره، وأثني عليه بما هو أهله، لم يزل للشكر مستحقاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعبدًا ورقاً، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله هو الأخشى لربه والأتقى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه المقدمين فضلًا وسبقًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ومن نصر دين الله حقًا وسلم تسليماً كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُؤُنْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

معاشر المسلمين: إن جيل الصحابة رضوان الله عليهم خير جيل ظهر على وجه الأرض، هم الذين وضعوا أنفسهم بين يدي رسول الله ﷺ لكي يعلمهم ويربيهم، ويوجههم ويصوغهم، فتلقوا تلكم التربية النبوية الكريمة، حتى خلّت نفوسهم من حظ نفوسهم، وجندوا أنفسهم لنصر الشريعة ورفع لواء الدين، فخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من ربهم ورضوانًا وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون.

ومن بين هؤلاء الصحب الكرام صحابي جليل أحبه الله، وأحبه رسول الله ﷺ، هو الإمام إذا عدّ الأئمة، وهو البطل إذا عدّ الأبطال، هو الشجاع المقدم والبطل الهمام، هو الشهيد الذي قُتل غدراً، ولو أراد قاتله قتله مواجهة ما استطاع، ولكن عادة الجبناء حيلة الغدر، والطعن في الظهر. فمن هو -يا ترى- صاحب هذه الصفات؟

(١) عدنان بن عبدالله القطان.

إنه أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأخوه بالمؤاخاة، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وزوجه فاطمة بنت محمد بن عبد المطلب بن هاشم.

ولد الإمام علي بن أبي طالب قبل البعثة بعشر سنين، وتربى في حجر النبي ﷺ وفي بيته، أول من أسلم بعد خديجة وهو صغير. كان الإمام علي يلقب حيدر، وكناه النبي ﷺ أبا تراب. أحد العشرة المبشرين بالجنة، زوجة النبي ﷺ ابنته فاطمة الزهراء، وهو أبو السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين، اجتمع له من الفضائل الجمّة ما لم يجتمع لغيره، فمن ذلك ما روي عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله عن نفسه:

محمدُ النبيّ أخي وصهري	وحمزة سيد الشهداء عمّي
وجعفرُ الذي يمسي ويضحى	يطير مع الملائكة ابن أُمّي
وبنت محمد سكني وعِرسِي	مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطاً أحمدٍ ولداي منها	فأيُّكمُ له سهمٌ كسهمي؟!

ولما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة أمر علياً أن يبيت على فراشه، وأجله ثلاثة أيام ليؤدي الأمانات التي كانت عند النبي ﷺ إلى أصحابها ثم يلحق به إلى المدينة، فهاجر الإمام علي من مكة إلى المدينة المنورة ماشياً.

شهد الإمام علي المشاهد كلها مع النبي ﷺ إلا غزوة تبوك حيث استخلفه الرسول ﷺ في أهله وقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»^(١) وأعطاه اللواء يوم خيبر ففتحها، واقتلع باب الحصن.

فضائله جمّة لا تُحصى، ومناقبه كثيرة لا تعد، كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه غزير العلم، زاهداً ورعاً شجاعاً، وقد ورد عن الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: (لم يُنقل لأحد من الصحابة من الفضائل ما نقل لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

(١) رواه مسلم (٢٤٠٤).



جمع إلى جانب مهارته في القضاء والفتوى العلم بكتاب الله وفرائده، والفهم لمعانيه ومقاصده، فكان من أعلم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بأسباب نزول القرآن ومعرفة تأويله؛ يشهد لهذا ما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب». فإذا كان هذا شأن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو ترجمان القرآن، فكيف والحال كذلك بمن أخذ عنه؟!!

روى الإمام مسلم في فضائل علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليّ أنه «لا يجنبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق». وقال عنه ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»^(١).

دعاه الرسول ﷺ وزوجته فاطمة وابنيه الحسن والحسين وجلّ لهم بكساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(٢) وذلك عندما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولقد كانت أخلاقه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبساً من نور خلق النبي ﷺ الذي تربى في حجره وعاش على مائدة مكارم النبوة، حتى شب عن الطوق، واكتملت رجولته، وزاد من ذلك مصاهرته للنبي ﷺ، حيث كان يتعاهده وفاطمة الزهراء بالمواعظ والآداب العظيمة، فتنامت أخلاقه شموخاً، وسجاياه علواً ورفعة، وظلت فضائله وأخلاقه ومكارمه حية متألقة في روحه حتى فارق الدنيا، ولقد أجاد ضرار بن ضميرة الكناني في وصف تلك الأخلاق الباهرة والمكارم النادرة، وأبان عن جوهرها ومكوناتها عندما سأله معاوية أن يصف علياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: «كان -والله- بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، ويتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان -والله- غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقرب كفيه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان -والله- كأحدنا، يُدنيا إذا أتيناها، ويجيبنا إذا سألناه، وكان

(١) مسند أحمد (٢/ ١٩٥) وصححه أحمد شاكر.

(٢) صحيح الترمذي (٣٧٨٧).

مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيتُه في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل في محرابه، قابضاً على لحيته، يضطرب ويتقلب تقلب الملسوع، ويبكي بكاء الحزين، فكأنني أسمعُه وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه ثم يقول للدنيا: إِلَيَّ تَعَرَّضْتِ؟! إِلَيَّ تَشَوَّفْتِ؟! هيهات هيهات! عُزِّي غَيْرِي، قد طلقتك ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، أه آه من قلة الزاد، وبعُد السفر، ووحشة الطريق»، فوكفت دموع معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء وهو يقول: هكذا والله كان أبو الحسن.

أبها المسلمون: لقد اشتهر الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالفروسية والشجاعة والإقدام، وكان اللواء بيد علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أكثر المشاهد، في غزوة خيبر قال الرسول ﷺ: «لَأُعْطِينَ الرَايَةَ غَدًا رَجُلًا يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى يَدَيْهِ»، فكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو الْمُعْطَى وَفُتِحَتْ عَلَى يَدَيْهِ (١).

بارز علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شيبه بن ربيعة يوم بدر فقتله، وكان أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُقَسِّمُ قَسَمًا إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هَذَا خِصْمَانِ اتَّخَصَّمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

وفي أحد قام طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين فقال: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيفكم إلى النار، ويعجلكم بسيفنا إلى الجنة، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي إلى الجنة أو يعجلني بسيفه إلى النار؟! فقام إليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنة»، فضربه عليّ فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال: أنشدك الله والرحم يا ابن عمّ، فكبر رسول الله ﷺ، وكبر المسلمون بتكبيره، وقال أصحاب عليّ لعلي: ما منعك أن تُجهز عليه؟ قال: «إن ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه».

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦).



وبارز مَرَحَبًا يهودي يوم خيبر، فخرج مرحب يخطر بسيفه قائلاً:
 قد علمت خيبر أني مرحبٌ شاكي السلاح بطلٌ مجربٌ
 إذا الحروب أقبلت تلتهبُ

فقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:
 أنا الذي سمّيتي أمي حيدرَةٌ كليث غاباتٍ كريه المنظره
 أوفيهم بالصاع كيل السندره

ففلق رأس مرحب بالسيف، وكان الفتح على يديه.
 ومما يدلّ على شجاعته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه نام مكان النبي ﷺ لما أراد رسول الله ﷺ الهجرة، ومع
 شجاعته هذه فهو القائل: «كُنّا إذا احمرّ البأس، ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما
 يكون منا أحد أدنى من القوم منه». فما أحد أشجع من رسول الله ﷺ.
 ورضي الله عن أمير المؤمنين الإمام الشهيد علي بن أبي طالب وأرضاه، وعن جميع الآل
 والأصحاب، وجمعنا الله بهم في دار كرامته وبحبوحة جنته، إنه على كل شيء قدير.
 نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، ويهدي سيد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله
 لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله رفع قدر أولي الأقدار، أحمده سبحانه وأشكره على فضله المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار، من المهاجرين والأنصار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله رحمكم الله، واقتدوا بالعظماء والصالحين من عباد الله، وخذوا الدروس والعبر من سيرهم، واجعلوهم لكم نبراساً ينير لكم الطريق في حياتكم وينفعكم في آخرتكم. ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

عباد الله: لما توفي رسول الله ﷺ بايع عليُّ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكان أحد وزرائه ومستشاريه، وظل طيلة حياة أبي بكر نعم العون والوزير، يساهم في إدارة الدولة وتصريف الشؤون بصدق وإخلاص، وكذلك كان مع عمر، فقد كان له وزير صدق، حتى زوج عمر بابنته أم كلثوم، وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها، وكان في عهد عمر من كبار رجال الدولة الذين تعقد عليهم الآمال، حتى جعله عمر من الستة الذين اختير منهم الخليفة من بعده، ويروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «لولا علي لهلك عمر»، ويروى عنه كذلك أنه قال: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن».

ولما استخلف عثمان بايعه فيمن بايع من جمهور الصحابة، والتزم نصحه ومؤازرته، وكان موقفه منه حين ثارت الفتنة موقف الناصح والمدافع عنه، ولما أطبق الثوار على قصر الخليفة الشهيد أرسل علي ولديه الحسن والحسين بسيفيهما، حتى نفذ قضاء الله.

بويع له بالخلافة بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شديداً في الحق، مقبياً للعدل، خاشعاً لله، مجتهداً في نصح الأمة، يولي الأختيار، ويحاسب المقصرين، ولا يجامل في الحق أبداً، ولا يخاف في الله لومة لائم، زاهداً في الدنيا، بعيداً عن الترف.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذا ذكاءٍ لَمَّاحٍ، وعبقريّة فذة، وبديهة حاضرة، وفراصة صادقة، ينظرُ في وجه المرء فيقرأ فيه مخبوء نفسه، ويسمع الكلام فيشم منه رائحة صدقه أو كذبه، ويأتيه السائل المتعنت، فلا يجد من علي إلا الحجة الدامغة والجواب الشافي.

جاءه رجلٌ يوماً وكان يكره علياً فأطراه ومدحه، فقال له علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لستُ كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك». وقال له رجلٌ آخر وكان يبغضه أيضاً: ثبتك الله، فقال علي: «على صدرك». وقال له قائل: ما بال خلافة أبي بكر وعمر كانت صافية، وخلافتك أنت وعثمان متكدرة؟! فقال: «إنَّ أبا بكر وعمر كنتُ أنا وعثمان من أعوانهما، وكنت أنت وأمثالك من أعواني وأعوان عثمان». وجاءه رجلٌ من يهود فقال له: ما أتى عليكم بعد نبيكم إلا نيفٌ وعشرون سنة حتى ضرب بعضكم بعضاً بالسيف، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فأنتم ما جفّت أقدامكم من البحر حتى قلّتم: يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة».

أبها المؤمنون: إن الباحث المنصف المحقق في كتب ومراجع الطوائف الإسلامية يجد أن الإمام علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مع سابقه من الخلفاء الراشدين على الأخلاق التي رباهم عليها رسولُ الله ﷺ، يحبهم ويجلّهم، ويسمي أبناءه بأسمائهم، ويعترف بفضلهم على رؤوس الأشهاد، وكان لهم رداءً يصدقهم بها يقولون، ويصدقهم بها يقول، ويبدل لهم رأيه ومشورته الناصحة، ويقف معهم صفاً واحداً أمام الملهمات والمواقف العصبية.

ولقد فجع الإمام عليٌّ بموت رجل الإسلام الكبير أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فوقف يرثيه متوجعاً، وقال: «رحمك الله يا أبا بكر، كنت -والله- أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، صدّقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، كنت والله للإسلام حصناً، وللكافرين ناكباً، لم تهن حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك». بل إن عمر كان يأتي إلى عليٍ يطلب منه الموعدة والتذكير، فقال له ذات مرة: عظني يا أبا الحسن، قال: «يا أمير المؤمنين، لا تجعل يقينك شكاً، ولا علمك جهلاً، ولا ظنك حقاً، واعلم أنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، وقسمت فسويت، ولبست فأبليت، قال عمر: صدقت يا أبا الحسن». ولما قتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ



و غسل وكفن وسُجِّي بثوبه، نظر إليه علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال: «ما أحدٌ أحب إلي من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى».

ولما قُتل عثمان وجاء الخبرُ علياً قال: «تبأ لهم الدهر». ودخل على عثمان فوقع عليه، وجعل يبكي حتى ظنَّ من هناك أنه سيلحق به، وتبرأ إلى الله من دمه في مواقف ومناسبات كثيرة، ثبت عنه ذلك من طريق نفي القطع، وعندما بلغه أن القتلة قد ندموا على فعلتهم تلا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكان علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أكثر الناس إنصافاً لخصومه، فقد رأى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في وادٍ مُلقى أي: مقتولاً، فنزل فمسح التراب عن وجهه وقال: «عزيزٌ عليّ -أبا محمد- بأن أراك مجدلاً في الأودية تحت نجوم السماء، إلى الله أشكو عُجْرِي وبُجْرِي»، يعني: سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي. وقال طلحة بن مُصرّف: انتهى علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه، ومسح الغبار عن وجهه وحيتته، وهو يترحم عليه، وقال: «ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة». وكان يقول: «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].»

ومن إنصافه ورسوخ علمه أنه لم يكن يكفر مخالفيه، حتى من الخوارج الذين ذمهم رسو الله ﷻ، فلما سأله أصحابه عن أهل النهروان من الخوارج: أمشركون هم؟ قال: «من الشرك فرؤا»، قيل: أمنافقون؟ قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً»، فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: «إخواننا بَعَا علينا، فقاتلناهم ببغيهم علينا، فهم وإن كانوا فئة باغية، اضطروه إلى قتالهم، إلا أنه لم يأت عنه أبداً أنه كفرهم أو لعنهم».

وكما كانت حياة الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جهادا فقد كان موته استشهادا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حيث طعنه الشقي عبد الرحمن بن ملجم الخارجي وهو يصلي الفجر في مسجد الكوفة، فكان استشهاده في شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، حيث خرج علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبل صلاة الفجر؛ ليوقظ المسلمين للصلاة، ثم دخل المسجد، فوجد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، وجده منبطحاً

على بطنه، وقد جعل سيفه ممّا يلي الأرض مسلوّلاً، فركله عليٌّ برجله، وقال: «لا تنم على بطنك، فإنّها نومة أهل النار»، وافتتح عليٌّ ركعتين، فوثب عليه الخارجي عدوُّ الله، فضربه بالسيف على صدغه فانفلق، فقال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الله أكبر، لله الأمر من قبل ومن بعد». ويحمل ودماؤه تنزف، ويوصي بالألا يعذبوا قاتله، بل: إن متُّ فاقتلوه بي، وإن بقيتُ فسأرى رأيي فيه.

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. وقد دُفن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأُخفي قبره، قال شيخ الإسلام: (المعروف عند أهل العلم أنّه دفن بقصر الإمارة بالكوفة، وأنّه أُخفي قبره؛ لئلا ينبشّه الخوارج الذين كانوا يُكفّرونه، ويستحلّون قتله، فإن الذي قتله واحدٌ من الخوارج؛ وهو عبدالرحمن بن ملجم المرادي، وكان قد تعاهد هو وآخراّنِ على قتلِ علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقتل معاوية، وقتل عمرو بن العاص، فإنّهم يُكفّرون هؤلاء كلّهم، وكلّ من لا يوافقهم على أهوائهم). وأمّا القبر الذي يزوره الشيعة الآن بالنجف، ويدّعون أنّه قبر علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فليس هو قبر علي على الحقيقة، قال ابن تيمية: (وأمّا المشهد الذي بالنجف، فليس بقبر علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأهل المعرفة متفقون على أنّه ليس بقبر عليّ، بل قيل: إنّهُ قبر المغيرة بن شعبه، ولم يكن أحدٌ يذكر أنّ هذا قبرُ علي، ولا يقصده أحدٌ أكثر من ثلاثمائة سنة، مع كثرة المسلمين من أهل البيت والشيعة وغيرهم، وحُكمهم بالكوفة).

أيها المؤمنون: إنّ مما ينبغي لكل مسلم أن يجعل أصحاب النبي قدوته وأسوته، وأن لا يكون طعناً ولا لعاناً ولا فاحشاً ولا متفحشاً، لعله أن يلقي الله وقد سلم لسانه من ذلك، لا سيما فيما شجر بين أصحاب النبي ﷺ، فإنها كانت فتنة عصم الله منها سيوفنا، فلتسلم منها ألسنتنا، ولتبع منهج القرآن في ذلك: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فسلام الله عليك يا أبا الحسن، يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حياً.. هذا وصلوا وسلموا على محمد...



أشج بني أمية عمر بن عبد العزيز (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، الحمد لله الذي خلق الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أرجو بها النجاة من عذابه يوم القيامة، وأصلي وأسلم على من بعثه الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. اللهم صل على محمد وآله، وأصحابه وزوجاته، وذريته والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم اللهم تسليماً كثيراً؛ أما بعد:

عباد الله: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا ربكم، وأنيبوا إليه، واستغفروه، وتوبوا إليه؛ يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى، ويؤت كل ذي فضله.

عباد الله: جاء في أخبار الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما حَدَّث به مولاه أسلم، قال: «كنت أنا وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ليلة من الليالي، وهو يعس بالمدينة» يتفقد أحوال الناس ويبحث عن المحتاجين والفقراء والمساكين «فأعياه المشي؛ فأتكأ على جدار ليرتاح، فإذا به يسمع خلف جدار هذا البيت امرأة تقول لابنتها: يا بنية، قومي فامذقي اللبن بالماء» أي اخلطيه بالماء حتى يزيد، ولعلمهم كانوا يبيعون هذا للناس «فقالَت البنية: يا أماه، أما علمتِ بعزْمَة أمير المؤمنين؟!»

قالت: وما عزمة أمير المؤمنين يا بنية؟ قالت: إن منادي عمر قد نادى في الناس: أن لا يُشَاب اللبن بالماء، فقلت أمها: قومي - يا بنية - فامذقيه بالماء؛ إنك الآن في موطن لا يعلم بك عمر، ولا منادي عمر، فقلت هذه الفتاة الصالحة التي تربت على خوف الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى

(١) عبدالله بن محمد العسكر.



مراقبته، قالت: والله يا أمتاه، ما كنت لأطيعه في العلن وأعصيه في السر، إن كان عمر لا يرانا، فإن رب عمر يرانا!».

المراقبة الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ في مواقف الخلووات كمواقف الجلوات، لا فرق بينهما، فلما سمع عمر هذا الكلام العجيب، قال لمولاه أسلم: «يا أسلم، علّم على الباب»؛ لأن عمر كان يريد أن يعرف مَنْ أهل هذا البيت، فلما جاء الصباح قال عمر لمولاه أسلم: «اذهب إلى ذاك البيت، فاسأل عن حالهم، وعن تلك الفتاة، هل هي ذات بعل أم لا؟» فذهب أسلم وسأل، فإذا الفتاة أيمٌ لا زوج لها، فجمع عمر بنيه، وقال: «يا بني! هل منكم أحد يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟» قال عاصم ابنه: أنا يا أبتاه ليست لي زوجة؛ فزوجني، فخطب عمر لابنه عاصم تلك الفتاة الصالحة^(١).

لم يسأل عمر عن جمالها، وعن نسبها وحسبها، إنما كان الأهم عند عمر أن يزوج ولده بامرأة صالحة، ورعة تقية، فتزوجها عاصم، ومرت الأيام، فولد لهم، ثم تمر الأيام وتدور دورتها، فتكبر بنت عاصم، فتزوج بعبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، فتنجب منه فتى كان علمًا من أعلام الإسلام، وعظيمًا من عطاء هذه الأمة. يقول فيه الإمام الذهبي: (كان من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين).

ويقول عنه: كان (حسن الخلق والخلق، كامل العقل، حسن السمات، جيد السياسة، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أوها منيبًا، قانتًا لله حنيفًا)^(٢).

ولعلكم عرفتم -عباد الله- من هو هذا الفتى، ومن هو هذا العظيم الذي هو من نسل عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه-، إنه: أشجُ بني أمية، عمر بن عبد العزيز ابن مروان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) بتصرف من أخبار أبي حفص للبغدادي (١/٤٨-٤٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/١١٤، ١٢٠).



كان هذا الرجل عظيمًا بحق؛ لأنه كان قمة في كل خلق حسن، لم يكن زاهدًا فحسب، أو عادلاً فحسب، أو أباً عابداً فحسب، بل جمع تلك الصفات جميعاً، فكان عبداً لله، أو اباً منيباً، صالحاً تقياً، نقياً ورعاً، عدلاً إماماً، لا يُذكر العدل والصلاح والتقوى إلا ويُذكر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ.

يحدث عن نفسه وعن طبيعته، فيقول: «إن لي نفساً تَوَاقَّةً، لم تنل شيئاً إلا تَأَقَّتْ إلى ما هو أعلى منه، وإني اليوم قد نلت الخلافة» وهل بعد الخلافة شيء؟! وهل بعد هذه المنزلة منزلة؟! فهل توقفت نفس عمر عن أن تطمح إلى ما فوق ذلك؟ كلا، بل إنها النفس التواقفة، قال: «فلما نلت الخلافة تآقت نفسي إلى الجنة»^(١).

وهي والله منتهى الآمال، وغاية المنى، جعلنا الله وإياكم ووالدينا من أهلها.

أجل، لقد تآقت نفس عمر إلى الجنة؛ فرحُصَّتْ عنده الدنيا جميعاً، الدنيا التي أتت إليه بكل ما فيها، فهو يملك - لو شاء - خزائن المال، وكنوز الذهب والفضة! ولكنه كان يخشى الله تعالى، ويخاف من ربه عَزَّوَجَلَّ؛ فزهد في الدنيا وتركها كلها، يقول مالك بن دينار -العالم الزاهد العابد-: (يقول الناس عني: مالك زاهد، مالك زاهد! وأي زهد زهد مالك، وليس لمالك إلا جُبَّةٌ وكساء؟! إنما الزاهد عمر بن العزيز؛ الذي أتته الدنيا راغمة فأعرض عنها)^(٢).

إن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لم يكن ليصل إلى هذه المنزلة العظيمة من الذكر الحسن الذي تتذكره الأجيال جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، لم يكن ليصل إلى هذه المنزلة السامية العلية لولا أنه يمتلك قدرًا من الصفات العظيمة التي صنعت شخصيته، وصقلت ذاته، فبلغ هذا المنزلة السامية.

لقد كان من أجل صفات عمر خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ ومن الحساب بين يديه، ولم يكن خوف عمر إلا من الله تعالى؛ لأنه كان الخليفة، فإذا كان خليفةً فهل سيخاف من أحد من أهل

(١) بتصرف من وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٠١/٢).

(٢) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٩/٤٥).

الأرض؟! خاصة وأن خلفاء المسلمين في ذلك الزمن كانوا هم سادة الدنيا، وكانت تدل لهم ملوك الشرق والغرب، فممن يخاف عمر إذًا؟!

ولقد بلغ الخوف في قلب عمر مبلغاً عجبياً! تُحدث عنها زوجته فاطمة رَحِمَها اللهُ، وهي أقرب الناس إليه، تقول: «كان عمر يذكر الله في فراشه، فينتفض كما ينتفض العصفور، ثم يستوي جالساً يبكي حتى أخاف أن يصبح المسلمون ولا خليفة لهم»^(١).

تخاف أن تخرج روحه، وأن يموت لما ترى من شدة بكائه وخوفه - رَحِمَها اللهُ - وأرضاه - تقول رَحِمَها اللهُ: «في ليلة من الليالي - بعد أن فرغ عمر من قضاء حوائج الناس - أطفأ السراج، ثم صلى ركعتين لله عَزَّوَجَلَّ، ثم قعد جالساً، ووضع يده تحت خده مطرقاً متأملاً، فما هو إلا قليل حتى بدأت الدموع الغزار تنفجر من عيني عمر، وإذا به يبكي وينتحب وينتفض». فتقوم زوجته فزعاً، أتت إلى زوجها، إلى خليفة المسلمين الذي يبكي هذا البكاء العجيب، فقالت له: «يا أمير المؤمنين، ما الذي أبكاك؟!». ما الذي تظنون - يا عباد الله - أن يبكي عمر؟ وأخاف عمر فجعله لا يهنا بنوم، والناس على فرشهم نائمون؟! قال رَحِمَها اللهُ: «إني تذكرت رعيتي، فذكرت الأسير المقهور، واليتيم الجائع، والأرملة الثكلى؛ فخشيت ألا أكون قد قمت بحقهم، وعلمت أن حجيجي فيهم هو محمد ﷺ؛ فخفت ألا تثبت لي قدم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ»^(٢). هذا الذي أبكى عمر! ثقل الأمانة، واستشعار المسؤولية هو الذي جعل عمر يبكي هذا البكاء العجيب، فيا ليت من ولي من أمر المسلمين شيئاً يستشعر أي أمانة ثقيلة حُمِّل.

لقد كان عمر رَحِمَها اللهُ يذكر الآخرة، فكأنه يرى مشاهدها ويبصر أهوالها، كأنه يرى أهل النار وهم يعذبون ويتضاعفون فيها، لقد كان عمر عابداً لله، خائفاً منه، مراقباً له في سره وعلانيته.

(١) بتصرف يسير من لطائف المعارف لابن رجب ص (٢٥٤).

(٢) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩٧/٤٥).

يحدث عبد الأعلى بن أبي عبد الله قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة، فلما صعد المنبر خطب بالناس، فقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] ثم قال: «وما شأن الشمس؟ ثم قرأ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ [التكوير: ١٢-١٣] قال: فبكى، وبكى أهل المسجد جميعاً حتى رأيت كأن حيطان المسجد تبكي معه! (١). إنه الصدق في الموعظة، وسلامة السريرة، وعظيم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ.

أما عدل عمر، فما ظنك برجل بلغ خوف الله منه هذا المبلغ؟! كيف سيكون عدله؟! رجل لا يخاف إلا الله أتظن به الظلم والبغي والاعتداء على حقوق الناس وأموالهم؟! حينما تولى الخلافة دعا زوجته فاطمة، فقال لها: «يا فاطمة، الحلي والذهب الذي عندك تعلمين من أين هو؟ فهما أمران: إما أن أرجع هذا الحلي إلى بيت المال، أو فخذيه وفارقيني، فوالله لا أجتمع أنا وهو في دار واحدة!»، قالت: لا والله - يا أمير المؤمنين - لا أؤثر على صحبتك شيئاً، فردته رحمها إلى بيت مال المسلمين، فلما مات عمر، وجاء أخوها يزيد بن عبد الملك رد إليها الحلي، وقال: هو لك، قالت: لا والله لا آخذه وقد آخذه مني عمر! فأخذه يزيد، وقسمه على بناته (٢).

أتاه أحد أبناء عمومته - وهو عنيسة بن سعيد، وكان سليمان بن عبد الملك الخليفة السابق لعمر قد أمر لعنيسة هذا بعشرين ألف دينار إلا أنه مات قبل أن يمضيها، يقول عنيسة: فلما ولي عمر دخلت عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن سليمان قد أمر لي بعشرين ألف دينار، وإنه مات قبل أن أقبضها، وأنت أحق من أمضي - عطائه، فانتفض عمر، وقال: «عشرون ألف دينار؟! تكفي لأربعة آلاف من المسلمين!». انظر - عبد الله - إلى الحساب العجيب عند عمر! حتى هذا الرقم لم يكن عمر ليعرفه بهذه السرعة لولا أنه كان دائماً يمارس هذه العملية، كم يحتاج الفقير؟ كم يحتاج المسكين؟ فعمر غضب، وقال: «عشرون ألف دينار تأخذها تكفي لأربعة آلاف من المسلمين! لا والله لا أعطيها أبداً».

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص (٩٠).

(٢) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١/٧٠).

فولى عنيسة حزيناً مكسور الخاطر، فلما دنى من الباب، يقول: ناداني عمر، فقال: «يا أبا خالد! قال: فخطر في قلبي أنه رحمني، وأنه سيعطيني» خاصة أن عمر وعنيسة كانا صديقين، وكان بينهما ألفة ومحبة، لكن عمر لم يكن يجابي في دين الله أحداً، لم يكن يقرب فلاناً وفلاناً لأجل قرابته ولحبه، كلا إنها هو العدل والميزان الذي لا يختلف فيه الناس، قال: «فقال: يا أبا خالد، يا أبا خالد، اذكر الموت؛ فإنه ما ذكر في قليل إلا كثره، ولا في كثير إلا قلله!»^(١). الله أكبر! هكذا كانت أعطيات عمر، هذه جوائز عمر، مواعظ وكلمات تنير الدرب، وتقرب العبد من الله جل وعلا.

لقد ضرب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلاً عالياً في العدل، ومنازة سامقة في سمائه البهية؛ اسمعوا -عباد الله- إلى هذه القصة التي حدثت في عهد عمر، والتي تدل على عظيم عدله -رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أرسلت إليه امرأة فقيرة من الموالي رسالة من مصر، تقول فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من فرتونة السوداء إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز». تأملوا، واسمعوا إلى هذا الخطاب، وما هي القضية التي ستكلم بها أمير الدنيا، وأعظم رجل في ذلك الوقت: «من فرتونة السوداء إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، أما بعد: فإن لي جداراً على حائطي انهدم بعضه؛ فأصبح الغلمان يعبرون على حائطي، فيسرقون دجاجي!». انظر إلى القضية التي كانت تُشغل بال هذه المرأة، وكيف جرأت أن تكتب خطاباً لأمر المؤمنين، وخليفة المسلمين بهذه القضية اليسيرة؛ ولولا أنها تعلم تواضع عمر، وعدل عمر، وإلا لما كتبت إليه، فما كان من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أن رد عليها بقوله: «من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى فرتونة، أما بعد: فإنني قد أمرت عاملي» أي الأمير على مصر «أن يقيم لك الجدار، والسلام»^(٢). هكذا بلغ عدل عمر وحرصه حتى على هؤلاء الذين ربما لا يعلم بهم أقرب الناس إليهم.

أما زهد عمر، فقد كان مضرِب المثل، كيف كانت معيشة عمر؟ وكيف كان عمر في بيته؟

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم المصري، ص (٥٥)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٢٦٤ / ٥).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم المصري ص (٦٢).



لما تولى عمر الخلافة تغير حاله، فكان شيئاً عجيباً! تخلّى عن مظاهر الدنيا، تخلّى عن نعيم الدنيا بأسره، حتى تغير شكله، وشحب وجهه، وثار رأسه، دخل عليه محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ اللهُ، فلما رآه بعد أن تولى الخلافة بأيام إذا به ينظر إلى وجه شاحب، وبدن ناحل، ورأس أشعث، وهيئة رثة، وهو خليفة المسلمين! كنوز الأرض تحت قدميه! ينظر إلى رجل كأن جبال الدنيا على عاتقه يحملها - وهي هموم المسلمين -؛ هي التي فعلت والله بعمر هذا الفعل، فجلس متعجباً ينظر إليه، ففطن فيه عمر، وقال: «ما لك يا ابن كعب تنظر إليّ؟!» فقال: «يا أمير المؤمنين، عجبت والله من حالك!».

وقد كان عمر قبل الخلافة ناعم البشرة، بهي الطلعة، رقيق الثياب، وكان يُضرب به المثل حتى في مشيته، وفي لباسه، فلما تولى الخلافة - وكان من المتوقع أن يزداد من هذا النعيم - إذا به يتحول هذا التحول المذهل، فيراه محمد بن كعب، وقد تغير حاله، فيقول: «الذي جعلني أعجب هو حالك - يا أمير المؤمنين -». فقال عمر: «يا محمد! كيف لو رأيتني بعد ثلاث من دفتي، وقد سألت العينان، وانخسفت الوججتان، وأتى على الجوف الديدان؟! أما لو رأيتني عند ذلك لكنت لحالي أشدّ عجباً، وكنت لي أعظم إنكاراً! فبكى محمد، وضح المجلس بالبكاء!»^(١).

عباد الله: دعونا نتأمل كيف كان عمر يعامل أولاده؟ هل كان أولاد الخليفة يجبطون في مال المسلمين، ويأخذون ما يشاؤون بحجة أنهم أبناء الخليفة؟

كلا، ليس هذا منهج عمر أبداً، بل كان يسير السيرة العمرية، التي كان يسيرها جده عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللهُ عَنَّهُ، فكان يقيم العدل على أهل بيته قبل الناس، وكان يضع فيهم ميزان العدل قبل غيرهم، بل ربما شدد عليهم أكثر من غيرهم.

كان من عادة عمر رَحِمَهُ اللهُ عَنَّهُ أنه إذا صلى العشاء رجع إلى بيته، وجلس مع بنياته الصغار، وفي ليلة دخل كعادته ليسلم ويجلس مع بناته، فلما رأينه قد دخل ابتدرن الباب جميعاً، وقد

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٨٨/٥).



وضعن أيديهن على أفواههن، فعجب عمر، ما الذي جعلهن يهربن ويمضين لما رأيته على غير العادة؟!

فسأل الحاضنة، وقال: «ما شأن بنياتي؟ لم أخرجن وقد وضعن أيدهن على أفواههن؟» قالت: يا أمير المؤمنين. اسمعوا -عباد الله- كيف كان حال أبناء الخليفة وبناته؟ يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن عندهن شيء يأكلنه إلا العدس والبصل، فأكلنه؛ فخشين لما دخلت أن تجد منهن رائحة البصل، فهذا الذي جعلهن يهربن من بين يديك!. فبكى عمر رَحِمَهُ اللهُ، ثم قال: «يا بنياتي، ما ينفعكن أن تأكلن ألوان الطعام، ثم يؤمر بأبيكن إلى النار»، فبكين حتى علت أصواتهن، ثم انصرف بعد ذلك^(١).

بلغه عن أحد أبنائه -ممن كان له مال ورثه من قبل أن يتولى عمر الخلافة- بلغه أنه اشترى خاتماً فِضَّهُ بألف درهم، فاستدعاه عمر، وقال له: «أعزم عليك بالله إلا بعت فصك هذا، وأشبعت به ألف بطنٍ جائع، واشتر خاتماً فِضَّهُ بدرهم، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه!»^(٢).

هكذا كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يتعامل مع أهل بيته، يقيم فيهم العدل، وهكذا كان عمر في هيئته وملبسه، يلبس متواضع الثياب التي لا يملك غيرها، وقد كان عماله وسعاته يسيحون في الديار يحملون الزكاة لا يجدون من يقبلها؛ لأن المال قد فاض، والخير قد انتشر، فلم يعد هناك فقراء^(٣).

لقد عرف عمر بحق قدر نفسه؛ فرفع الله منزلته، وأعلى شأنه، فأصبحنا نذكره على المنابر بعد مئات السنين! رحم الله عمر، وغفر له، وجمعنا به في الجنة مع أحببنا ووالدينا، وأزواجنا ونبينا الكريم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله، فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

(١) بتصرف من سيرة عمر لابن عبد الحكم المصري، ص (٥٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٠٥/٥).

(٣) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١٣/٤٥).



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه واقتفى سنته إلى يوم الدين، وسلم اللهم تسليمًا كثيرًا.

عباد الله: لقد عاش عمر بن عبد العزيز بين المسلمين وكان لسان حاله أعظم واعظ، وأفصح معلم، كان وعظه بمقاله غاية في البيان، ثم كان يتبع ذلك بفعال تبرهن صدق كلامه، لم يكن ينمق الخطابات، ويتحدث أمام الناس بعبارات يعلم الناس أنها محض كذب، كلا، بل لقد كان يقول ويفعل، كان ينصح، فينكفى على نفسه، فيكون أشد لها نصحًا وتوبيخًا.

خطب مرة خطبة على المنبر، وكانت خطبةً نورانيةً بهية، خرجت من قلب معمور بخشية الله، مملوءة بالزهد والإعراض عن الدنيا، فكان مما قال في خطبته: «أيها الناس، إنكم لم تُخلقوا عبثًا، ولم تُتركوا سدى، وإنه لا يأمن غدًا إلا من حذر الله وخافه، وباع نافذًا بياق، وقليلًا بكثير، وخوفًا بأمان.

إنكم تُشيعون في كل يوم غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى أجله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب؛ فاتقوا الله وموافاته، وحلول الموت بكم! أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، ثم خنفته العبرة؛ فأخذ طرف ردائه، فوضعه على وجهه، فبكى وأجهش بالبكاء، وأبكى الناس، ثم نزل من منبره ذلك، فكانت تلك الخطبة هي آخر خطبة خطبها»^(١).

ويذهب في جنازة، فيرى بعض الناس يستظلون من حر الشمس، ويتقون الغبار والتراب، فيقول:

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١٣/٤٥) بتصرف يسير.

أشج بني أمية عمر بن عبد العزيز

من كان حين تصيب الشمس جبهته
ويألف الظل كي تبقى بشاشته
في ظل مقفرة غبراء موحشة يطيل
تجهزي بجهازٍ تبلغين به يا نفس
أو الغبار يخاف الشين والشعثا
فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
تحت الثرى في ظلها اللبثا
قبل الردى لم تُخلقي عبثا

وتدور الأيام دورنها ثم ينزل بعد ذلك بعمر الموت، الذي طالما كان يستعد له عمر، الذي طالما كان يذكره ويزين به مجلسه، فلما دنا أجله، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، فقال: (يا أمير المؤمنين، إنه قد نزل بك ما أرى، وإنك قد تركت صبيّةً صغيراً لا مال لهم؛ فأوص بهم إليّ، أو أقسم لهم من هذا المال) لقد مات عمر وهو لم يبلغ الأربعين من عمره، فكان أطفاله صغيراً لا يملكون شيئاً، فقال وهو على فراش الموت: «ادعوا إليّ بنيّ»، فجيء بهم، وكانوا بضعة عشر صبيّاً، كأنهم أفراخ، فنظر إليهم عمر، نظر إليهم بحنان الوالد، وعطف الأبوة، نظر إلى ضعف الطفولة، وإلى براءة أعينهم، فقال متألماً حزيناً: «بنفسي من تركتهم ولا مال لهم، أيّ بنيّ! إن أباكم قد كان خيراً بين أمرين: إما أن يُغنيكم ويدخل النار، أو يُفقركم ويدخل الجنة؟ وإن أباكم قد اختار أن يُفقركم ويدخل الجنة، إن وليّ عليكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، انصرفوا عني، فانصرفوا». فجعل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يبتهل إلى الله في دعاء خاشع، يقول: «رباه، أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن أفضل ما أقول: لا إله إلا الله». ثم قال لمن حوله: «اخرجوا عني؛ فإني أرى خلقاً ما هم بإنس ولا جن، يزدادون كثرة» فخرجوا من عنده، فجعل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يلهج بالقراءة، يلهج بآيات كتاب الله التي طالما قام بها في الليالي والناس نيام، طالما وقف في ظلمات الليل يناجي ربه خوفاً من هذه الساعة-، فجعل يردد هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ثم هدأ الصوت وسكن، وانقطع الكلام، فدخلوا عليه، فإذا هو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد مات، وقد أغمضت عيناه، ووُجِّه إلى القبلة^(١).

(١) انظر: موارد الظمان للسلمان (٤/ ٩١) والمحتضرين لابن أبي الدنيا، ص (٨٤).



لقد أسلم عمر روجه لله، وفارق الدنيا بعد أن ضرب المثل في العدل والزهد،
والصلاح والتقوى.

لقد مات عمر وقد حقق ذلك كله في سنتين وخمسة أشهر وبضعة أيام فقط، بهذه المدة
الوجيزة صنع عمر هذا التاريخ المذهل، وجاء الفقهاء إلى زوجته فاطمة يعزونها، ثم قالوا لها:
«رحمك الله إن أعلم الناس بالرجل أهل بيته؛ فحدثنا كيف كان عمر، فقالت: والله ما كان
عمر بأكثر صلاة ولا صياماً منكم، ولكن والله ما رأيت أحداً أشد خوفاً لله من عمر! لقد كان
فيما ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، يعني حين يكون معها على الفراش - فيتذكر الأمر من أمر
الآخرة؛ فيقوم يتنفض ويتحب، فأطرح عليه اللحاف رحمة به وشفقة عليه، وأنا أقول: يا
ليت بيننا وبين الإمارة بعد المشركين، والله ما رأينا خيراً منذ دخلنا فيها»^(١).

رحم الله عمر، وأعلى ذكره في المهديين، وجمعنا به في جنات النعيم.

ألا وصلوا وسلموا على إمام العادلين الزاهدين محمد بن عبد الله؛ فقد أمركم الله جل
وعلا بذلك في محكم التنزيل، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) بتصرف من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/٢٣٦).

الحسن البصري (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لم يزل واحداً أحداً، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً، أحمده سبحانه وأشكره، لا نحصي لنعمه عدداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي من الردى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله أشرف متبوع وأفضل مقتدى، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الدجى، ومصايح الهدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان صلاة وسلاماً على مر الزمان أبداً.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله ما استطعتم، وتداركوا بالتوبة النصوح ما فرطتم، ازجروا النفوس عن هفواتها، واغتنموا أعماركم بالأعمال الصالحة قبل فواتها.

أيها المسلمون: إن النفوس البشرية يصيبها الملل والسامة والفتور، فكلل عن العمل، وفتور عن الطاعة، لكنها ما أن يجدوها الحادي، ويقودها الساعي، ويذكرها الذاكر سير أولئك الأفاضل، وأخبار الأتقياء، وإخبات الصالحين، وخشوع الناسكين، إلا وتنشط ويبدأ عملها من جديد، فإذا الفتور يصبح حماساً، والكلل صار عملاً، ولذلك قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: (سير الصالحين أحب إلينا من كثير من الفقه). ذلك لأن الفقه ودراسة العلوم وحدها لا تكفي، دون مواعظ تلين لها القلوب، أو تذكرة ترق لها الأسماع، فتصبح القلوب أوعية للعلم ولا عمل، وقد تصبح قاسية كالحجارة أو أشد قسوة، فما أحوجنا -أيها الأحبة- لسير الصالحين وآدابهم، واتباع سيرهم، والافتداء بسمتهم ودلهم.

إن النظر في سير العظماء يثير في النفس كوامن محبة التشبه بهم، والافتداء بسيرتهم، ولقد ذكر الله لنا في كتابه سير من سبقنا منهم؛ لنهتدي بهديهم، فكم ذكر الله في كتابه من سيرة نبي كريم، وقوم صالحين، تسليّةً لنبيه وللمؤمنين، وتربيةً لنا جميعاً، لتتشبه بالقوم، ونخطو إثر خطاهم.

وهذه الأمة -عباد الله- تملك من رجالها ونسائها رصيذاً ضخماً قد امتلأت به كتب السير، ولكن أين الذين يقرؤون؟! وإذا وجدنا الذين يقرؤون فأين الذين يقتدون ويعملون بما يقرؤون ويسمعون؟!

أيها الأحبة.. سنتحدث اليوم عن سيد من سادات التابعين، وكلهم سادة.

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلَّ لَاقِيَتَ سَيِّدِهِمْ مثل النجوم التي يسري بها الساري
نفق اليوم مع رجل منهم قال عنه الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: (كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً). حقاً إنه علم من أعلام الصالحين، وإمام من أئمتهم، ورجل من رجالتهم، ما أن يُذكر اسمه إلا ويذكر الزهد، وما أن يذكر الزهد إلا ويذكر اسمه، رجل هو الزهد، والزهد هو. فمن هو هذا الجبل يا ترى؟! إنه الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

كان أبوه عبداً من سبي ميسان بالعراق، وكان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ، فأبوه عبد من العبيد، والابن سيد من سادات التابعين، إنه دين الله، كتاب الله، ذلك الذي يرفع الله به مكانة الرجل أو يضعها، وتلك هي المعايير التي كان يقاس بها الرجال، لا النسب ولا الحسب ولا المال ولا الجاه، إنه الدين: ﴿يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

لقد كانت حياته تطبيقاً عملياً لما يقول وينصح به الناس، إن الذي رفع قدر الحسن هو عمله بعلمه وليس علمه فقط، كان على درجة من الفطنة والذكاء، والخشية والإنابة، والعقل والورع، والزهد والتقوى، ما جعله يشبه الصحابة الكرام، بل قال عنه علي بن زيد: (لو أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وله مثل أسنانهم ما تقدّموه).

كان رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَماً عالِياً رفيعاً، فقيهاً ثقة مأموناً، عابداً ناسكاً، كبير العلم فصيحاً، جميلاً وسيماً، قال عنه أحد الصحابة: «لو أدرك أصحاب رسول الله ﷺ لا احتاجوا إلى رأيه».

كانت أمه (خيرة) مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وكان مولده قبل نهاية خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسنتين، وكانت أمه تخرج إلى السوق أحياناً، فتدعه عند أم سلمة، فيصيح جوعاً، فتلقمه أم سلمة ثديها لتعلله به، إلى أن تجيء أمه، وإذا برحمة الله تنزل على الثدي، فيدر لبناً، فيرضع الطفل حتى يرتوي، فإذا هو يرتوي حكمة وفصاحة وتقى، فما أن شب إلا وينايع الحكمة تنبع من لسانه، وجمال الأسلوب وورصانة العبارة وفصاحة اللسان تتحدر من كلامه.

نشأ الحسن البصري في المدينة النبوية، وحفظ القرآن في خلافة عثمان، وكانت أمه -وهو صغير- تخرجه إلى الصحابة فيدعون له، وكان في جملة من دعا له عمر بن الخطاب، فقال: «اللهم فقهه في الدين، وحببه إلى الناس». فكان الحسن بعدها فقيهاً، وأعطاه الله فهماً ثابتاً لكتابه، وجعله محبوباً إلى الناس.

لازم أبا هريرة وأنس بن مالك، وحفظ عنهما أحاديث النبي ﷺ، فكان كلما سمع حديثاً عن المصطفى ﷺ ازداد إيماناً وخوفاً من الله، إلى أن أصبح من نُسَّاك التابعين ومن أئمتهم، ومن وُعَاظهم ودعاتهم، وصار يُرجع إليه في مشكلات المسائل، وفيما اختلف فيه العلماء؛ فهذا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سُئِلَ عن مسألة فقال: «سلوا مولانا الحسن»، قالوا: يا أبا حمزة: نسألك وتقول: سلوا الحسن؟! قال: «سلوا مولانا الحسن، فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا».

وقال أنس بن مالك أيضاً: (إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين). وقال قتادة: (وما جالست رجلاً فقيهاً إلا رأيت فضل الحسن عليه). وكان الحسن مهيباً يهابه العلماء قبل العامة؛ قال أيوب السختياني: (كان الرجل يجالس الحسن ثلاث سنين ما يسأله عن مسألة؛ هيبة منه).

وكان الحسن البصري إلى الطول أقرب، قوي الجسم، حسن المنظر، جميل الطلعة. قال عاصم الأحوال: قلت للشعبي -وهو من علماء التابعين-: (ألك حاجة؟! قال: نعم، إذا



أتيت البصرة فأقروا الحسن مني السلام، قلت: ما أعرفه، قال: إذا دخلت البصرة فانظر إلى أجمل رجل تراه في عينيك، وأهيبه في صدرك، فأقرته مني السلام). قال: فما عدا أن دخل المسجد فرأى الحسن والناس حوله جلوس، فأتاه وسلّم عليه. وكان الحسن صاحب خشوع وإخبات ووجل من الله، قال إبراهيم الشكري: (ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن، وما رأيت قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة). وقال علقمة بن مرثد: (انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، فأما الحسن البصري فما رأينا أحدًا من الناس كان أطول حزنًا منه).

وكان يقول -أي الحسن-: (نضحك ولا ندرى لعل الله قد أطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئًا، ويحك يا ابن آدم، هل لك بمحاربة الله طاقة؟! إن من عصى الله فقد حاربه، والله لقد أدركت سبعين بدريًا، لو رأيتموهم قلت: مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب)! قال مطر الوراق: (الحسن كأنه رجل كان في الآخرة ثم جاء يتكلم عنها وعن أهوالها، فهو يخبر عما رأى وعان).

وقال حمزة الأعمى: (وكنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكي، وربما جئت إليه وهو يصلي، فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يومًا: إنك تكثر البكاء، فقال: يا بني: ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبكي؟! يا بني: إن البكاء داعٍ إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكيًا فافعل، لعله تعالى أن يرحمك. ثم نادى الحسن: بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر دموعه قطرة حتى تعتق رقبتة من النار).

وقال حكيم بن جعفر: (قال لي من رأى الحسن: لو رأيت الحسن لقلت: قد بُث عليه حزن الخلاق، من طول تلك الدمعة، وكثرة ذلك النسيج). قال يزيد بن حوشب: (ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تُخلق إلا لهما). وقد أرسل عمر بن عبد العزيز مرة إلى الحسن: «أما بعد؛ عِظني وأوجِز؟» فكتب إليه الحسن: (أما بعد؛ اعصِ هواك، والسلام!)، وعن حفص بن عمر قال: (بكى الحسن، فقيل له: ما يبكيك؟! فقال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي).



الله ما أظهر هذه القلوب، وما أزكى هذه النفوس، بالله عليك قل لي: هل أرواحهم خلقت من نور؟! أم أطلّعوا على الجنة وما فيها من الحور؟! أم عايشوا النار وما فيها من الثبور؟! أم أنه الإيمان يُكسى صاحبه فيكون كالنور؟! ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

سبحان الله، ما الذي تغيّر؟! هل لهم كتاب غير كتابنا؟! أم نبي غير نبينا؟! أم أرواح غير أرواحنا؟! أم لهم أرض غير أرضنا؟! لا والله، لكن لهم بصائر غير بصائرنا، وغايات غير غاياتنا، وهمم غير هممنا، قلوبنا تغيرت، ونفوسنا أمتت، وأجسادنا تنعمت، غيرتها الذنوب المعاصي، وقيدتها الأهواء والشهوات فكأنها آخذة بالنواصي، فأصبحنا لا نرى هذه الصور الإيمانية، ولا النفوس القرآنية، وصرنا نذكرها كفقير يذكر غناه! أين إخبارات الصالحين؟! أين خشوع المؤمنين؟! أين دموع التائبين؟! أين أنين الخائفين؟!

أيها المسلمون: لقد كان الحسن البصري صاحب مواعظ وتذكير، ولكلامه أثر في النفوس وتحريك للقلوب. قال الأعمش: (ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها). وكان أبو جعفر الباقي إذا ذكره يقول: (ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء).

ومن كلامه رَحِمَهُ اللهُ قوله: (إن قومًا ألهتْهم أمانى المغفرة، رجاء الرحمة، حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة). وجاء شاب إلى الحسن فقال: أعياني قيام الليل -أي: حاولت قيام الليل فلم أستطعه - فقال له: (قيدتك خطاياك).

وجاءه آخر فقال له: إني أعصي الله وأذنب، وأرى الله يعطيني ويفتح عليّ من الدنيا، ولا أجد أني محروم من شيء، فقال له الحسن: (هل تقوم الليل؟! فقال: لا، فقال: كفاك أن حرمك الله مناجاته).

وكان يقول: (من علامات المسلم قوة دين، وجزم في العمل، وإيمان في يقين، وحكم في علم، وحسن في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وطاعة معها نصيحة، وتورع في رغبة، وتعفف وصبر في شدة، لا ترديه رغبته، ولا يبدره لسانه، ولا يسبقه بصره، ولا يغلبه فرجه، ولا يميل به هواه، ولا يفضحه لسانه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته). الله أكبر ما أجمعها من نصيحة! لو وعهاها المسلم لكانت له خطبة كافية وموعظة شافية.

وقال رجل للحسن: إن قومًا يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلًا - أي يتصيدون الأخطاء - فقال: (هون عليك يا هذا، فإني أطمعت نفسي في الجنان فطمعت، وأطمعتها في النجاة من النار فطمعت، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلًا، فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم، فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم؟! هذه - يا عباد الله - بعض أقواله، وذلك الذي سبق ذكره عنه حاله وعمله، فانظروا - رحماني الله وإياكم - كيف تطابق القول والعمل.

أما حاله مع المال فكان يقول: (والله ما أعزَّ أحدُ الدرهم إلا أذله الله).

وقال بعض السلف: سمعت الحسن يقول: (بئس الرفيقان: الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقانك).

هذا هو الفقه والفتنة والعقل والنظر السليم، فالمال لا ينفع الإنسان إلا إذا فارقه، فذهب في حاجة الأهل، أو صلة للرحم، أو وقع في يد فقير محتاج لا يجد ما يسد به رمقه ورمق عياله، أو ذهب ليد مدين معسر، قد أثقلت الديون كاهله، لا يستطيع سداد ما عليه؛ فلا يدري أين يذهب، أو لبناء بيت من بيوت الله، أو كفالة طالب علم يطلب علم الشريعة ليصبح من علماء الأمة، فينفع الله به الكثير، ويهدي على يديه الجم الغفير، أو لكفالة حلقة تعليم للقرآن، أو داعية إلى الله يسيح في بلاد الله الواسعة، يدعو إلى الله ويبلغ دينه، فذلك المال - أيها المؤمنون - هو الذي ينفع صاحبه.

أيها المسلمون: توفي الإمام الحسن البصري وعمره ٨٨ سنة، ولما مات رَحِمَهُ اللهُ جاء رجل إلى محمد ابن سيرين فقال: مات الحسن، فترحم عليه محمد، وتغير لونه وتوقف عن الكلام، فما تكلم حتى غربت الشمس. قال الذهبي: (وما عاش ابن سيرين بعد الحسن إلا مائة يوم). وقد كانت جنازته مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة، في غرة رجب، فشيَّعه الخلق، وازدحموا عليه، حتى إن صلاة العصر لم تُقَم في الجامع.

رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فسيح جنانه، وجمعنا وإياه في دار كرامته.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد:

أيها المسلمون: هذه سيرة رجل من رجالات هذه الأمة، وما أكثرهم، وإمام من أئمتها، وما أعظمهم، جبل من جبالها، ومنارة من مناراتها، أضاءت به الدنيا حيناً، وارتوت من معين علمه وخلقه ودينه، فله كم لهذه الأمة من قمم شامخة، فأين المقتدون؟! والله كم لهذه الأمة من منارات هدى فأين المهتدون!؟

لكن البلاء - معاشر المؤمنين - أننا ما عدنا نعرف القدوة الصالحة من القدوة السيئة، وما عدنا نفرق بين البطولة والبطالة، وبين أهل الرفعة وأهل السفالة، إننا اليوم - عباد الله - نعيش أزمة قدوات، لكنها والله أزمة مفتعلة، ننظر إلى قدوات ما هي إلا سراب ببيعة، يحسبه الضمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، أما القدوات الحقيقية التي تستحق النظر والتأسي فهي حبيسة التعقيم والتجهيل، حتى إننا نرى أبناء الجيل يجهلون الكثير من رجالات هذه الأمة من الأئمة الصالحين، بل ومن الصحابة والتابعين، لا يعرفون سيرتهم وبطولاتهم، وما قدموه لهذا الدين من تضحيات، بل إنهم لا يعرفون عن سيرة نبيهم إلا القليل، ويجهلون كثيراً مما يجب عليهم معرفته من أحكام دينهم!؟

يدخل مدرّس السيرة النبوية في المرحلة الثانوية يوماً على طلابه، فيسألهم عن أسماء أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ؟ فيجيب أحدهم: خديجة، وآخر يقول: عائشة، فيقول: أحسنتم، ثم من؟ فيسكت الطلاب، وحين يرون الحزن والاستنكار بادٍ على أستاذهم يبادر أحدهم لينقذ الموقف قائلاً: آمنة! فيجيبه أستاذه: هذه أمه وليست زوجة عليه الصلاة والسلام. فيقول آخر: فاطمة يا أستاذ! فيقول: وهذه ابنته.. ثم يغير السؤال فيسألهم عن أسماء لاعبي أحد فرق كرة القدم، فيقوم أحد الطلاب ليسرد عليه أسماء جميع اللاعبين، مع الاحتياط! وليته كان فريق كرة وطني، بل أجنبي، وأسماء لاعبيه أعجمية غريبة، ومع ذلك فقد سردها دون أي خطأ أو تلعثم، حتى إنه كان يسخر من الأستاذ حين ينطق بعض الأسماء



بطريقة غير صحيحة! والمشكلة أن هذا هو أسوأ أنواع التقليد والتبعية، حين تُحفظ أسماء لاعبي تلك الفرق، وتُعلق صورهم، ثم تشب نار العصبية بين الشباب، وتثور المشكلات والخلافات، والجدل والخصومات، إلى درجة كيل السباب والشتائم، كل مع فريقه المفضل، وهذا فقط ما جنوه من هذه الرياضة، فلا هم الذين تفوقوا فيها، ولا هم الذين تركوا التعصب لأصحابها!

إن هذا الفصام النكد الذي تعيشه الأمة بين ماضيها وحاضرها، وبين رجال أمس ورجال اليوم، سبب كبير -ضمن أسباب أخرى- أدت إلى ضعف الأمة الإسلامية، وضياع مجدها وعزها السابق.

وأما تلك القدوات السيئة فإنها تُفرض على هذه الأمة في وسائل إعلامها على أنها القدوة التي تستحق التقدير والإجلال، من فنان ماجن، أو ممثل مهرج، أو لاعب جاهل، وهكذا من قائمة الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، ممن لا يملكون رصيذاً من النبوغ والعظمة، ولا ينتفع بهم الجيل في دين أو دنيا، إنما غاية ما أتوا به هو اللهو واللغو، وضياع الأوقات فيما لا يفيد، وزيادة الغفلات عن الحميد المجيد، سبحانه وتعالى.

وليت الأمر وقف عند هذا، بل لقد تعدى ذلك لتصبح القدوة من بلاد الكفرة أعداء الدين.

لماذا -أيها المسلمون- يعرف اليوم شبابنا الكثير عن سيرة المهرجين والمهرجات، والممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات، الأحياء منهم والأموات، والمصيبة أنك حين تتأمل سيرة كثير منهم، وما حفلت به مسيرة حياتهم من العطاءات الجبارة، التي يسمى أحدهم بسببها: الفنان الكبير، أو الممثل القدير، أو البطل النحرير، تجد كثيراً منهم إنما كانت أعمالهم تصب في هدم منظومة القيم والأخلاق في الأمة، وتبيح الشهوات والنزوات، وإشاعة الفواحش والمنكرات، والتأصيل للتمرد على الأحكام الشرعية والآداب المرعية. وهل يقال غير ذلك فيما ينشره من مشاهد فاضحة، ومسلسلات مُنحلّة، وألبومات ماجنة، وحفلات راقصة؟ إنه ليخشى عليهم وعلى من يروج لهم من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].



كم نتمنى لو أن هذه الأموال الطائلة التي تُصرف على توافه الإعلام ومساوئ القنوات والمهرجانات والمسلسلات صُرفت للعلوم أو التقنية أو الهندسة، لينتفع بها الناس، لكن لا يستغرب الأمر إذا علم أن من غير المسلمين من يديرون كثيرًا من تلك القنوات ويُبرزون كثيرًا من نجوم الفن والمسلسلات، لغزو الجيل وتمييع أبناء الأمة وحرفهم عن مجد أسلافهم من أهل القيادة والسيادة والريادة.

ومن هنا وجب على الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، إبراز أفضل القدوات، من الصالحين والصالحات، وغرس محبتهم في قلوب الأبناء والبنات، لترتقي همهم لعلهم أن ينهلوا من شمائل أهل الفضل والمروءات، وينبغوا في مختلف المجالات، ويحفظوا الساعات والأوقات، ويعمروها بالعلم والعمل، والعزم والحزم.. فإن النفوس مجبولة على تقليد من تحب، والتشبه بمن تهوى، وللناس فيما يشتهون مذاهبٌ.

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يأخذ بناصيتنا للبر والتقوى..

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير...



الإمام أحمد بن حنبل (١)

الخطبة الأولى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ، وَنُشْكُرُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَرَفَعَ شَانَ الْعُلَمَاءِ عَلَى مَنْ دُونَهُمْ فَلَا يَسْتَوُونَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَحَبِيبَنَا وَعَظِيمَنَا وَقَائِدَنَا وَقُرَّةَ أَعْيُنِنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، وَصَفِيَّهُ وَحَبِيبَهُ الَّذِي أَرْشَدَنَا إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى وَالنُّورِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، عباد الله.. إن في تاريخ العظماء لخبرا، وإن في سير العلماء لغيرا.

وإذا كانت أمتنا الإسلامية أمة أمجادٍ وحضارة، فإن سجلها الحافل ازدان بكوكبة من الأئمة العظام، والعلماء الأفاضل الكرام، هم عقد جيدها وتاج رأسها.

العلماء شمس في الفضل ساطعة، ونجوم في العلم لامعة، هم أنوار الهدى، ومصايح الدجى، تضيء بمنهجها المتألى وعلمها المشرق، غياهب الظلم، وتبدها بأنوار العلوم والحكم.



أيها الناس.. في تاريخ الإسلام علماء ربانيون وأئمة مهديون، وإن ارتباط الأجيال اللاحقة والناشئة المعاصرة بسلفهم من العلماء الأفاضل، هو من أهم الأمور الملحة في هذا الزمان، ينتفعون بسيرتهم ويسيروا على منهجهم ويقتبسون من نور علمهم وفضلهم في أعقاب زمن حيث كثرت في الفتن وطمت فيه المحن، واستحكمت فيه الأزمات، وعمت فيه الخلافات.

ولهذا قال بعض أهل العلم: (سِيرَ الرجال أحب إلينا من كثيرٍ من الفقه)، غير أن لا عصمة لأحدٍ من سائر الناس، والتعصب للرجال مذموم، وخير الهدي هدي من لا ينطق عن الهوى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

وحدثنا اليوم عن أحد الأئمة الأعلام، جبلٍ أشمّ، وبدرٍ أتم، عالمٍ حبرٍ، وعلامةٍ بحرٍ، طودٌ شامخ، وعلمٌ باذخ، يُعدُّ بجدارة إمامَ القرن الثالث الهجري، فريد عصره، ونادرة دهره، قلَّ أن يجود الزمان بمثله، إنه أئمة في إمام، وأمة في رجل.

قال عنه شيخه الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (خرجت من العراق فما خلّفت فيها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أتقى لله منه)، وقال عنه الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: (عالم العصر، وزاهد الدهر، ومحدث الدنيا، وعلمُ السنة، وباذل نفسه في المحنة، قلَّ أن ترى العيون مثله، كان رأساً في العلم والعمل والتمسك بالأثر، ذا عقلٍ رزين، وصدقٍ متين، وإخلاصٍ مكين، انتهت إليه الإمامة في الفقه والحديث والإخلاص والورع، وهو أجلُّ من أنه يمدح بكلامي أو أن أفوه بذكره بفي).

إنه إمام أهل السنة، والإمام المفضل، والعالم المبجل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، من عرفته الدنيا، ذاع ذكره وشاع صيته في الآفاق، كان إماماً عالماً فقيهاً محدثاً مجاهداً صابراً لا يخاف في الله لومة لائم، يتحمل المحن في سبيل الله والذب عن سنة رسول الله، ويقارع الباطل بحكمة نادرة، لا ترعزه الأهواء، ولا تميد به العواصف، حتى قال عنه رفيقه الإمام يحيى بن معين: (أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد، لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد).



عباد الله: على ثرى بغداد، وفي سنة مائة وأربعة وستين للهجرة ولد الإمام أحمد، ومن أصل عربي أصيل انحدر نسبه رَحْمَةُ اللَّهِ، وعلى عصامية اليتم تربي ودرج في صباه، مما ساعد على سمو نفسه وعلو همته.. وقد كان أسمر شديد السُمرة، ذا هيئة وهيبة، توفي والده وهو ابن ثلاث سنين، فكفلته أمه، ونشأ وترعرع في بغداد.

لم تكن بغداد في ذلك الوقت كما هي في هذا الزمان والله المستعان، كانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي، ومهد العلوم والحضارة، توج بأنواع الفنون والمعارف، وقد تميز عصر الإمام أحمد بنضوج الفقه وظهور المدارس الفقهية، وتميز أيضًا بعدم استقرار الحالة السياسية وكثرة الفتن، فكان توجه الإمام رَحْمَةُ اللَّهِ إلى تحصيل العلم ولزوم السنة، فلم يجرض على فتنة، ولم يواجه ذا سلطان، مع قوة في الحق وحبٍ للخلق، وذِبٍ عن السنة، وتحذيرٍ من البدعة.

أقبل الإمام أحمد ينهل من العلم، فحفظ القرآن، ثم أقبل على الحديث والأثر، حتى حفظ مئات الألوفا من الأحاديث، وما كتابه العظيم (المسند) إلا دليلٌ على طول باعه في علم السنة، وسعة حفظه وإتقانه، فقد جمعه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث، واستغرق في جمعه أكثر من خمس عشرة سنة، أما في الفقه فكان رَحْمَةُ اللَّهِ حريصًا على فقه السنة، والعناية بالدليل والأثر، والأخذ بفتاوى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

رحل الإمام أحمد في طلب العلم إلى كثيرٍ من البلدان، حتى قال عنه ابن كثير: (لقد طاف في البلاد والآفاق ليسمع من المشايخ، وكانت له همة عالية في الطلب والتحصيل، فما ترك لحظة من لحظات شبابه وكهولته إلا حرص فيها على سماع حديث أو تصحيح رواية، وما قصته في سماعه من عبد الرزاق بن همام الصنعاني في مكة وسفره معه إلى بلاده مع بعد الشقة وانقطاع النفقة إلا دليلٌ على علو الهمة ومضاء العزيمة، حتى عدّه الأئمة حافظ زمانه). قال ابن المديني: (ليس في أصحابنا أحفظ منه)، وقيل لأبي زرعة: من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ؟ قال: (أحمد بن حنبل؛ حزت كتبه في اليوم الذي مات فيه فبلغت اثني عشر جملاً وأكثر، كلها يحفظها عن ظهر قلب).

ومع هذا العلم الجَمّ فقد كان الإمام أحمد يخاف على نفسه البروز والشهرة والتصدر، فلم يجلس للتدريس إلا بعد الأربعين من عمره، وما ذاك إلا مراعاة لسن النضج والاستيثاق من العلم.

وكان من شدة ورعه رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ لا يحدث إلا من كتاب، خشية الزلل، مع قوة حافظته وشدة عارضته، قيل: إنه لسعة علمه أجاب عن ستين ألف مسألة بـ(قال الله وقال رسوله) وفتاوى الصحابة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمْ، ومع هذا فقد كان لا يسمح بتدوين فتاويه تواضعاً. كانت حياته حياة زهد وقناعة، لم يكن يقبل هدايا الخلفاء والسلاطين، وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وإذا اشتدت به الحاجة كان يؤجر نفسه للحمالين في الطريق.

عباد الله: إن من أهم الصفات في شخصية الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، منهجَه في العقيدة والتزامه نهج الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة في التوحيد والصفات ونزول القرآن، وأنه كلام الله منزل غير مخلوق، حتى أُوذي في ذلك وامْتُحن، وسُجن وضُرب، فصبر وصابر ولم يتزحزح عن قول الحق، بل ضرب أروع الأمثلة في الثبات على المبدأ، والصبر أمام الفتن، وذلك في فتنة القول بخلق القرآن، وقد روي أن الإمام أحمد رأى الرسول ﷺ في المنام فقال له: «يا أحمد، إنك ستبلى فاصبر، يرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة».

بدأت أحداث المحنة بعدما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم، وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف، وقاضيه أحمد بن أبي دؤاد من زعمائهم، فاعتنق المأمون هذه العقيدة الفاسدة وهي القول بخلق القرآن، لكنه تردد في إلزام الناس والعلماء بها، وخاف من الفتنة، فأشار عليه ابن أبي دؤاد وجلساء السوء بإظهار القول بخلق القرآن، وإلزام الناس بذلك، فكتب المأمون إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع من حضرته من القضاة والعلماء، ويلزمهم بالقول بخلق القرآن، ومن أبي حنبل أو عزله أو قتله. واشتعلت الفتنة في العراق، وحُبس وعُذب وقتل فيها خلائق لا يُحصىون.

واشتدت الفتنة، ولم يثبت فيها سوى أربعة من العلماء، الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، واثان آخران ما لبثا أن تراجعوا وقالوا مثل ما قال الناس، فأمر المأمون أن

يُقبض على الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، وأن يُرسلا إليه، فأرسلا مقيدين على بعير واحد، فأما محمد بن نوح فمات رَحِمَهُ اللهُ في الطريق قبل أن يصل إلى المأمون في طرسوس.

وبقي الإمام أحمد بن حنبل وحده، فجاءه رسول من قبل المأمون في الطريق، فقال له: إن الخليفة قد أعد لك سيفاً لم يقتل به أحداً، فقال الإمام أحمد: (أسأل الله أن يكفيني مؤنته، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ في أثناء الطريق أن لا يريه وجه المأمون وأن لا يجتمع به)، فاستجاب الله عَزَّوَجَلَّ دعاءه، وجاء الصريخ بأن المأمون قد هلك، فأعيد الإمام أحمد إلى السجن مرة أخرى.

ثم تولى الخلافة المعتصم بعد المأمون، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد، والاستمرار بالقول بخلق القرآن، وأخذ الناس بذلك، وكان الإمام أحمد في السجن، فاستحضره المعتصم من السجن، وعقد له مجلساً للمناظرة، وجلسوا يناقشونه في خلق القرآن، والإمام أحمد يستدل عليهم بالنصوص الواردة، ويقول لهم: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وانفضَّ المجلس ذلك اليوم دون شيء، واستمرت المناظرات ثلاثة أيام، والإمام أحمد ثابت على الحق، يقولون: ما تقول في القرآن؟ فيقول: كلام الله غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، قال: وقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، ولم يقل: خلق القرآن.

وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة، فناظروه بحضرته ثلاثة أيام، وهو يدمغهم ويحجُّهم بالحجج القاطعة، فقال المعتصم: (قهرنا أحمد، عند ذلك تحدث الوشاة عند الخليفة من علماء السوء، فقالوا: سيقول الناس إن أحمد قد غلب خليفتين، فثار المعتصم، ثم أخرج الإمام في رمضان وهو صائم، فجعلوا يضربونه ضرباً شديداً، وأتى المعتصم بجلادين كلما ضرب أحدهم الإمام أحمد سوطين تأخر وتقدم الآخر لئلا يضعف الضرب، والمعتصم يقول: شدوا عليه قطع الله أيديكم، ثم جردوه من ثيابه ولم يبق عليه إلا إزاره، وصاروا يضربونه حتى يُغمى عليه، فيفيق، ثم أخرجوه ونقلوه إلى بيته، وهو لا يقدر على السير من شدة ما نزل به.. فلما برئت جراحه خرج إلى المسجد، وصار يدرس الناس، ويملي عليهم الحديث، وهدأت الفتنة).

يقول علي بن المديني: (لقد أعز الإسلام برجلين: بأبي بكر يوم الفتنة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة). ولم يكن الإمام أحمد بمعزلٍ عن الأمة والمجتمع، بل كان عالماً عاملاً، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، يسلك مسلك الرفق والحكمة، ملتزماً بالطاعة، موافقاً للجماعة.

ثم توفي المعتصم واستخلف من بعده الواثق، فحرضه قضاة السوء، ابن أبي دؤاد وغيره، فعادت الفتنة مرة أخرى، إلا أن الواثق لم يتعرض للإمام أحمد، لكنه أرسل إليه: لا تساكني بأرض، فاخفى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالى مدة خلافة الواثق، وهي خمس سنوات تقريباً.

يقول حنبل بن إسحاق: (اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله يعني: الإمام أحمد فقالوا: يا أبا عبد الله، إن الأمر قد تفاقم وفشا أي: إظهار القول بخلق القرآن ولا نرضى بإمارة الواثق وسلطانة، فناظرهم أحمد في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار في قلوبكم، ولا تخلعوا يداً من طاعة، لا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح برٌّ ويُستراح من فاجر).

وسبحان الله! ففي آخر خلافة الواثق من الله عليه فرجع عن القول بخلق القرآن، وكان سبب هدايته: (أنه جيء إليه بالشيخ عبد الرحمن الأذرمي مقيداً بالأغلال، في جملة من يؤتى بهم، فيكرههم على القول بخلق القرآن، فإن أبوا قتلهم. فلما دخل الأذرمي على الواثق، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلمك الله، فقال له الشيخ: إن الذي أدبك ما أحسن تأديك -يشير إلى ابن أبي دؤاد فهو شيخه، وكان عنده حاضرًا- قال الشيخ: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، وأنت يا أمير المؤمنين ما حييتني بأحسن منها ولا رددت بمثلها. فتعجب الخليفة، وأمر ابن أبي دؤاد أن يناظر الشيخ، فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: ما أنصفتني يا ابن أبي دؤاد، أنا الذي أبدأ بالسؤال. فقال الخليفة: دعه يسأل، فقال الشيخ: ما تقول أنت في القرآن يا ابن أبي دؤاد؟ قال: مخلوق. فقال الشيخ: مقاتلتك هذه التي حملت الناس والخلفاء عليها، هل قالها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر أم لم يقولوها؟ فقال ابن أبي دؤاد: ما قالوها. فقال له: هل كانوا جاهلين بذلك أم عالمين؟ قال: كانوا جاهلين بها. فقال الشيخ: سبحان الله! شيء يجله رسول الله وأبو بكر وعمر، تعلمه أنت يا ابن أبي دؤاد؟! فقال: لا، بل كانوا عالمين. فقال الشيخ: هل



وسعهم أن يسكتوا أم أنهم حملوا الناس على ما حملتهم عليه، فقال: لا بل سكتوا، فقال الشيخ: شيء وسع رسول الله وأبا بكر وعمر ما وسعك أنت؟! فسكت ابن أبي دؤاد، وقام الوثائق فاختمت بنفسه في غرفة، ثم صار يفكر ويردد قول الشيخ: شيء وسع رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر ما وسعك أنت؟ ثم خرج وأمر بإطلاق سراح الشيخ، ورجع عن القول بخلق القرآن، ولم يمتحن أحدًا بعدها، وارتفعت الفتنة عن الأمة بحمد الله).

ثم توفي الوثائق، وتولى بعده المتوكل، فأعلن السنة، وكتب إلى العلماء في الآفاق: (بأن يمنع الناس من الخوض في هذه المسألة، وأصدر إعلانًا عامًا في كافة أنحاء الدولة، نهى فيه عن هذه البدعة، فعم الفرع في كل مكان، وزالت بذلك هذه المحنة، وانتصر الحق على الباطل، ولهذا لما قيل للإمام أحمد أيام المحنة: يا أبا عبد الله، انتصر الباطل على الحق، قال: والله ما انتصر الباطل على الحق).

لقد أؤذي أحمد بن حنبل وسُجن، وضرب وأهين، فلم يتغير له رأي، ولم تَلن له قناة، ولم يتزحزح عن الحق، مُسَطَّرًا أعظم الدروس للعلماء والمصلحين في كل زمانٍ ومكان.

لم يتأثر بالأهوال التي حاطت به، ولا بالمؤامرات التي أحيكت ضده، ولم يُيأس بالسياسات التي كانت تلهب ظهره، ولا بالحديد الذي كبل فيه، ولا بالسجن الذي أودع به، فكل ذلك هينٌ ما دام في سبيل الله، وصيانة كتابه من تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

لقد وضع الله له القبول في قلوب العباد، وطار ذكره في الآفاق والبلاد، ودعا له المسلمون وتقربوا إلى الله بحبه، وهو مع هذا كان في تواضع جم، يفر من الشهرة، ويخاف على نفسه الاستدراج.

عباد الله.. تلکم هي مقامات العظما، ومناهج العلماء الحکماء، وهي القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لنا ولأبنائنا.. نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الاقتداء بهم، والتأسي بأخلاقهم، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عباده الذين أصطفى، أما بعد:

عباد الله: وفي صفحات أخرى من حياة هذا الإمام الهمام، تشرق صفحة التأله والعبادة، وتزكية النفس بالصلاة والذكر، والدعاء والتلاوة، وفي صفحة أخرى يتجلى الخلق الرفيع والسجايا الحميدة، زهدٌ وحياء، وتواضعٌ وورع، وتعففٌ وكرم، حبٌ للفقراء والمساكين، وبعْدٌ عن الشهرة وأبواب السلاطين.

لقد كان أحمد بن حنبل صاحب قيام ليل، وكثرة نافلة، فقد كان يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمئة ركعة تطوعًا، فلما ضرب وحُبس ومرض، كان يتحسر بعدها أنه لا يصلي إلا مئة وخمسين ركعة.. لله درُّهم كيف كانت هممهم وهمومهم!

قال ابنه عبد الله: (كان أبي أحرص الناس على الوحدة، لم يره أحدًا إلا في المسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق، ولا يدع أحدًا يتبعه).

كان الإمام أحمد رَحْمَةً اللَّهِ كثير العفو عمن يسيء إليه، أساء إليه رجل، ثم عاد إليه نادماً، وقال له معتذراً: يا أبا عبد الله، إن الذي كان مني على غير تعمد، فأنا أحب أن تجعلني في حل، فقال الإمام أحمد: (ما زالت قدماي من مكانها حتى جعلتك في حل).

وحينما نقلت صفحة أخرى من حياة هذا الإمام نرى التميز في الجانب الأسري وتربية الأولاد، فلم تشغله هموم العلم والدعوة عن أسرته وحسن العشرة لأهله وزوجه، فقد كان من خير الناس لأهله، يقول الإمام عن نفسه: (تزوجتُ أم صالح فأقامت معي ثلاثين سنة، ما اختلفت أنا وهي في كلمة واحدة! ولقد خلف الإمام أحمد وراءه أبناءً برة، وعلماء سفرة، كانوا من ثمرات هذا البيت الصالح).

وفي صفحة أخرى من حياته يظهر إنصافه للمخالف، وسلامة صدره للمسلمين، وتقديره لأهل العلم وإن اختلف معهم، ولما عتب عليه بعضهم وأرادوا إثارة الخلاف بينه وبين الشافعي قال: (مه - أي: كُفُوا - ما رأيت عيناى مثل الشافعي، وقال: إني لأدعو الله للشافعي في صلاتي منذ أربعين سنة).



وفي سنة مِئتين وإحدى وأربعين هجرية، أصيب الإمام أحمد بالحمى، وحضرته الوفاة، يقول ابنه عبد الله: (لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده، فجعل يُغشى عليه ثم يُفثق، ثم يفتح عينيه ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، لا بعد، ثلاث مرات، ففعل هذا مرة ثانية وثالثة، فلما كانت الثالثة قلت له: يا أبت، إنك قلت كذا وكذا، فقال: ما تدري، هذا إبليس قائم حذائي عاصُّ على أنامله يقول: فُتَّني يا أحمد، وأنا أقول: لا بعد حتى أموت. قال صالح: فجعل أبي يحرك لسانه بالشهادة حتى توفي رَحِمَهُ اللهُ، وله سبعٌ وسبعون سنة وأيام. وانتشر الخبر في بغداد، فكان يوماً كئيباً حزيناً على أهل بغداد).

وقد شهدت جنازته جمعاً غفيراً، قيل إنه لم يُشهد مثله في الجاهلية والإسلام، حتى بلغ من حضر جنازة الإمام أحمد سبعمائة ألف من الرجال، وستين ألفاً من النساء، هذا سوى من كان على السفن في الماء، حتى قيل: إن بعض غير المسلمين أسلموا ذلك اليوم لما رأوا هذا الجمع الكبير وهذه الجنازة المهيبة.

وصدق الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ عندما كان يقول في حياته: (قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز).

تلکم أيها الأحبة صفحاتٌ ناصعة، وإشارات سريعة من حياة هذا الإمام الجليل، وما أروع الوقوف مع أمثال هذا الإمام، كأبي حنيفة ومالك والشافعي، والبخاري، وابن تيمية، وابن القيم، وصلاح الدين، وغيرهم من الأئمة العلماء، والقادة النبلاء، والصالحين الأتقياء، رَحِمَهُ اللهُ جميعاً ورضي عنهم.

فمن الجدير أن نقف مع سيرهم، وننهل من شمائلهم، ونربط الجيل بأخلاقهم وصفاتهم التي ورثوها من المنهج النبوي، واستقوها من معين الكتاب والسنة، لعلنا أن ننهض بما نهضوا به، وننصف بما اتصفوا به، من علو الهمة، وسمو النفس، والتسامي على الأهواء والشهوات، والترفع عن السفاسف والتُّرَّهات، فإن في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب، وفي تأمل أحوالهم إصلاحٌ للأبناء والشباب.

أولئك آبائي فجئتني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريراً المجمع

ألا وصلوا وسلموا رحمكم الله على خير البرية، وأزكى البشرية...



من أيام الله (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتفرد بخلقه وأمره، المتوحد في عزه وقهره، لا إله إلا هو المنتقم ممن خالفه، والمهلك لمن آسفه، أحمده سبحانه حمدًا شاكراً لما أولاه، المعترف بما امتنَّ به وأسداه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حقٍّ ويقينٍ لا شكَّ فيه، وقولٍ صدقٍ وجزمٍ لا ريبَ يعتريه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله أَلَّفَ الله به بين القلوب المتنافرة، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارك عليه، وعلى عترته الطاهرة، وعلى أصحابه الأنجم الزاهرة، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم البعثِ في الآخرة.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المؤمنون: أقف معكم في هذه الجمعة مع بعض أيام الله، أيام حصلت فيها انتصارات أهل الحق، فإن في ذكرها والوقوف عندها إحياءً للنفوس، وملء للقلب بالتفاؤل، ويجعلها توقن أن النصر حليف المؤمنين، وأن جند الله لن يزالوا غالبين، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

كم نحن بحاجة لتذكُّر بعض أيام الله خصوصاً في هذه المرحلة من عمر الأمة، التي تكالب عليها الأعداء وتداعت عليها الأمم من كل حدبٍ وصوب.

إن تاريخنا الإسلامي مفعم بالذكريات، وفي تاريخنا أخبار لرجال عظماء مخلصين، من علماء وقادة ومجاهدين، كانت لهم مواقف بطوليته، ومآثر نضالية، سطرها التاريخ، وحفظتها الكتب.

فاقرأ التاريخ إذ فيه العبرُ ضلّ قومٌ ليس يدرون الخبرُ

في أواخر القرن الرابع الهجري كانت العاصمة بغداد تن من وطأة البويهيين، أولئك الجفاة الذين انحدروا من إقليم الديلم في شمال إيران، وتسلطوا على الخلافة فلم يعد للخليفة من أمر إلا المظاهر والشكليات، في هذه الفترة التي بدأ ظل الإسلام يتقلص في بغداد، كان الإسلام يزدهر ويتقدم في منطقة خراسان وأفغانستان، وهذا مصداق حديث رسول الله ﷺ: «أمّتي كالمطر لا يُدرى آخره خير أم أوله»^(١)، فمن وعود الله لهذه الأمة أن لا يستأصلها عدو، وأن يكون فيها الخير والظهور حتى تقوم الساعة، فمن عجائب تاريخ الإسلام أنه كلما تقهقر في جهة تقدم في أخرى، وما أن يتخلى عنه أناس إلا سخر الله له آخرين، ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ففي فترة الضعف التي كانت تعيشها الخلافة في بغداد نبتت قوة في (غزنة) جنوب غربي كابل من بلاد أفغانستان على يد أسرة تركية عميدها (سبكتكين) الذي بدأ الجهاد في أرض الهند، ثم جاء ابنه محمود الذي أظهر كفاءة عالية وشخصية قوية، فجمع إقليم خراسان كله تحت إمرته، ووصل إلى الري وأذربيجان، وبارك الخليفة القادر بالله هذه السلطة السنيّة القوية، ووجدها سنداً ضد البويهيين.

كان السلطان محمود من أولئك الملوك المتدينين الذين يهتمون بالعلم ويقربون العلماء، ولاشتهار أمر السلطان في العالم الإسلامي حاولت الدولة الفاطمية الرافضية في مصر أن تستميله إليها، فأرسلت أحد دعائها ليكلم السلطان، ولكن السلطان أدرك مغزى دعوتهم، وقتل هذا الداعية، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى شيخ مدينة (هرات) وقال: (كان يركبه رأس الملحدين، فليركبه رأس الموحدين).

(١) صحيح الجامع (٥٨٥٤).



إن أعظم مناقب السلطان محمود هو حبه للجهاد، فكان يغزو كل سنة، وكانت وجهته الهند، وقد وُفق لفتح أقاليم كبيرة، وتعرف أهلها على الإسلام، ثم إنه بلغ السلطان أن الهنود يقولون: إن الذي خرب بلاد الهند وأضعفها هو غضب الصنم الكبير على سائر الأصنام، وكانوا يقولون عن هذا الصنم: إنه يرزق ويحيي ويميت، ويحجون إليه، وقد تجمّع عند هذا الصنم مال كثير مما يقدمونه من قرابين، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية، وخدمه من البراهمة ألف رجل، وبين قلعة هذا الصنم وبلاد المسلمين مسيرة شهر، ومفازة قليلة الماء، فعزم السلطان محمود واستخار الله في غزو هذا الوثن، وسار يطوي القفار ومعه ثلاثون ألف فارس وخلق من الرجال، وخرج ثاني يوم الفطر سنة ٤١٦ هـ، ووصل إلى القلعة في الرابع عشر من ذي القعدة، فلما رأى الهنود تصميم السلطان بذلوا له أموالاً جزيلة ليرك لهم هذا الصنم، وأشار بعض الأمراء معه على أخذ الأموال وإبقاء هذا الصنم لهم، نظرًا لضخامة ما بذله الهنود من الأموال الجزيلة، لكن السلطان رفض قائلاً: إني فكرت في هذا الأمر فرأيت أنه إذا نُوديت يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم؟ أحب إليّ من أن يقال: الذي ترك الصنم لأجل ما ينال من الدنيا..! وكان على الصنم من الحلي والجواهر ما لا يوصف، فدخل السلطان وزعزع الصنم وضربه بالمعاول حتى خر صريعاً، ثم أحرقه وفرّق ما كان عليه وحوله من الأموال على قاداته وجنوده، ثم عاد إلى قريته غزنة من بلاد أفغانستان في صفر سنة ٤١٧ هـ. ثم أرسل السلطان محمود البشارة بهذا الفتح إلى الخليفة في بغداد، يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند، ويقول: (إني فتحت قلاعاً وحصوناً وأسلم زهاء عشرون ألفاً من عباد الأوثان). فرحم الله هذا السلطان، وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين، توفي ودفن في أفغانستان، كان فتحه وكسره للأصنام يومًا من أيام الله.

إن هذا الدين لا يجابي أحدًا، ولا يهزم أبدًا، إن تخلى عنه أهل الشرق أقامه الله على أيدي أهل الغرب، وإن تخلى عنه أهل الشمال أقامه الله على أيدي أهل الجنوب.. وهكذا، من كان يطرأ على باله أن تظهر قوة ودولة في أفغانستان بعد أن كانت قيادة الأمة في بغداد، فله الأمر من قبل ومن بعد.

ولنتقل من الشرق إلى الغرب:

في القرن الخامس الهجري انفرط عقد وحدة الأندلس وانقسمت إلى ممالك صغيرة، كل مدينة تُعتبر دولة تحكمها أسرة من الأسر الأندلسية، كما قال الشاعر:

مما يُزهدني في أرضِ أندلسٍ ألقابُ معترضٍ فيها ومعتمدٍ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كاهرٌ يحكي انتفاخًا صولة الأسدِ

وكان أوسعهم مملكةً وقوة: محمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، وقد تتعاون هذه الدول أحياناً أمام الزحف الآتي من الشمال من نصارى إسبانيا، وقد يختلفون ويستعين بعضهم بالعدو لمحاربة أهل ملته وجيرانه، فالوضع العام لا يدعو إلى التفاؤل، أرسل له أمير أحد الممالك: (أيها الملك إن الروم إذا لم تُغز غزت، ولو تعاقدنا مخلصين فللنا حدّهم)، وكان ملك النصارى قد قوي أمره وبدأ يزحف على المدن الإسلامية، وكانت طليطلة من أول مدن الأندلس العظيمة التي أخذها الإسبان صلحاً من القادر بن يحيى بعد حصار دام سبع سنين، وكان ذلك في سنة ٤٧٨هـ؛ وبسبب تفرق ملوك الطوائف فإنهم كانوا يدفعون ضريبةً لملك النصارى، وكان ابن عباد يدفع الضريبة أيضاً، ولكن ملك النصارى لم يرض، وطلب المزيد من القلاع والحصون، وأرسل وفداً كبيراً إلى ابن عباد وعلى رأسهم يهودي، وفرض شروطاً مُدّلةً واستفزازية، فضرب ابن عباد رئيس الوفد على وجهه حتى برزت عيناه، ورفض هذه الشروط، وبدأ كل فريق يستعد للقتال.

سمع علماء قرطبة بما جرى ورأوا قوة النصارى وضعف المسلمين واجتمعوا وقالوا: (هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها النصارى، ولم يبق فيها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت الأندلس نصرانية كما كانت، وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد ابن أدهم فقالوا له: ألا تنظر ما فيه المسلمون من الذلة وعطائهم الجزية، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب أفريقية تونس وما جاورها، ونبذل لهم فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله، فقال: المرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا، قالوا له: فكاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، واطلب منه ليعبر إلينا،



وقدم عليهم المعتمد بن عباد وهم يتكلمون حول خطر النصارى فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له ابن عباد: (أنت رسولي إلى ابن تاشفين)، فسار ابن أدهم وأبلغ الرسالة إلى ابن تاشفين وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف.

أدرك ابن عباد ضرورة حشد كل القوى لمواجهة نصارى الشمال، وعندما علم بعض ملوك الأندلس بعزم ابن عباد طلب العون من ابن تاشفين خوفوه وقالوا: إذا دخل ملك المغرب الأندلس أخذها وتملكها، فقال ابن عباد قولته المشهورة: (لأن أرى الإبل عند ابن تاشفين، خير لي من أرى الخنازير للنصارى)، يقصد رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّهُ مستعد للتضحية بملكه ولو بلغ به الأمر أن يرضى الإبل عند ابن تاشفين، فإن هذا خير من أن يتغلب النصارى على بلاد الأندلس ويسوموا المسلمين سوء العذاب.

عندما التقى ابن تاشفين برسول ابن عباد، وكان في مدينة (سبته)؛ وافق وأمر فوراً عساكره بالعبور إلى الأندلس ثم طلب بقية الجيش من مراكش حتى إذا تكاملت كل قواته عبر المضيق، والتقى بابن عباد الذي أكرمه إكراماً يليق به، وأمر أن توضع الجزيرة الخضراء جنوبي الأندلس تحت تصرفه، وتسامع المسلمون في الأندلس بوصول ملك المغرب فخرجوا من كل البلاد يطلبون الجهاد في سبيل الله، لقد كان يوماً من أيام الله، وهكذا النصارى في كل زمان ومكان لا يصمدون لو اجتمع لهم المسلمون.

ولما علم ملك النصارى بوصول ابن تاشفين وأن معه جيش كبير، جمع فرسانه وسار من طليطلة، وكتب إلى أمير المسلمين يُغَلِّظُ له القول ويخوفه بما عنده من القوة والعدد، فكتب إليه أمير المسلمين: (الذي يكون ستره)، فلما قرأها ارتاع لها، وعلم أنه بُلي برجل له عزم وحزم. قام المعتمد بن عباد بتنظيم كافة الإجراءات واتخاذ كافة التدابير مثل تنظيم الحراسة، ومراقبة تحركات العدو، وأشرف بنفسه على كل ذلك، وكان عنده قوات استطاع منظمة، أمكن لها التوغل حتى قلب معسكر النصارى، واستطاعت إنذار ابن عباد في الوقت المناسب.

وفي فجر يوم الجمعة منتصف رجب عام ٤٧٩هـ بدأت معركة (الزلاقة)، وتلقى ابن عباد وفرسانه الصدمة الأولى، وأحاطت جيوش النصارى به من كل مكان، وكان عسكر

ابن تاشفين يبعد قليلاً، ولم يلتحم مع جيش الأندلس بعد، وصبر ابن عباد وظهرت شجاعته وأثخنته الجراح وطعن في أحد جنبيه، وعقر تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قُدّم له آخر، ثم وصلت طلائع جيش ابن تاشفين، واقتحمت جيش العدو، وخففت الضغط عن ابن عباد فاستعاد ترتيب جيشه، والتقى مع ابن تاشفين وقاتل الطرفان قتالاً شديداً، وصبر المسلمون صبراً شديداً، وعندما حان وقت الزوال، ظهرت بوادى النصر وولى النصارى ظهورهم، واستحرقّ فيهم الطعن والقتل، ونصر الله دينه، وكان نصراً مؤزرًا كبيراً، واستشهد في هذا اليوم جماعة من كبار العلماء؛ فقد كانوا يقاتلون في مقدمة جيش المسلمين.

لم يرض ابن تاشفين أن يأخذ شيئاً من الغنائم وكتب بالفتح إلى بلاد المغرب وإلى مسلمي شمال أفريقيا فعمت الفرحة في جميع البلاد وأخرج الناس الصدقات شكرًا لله تعالى.

شكر ابن عباد ابن تاشفين على نجاته للإسلام والمسلمين، وأعجب ابن تاشفين بصبر ابن عباد وحسن بلائه، وعاد أمير المسلمين قافلاً إلى بلاده، وكان حقاً يوماً عظيماً من أيام الله أعز الله فيه دولة الإسلام، وأذل فيه دولة النصارى.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، وجعلني وإياكم بآياته من العاملين.

أقول ما قلت، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وأستغفر الله إنه كان غفاراً...

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الأيام والوقائع العظيمة في تاريخ الإسلام كثيرة، وإن ما فيها من الأحداث والعبر عجيبة مثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ويقول تعالى لنبِيِّهِ: ﴿وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٥].. وقال: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ لِغُلَامَيْهِ الَّذِينَ فَاخَرْنَاكَ فِي أَوْلَادِنَا إِنَّ فِيهِمْ لَدَلِيلًا لِّمَنْ يَّرْتَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِهِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أيها الأحبة: كانت فرنسا وبريطانيا تتنافسان للسيطرة على البحار والمواقع المهمة في العالم، ومن هنا جاءت فكرة القائد الفرنسي نابليون لغزو مصر حتى يقطع الطريق على بريطانيا في السيطرة على البحر المتوسط، فاستطاع نابليون دخول مصر بعد مقاومة شعبية من أهالي الإسكندرية، وعندما اقترب من القاهرة انهزم المماليك في أول معركة اصطدموا بها مع الفرنسيين؛ لأنهم كما وصفهم المؤرخ الجبرتي حريصون على حياتهم ورفاهيتهم، معتزون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مختلفة آراؤهم.

دخل نابليون القاهرة وزين له جواسيسه أن يكتب منشورًا يتظاهر فيه بحب الإسلام لعله يجذب أهل مصر، لكن رغم أنه فعل إلا أنه لم يصدقه أحد.

فشلت القيادة السياسية العسكرية في مقاومة الغزو الفرنسي فانتقلت قيادة الأمة إلى علماء الأزهر، فلما عرف نابليون هذا الأمر استدعاهم، فلما استقروا بين يديه نهض ويده العلم الفرنسي، فوضعه على كتف الشيخ الشرقاوي كبير العلماء، فرمى به الشيخ على الأرض، فقال الترجمان: قصده تعظيمكم بوضع هذه الشارة وبذلك يعظمكم الناس، لكن الحيلة لا تنطلي على مثله.

تحرك العلماء وقادوا الثورة ضد الفرنسيين، وعمت هذه الثورة كل المناطق شمالي القاهرة، وسمع أهل الحجاز بدخول الفرنسيين مصر فقام أحد العلماء وهو الشيخ الكيلاني وكان مجاورًا بمكة يحث الناس على مساعدة إخوانهم، فقدم منهم ستمائة من المجاهدين، وانضم إليهم أهل ينبع وجملة من أهل الصعيد، وقاوموا الفرنسيين في جنوب مصر.

فوجئ نابليون بهذه الثورة فأمر بأن تدك المدفعية الجامع الأزهر وما حوله من الأحياء؛ لأن الأزهر كان يمثل قيادة الأمة، واستمر الضرب في منتصف النهار وحتى المساء؛ وفي اليوم الثاني دخل جنود فرنسا الأزهر وهم راكبون الخيول، وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة، ونهبوا الأواني ورموا المصاحف على الأرض، وأعدم نابليون ثلاثة عشر من علماء الأزهر، منهم الشيخ أحمد الشرقاوي وعبد الوهاب الشبراوي وغيرهم، رَحِمَهُمُ اللهُ وتقبلهم.

رجع نابليون إلى فرنسا، وقامت ثورة ثانية في القاهرة يقودها علماء آخرون، وقاوم الشعب المصري مقاومة كبيرة، واستطاعوا إنشاء المصانع لإصلاح الأسلحة وصنع المدافع، وأقدم طالب أزهرى من مدينة حلب على قتل القائد الفرنسي (كليبس)، فرحل بعدها الفرنسيون بعد أن احتلوا مصر فقط لمدة ثلاث سنوات؛ لأنها كانت جحيماً عليهم.

إنه يوم عظيم من أيام الله، يشبهه أيام عظام، وأحداث ضخام، ندرك من خلالها حقيقة أعداء الله الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، لا بد من التذكير بأخلاقيات قوم لا يألونكم خبالاً، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة..

ليست أحداث ليبيا بعيدة عن أحداث مصر، وكيف كان احتلال إيطاليا، وما كان لعمر المختار معها من أيام، وكذلك أحداث الجزائر لم تكن بعيدة عن ليبيا ولا عن مصر، وكيف أن الفرنسيين أيضاً فعلوا الأفاعيل، ولم يدخروا جهداً في إعمال آلة القتل في الناس بدون أدنى رحمة، لقد كانوا يتصيدون الناس للمتعة، لا يفرقون بين مدني وعسكري، ولا بين مقاتل وأعزل، وبين شاب وشيخ كبير، وطفلة وامرأة عجوز، ولا زالت الفيديوهات والصور المنشورة المشهورة تحتفظ بأبشع المشاهد التي لا يتحمل رؤيتها المشاهد، ولقد كانت حصيلة هذا الغزو قتل الملايين من أبناء هذا الشعب المسلم المضطهد.

ويا سبحان الله! نجد منهم اليوم من يتقول على الفتوحات الإسلامية، التي شهد لها المؤرخون الغرب قبل غيرهم، بأنها أنزه الحروب عبر التاريخ، لا سيما حين تُقارن بغيرها، سواء في عدد القتلى، أو في معاملة الجيوش الإسلامية لأهل البلاد التي يدخلونها.



أيها الناس: إن هذه الأمة تمرض، لكنها لا تموت، وتحبو لكنها لا تنطفئ، وإن دين الله باقٍ ما بقي الليل والنهار، وإن الله مُتَمُّ نوره ولو كره الكافرون، وسيظهره على الدين كله، ويجعل العاقبة لأهله.

ولكن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم، فعلى الأمة أن تستفيق من غفوتها، وتستعيد مكانتها، وتعلم أبناءها كل ما من شأنه أن يرفع شأنها ويعلي قدرها بين الأمم، العلم، والأدب الأدب، والأخلاق الأخلاق، ابنوا الأجيال، وربوا الرجال، واصنعوا الأبطال، وانفضوا بهم علمًا وعملاً، قولاً وفعلًا، أين يقضي الشباب أوقاتهم؟ وماذا يتعلم الصغار من والديهم ومعلميهم؟ كيف تعلقو أمةً أضاعت شبابها بين شهوة وشبهة؟ وكيف ترتقي أمةٌ غرقت فتياتها بحب المعازف والملاهي، والانشغال بما لا ينفع دينًا ولا دنيا؟ لا بد من النهوض بالأمة في جميع مجالاتها لتتفوق على أعدائها، فلم يعد هناك جدوى من الجهود الفردية، ولا من العبيثة والفضوية، ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأَنْفَال: ٤٦].

انفضوا بأمّتكم، أعدوا المعلم تستطيعوا إعداد الأجيال، وأعدوا الأمهات تتمكنوا من صناعة الأبطال، واهتموا بأوقات الشباب تبلغوا الأسباب، وتعانقوا بهم السحاب، نظّموا الأولويات، واستغلوا الأوقات، واحشدوا الطاقات، واشحذوا الهمم لصعود القمم العاليات.. فإنّ العدو لا يرحم أمةً ضيّعت أوقاتها، وأهملت تعليمها، وفتنت شبابها، باللهو واللغو، والطرب والصخب.. يقول أحمد شوقي:

قُمْ للمعلّمِ وَفِيهِ التّجِيلا
أعلمتَ أشرفَ أو أجلّ من الذي
رَبُّوا على الإنصافِ فتِيانَ الحمى
فهو الذي يبني الطباعَ قويمَةً
وإذا المعلّمُ لم يكنْ عدلاً مشى
وإذا المعلّمُ ساءَ لحظَ بصيرةٍ
كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا
يبني وينشئُ أنفُسًا وعقولا
تجدوهمُ كهفَ الحقوقِ كهولا
وهو الذي يبني النفوسَ عدولا
روحُ العدالةِ في الشبابِ ضئيلا
جاءتْ على يدهِ البصائرُ حولا

فأقم عليهم مأتمًا وعمويلا
رضع الرجال جهالةً وخبولا
من هم الحياة، وخلفاه ذليلا
له أمًا تخلت أو أبًا مشغولا

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
وإذا النساء نشأن في أمية
ليس اليتيم من انتهى أبواه
إن اليتيم هو الذي تلقى

هذا وصلوا وسلموا على النبي الهادي، والبشير الحادي...



استقرار البيوت (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله خلق وأمر، وملك فقهر، وأراد فقدّر، أحده سبحانه وأشكره وهب وأعطى، وأغنى وأفتى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله صفوة الأخيار وقُدوة الأبرار، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وعلى آله وأصحابه أهل الفضل والتقى، ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكاثوا، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عباد الله: ما مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وينشد الاستقرار له ولأسرته، وَيَتَمَنَّى أَنْ تُرْفَرَ السَّعَادَةُ عَلَى بَيْتِهِ، فينشأ الأولاد في جوٍّ تَسُوذُهُ المحبَّة والاحترام، فيؤثِّر ذلك في أخلاقهم، وفي تعاملهم فيما بينهم، وفي تعاملهم مع أهل حَيْثُهم وأقاربهم.

والرجلُ قد شَرَّفَهُ اللهُ تعالى وكَلَّفَهُ بالقوامة على أهل بيته، فهو ربان السفينة، فبالصبر والحكمة وترسُّم هدي النبي يَعْبُرُ بأسرته - بإذن الله - إلى برِّ الأمان.

فمن أسباب استقرار الأسرة: الاحترام المتبادل بين الزوجين.

ومما يزيد الألفة بين الزوجين: الترفُّق بالزوجة ومناداتها وتكثيها بما تُحِبُّ من الكنى، وتلقبها بالألقاب الحسنة التي فيها ميزة على غيرها من النساء؛ من صلاح دين، أو حُسن

خُلِقَ، أو زيادة جمال، أو حُسن تدبير في بيتها، أو غير ذلك مما تمتاز به عن غيرها من النساء، وترخيم اسمها عند نداءها، وذلك بحذف أو آخر الاسم؛ تَمْلِيحًا لها، وإظهارًا لِقَدْرِها عند زَوْجِها؛ فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قال رسول الله ﷺ: «يا عائش، هذا جبريل يُقرئك السلام»، قلت: «وعليه السلام ورحمة الله»، قالت: وهو يرى ما لا نرى» رواه البخاري (٦٢٠١)، ومسلم (٢٤٤٧).

فالعربُ تُرَخِّمُ المَنادَى لأغراضٍ بلاغيةٍ، منها: تَمْلِيحُ الاسم، فيُستبعدُ مِنَ المَراة حينما تسمع الكلام الطيب من زَوْجِها أن تُسَمِعَهُ كلامًا يسوءُه؛ بل غالبًا تُسَمِعُهُ خيرًا مما سمعته منه، وهذا الكلامُ الطيب الذي يزيد الألفة والمحبة بين الزوجين، ويحول بين كثير من المشاكل التي قد تقع بين الزوجين؛ بسبب المَلاسنَةِ - فهذا الكلامُ الطيبُ عبادةٌ وقربةٌ يؤجرُ عليه الزوجان.

أيها الناس: حينما تُجتهدُ المَراة في عملِها في البيت، ثم تخفقُ في صنعة طعام، أو تدرِسُ لولد، أو علاج مشكلة، أو غير ذلك، فليس من الحكمة إظهار الامتعاض ونقدها؛ بل الأفضَلُ التَعاضي عن هذا الخِطأ؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ما عاب النبي ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تَرَكَهُ»^(١).

لكن لو سألتِ المَراة واستفسرت، بيّن لها الخِطأ بأسلوب لا يَجرحُ مشاعرِها؛ فحينما امتنع النبي ﷺ عن أكل الضبِّ، سأله أصحابه، فبيّن لهم سبب تَرَكَه.

فعن عبد الله بن عباس، قال: دخلتُ أنا وخالد بن الوليد مع رسول الله ﷺ بيت ميمونة، فأتي بضبٍ محنود، فأهوى إليه رسول الله ﷺ بيده، فقال بعض النسوة اللاتي في بيت ميمونة: أخبروا رسول الله ﷺ بما يريد أن يأكل، فرفع رسول الله ﷺ يده، فقيل: أحرامٌ هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه»، قال خالد: فاجترته فأكلته، ورسول الله ﷺ ينظر^(٢).

(١) رواه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٥).



ومن أسباب استقرار البيوت، وقلة المشاكل فيها: ترك كثرة العتب والتعنيف على مظاهر القصور، التي تُرى على الزوجة والأولاد، وربما بعض هذه الأشياء لا كسب لهم فيها، ويجب البعض أن يتجاوزها؛ لكنه لا يستطيع؛ لأنها مما لا يُقدر عليها، فلننظر إلى النواحي الحسنة فيهم، وهي كثيرة.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرَضَى سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيَهُ

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران»^(١).

فالكمال في الرجال عزيز، فكيف نطلب الكمال في النساء والصغار؟! وحينها سأل النبي بريرة عن أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك، قالت: (والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمراً أغمضه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله)^(٢).

فهذه عائشة تعجن العجينة لطبخ الطعام، فتنام عن العجينة، فتأتي الشاة في البيت فتأكل العجين، وفي الغالب أن النبي لن يأكل الطعام، أو سيتأخر طعامه، ولم ينقل عنه العتب عليها، فضلاً عن الشتم والسب، فضلاً عن الضرب والتهديد بالطلاق.

إخوتي: لين الكلام وطيبه عبادةً وقربةً نؤجر عليها؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٣). فإذا كانت الكلمة الطيبة مع الأبعد صدقة، فكونها صدقة مع الأقارب أخرى وأولى.

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٠٧).

(٣) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

لنحرص على الدعاء، ومدح مَنْ أَحْسَنَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، ولشني على عمَلِهِ الْحَسَنِ؛ سواء كان زوجةً أم ابناً أم بنتاً، فبالثناء يشعر الممدوحُ أن له قدرًا، وله ميزة على غيره، فيحاول أن يزدادَ من الأعمال التي تزيّنه، وترفع قدره، وعلى أقلِّ تقدير يُحاول أن يحافظَ على نظرةِ أهله إليه، بخلاف من يسمع التأييب والذم، يستمرئ ذلك، ويشعر أنه لا يوجد عنده شيء يحرص على ألاّ يخسره ويحافظ عليه.

معاشر الإخوة: ربما وَقَعَ فِي نَفْسِ الْبَعْضِ: عَلَامَ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ عَلَى أَمْرٍ وَاجِبٍ؟! فلم يفعل أهل البيت إلا ما وجب عليهم، فهو يظن أنه لا يستحق الثناء إلا مَنْ تَطَوَّعَ بِأَمْرٍ غَيْرِ وَاجِبٍ عَلَيْهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْفَهْمَ مَجَانِبٌ لِلصَّوَابِ، فَلَوْ تَأَمَّلْنَا كِتَابَ رَبَّنَا، وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا، لَوَجَدْنَا فِيهَا مَدْحًا وَثَنَاءً عَلَى مَنْ فَعَلَ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكَ الْمَحْرَمَاتِ، كَمَا أَنَّ فِيهَا تَوْبِيخًا وَتَهْدِيدًا لِمَنْ أَخْلَلَ بِالْوَاجِبَاتِ، وَارْتَكَبَ الْمَحْرَمَاتِ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْعَدْلِ، فَيَمْدَحُ وَيُثَابُ الْمُحْسِنُ، وَيُتَوَخَّعُ وَيُعَاقَبُ الْمُخْطِئُ؛ يَقُولُ رَبِّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١-١١]، فامتدَحَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْوَاجِبَاتِ، وَيَتْرَكُونَ الْمَنْهِيَّاتِ، وَوَصَفَهُمُ بِالْمُفْلِحِينَ، وَهِيَ صِفَةٌ مَدْحٌ، وَبَشَّرَهُمُ بِالْخُلُودِ فِي الْفِرْدَوْسِ.



الخطبة الثانية:

الحمد لله نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، أحمدده سبحانه وأشكره، وأسأله التوفيق والهداية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أرشد الأمة بقوله: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المؤمنون، وقوموا بحقوق الله عليكم في أنفسكم وأهلكم، ولا تنسوا الفضل بينكم، واعلموا أن من آداب البيت المسلم التغافل والتغاضي، والعفو والصفح، والرفق والأناة، واللين والرحمة.

أيها الآباء والأمهات.. كثيرٌ من تصرُّفات الأبناء الخاطئة - سواء داخل البيوت أم خارجها - يجب أن ينظرَ إليها من غير معزل عن السنن، فسن الصَّغَر سن يغلب عليه كثرة الحركة، والعبَث، والتهرُّب من المسؤولية؛ فعن أنس قال: «خدمت رسولَ الله ﷺ تسع سنين، فما أعلمه قال لي قط: لم فعلتَ كذا وكذا؟ ولا عابَ عليَّ شيئًا قط»^(١).

فأنس خَدَم النبي حينما قدم المدينة، وكان صغيرًا، وييدر منه ما ييدر من الصبيان، ومع ذلك لم يعاتبه النبي ﷺ على ترك ما يجب عليه فعله، وعلى فعل ما يجب عليه تركه.

فالصَّغِير لا يقدِّر عواقب كثيرٍ من الأعمال؛ فلذا في بعض الأحيان هو أول من يتضرَّر بتصرُّفاته الخاطئة، فلتعالج هذه الأخطاء بشيءٍ من الصبر والحكمة، ولنوطن أنفسنا أننا لن نتمكن من أن نجعلهم يتصرَّفون تصرُّفات الكبار، فلنتحمَّل بعض أخطائهم، ومن يُكثر العتب عليهم، فليرجع بذاكرته إلى الوراء، وليتذكَّر ماذا كان ييدر منه ومن أترابه من تصرُّفات حينما كان صغيرًا، وأثناء فترة المراهقة، لا شك أن الأمر مختلفٌ بعض الشيء؛ لكن الاختلاف راجع إلى طبيعة العصر والأشياء المتاحة.

(١) رواه البخاري (٦٠٨٣)، ومسلم (٢٣٠٩).

ولستُ في مقامي هذا أدعو لتَرْكِ متابَعَةِ الأولاد، أو أبرّر أخطاءهم؛ بل أدعو إلى النظرة الواقعية في نقد تصرّفاتهم وتوجيهها، وفرق بين إهمال الأولاد، وبين الغلظة في معاملتهم، وكثرة التوبيخ، والتبكيك لهم.

وإن من أخطاء بعض الأبناء أنهم لا يتعاملون مع الأب على أن له حقاً افترضه الله عليهم، من طاعته، وبرّه، والإحسان إليه، والقيام بمصالحه، فهم أبعد من أن يدركوا ذلك في صغرهم، فهم يتعاملون مع الأب وفق المصالح، فإن كان الأب يوفّر لهم بعض ما يطلبونه، بادّروا الأب بشيء من التقدير، والسَّمْع والطاعة، ومراعاته، وإن كانت الأخرى حصل التمرّد والعصيان.

معاشر الأبناء: ليحرص الواحد منكم على ضبط تصرّفاتة، وليتجنّب ما يؤذي الآخرين، فليس من العقل أن نسيء إلى من حولنا؛ لتقدروا من هم أكبر منكم سنّاً، لا تُسيئوا للأماكن العامة؛ كالمساجد، والمدارس، وغيرها، وكذا ممتلكات الآخرين، فلا تتسبّبوا في إدخال الضرر على أحد من المسلمين.

معاشر الأبناء: إذا لم تحسنوا للأبوين، فعلى الأقل لا تسيئوا لهما، فلا تكونوا مصدر همّ وقلق لهما، فلا تجعلوهما دائماً في شغل بكم؛ بحثاً عنكم، وانشغالاً بكم، لا تتسبّبوا في إخراجهما بعتب الناس عليهما؛ بسبب تصرّفاتكم، فهل ترضى أن يتعرّض أبوك وأمك إلى عتب الناس المباشر لهما، أو أن يتحدّثوا عنها في مجالسهم، ويصفوهما بالتقصير في تربيتهنك؛ بسبب ما يصدر منك من تصرّفات يتأذى بها الناس.

أيها الشاب: إذا أردت أن تكون مستقراً، مرتاحاً، محبوباً عند أهل البيت وعند الناس، وأن تكون محل ثنائهم وتقديرهم - فانظر إلى من هم في سنّك ممن يجلّهم الناس ويقدرونهم لأدبهم وأخلاقهم، فاسلك مسلكهم، ولا تنس أن تؤدّب نفسك بقراءة الكتب التربوية والاطلاع على سير الصالحين من العلماء والحكماء والصحابه والتابعين، فإن في ذلك تربية عظيمة للنفس وحثاً لها على الفضائل.



تلك معالم بارزة وإشارات مختصرة قد تكون عوناً على استقرار البيوت إن روعيت بعين التأمل والبصيرة، وأخذت بمأخذ الجد والعمل والتطبيق، ولا شك أن البيوت تستحق منا السعي الصادق والعمل على استقرارها وتأمينها، فصلاحتها صلاح المجتمع والأمة بأسرها، وفقنا الله لما يرضيه، وهدانا لأحسن الأخلاق والآداب..
هذا وصلوا وسلموا....



هدي النبي ﷺ في تصحيح الأخطاء (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله خلق وأمر، وملك فقهر، وأراد فقدّر، أحمده سبحانه وأشكره وهب وأعطى، وأغنى وأقنى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله صفوة الأخيار وقُدوة الأبرار، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه أهل الفضل والتقى، ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكأنوا، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله- واعبدوه، اجتمعوا على الرحمة والمحبة والطاعة، ولا تتفرّقوا على الشّحناء والهوى والمعصية. بطاعة ربّكم تزيّنوا، ومن الذنوب توبوا وتطهّروا، وعن باب مولاكم فلا تبرّحوا؛ لعلّكم في جنات عدنٍ أن تُحضّروا. من تفكّر بعواقب الدنيا أخذ بالحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر.

أيها الناس: لا يخلو أفراد المجتمع من الأخطاء، فالخطأ والتقصير يَحْضُل في بيوتنا، وفي شوارعنا، وفي مدارسنا، وفي مقرّ أعمالنا، وفي مساجدنا، ومما لا يُحْتَلَف فيه أن سيّد المرّيين، وإمام المصلحين محمد بن عبد الله، قد بعثه الله لإصلاح الدّين والدّنيا، فباتّباع هديّه يسعدّ الناس في معاشهم ومعادهم، ولعلّي أذكر طرفاً من مواقف النبي ﷺ في تصحيح بعض الأخطاء، ودفع الناس إلى التّرقّي في صفات الكمال.

(١) أحمد بن عبد الرحمن الزومان.

فَمِنْ هَدَى النَّبِيُّ ﷺ: تصحيحُ الأخطاء، والتَّنبِيه عليها، مِنْ غيرِ ذِكْرٍ مِنْ وَقَعَ فِيهَا، فَهَذَا مِثْلُهَا
الانتفاعُ أَكْثَرُ، فَلَا يَقَعُ فِي نَفْسِ الشَّخْصِ الْمُرَادُ تَوْجِيهَهُ شَيْءٌ، أَوْ حَرَجٌ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِقَدْحٍ مِنْ
بَعْضِ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ الْخِطَابُ يَكُونُ عَامًّا لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ فِي الْخَطَأِ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالْخِطَابِ،
بِخِلَافِ لَوْ حُدِدَ الشَّخْصُ؛ فَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ
عَمَلِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا
أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا: كَذَا وَكَذَا!! لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ،
وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنتِي فَلَيْسَ مِنِّي» (١).

وهذا في كتاب ربنا كثيرٌ: ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]، ﴿ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ
اللَّهَ لَئِن آتَيْنَاهُم مِّن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥].

وَمِنْ هَدَى النَّبِيِّ ﷺ فِي تَصْحِيحِ الْأَخْطَاءِ الْاِكْتِفَاءُ بِالتَّمْلِيحِ، دُونَ التَّصْرِيحِ أحيانًا؛ فَعَنْ
حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ
فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ: إِنَّ هَذَا الْمَالُ خَضِرَةٌ حَلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسِ بَوْرِكَ لَهُ
فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسِ لَمْ يَبَارِكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ
السُّفْلَى»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَرُزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى
أَفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عَمْرَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عَمْرٌ: «إِنِّي أُشْهِدُكُمْ - يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ -
عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ». فَلَمْ يَرِزَأُ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ
النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَوَفَّى (٢).

فَحِينَمَا كَرَّرَ حَكِيمُ الْمَسْأَلَةَ، كَرِهَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، لَا سِيَّامَا مَعَ غِنَاهُ، فَلَمْ يُصْرِّحْ لَهُ النَّبِيُّ
ﷺ بِكَرَاهَةِ ذَلِكَ؛ بَلْ رَأَى أَنَّ التَّمْلِيحَ كَافٍ، فَلَمْ يَجْرَحْ مِشَاعِرَ حَكِيمٍ بِكَلِمَةٍ، وَأَوْصَلَ مَا يُرِيدُ
إِيصَالَهُ إِلَيْهِ؛ فَلِذَا التَّرَمَّ حَكِيمٌ بِهَذَا التَّوْجِيهِ، وَلَمْ يَأْخُذْ حَتَّى حَقَّهُ مِنَ الْعَطَاءِ.

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).



إخوتي: الصغير تبدر منه الأخطاء من غير قصد الإساءة، وتعمد إيذاء الآخرين، فلا ينبغي أن يُكثَرَ معه العتب والتوبيخ، فضلاً عن العقاب، فأنس بن مالك كان صغيراً، وخدم النبي ﷺ حين قدم المدينة حتى لحق بالرفيق الأعلى، وكان يتوانى بالحاجة أحياناً، ويقع منه ما يقع من الصبيان، ولم يكن يعتب عليه النبي ﷺ أو يؤبِّخه؛ فعنه قال: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفَّ قط، ولا قال لي لشيءٍ فعلته: لم فعلتَ كذا، وهلاًَّ فعلتَ كذا»^(١).

وحينما يُخطئ الصغير، ويحتاج الأمر إلى تنبيه وتوجيه، كان من هدي النبي ﷺ التنبية بكلماتٍ يسيراتٍ؛ ليتِمَّ حفظها، ووَعِيها مع اللُّطف في العبارة، والرُّفق بالتَّوجيه؛ فعن عمر بن أبي سلمة، قال: كنتُ غلاماً في حجرِ رسول الله ﷺ، وكانتُ يدي تطيش في الصَّحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ: سَمَّ الله، وكُلَّ بيمينك، وكُلَّ ممَّا يليك». فما زالت تلك طعمتي بعدُ^(٢).

حين التوجيه وإصلاح الأخطاء تُذكرُ محاسن الشخص، وصفات الكمال التي فيه، وأنه قريبٌ من الكمال؛ لكنه ينقصه كذا وكذا، بخلاف تناسي الحسنات، والتركيـز على الأخطاء، فهذا مظنةٌ عدم الاستجابة، فالوجه يقع في نفسه أنه لا خير فيه، فلا يحرص على تصحيح الأخطاء، والترقي في درجات الكمال؛ فعن عبد الله بن عمر، قال: كنتُ غلاماً شاباً، وكنتُ أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيتُ في النوم كأنَّ ملكين أخذاني، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطويةٌ كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلتُ أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملكاً آخر؛ فقال لي: لم ترع، فقصصتها على حفصة، فقصصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نعم الرَّجل عبد الله، لو كان يُصلي من الليل». فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) رواه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

حينما يُخطئ الشخص لا ينظر إلى هذا الخطأ بمعزل عن صاحبه، وبذله، وسابقته في الإسلام؛ بل ينظر في حسناته، وهل له من الأشياء التي تشفع له، فحينما نقلَ حاطب بن أبي بلتعة أخبارَ المسلمين إلى كُفَّار قريش، قال عمر بن الخطاب: إنَّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «يا عمر: وما يُدريك؟! لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة»، قال: فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم^(١).

فعدره النبي ﷺ بهذا الخطأ، الذي هو في اصطلاح المتأخرين الخيانة العظمى؛ لسابقته في الإسلام، وشهود بدر

(١) رواه البخاري (٦٢٥٩)، ومسلم (٢٤٩٤).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من وصفه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
وبعد:

فأكثر المواقف تحتاج إلى قوّة في ضبط النَّفس، وكَظْم الغيظ، والتغاضي وسعة الصدر، وعدم العمل وفق ما يدعو إليه العَظْب؛ خصوصًا ما يَحْصُل من التَّصَرُّفات التي لا تُرْضَى من الأهل، وأكثر مسائل الطلاق، سببها اختلافٌ على مشاكل يَسِيرَة في الغالب، يُوجِّبها العَظْب؛ فلذا يُطَلَّق المُطَلَّق، ومن ساعته يبحث عن مخرج؛ لترجع إليه زوجته، فمن مواقف النبي ﷺ التي تُبَيِّن حسن تعامله في مُعَالَجَة أخطاء الأهل، ما رواه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نِسائِهِ، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَة، فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصَحْفَة، فانفَلَقَتْ، فجمع النبي ﷺ فَلَق الصَحْفَة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصَحْفَة، ويقول: «غارت أمكم»، ثم حبس الخادم حتى أتى بصَحْفَة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصَحْفَة الصحيحة إلى التي كَسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسِرَتْ^(١).

عالج النبي ﷺ الموقف بالعدل، بعيدًا عن الانفعالات والهيجان، فلم يُجاب عائشة حينما كسرت الصَحْفَة، فضمَّنها الصَحْفَة، وأعطى المرأة المكسورة صَحْفَتُهَا صحفة عائشة السليمة، ولم يُؤاخِذ عائشة بما صدر منها؛ لأنَّ الغيراء في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدَّة الغضب الذي أثارته الغيرة؛ بل التمس لها العذر، وأشار بقوله: «غارت أمكم» إلى أصحابه، ألاَّ يُؤثِّر هذا الموقف في قدرها عندكم، فهي وإن كسرت القصعة فهي أمكم، لها قدرها ومنزلتها، التي بَوَّأها الله، فلا تَبَخَسُوا قدرها. والله أعلم.

إخوتي: لو أن هذا الموقف حصل لأحدنا، ماذا تظنون أنا نفعل؟!

(١) رواه البخاري (٥٢٢٥).

إخوتي: ما أوجنا إلى مجاهدة أنفسنا ومغالبتها؛ حتى نتمكّن منها، فلا تبدر منا تصرفات في حال الغضب نندم عليها، ونحتاج إلى الاعتذار منها، فليست القوة بالعضلات المقتولة؛ بل القوة الحقيقية قوة النفس والإرادة؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (١).

إخوتي: البعض لا يخلو من أحد يناصره العدا، ويتربّص به، ويتبع عثراته وزلاته بسبب وربما بغير سبب، والسلامة من هؤلاء بمصانعتهم، والعفو عن تجاوزاتهم، ومقابلة السيئة بالحسنة، فيقابل العبوس بالابتسامة، ويقابل الإعراض بالسلام، ويقابل التنقص بالاحترام، ويقابل الغيبة بالعفو والثناء، وهكذا؛ فبعد حين تنقطع الإساءة؛ بل تتبدل محبة وإحساناً، وهذا مشاهد في واقع الناس، وجُلُّ الناس ربما هم بمصانعة عدوه، وتحمل زلاته؛ لكن الأمر يحتاج إلى صبر، وطول نفس؛ فلذا الأكثر ينقطع عن الدفع بالتي هي أحسن؛ بل ربما دفع السيئة بالسيئة؛ ظناً منه أن هذا الشخص لا يصلح معه إلا هذا الأسلوب في المعاملة، وهنا تزداد العداوة في القلوب، وتشتغل المشكلة، وهذا ما يريده الشيطان، أمّا ربنا عز وجل فيوجّهنا في حال وجود عداوة بين أفراد المسلمين بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿فصلت: ٣٤-٣٥﴾.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المصطفى والرسول المجتبي...



أولادنا والمسؤولية

الخطبة الأولى:

الحمد لله المنعم على خلقه، المتكفل لكل حي برزقه، أحمده سبحانه وأشكره على إنعامه الجزيل، وأستغفره وأستهديه وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من وحد ربه، وملاً باليقين والإخلاص قلبه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، المبعوث بالهدى، والمنقذ بإذن ربه من الردى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار، ما تعاقب الليل والنهار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

معاشر المؤمنين: وصية الله لنا وللمؤمنين في كل آن وحين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

إخوة الإسلام: قضية وقصة وموضوع في لقاء، لقيت مديراً لإحدى الشركات يتحدث عن الفقر الأخلاقي في المعاملات ثم تطرق إلى قصة له وقعت مع أبناء الكبار الذين يناهزون العشرين من العمر، إذ احتاج يوماً أن يقوموا بتبديل أنبوبة الغاز فكانت قصة وأسئلة وبحث وكيف نصنع وأين نذهب وكيف نقوم بالمهمة، قال: (إننا لم نعلمهم، لم ندرهم، لم نحملهم المسؤولية، نحن نربي أجيالاً اتكالية ليست مبالية لا تحسن تدبير أمر شؤونها ولا القيام بمسؤولياتها، تحمل المسؤولية أمر في غاية الأهمية).

وومضة سريعة أنتقل بها -حتى نعود مرة أخرى إلى واقعنا-، سيد الخلق -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- أمر على جيش هو الأول الذي كان مقرراً أن يخرج خارج حدود



الجزيرة شاباً عمره سبعة عشرة عاماً، وكان في هذا الجيش -أي من أفرادهِ- أبو بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وكبار الصحابة، أسامة بن زيد في السابعة عشر يوليه المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيادة جيش كان المفترض أن يقوم بأول عمل عسكري خارج الجزيرة مع الروم.

ونقلة أخرى سريعة إلى زمن آخر في عام ٧٢هـ ولد محمد بن القاسم الثقفي، وفي عام ٩٠هـ كان يقود الجيوش التي فتحت بلاد السند وعمره ثمانية عشر عاماً.

وموضة الثالثة في جانب آخر: الإمام الشافعي حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، وبدأ يفتي وهو دون العشرين، صغار لكن كبار، منذ نعومة الأظفار خاضوا المجال وأتحت لهم الفرصة، وأعطوا الثقة، وكان التشجيع وكانت الرعاية فظهرت تلك الشخصيات التي اليوم ربما نفتقدها إلى حد كبير إن لم نكن مبالغين فنقول إنه لا وجود لها في عصرنا.

ما القصة إذاً؟ تحمّل المسؤولية منذ الصغر منذ نعومة الأظفار، الدراسات العلمية تقول: (إن الوعي والإدراك بقدر المسؤولية في درجاتها الأولى يكون والطفل في الثالثة من عمره يبدأ شيئاً من التمييز)، والإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم ضبط سن التمييز بخمس سنوات، واستشهد بقول أحد الصحابة أنه يتذكر ويدرك محبة مجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فمه وهو ابن خمس سنين.

إذاً نحن معنيون بأن نبدأ إلى التوجه في تحميل المسؤولية منذ ذلك العمر، وهل هنا أمر عجيب؟ وهل هنا مبالغة فجأة؟ وهل هنا ثقل وعبء لا يحتمل؟ كلا، على سبيل المثال حتى نبدأ في إدراك هذا الموضوع في هذه السن الصغيرة لو أننا عودنا هذا الطفل على أن ينظم موضع حذائه ويضعه في مكان معين وعندما يضعه يجد الابتسامة المشجعة والكلمة المحفزة من والدته وإذا لم يفعل وجد شيئاً من التأنيب، صورة من المسؤولية الذاتية التي يكاد تغيب عنا فصار جميع الأفراد لا يحسنون أمراً ولا يتقنون عملاً، بسبب الاتكالية وعدم التعود على حمل المسؤولية.

صورة قد يكون فيها مبالغة لكننا نريد تحمل المسؤولية، وقبل أن أبدأ في الصور العامة أشير إلى أن منهج كتاب الله وهدى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمق المسؤولية الفردية تعميقاً لا مزيد

عليه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ستسأل، وسيسأل كل أحد، صغيراً كان أو كبيراً بحسبه عند تكليفه، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وفي حديث المصطفى ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً»^(١)، وفي شأن الكفار يذكر الله جل وعلا قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوَيْلِنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، والمحاسب هو الحق جل وعلا، هو الذي لا تخفى عليه خافية، هو الذي ﴿يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

والمحاسبة ليس فيها واسطة، والمسؤولية ليس فيها من يحمل أو يخفف، بل كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، أي: مرتهنة، وفي حديث المصطفى ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٢) أي: إما أن يعتقها إذا أدى ما عليه، أو يوبقها ويوردها الهلاك إذا قصر في مسؤوليته وواجبه، والنصوص في هذا كثيرة، والأثر العملي لهذا عظيم، وحسبي أن أشير إشارات.

هذا سبط النبي ﷺ الحسن، وهو صغير ما زال دون البلوغ ودون التكليف وبين يدي النبي ﷺ بعض من تمر الصدقة بعد التوزيع فأخذ تمره ليضعها في فمه، فضرب النبي ﷺ على يده وقال: «كخ كخ»، أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة»، إنه لا يعي لا يدرك لا يعرف الأحكام، لكنها التغذية الأولية، ما يقع كما يقولون في العقل اللاواعي الذي دعانا النبي في سنته أن نؤذن في الأذن اليمنى ونقيم في اليسرى لماذا؟ لأن لهذه الكلمات أثراً أثبت العلم أنه يبقى، لذلك لا بد أن ندرك هذا، حتى لما جاءت المرأة وقالت لابنها: هاك اعطك، فلما جاء أعطته تمره، قال: «أما إنك لو لم تعطه لكانت كذبة»^(٣)، لا تفكر به وأن عقله صغير أو إدراكه غير عميق، فكر بما تريد أن توصله لهذا الصغير منذ نعومة أظفاره.

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨) بلفظ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) السلسلة الصحيحة (٧٤٨).

المسؤولية هنا سنتناولها في جوانب ثلاثة مهمة:

الجانب الأول: هو جانب الأسرة، الأم والأب وبيئة الأسرة كلها، تحتاج أولاً إلى إعطاء الثقة، وذلك بالتشجيع والتحفيز، قل له: إنك كبير، قل له: إنك مسؤول، قل له: إنك تستطيع وتقدر، وشجعه حتى يكون ذلك منطلقاً لهذه المسؤولية.

والأمر الثاني: إعطاء الاستقلالية في اتخاذ القرار مع الرعاية والتقدير، دعه يقرر، نحن اليوم نقرر عن أبنائنا أين يدرسون، ونقرر عنهم في ماذا يتخصصون، ونقرر عنهم ماذا يلبسون، شيء عجيب هذه الرعاية الزائدة تفقد هؤلاء شخصياتهم وقدراتهم التي يمكن أن تكون نواة لقوة وقدرة وشخصية مؤثرة في المستقبل.

والأمر الثالث: هو إعطاء الفسحة أو الفرصة للممارسة العملية في شتى الجوانب مع المكافأة أو المعاقبة بحسب الحال، إذا فعلنا ذلك سنجد أثراً وسنجد تجربة وسنجد فرصة لجوانب مختلفة، ولكي يتحقق هذا لا بد أولاً من تنمية الحوار والمشاركة، نحن لا نسمع أبنائنا ولا نصغي لهم، وإذا أرادوا أن يتكلموا قلنا: إننا مرهقين أو ابتعدوا فنحن الآن مشغولون، أو في وقت آخر، أو ما هذه القضية التافهة العارضة، فحينئذ لا يسمع لهم قول ولا يعتبر لهم رأي، ولا ينظر إليهم في قدر من الشخصية بحال من الأحوال، وهذه قضية أساسية مهمة.

والأمر الثاني: هو الأمر الذي يكون فيه نوع من التقدير الحقيقي الذي نعمله بتجربة مقصودة هادفة، عندما نكون على قدر كبير من التتبع والمتابعة الإيجابية لأبنائنا فعند كل إحسان نقدر ونحفز وعند كل تقصير ننبه ونشير إلى مواطن الخلل فيحصل حينئذ هذا التقدير في كل الجوانب.

مثلاً: ما يسمى بالإجازة، أو العطلة وإن كانت العطلة من العطالة، ماذا يصنع أبنائنا بل كثير من أسرنا، الليل قصير يسهرونه في غير فائدة، والنهار طويل يقتلونهم أو ينحرونه نوماً، وفيما بينها فراغ يؤدي إلى فراغ ونعمل فيه فراغ وننتهي فيه إلى فراغ!

فلنعطي أبنائنا أولاً فرصة التعويد على المسؤولية بالواجبات الاجتماعية يكلفون بها ويحرصون عليها، هم الذين يعملون جداول الزيارات للأرحام، أو يرتبون للقيام بأعمال تريدون القيام بها، اجعلوهم يشعرون أن هذه مسؤولية وأنها من المهام الواجبة ومن

الأعمال الفاضلة في شريعتنا الغراء، اجعلوهم يأخذون جانب آخر مع محيط الحي والجيران، مع بقية أقرانهم إن كانوا صغاراً أو إن كانوا كباراً فليقوموا بمبادرات اجتماعية في تنظيف الحي أو في عمل شيء يعود على الجميع بفائدة يشعرون بالأثر ويقومون بنوع من المهمة بل كلفه بعمل وإن كان في داخل المنزل أو لصالح الأسرة ونحو ذلك، ليعتاد على المسؤولية.

وأضف إلى ذلك القراءة وأضف إلى ذلك الصلة بكتاب الله سبحانه وتعالى، كل ذلك لا ينبغي أن يمر دون أن يكون هذا التوجيه وتحميل المسؤولية.

أما الترتيب الشخصي لحاجياتهم وسررهم وغير ذلك فهذه قضية ينبغي أن تكون دائمة، لا ينبغي أن يعود الأبناء على الاتكالية التي تولد عندهم شخصيات على جانبيين من الخطورة في الناحية الفكرية والنفسية تنشأ شخصيات ليس لديها أي مبالاة بأي شيء، ومن الناحية العملية والسلوكية تنشأ شخصيات غير قادرة على عمل شيء، وكلا الأمرين خطير، أن تكون لدينا نفوس لا تتحمل مسؤوليات، ولا تعنى بشأن نفسها حتى تُعنى بشأن غيرها، وأين نحن حينئذ من هذه المسؤولية الكبيرة التي تضمننا جميعاً في شأن الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله ومسؤوليتنا عن كل هذه البشرية؟ ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

كل ذلك قاعدته الأساسية ومنطلقه الأول، إن لبنته الأولى في هذه المسؤولية التي ترعى من البداية منذ الصغر بنوع من التحمل للمسؤولية حتى بالمسؤوليات داخل الأسرة، اجعل الأبناء الكبار يعلمون الأبناء الصغار، واجعل البنت الكبيرة تعتني بالأطفال الذين تقوم لهم بشأن كشأن الأم، مع التحفيز والتشجيع والتوجيه والترغيب، كل ذلك مطلوب حتى تصبح الأسرة كلها فاعلة، وليست كلها نائمة، كثير هو النوم في هذه الأيام بشكل عجيب وغريب وبنوع من صورة تدل على أننا ليس عندنا انتاجية وليس عندنا تحرك ولا تحرق.

أيها الناس: إن من المؤسف أن تكون المجتمعات الإسلامية في كثير من جوانبها مجتمعات لديها قدر كبير من التخلف العلمي والتقني والسلوكي والمنهجي والإداري نحتاج إلى

استدراكه، «والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»^(١) كما قال رسولنا ﷺ، ﴿يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مریم: ١٢]، ليس هناك تراخ، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، «بادروا بالأعمال ستاً»^(٢)، كما قال النبي عليه -الصلاة والسلام-، كل ذلك يدل على التحفيز، أول ما خوطب النبي ﷺ بعد نزول الوحي في المرة الأولى بـ ﴿أَقْرَأْ﴾ [الإسراء: ١٤]، ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِينَةُ ۖ فُؤَادًا نَّذِيرًا﴾ [المدثر: ١-٢]، بقوة، بنوع من الأمر، ليس هناك مجالاً للنوم ولا للدعة ولا للكسل، فإن الحياة عمرها قصير وميدانها محدود، والحياة الأخرى هي الحياة الأعظم عند المؤمن، ينبغي هنا أن يجرث في كل لحظة في كل ثانية في كل ميدان في كل مجال مع كل إنسان حتى يستطيع أن يعمر حياته لتكون عمراناً لآخرته.

والميدان الثاني: هو الميدان التعليمي، المعلمون أيضاً أن يسمعوا لتلاميذهم وأن يطلبوا مشاركاتهم، وأن يجعلوا التعليم بينهم وبينهم متفاعلاً، نحن نريد بيئة تجعل هؤلاء الطلاب يتحملون مسؤوليتهم، ويتعلمون كيف يحصلون العلم بذاتية وليس بتلقين أو فرض أو قسوة وغلظة، وأيضاً ليس بمساعدة دائمة في كل لحظة وأن؛ دون أن يكلف نفسه جهداً أو أن يشعر بأنه يتعب أو يجتهد لأجل ذلك، وسبحان الله لو تأملنا من سير السلف الصالح ونماذج ما كانوا عليه لعجبنا ولرأينا عجباً كبيراً.

كان للإمام النووي وهو في مقتبل العمر وبداية الشباب ثلاثة عشر درساً في ثلاثة عشر علماً، يتدونها قبل الفجر الأول إلى نهاية اليوم في الغروب، هكذا كانت الطاقات والمسؤوليات والأعمال التي كان ينجزها أسلافنا، ليس في هذا المجال العلمي أو الشرعي فحسب، بل في سائر المجالات.

وفي التعليم ينبغي أن يعود الأساتذة الطلاب على المواجهة وعلى الإلقاء والجرأة المنضبطة، وقد أقيمت تجربة كُلف فيها الطلاب بأن يحضروا مادة للمحاضرة أو للدرس بعد

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٧).



أسبوعين أو ثلاثة، فيستعدوا ثم هم يقومون بالتدريس ويجاورهم إخوانهم وزملائهم؛ فكانوا يجدون ثقة بالنفس ويذهبون حتى يحضروا تحضيراً أقوى مما يمكن أن يحضره حتى المعلم أحياناً.

نحتاج إلى بيئة تجعل الطلاب في المدرسة يحافظون على التعاون والنظافة والنظام، ويقومون بتنظيف مساجدهم ومدارسهم وبتجهيزها وتمهيتها ويعملون كخليفة نحل، نحتاج إلى صورة التعاون، التي يضرب مثلها النبي ﷺ بصورٍ رائعة: «كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١)، «كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢)، صورٌ ينبغي أن نترجمها في بيئات متنوعة وسيا بيئة التعليم فإنها من أبرز وأكثر البيئات التي تؤثر في طلابنا وفي أبنائنا ليكتمل هذا مع ذلك فيحسن حينئذ تحميل المسؤولية والتربية عليها كما يجب وكما ينبغي.

وهنا ومضات سريعة: في الصحيحين أن رسول الله ﷺ أتى بشرابٍ. فشرب منه. وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخٌ. فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: لا. والله! لا أوثر بنصيبك منك أحداً^(٣). هذه فرصة عظيمة، هذه مزية، هذا الغلام لو لم تكن له شخصية لو لم تكن له تربية لربما مع هيبة النبي ﷺ قال: نعم. وهذا ليس فيه سوء أدب، بل فيه كمال قوة وقدرة وكمال علم وفطنة، وكمال نظرٍ إلى الفائدة والمنفعة في كونه يقدم بتقديم رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم -.

النبي ﷺ كان راكباً على دابته وكان يردف خلفه ابن عباس وهو غلام صغير فالتفت إليه في الحديث المشهور: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله..»^(٤)، هكذا الالتفات والانتباه والتعيين حتى وجدنا ابن عباس يفخر ويحفظ ويمثل وهذا عبدالله بن عمر يقول: كان الصحابة يرون الرؤى

(١) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٠٥) ومسلم (٢٠٣٠).

(٤) صحيح الترمذي (٢٥١٦).

فيقصونها على رسول الله ﷺ وهو صغير كان ابن الحادية عشر، قال: فوددت أن أرى رؤيا فرأيت رؤيا فقصصتها على حفصة، فقصتها على رسول الله ﷺ، فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»^(١)، هذه كلها ومضات في التفات النبي ﷺ إلى هؤلاء الغلمان في صغر السن، فينبغي أن نلتفت لذلك.

أسأل الله عز وجل أن يرزقنا الأبناء الصالحين وأن يعيننا على تربيتهم وتنشئتهم على مراد الله سبحانه وتعالى.

(١) رواه البخاري (١١٥٦) ومسلم (٢٤٧٩).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

إخوة الإسلام والإيمان: أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله، فإن تقوى الله أعظم زاد يقدم به العبد على مولاه، وإن من تقوى الله عَزَّوَجَلَّ استشعار الأمانة والمسؤولية في تربية الأبناء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

والدائرة الثالثة المهمة هي دائرة المجتمع: يوجد في مجتمعاتنا إلى حد كبير نوع من التهميش للصغار أو للشباب في مستقبل العمر، لا ينظر إليهم، لا يسمح لهم بمشاركة الكبار في مجالسهم، لا يطلب منهم رأي، لا ينتظر منهم إسهام، وهذا كثيرًا ما يجبطهم، ويسد الأبواب في وجوههم، ولا يتيح الفرصة لطاقتهم، بينما نجد ذلك في تربية النبي ﷺ وفي تاريخنا على غير ذلك.

كلنا يعرف كيف كان عمر بن الخطاب يُدخِل إلى مجلسه الذي فيه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لماذا؟ لأنه كان ذا علم. ولما سألوا عنه وعن دخوله هذا المجلس مع كونه صغيرًا ولهم أبناء أكبر منه، سأله عمر بن الخطاب عن تفسير سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، ففسرها أولئك القوم ثم سأل ابن عباس فقال: «هي أجل رسول الله ﷺ نعي إليه»، قال: «ما أعلم منها إلا ما علمت»^(١)، فأشار بذلك إلى تقديمه.

ومثل ذلك وقع أيضًا مع ابن عمر لما كان النبي ﷺ في مجلس فقال: «ما شجرة مثلها مثل المسلم» اضربوا لي مثلًا، قال: فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت وفي القوم أبو بكر وعمر، فقال النبي ﷺ: «إنها النخلة»^(٢)، فلما علم عمر قال: وددت لو أنك قلتها وليس لي بها ما في الدنيا وما فيها؛ لأنه كان يريد لابنه أن يتصدر أو أن يتقدم في هذا الوطن العظيم.

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤) ومسلم (٤٨٤).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٢) ومسلم (٢٨١١).



أيها الناس: إن في قول الحق سبحانه وتعالى في شأن نبيه وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] إشارة بديعة إلى ما تحتاجه تلك الصناعة من لطف إلهي، وعناية ربانية. إن الرجال يصنعون صناعة أي صناعة! إن لكل أمة محترمة، ولكل شعب متحضر مبادئ وأعرافاً، وأحكاماً ونظماً ترتب علاقاته بين أفرادها، وعلاقاته مع الآخرين، كل أمة محترمة تضع الخطط والمناهج لإيجاد مناخ سليم لإعداد الأجيال الناشئة، لتلقي تلك المبادئ والنظم، والإيمان بها، والغيرة عليها، والدفاع عنها. إن ذلك كله لا يكون إلا بالتربية، إن التربية -أيها الإخوة- هي التكامل، وهي التطور، وهي الاستمرار، وهي التغيير. التربية بإذن الله تحدد طريق السعادة كما تحدد طريق الشقاء، إنها صورة مجتمع في قيمه وأعرافه، ومثله وأخلاقه.

التربية هي الإعداد للحياة، وصقل العقول، وتهذيب السلوك، وتنمية الذوق الرفيع، والتدرج في مراقبي الكمال الإنساني، إنها غرس ودرس، وغاية ورعاية، وعطاء ونماء، تربية دقيقة جادة تقوم على بناء المجتمع، وتصحيح الخاطئ من مفاهيمه، وإقامة المعوج في سلوكه. تربية تجمع بين سلامة المعتقد وتأديب النفس وتهذيب العقل وبناء الجسم. التربية وسيلة توحيد الأمة، وربط أفرادها بغايات عليا، ومصير مشترك، تحفظ الماضي المجيد، وترسم المستقبل المأمول، إنها العقيدة والنظام، والقيم التي تميز الأمة وتؤكد استقلالها، بل هي سبيل تميزها وتفوقها.

أيها الآباء: أيها المعلمون! أيها المربون! يُربى أبنائنا على القدوة الحسنة، ونشدان الكمال، وعلى إحقاق الحق، وحب العدل، يجب البعد عن التناقض بين المبادئ الأصيلة الصحيحة من الإيمان والخير والطهر وبين مبادئ الكفر والظلم والقسوة والانحطاط الخلقي.

أيها المربون: ينبغي أن يعلم أن التقليد فطرة مغروسة في سلوك الطفل، فهو يقلد ما يراه، إن حسناً فحسناً، وإن سيئاً فسيئاً، ومن ثم فلا ينبغي أن تقع عين الطفل إلا على كل مظهر حسن، وعلى ألا تتلقى أذناه إلا كل لفظ مهذب، ولا ينمو رصيده من المشاهدات والمدركات والمعارف إلا على كل تصرف رشيد وكل عمل مفيد. والنفوس مجبولة على حب التملك والتفوق والثناء، فلا ينبغي أن يغفل الأب والمربي عن الحوافز المادية، والمشجعات الأدبية، فتنوع الحوافز والجوائز فيمنح مალأ، ويهدى كتاباً، ويُشجع بالألفاظ المسموعة والمكتوبة،



ناهيك بالحافز الأخروي، وربط الناشئة ببا عند الله، فما عند الله خير وأبقى من عظيم الأجر وجزيل الثواب، وهذا يتناسب مع كبار الناشئة قبل صغارها.

يجب مع ذلك - على الكبار - العناية بالألفاظ، وأسلوب الخطاب، وترك الفظاظة والغلظة، مع مراعاة حسن الهيئة من الملامح المبتسمة، والقسمات المبتهجة، في أريحية وطلاقة وجه، فيكسب القلوب، ويملك المشاعر، ولا يسع الناس إلا طلاقة الوجه وبسط المحيا، وتبسمك في وجه أخيك صدقة.

ينبغي أن يسود في التربية احترام الكبير، ورحمة الصغير، وحفظ الحقوق، واحترام الممتلكات العامة والخاصة، والعطف على المحتاج، ورعاية المريض والعاجز، والرفق بالحيوان، والتنظف والتجمل، والشجاعة في القول، والرأي والعمل، و«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

أيها الإخوة: إنها التربية المتكاملة المتوازنة، تعصم بإذن الله من النزوات النفسية، وتحمي من سلطان الميول الجامحة، والأهواء المؤذية، وتثير للناشئة طريق الهدى والصلاح، فتقوم الحياة والعلاقات على الحب والطاعة والتعاون والمناصحة، وتنطبع النفوس على جميل الخصال وتدفع بالسلوك إلى أنبل الفعال، سدد الله الخطى وبارك في الجهود وأصلح الأنفس والنيات والذريات، إنه سميع مجيب الدعوات.



خطر القنوات الفضائية (١)

الخطبة الأولى:

• حمد لله المستحق للحمد والثناء؛ أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأسأله السعادة في الدارين، وأعوذ به من حال أهل الشقاء؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن سيدنا ونبينا عبد الله ورسوله، أفضل الرسل وخاتم الأنبياء؛ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء؛ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله: أوصيكم أولاً بوصية الله في الأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

أيها المسلمون: إن شياطين الإنس يستخدمون سلاحاً لا يقل خطورة ولا يهون أثراً، ألا هو سلاح الشهوات، فتراهم يثيرون الغرائز في كل نادي، ويهيجون الشهوات في كل وادي، مشاهد مخرقة بالآداب، أغانٍ ماجنة، ومسلسلات تسلسل الألباب، وقنوات إلى الفساد والرذيلة ممدودة، وعن الصلاح والفضيلة مسدودة، غناءً ماجن وفن فاتن، في عرض جمع بين الإزراء والإغراء، فلا زال مسلسل الإسفاف وتدمير الأخلاق والفضائل مستمرا، ولا زال شريط العهر والعري ونبد القيم السامية والمثل العليا متواصلا.

إنها القنوات الفضائية المسمومة التي غزت البيوت وخربت العقول وقضت على الفضيلة وهيات أسباب الرذيلة. إن أخطر ما يواجه المسلمون اليوم ذلك الغزو الوافد إلينا عن طريق

القنوات الفضائية، إنه غزو الشهوات والملهيات، إنه غزو لعقيدة المسلمين في إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وأمور الغيب التي وردت في كتاب الله وصحت عن نبينا محمد، إنها حرب شعواء على كل الأصعدة الدينية والأخلاقية والاجتماعية، تدمر العقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والعادات الحسنة والشمائل الطيبة والشيم الحميدة والخصال الجميلة، ومتى تخلت الأمة عن عقيدتها وأخلاقها وقيمها سقطت في بؤر الضياع والانحلال.

أما أن لهذه الفضائيات أن تكف عن هذا السيل العرم من المواد التي تعتمد على إثارة الغريزة ونشر الفاحشة؟! أما أن لها أن تتجه إلى العمل الجاد والطرح المفيد الذي يدفع بالأمة إلى التقدم والازدهار والرقى؟! أما أن لها أن تكف عن زعزعة العقائد وتعميق الخلافات وإشاعة الفوضى في المجتمعات الإسلامية؟! لقد اعترف الجميع بخطورة تلك القنوات على جميع شرائح المجتمع وبخاصة الشباب والفتيات والأطفال.

إنها المصيبة الكبرى والداهية العظمى التي تهدد مستقبل الشباب والفتيات ونحن في زمن كثرت فيه المغريات وتنوعت الشهوات، وترك المفسدون في وسائل الإعلام مخاطبة العقول والأفهام، ولجؤوا إلى مخاطبة الغرائز وإثارة الحرام.

يقول أحد الكفرة من أعداء الإسلام وهو يخاطب قومه يقول: (إنكم إذا أعددتكم جيلا من المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها أخرجتم المسلم من الإسلام وجعلتموه لا يهتم بدينه)، وقالوا أيضا: (كأس خمر ومغنية راقصة تفعل بالأمة الإسلامية ما لا تفعله الصواريخ ولا الدبابات). هذا ما قالوه قديما، ولا يزالون يعملون دون كلل أو ملل؛ لأنهم يرون ثمار مخططاتهم الخبيثة تزداد يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَيْنَا أَن نُبْرِئَهُمْ وَأَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، يستمتتون بتحقيق غاياتهم، ينفقون من أموالهم ويبدلون من أوقاتهم، سعيا في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا. لقد استطاع الأعداء من خلال الفضائيات والشبكات اقتحام ديارنا وبيوتنا، تُغزى أفكارُ أبنائنا في عُقر ديارنا، ويُحاربُ ديننا بأموالنا، وتهدمُ أسوارنا بسواعِدنا، وتُخربُ بيوتنا بأيدينا، فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِنَا وَقِلَّةَ حِيلَتِنَا.



انظروا مثلاً إلى بعض البرامج والمسلسلات التي بسببها تنشأ الخلافات الزوجية، بل قد أثبتت الدراسات الميدانية وقوع حالات كثيرة من الطلاق والشقاق والخلافات الأسرية بما تصوّره تلك البرامج من خيانات زوجيه وعلاقات محرمة. هذا هو تأثير القنوات على الأسرة، لم نسمع يوماً أن فيلماً حلّ مشكلة زوجية أو أرسى قاعدة أخلاقية، فكم حولت هذه القنوات بأزواج من سمات الطهر والعفاف المودة إلى صفات الدناءة والوقاحة. نسأل الله العفو والعافية.

عباد الله: كيف يطالب المصلحون والمربون الشباب بالاستقامة وهذه الوسائل تبث سموها ليلاً ونهاراً لتهدم منظومة القيم والأخلاق، وتفسد المروءات والآداب؟! أهدأ هو التقدم والرقي والمدنية التي نشدها؟! أهدأ هو البناء الحضاري والتنموي الذي نريد إقامة قواعده وأسسها؟!

بل إن كثيراً من البرامج تضرب سموها في عقيدة الولاء والبراء، فمن المعلوم في عقيدة الإسلام أن المسلم لا يجب إلا أهل الإيمان ولا يوالي إلا أهل الإسلام، لكن هذه الفضائيات قلبت الموازين، كيف لا وأنت ترى كثيراً من شباب المسلمين يحبّ هذا الفنان ولو كان فاجراً لا يؤمن بالله ورسوله، ويجب هذا المغني ولو كان لا يدين بالإسلام، ويوالي هذا اللاعب ولو كان كافراً ملحداً يسخر من الإسلام؟! والنبّي عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول فيما رواه أحمد: «لا يحب رجل قوماً إلا جعله الله معهم»^(١).

وتعمد هذه القنوات الماجنة جاهدة على إثارة الغرائز والشهوات في نفوس المشاهدين، فهي تدعو إلى الحب والغرام والعشق والهيام، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

كَمْ نَسْمَعُ وَنَقْرَأُ مِنَ الْقَصَصِ الْمُبَكِّيَةِ وَالْمَوَاقِفِ الْمُحْزِنَةِ الَّتِي سَبَّبَتْهَا هَذِهِ الْبَرَامِجُ وَالْقَنَوَاتُ، وَالْمَسَلْسَلَاتُ وَالْحَفَلَاتُ! كُلُّهَا نَتَائِجُ وَاقِعِيَّةٌ وَتَطْبِيقَاتٌ عَمَلِيَّةٌ لِمَا رَأَوْهُ وَيَرَوْنَهُ وَمَا يُهَارِسُونَهُ فِي تِلْكَ الْأَجْهَرَةِ، فَلَمَّاذَا يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ لِمَاذَا تَرُكُ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْهَابِطَةَ وَتِلْكَ

(١) صحيح الجامع (٣٠٢١).

الأجهزة المدمرة تُربِّي أبنائنا وبناتنا؟! هل عجزنا نحن عن تربيتهم أم أننا راضون بهذه التربية الغربية البهيمية الحيوانية؟! كيف نرجو خيرا للشبابا وفتياتنا؟! وأي مستقبل زاهر نتظره منهم؟! وأي عز ومجد ينتظر أن يصنعه هؤلاء الأبناء وقد أصبحت هذه الوسائل الإعلامية والتقنية هي المربي والموجه والمعلم لهم؟! عجباً أين دور الآباء والأمهات في التوجيه والإرشاد وقد سمحوا لأولادهم أن يتلقوا أخلاق الانحلال والإلحاد والضياع؟! قال رسول الله: «ما من عبد يسترعيه الله عزَّ وجلَّ رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته ماذا جزاءه؟! إلا حرم الله تعالى عليه الجنة»^(١). أليس من الغشِّ إدخال القنوات الهابطة في المنزل؟! أليس من الغشِّ توفير أجهزة تمثل سلاحاً ذا حددين بيد الأبناء دون أدنى رقابة أو ترشيد وفيها ما فيها من الشرِّ والباطل؟! ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأفال: ٢٧]، فالأب والأم مسؤولان أمام الله عن هذا التقصير والتفريط، «كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته»^(٢).

والله لقد ضيع كثير من الناس الصلاة بسبب هذه الوسائل، وخاصة صلاة الفجر تشتكي من قلة المصلين، ما عذرک أمام الله أيها المسلم في ترك صلاة الفجر؟! مباريات، أفلام، مسلسلات، تصفح في مواقع الشبكات؟ كلها أعداء واهية، ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. ألم تسمع قول رسول الله: «لا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله»^(٣) بل ألم تسمع قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من سمع النداء فلم يجبه فلا صلاة له إلا من عذر»^(٤)

ومن آثار ذلك أيها الناس: إضعاف مستوى التعليم، فالطالب الذي يقضي معظم ساعات نهاره وليله في هذه الأمور كيف له أن يجد وقتا للبحث والدراسة والعمل الجاد نحو تحصيل علمي نافع؟! كم تعمل على تضييع الأوقات! كم من أوقات وساعات ضيعت في

(١) رواه البخاري (٧١٥١) ومسلم (١٤٢).

(٢) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٥٧٠).

(٤) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٠٣٥).



هذه الآفة! وكم من ليالٍ سهرت في غير نفع؟ ولو أن هذه الأوقات استغلت في العلوم النافعة والصناعات المفيدة لارتفع شأن الأمة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أيها الناس: وإن من آثار التساهل في هذه الوسائل والأجهزة انتشار المعاكسات الهاتفية والمراسلات اللاأخلاقية، حتى وصل الأمر إلى وقوع حوادث وخيمة، فكم من فتاة انتهك عرضها بسبب كلمة عابرة! وكم من أب وأم صرخوا بالأهات والويلات عندما حلت عليهم المصيبة!

أيها المسلمون: متى نستشعر أننا مستهدفون وأن أبنائنا في خطر عظيم؟ إننا نخشى أن نتبته بعد فوات الأوان، وإذا بنا أمام جيل ربّته القنوات الأجنبية على كل رذيلة، وحارب كل ما لديه من فضيلة، جيل تحلّلت أخلاقه وانحرفت عقائده وتزعزعت مبادئه وقيمه، جيل همه شهوة بطنه وفرجه، يفضلّ الشباب، وتنحرف الفتيات، ويفسد الآباء، ويتمرد الأبناء، فيعصى الله الذي خلق، وتكفر نعم الله الذي رزق. والله در القائل:

إن الحصاد المرّ للفضائيات والشبكات الغير منضبطة وآثارها السلبية التي أفرزتها أعظم من أن تحويه هذه الخطبة، ولعلنا قد أشرنا إشارات سريعة إلى أم تلك الآثار السلبية، فلتتق الله ولنراقبه ولنستغل هذه الفضائيات في الأمور النافعة التي تنفعنا في ديننا ودينانا وآخرتنا، ولنعمل جاهدين على تطهير بيوتنا من قنوات الفساد والرذيلة.

هذه ذكرى للأمة؛ لعل فيها براءة للذمة وإقامة للحجة، وقد كثر الفساد وعم وطم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، واصرف عنا يا الله المحن وسوء الفتن ما ظهر وما بطن، اللهم أصلح شباب المسلمين واهددهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الرسول المجتبي، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

إن من الأخطار التي تهدد كثيراً من البيوت سوء استخدام الهاتف، وعدم مبالاة أولياء الأمور مع من يتحدث أبناؤهم ومع من تتحدث بناتهم، حتى وصل الأمر إلى وقوع حوادث وخيمة عن طريق المعاكسات الهاتفية التي عمت بها البلوى في كثير من مجتمعات المسلمين، ولعل المعاكسة أشهر وأسهل داء اجتاح المجتمع بأكمله، وأصبحت عن طريق الجوال بصفة خاصة ظاهرة ملموسة وخطيرة.

لقد أصبح كثير من المراهقين والمراهقات يستخدمون هذه الأجهزة فيما يضر ولا ينفع ويخفض ولا يرفع بدون رقابة من الوالدين، غافلون تماماً عن أبنائهم، فالثقة بالأبناء أكثر من اللازم تطيح بالأسرة وتهدمها، والاعتدال خير مجال لتربية الأجيال..

أيها الآباء: إن هذه نعمة عظيمة، فبدل من أن تسخر في الشر وتقريب الفواحش والمنكرات! ينبغي أن تسخر في الخير والنفع والتطور مع شيء من التوجيه والرقابة والتشجيع والعناية.

أليس من المعيب أن نرى الغرب والشرق يصنعون الآلات والأجهزة المتطورة ويتفوقون بالصناعات والعلوم ونحن نغمس في السفاسف والرذائل والمغازلات والمعاكسات؟ نأخذ منهم الوسخ ونترك الذهب!

وإن من الشباب من انخرط في مثل هذه الأمور، وبعضهم انبرى لنشر ما لا يليق من المقاطع ونحوها فكان سبباً في فساد غيره، فلما جاءه الأجل تأتي الاستفتاءات عن حكم ذلك وكيف يتم التكفير عنه؟ نسأل الله العافية وحسن الخاتمة.

أيها الشباب: ماذا أعددتם للقبور الموحشة؟! هل أعددتهم عشرين أغنية وثلاثين صورة خليعة وخمسين فلماً محرماً؟! ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].



أيها الشاب: مهما بلغ تقصيرك، ارجع إلى ربك واندم صادقاً واستغفر، لكن إياك أن تنشر لأصحابك أو معارفك شيئاً لا يرضاه الله، لا تنشر شيئاً تخشى بسببه الإثم والفضيحة أمام الله يوم تلقاه، تكفيننا خطايانا وذنوبنا، فلا ينبغي أن نضيف عليها ذنوب غيرنا، فنكون كمن قال الله فيهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]. إن السعيد من يموت فتموت سيئاته وتبقى حسناته جارية، وإن الشقي من يموت فتموت حسناته وتبقى سيئاته جارية، نسأل الله التوفيق والهداية.

أيها الناس: إن تطهير المجتمع من هذه الآفات مسؤولية الجميع، كل حسب طاقته، «كلكم راع، وكلم مسؤول عن رعيته»، وصح عن النبي أنه قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه»^(١).

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن هذه الأجهزة العصرية سلاح ذو حدين، فيها الخير والشر، والمسلم العاقل يستخدمها في الخير ويسخرها في نفع وطنه ومجتمعه، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير...



(١) رواه أحمد وصححه أحمد شاكر (٣١ / ١) والألباني في شرح الطحاوية (٥٠٤).

تكريم المرأة في الإسلام^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، الذي له ملك السموات والأرض وخلق كل شيء فقدره تقديراً، أشهد أن لا إله إلا هو خلق الإنسان من نطفة أمشاج يتلوه فجعله سميعاً بصيراً، ثم هداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً.. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله ربه بالحق هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً^٤ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ^٥ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المسلمون: إن المستقرئ للتاريخ والباحث في أحوال الأمم وعن حال المرأة في ظل الجاهليات القديمة لها والحديثة، يدرك أنها تعيش تحت الذل والاستعباد، والكيدهم والقهر والتسلط، فكأنها بها تحادث نفسها وهي تعيش مأساة حقيقية تقول: لم خلقت أنثى ولم تُخلق ذكراً قوياً جباراً متسلطاً؟! إن كانت هذه هي الحياة فبطن الأرض خير من ظهرها؛ لأنها لا إرادة لها ولا رأي ولا حق ولا قيمة..!

(١) منصور الغامدي.



لقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينظرون إلى المرأة على أنها متاع من الأمتعة التي يمتلكونها، مثلها مثل الأموال والبهائم التي يتصرفون فيها كيفما شاءوا. وكانوا العرب لا يورثون المرأة، ويرون أنها ليس لها حق في الإرث، وكانوا يقولون: (لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة!).

وكذلك لم يكن للمرأة على زوجها أي حق، وليس للطلاق عدد محدود، وليس لتعدد الزوجات عدد معين. وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد من غيرها فإن الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، فهو يعتبرها إرثاً كبقية أموال أبيه، فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه، فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها، أو يجسها حتى تفتدي بصداقها، أو تموت فيذهب بهاها».

وقد كانت العدة للمرأة إذا مات زوجها سنة كاملة، وكانت المرأة تحدد على زوجها لمدة عام كامل، فتلبس شر ملابسها وتسكن شر الغرف، وتترك الزينة والطيب والطهارة، فلا تمس ماء، ولا تقلم ظفرًا، ولا تزيل شعرًا، ولا تبدو للناس في مجتمعهم، فإذا انتهى العام خرجت بأقبح منظر وأزرى هيئة.

كما كانوا يكرهون البنات فيدفنونهن أحياء خشية العار كما يزعمون، وقد ذمهم الله وأنكر عليهم فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

هكذا كان حال المرأة في الجاهلية قبل الإسلام عند العرب، وكذلك كان حالها عند غير العرب، فكان اليهود مثلاً إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها ولا يجالسونها، بل ينصبون لها خيمة في وسط البيت، وكأنها نجاسة أو قذارة.

وكانت المرأة عند الإغريق محتقرة مهينة، وكانت كسقط المتاع تُباع وتشتري في الأسواق. وأما عند الهنود: فلم يكن للمرأة حق في الحياة بعد وفاة زوجها، بل يجب أن تموت يوم مات زوجها، وأن تُحرق معه وهي حية على موقد واحد، واستمرت هذه العادة إلى القرن السابع عشر.



وكذلك كان حالها عند الشعوب الأخرى كالفرس والرومان وغيرهم، بتفصيلات كثيرة ليس هذا مقام تفصيلها، ويكفى ما ذكرناه نموذجًا عن حال المرأة في تلك الحضارات والمجتمعات.

أيها المؤمنون: لكن الله الرحيم اللطيف بعباده لم يشأ أن يطول الظلام، وتستمر الظلامه على المرأة فجاء الله بالإسلام وأرسل محمدًا رحمة للعالمين ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، فأشرق وجه الأرض بالنور، وبدا ثغر الدنيا ضاحكا، وانطلقت أشعة الشمس في سباق محموم لتطرق على المرأة باب خدرها، فتقول: أبشري بخير يوم طلعت فيه الشمس عليك، ولتأخذها إلى عالم أكثر إنصافًا، وأعظم رحمة، وأهدى سبيلا، إنه موعد طالما انتظرته المرأة، موعد مع السعادة الحققة، موعد مع التكريم والعزة، موعد مع الحرية الحقيقية والعدل المنشود.

لما جاء الإسلام ونزل القرآن رفع الله مكانة المرأة وأعزها وأكرمها، يقول أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا في الجاهلية لانعد النساء شيئا، فلما جاء الإسلام، وذكرهن الله، رأينا لمن بذلك علينا حقا».

أيها الكرام: أتى لي أن أتى على كل مظاهر إعزاز وتكريم المرأة في ظل الإسلام؟ وكيف يتسع المقام في هذه الخطبة القصيرة؟ من أين أبدأ؟ وماذا عساي أن أقول؟ ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم.

لقد ساوى الإسلام في أغلب تكاليف الإيمان بين النساء والرجال، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما النساء شقائق الرجال»^(١).

فلها ما للرجل من الحقوق، وعليها أيضًا من الواجبات ما يُلائم تكوينها وفطرتها، وعلى الرجل بما اختص به من شرف الرجولة، وقوة الجلد، وبسطة اليد، واتساع الحيلة، أن يلي رياستها، فهو بذلك وليها، يحوطها بقوته، ويذود عنها بدمه، ويُنفق عليها من كسب يده.

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق الترمذي والألباني في صحيح الجامع.



ذلك ما أجمله الله، وضمَّ أطرافه، وجمَّ حواشيه، بقوله تباركت آياته: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ولقد نعتت المرأة تحت دين الإسلام العظيم بوثوق الإيـمان، ونهلت من معين العلم، وضربت بسهم في الاجتهاد، وشرع لها من الحقوق ما لم يشرع لها في أمة من الأمم في عصر من العصور، فقد أمنت في سبيل الكمال طلبة العنان، حتى أحملت من بين يديها، وأعجزت من خلفها، فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين في جلال حياتها، وسناء منزلتها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا﴾ [النساء: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال سبحانه: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَّرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يُذكر الرجال، قالت: فلم يرعني - أي: يفرغني ويفاجئني - منه يومئذٍ إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح شعري فلففت شعري، ثم خرجتُ إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلتُ سمعي عند الجريد - معناه: أنها رفعت رأسها إلى جهة الجريد الذي هو سقف المسجد إذ ذاك لقرب النبي ﷺ - فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيُّها الناس، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]»^(١).

وقد يظن ظان أن أجور الرجال أكثر عند الله لما يقومون به من شهود الجماعات، والجنائز، والجهاد وغيرها، والصحيح أن أجر المرأة كأجر الرجل متى قامت بأعمال يسيرة، فأخلصت

(١) أحمد (٢٦٥٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤١)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي (٤١٦/٢).



لزوجها، وأحسنت القيام على بيتها وبنيتها، قال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت»^(١).

ومن عظيم أجر المرأة عند ربها، «أن رسول الله عاد عبد الله ابن رواحة، فما تحوز له عن فراشه، أي: تنحى، فقال: أتدري من شهداء أمتي؟ قال: قتل المسلم، قال: إن شهداء أمتي إذاً لقليل، قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء، تموت وفي بطنها ولد شهادة، يجرها ولدها بسرره إلى الجنة»^(٢).

أيها الأحبة: لقد كان النبي ﷺ يوصي أمته بالنساء خيراً وأن يرفقوا بهن، قال عليه الصلاة والسلام: «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»^(٣). وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة»^(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^(٥).

أيها الاخوة الكرام: إن المرأة تمر بمراحل ثلاث: تكون بنتاً ثم تكون زوجاً ثم تغدوا أمّاً، ولكل مرحلة من المراحل الثلاث التي تمر عليها تعيش المرأة قرر لها الإسلام أسمى مظاهر العطف والرحمة والعزة والرفعة.

فإذا كانت المرأة بنتاً فهي حجاب من النار وسبب لدخول الجنة، ولقد اعتنى بها الإسلام أيماً عناية وصانها وحفظها وفرض لها حقوقاً، وحث على حسن تربيتها ورعايتها، قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو. وضم أصابعه، أي معاً»^(٦)،

(١) صحيح الجامع (٦٦٠).

(٢) صحيح الترغيب (١٣٩٤) عن عبادة بن الصامت.

(٣) صحيح الترمذي (١١٦٢).

(٤) صحيح الترمذي (٣٠٨٧).

(٥) رواه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (١٤٦٨).

(٦) رواه مسلم (٢٦٣١).



وعن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله يقول: «من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وسقاهن وكساهن من جدته، [يعني ماله]، كن له حجاباً من النار»^(١) إن من يسمع هذا الثناء والإطراء ليجتهد ويجهد في الإحسان إليهن، والعمل على إحسان تربيتهن تربية صالحة.

ومن الناس من إذا رُزق إناثاً ولم يرزق الذكور تبرّم وتضجر، وتشاءم وحزن، وقد نهى الله تعالى عن كل ذلك فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] قال واثلة بن الأسقع: «إن من يُمّن المرأة بتكبيرها بالأنثى قبل الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ [الشورى: ٤٩] فبدأ بالإناث».

وكتب أحد الأدباء رسالة إلى صديق له يهنئه بالبنات فيقول: (أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون):

فلو كان النساء كمن ذكرنا لفُضِّلَت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ وما التذكير فخرٌ للهلال

فها هي البنت تعيش جوهرةً مصونة، ودرة مكنونة في كنف دينها، تلقى كل الحب والرعاية، وتتعلم التربية السوية الصالحة من أبويها لتكون غداً زوجاً صالحةً مُصلحة.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وأكرمنا به، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يا دُرَّةً حَفِظْتَ بِالْأَمْسِ غَالِيَةً
يا حِرَّةً قَدْ أَرَادُوا جَعْلَهَا أُمَّةً
هل يستوي مَنْ رسول الله قائدهُ
وأين من كانت الزهراءُ أسوتِها
أنت ابنةُ العُربِ والإسلامِ عشتِ به
سبيلُ ربك والقرآنُ منهجهُ
صوني حياءك، صوني العِرض، لا تهني
واليوم يبغونها للهو واللعبِ
غريبة العقل، لكن اسمها عربي
دومًا، وآخر هاديهِ أبولهبِ؟!
مَنْ تَقَفَّتْ خُطَى حَمَّالَةِ الحُطْبِ؟
في حُضْنِ أَطْهَرِ أُمٍّ مِنْ أَعَزِّ أَبِ
نورٌ من الله لم يُجْجِبْ ولم يَغِبِ
وصابري واصبري لله واحتسبي

أيها الاخوة الكرام: وإذا غدت المرأة زوجة فقد سماها الإسلام إلى العلياء، وجعل رباط الزواج من نعمه سبحانه على عباده، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] وقد أوجب الإسلام هدية تكريم للمرأة حين إقبالها على بيت الزوجية، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء: ٤] فلا يجوز لأحد أكل مهرها أو التصرف منه بغير إذنها الكامل ورضاها الحقيقي، فإذا ما تزوجت فإن على الزوج أن ينفق عليها، والنفقة تشمل الطعام والشراب والملبس، وما تحتاج إليه الزوجة لقوام بدنها؛ لقوله تعالى ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ ﴾ [الطلاق: ٧]، وعن معاوية بن حيرة قال: قلت يا رسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تقبح، ولا تضرب الوجه»^(١) وقال عليه

(١) صحيح أبي داود (٢١٤٢).



الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(١) وعن أبي هريرة قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجر الذي أنفقته على أهلك»^(٢).

ومن حقوق المرأة المتزوجة أن يكون لها مسكن تستظل بظلاله، وتنعم بالقرار فيه، وتحس أنها مديرة شؤونه، ومسؤولة عن كل صغيرة وكبيرة فيه، قال الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] فإذا وجبت السكنى للمطلقة، فالتى في صلب النكاح أولى، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ومن المعروف أن يسكنها في مسكن.

ولم تكلف المرأة بشيء من الإنفاق، سواء كانت أمًا أو أختًا، أو كانت زوجةً، قادرة على العمل أو عاجزة عنه، غنية كانت الزوجة أو فقيرة، وسواء كان زوجها قادراً على العمل أو عاجزاً عنه، غنيا كان أو فقيراً، فالرجل هو المسؤول عن النفقة البيتية، وليس من حق أحد أن يلزمها، إلا إذا رغبت في المساهمة بشيء من مالها استحباباً لا وجوباً عن طيب نفس.

ومن حقوق الزوجة التي كفلها الإسلام أن يعلمها زوجها أمور دينها فيعلمها أركان الإيمان وأحكام الطهارة والعبادات ولا سيما الصلاة، ويحثها على أدائها في أول وقتها وشروطها وأركانها مفسداتها؛ لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، ومن وقايتها من النار تعليمها أمر دينها، وقد أثنى الله على نبيه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] ومنها: المعاشرة بالمعروف، وقد أمر الله بها، كيف لا، وقد اجتمعت الأبدان والأرواح في مكان واحد، وأصبح المصير واحداً، والهم هم واحداً، فإن كره منها شيئاً ندب له أن لا ينسى بقية فضائلها وجوانب الخير فيها لما قد يصدر منها من عيب أو تقصير، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وقيل في المعروف: أن لا يضرها، ولا يسيء الكلام معها، ويكون منبسط الوجه معها، ومن المعاشرة بالمعروف: أن يناديها بأحب الأسماء، وأن يكرمها في أهلها عن طريق الثناء عليهم.

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٩٢).

(٢) رواه مسلم (٩٩٥).

ومن حسن معاشره النبي وبساطته مع أزواجه: ما جاء عنه أنه قال لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبي، قالت: ومن أين تعرف ذلك، فقال: أما إذا كنت راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي لا ورب إبراهيم، قالت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»^(١).

ثم بعد حياة السعادة الزوجية تغدوا الزوجة أما وتحمل مسؤولية كبيرة في تربية ليوث المستقبل، ورجالات الأمة، فهي المحضن الخصب الذي يخرج منه إلى الحياة أولئك الأبطال. ومما أوجب الله في حق الأم برها والإحسان إليها قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يريد البر بهما مع اللطف ولين الجانب، فلا يغلظ في الجواب، ولا يجد النظر إليهما، ولا يرفع صوته عليهما، بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي السيد كلاهما». وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أُفِي وَلَا نَهَرُهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] فقد نهى الله أن يقول الابن لأمه: (أف) وهي أقل كلمة، فكيف بما هو أعظم منها؟ «جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»^(٢).

فالأم من أعظم الناس فضلا وأحق الناس بالإكرام والإحسان، ومن لا خير له في أمه فلا خير له فيمن هم دونها: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي أنه قال: «دخلت الجنة فسمعت قراءة فقلت من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان. فقال رسول الله وكذلكم البر. كذلكم البر» وزاد عبد الرزاق في روايته، وكان أبر الناس بأمه،^(٣). وجاء في الأدب المفرد أن رجلا يانبا حمل أمه وراء ظهره يطوف بالبيت فرأى ابن عمر فقال: إني لها بغيرها المذل إن أذعرت ركاها لم أذعر، الله ربي ذي الجلال الأكبر، حملت أكثر مما حملت، فهل ترى جازيتها يا ابن عمر؟ ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: «لا ولا بزفرة واحدة، ولكن قد أحسنت، والله يجزيك على القليل كثيرا».

(١) رواه البخاري (٥٢٢٨) ومسلم (٢٤٣٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨).

(٣) السلسلة الصحيحة (٩١٣).

أيها المسلمون: ها هي المرأة المسلمة التي رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، ها هي قد حُفَّت بسياج عظيم من التكريم، وأمطرت عليها سحب الرسالة فيضاً من الحفظ والصون، والاهتمام والرعاية حتى عُدَّت مشاركة قوية وفعالة في الحياة، لا تصلح الحياة إلا بصلاحها ولا تستقيم بدونها. وإن أقواماً تمردوا على شرع الله، ومشوا في الأرض على غير هدى من الله، فهربوا من التفريط إلى الإفراط ومن الجفاء إلى الغلو، ولأن عندهم عقدة نقص مما فعلوه من اضطهاد وظلم للمرأة غلوا فأرادوا فرض المساواة المطلقة بينها وبين الرجل، فوقعوا فيما قرؤا منه، وظلموها من الناحية المقابلة، ذلك لأن مساواة المرأة بالرجل فيه إلغاء لخصوصياتها التي ميزها الله بها، وعدم مراعاة لحالاتها الخاصة التي راعاها الإسلام، وهذا من حكمة الله وعلمه بخلقه ولطفه بهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].



رسالة إلى العفيفات (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله قدَّر المقادير فأحاطَ بها علمًا، وخلق الخلائق فأحكمها خلقًا: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣].

لا إله إلا هو أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَسْعَدَ وَأَشْقَى، أَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَائِهِ لَا أَحْصِي لَهَا عَدًّا، وَأَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ لَا أَقْضِي لَهُ بِالْحَمْدِ حَقًّا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حقٍّ ويقينٍ تعبُّدًا ورفقًا.

وأشهد أن سيِّدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسولُه هو الأَحْسَى لربِّه وَأَتَقَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَطْهَارِ، وَأَصْحَابِهِ الْعُرَّةِ الْمِيَامِينَ الْأَخْيَارِ، حَازُوا الْمَكَارِمَ شَرْفًا، وَنَالُوا الْعُلَا سَبْقًا، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا بَلَغَ هَذَا الدِّينُ مَبْلَغَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا رَفَرَتْ أَعْلَامُهُ غَرْبًا وَشَرْفًا، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ تَقْوَاهُ أَفْضَلُ زَادٍ، وَأَحْسَنُ عَاقِبَةٍ فِي مَعَادٍ ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

أيها المسلمون:

زَعَمَ السَّفُورَ وَالِاخْتِلَاطَ وَسَيْلَةَ

لِلْمَجْدِ قَوْمٌ فِي الْمَجَانَةِ أَعْرَقُوا كَذَبُوا مَتَى كَانَ التَّعَرُّضُ لِلخَنَا

شَيْئًا تَعَزُّ بِه الشُّعُوبُ وَتَسْبِقُ؟! (٢) قَوْمٌ تَعَاظَمَ حِقْدُهُمْ، وَاشْتَدَّ عُدْوَانُهُمْ، لِيَأْتِيَ عَلَى الْفَضِيلَةِ أَعْنَفُهُ وَعَلَى الْحِشْمَةِ أَشْنَعُهُ وَعَلَى الطَّهَارَةِ أَبْشَعُهُ؛ لِأَنَّ الْعِفَّةَ تَثِيرُ غِيظَهُمْ وَتُمْصُّ أَفئِدَتَهُمْ وَتَحْرِقُ قُلُوبَهُمْ.

(١) صلاح البدير.

(٢) من قصيدة (السفور والخلاعة) للشاعر محمد حسن النجمي.



وما على العنبرِ الفواحِ من حرجٍ أن مات من شمة الزبأل والجعلل (١)

نشؤوا في حزنِ الإسلام، وتربّوا في بلاده، فلما شبّوا عن الطوق استساغوا علقم العدا واستحبّوا العمى على الهدى وحملوا معاول الهدم ورفعوا لواء الكيد والمكر الصّراح، فأبى خيرٌ يُرتجى ممّن سبق للعدا تعبيده ورقّه وتعدّر فكّه وعتقه؟! فهو الوكيل المكثرى والمملوك المشتري والخادم المرتضى.

فُسول الرجال، الغشّة الضلال، أثاروها عجابه هوجاء، وخطّوها مقالات خرقاء، ضدّ المجتمع المسلم الطاهر، وضدّ المرأة المسلمة، لإسقاط حجابها وتدنيس شرفها وإنزالها في ميادين الرجال وزجّها في جميع الوظائف والأعمال وتأسيس الاختلاط وغرس نبتة الخبيثة ووضع لبنته النجسة، فقطعها الله من أكفّ، وأخرسها من ألسن، وأخذها من أنفاس ﴿وَلِيَحْلِفَنَّ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا الْحُسَيْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

أيها المسلمون: لقد وضع الإسلام حداً وسداً لحماية المرأة من معاينة الفساق ومطامع أهل الرّيب والنفاق، وستظلّ بالإسلام في إطار الشرف والفخار والإجلال والإكبار، درّة مصونة وزعيمة شريفة وحرّة عفيفة وشقيقة كريمة. حجابها جمالها، وسترها جلالها، وجليبها عزّها وكماؤها، من الإسلام تستمدّ هديها، وبسنة رسول الله تشقّ طريقها.

وليخسأ دعاء الافتراء المفضوح وأنصار المذهب المقبوح، فلن تجني المرأة من الاختلاط والظهور والتكشّف والحسور إلا النظرات المتلطّخة والتحرّشات العابثة والاعتداءات الفاحشة والكلال والنكال والوبال ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

(١) من لامية ابن سند.



أيها المسلمون: لقد قامت هذه الدَّعواتُ الأثمة والشَّعارات المضلَّة في غابرٍ من الزَّمن في عددٍ من الأمصار والأقطار، ونجح أصحاب هذه الدعوات في إنزال المرأة من قصرها المنيع واستدراجها من حصنها الرِّفيع، فخلعت حجابها، وغادرت حصنها ومخدعها، وتحرَّرت كما زعموا من سلطان الستر، وانطلقت في كلِّ مكان، وعملت في كلِّ ميدان، فماذا كانت النتيجة؟! انحسارٌ في أحسِّ دركاتِ العبثِ والفجور، وانغماسٌ في أسفلِّ دَرَكاتِ الخلاعة والمجون. بعد أن كانت درة مصونة، ولؤلؤة مكنونة..

وحقَّ لنا أن نتساءل: ماذا أضحتِ المرأة المتحرِّرة كما زعموها والمرأة الحديثة كما نعتوها والمرأة العصريَّة كما وصفوها؟ لقد ابتذلت غايةً الابتذال، واستغلَّت غايةً الاستغلال، واستعبدت واسترقت، وغدت أداة لهوٍ وتسليَّة في يد العابثين الفُجَّارِ والفَسَّقة الأشرار، تعمل بثديها قبل يديها، راقصةً في دورِ البِغاء، وعارضةً في دورِ الأزياء، وغانيةً في دورِ الدَّعارة والتَّمثيل، فأين أكذوبة تحريرها وتكريمها؟! وصدق رسول الله: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء، فاتَّقوا الدنيا واتَّقوا النساء، فإنَّ أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

أيها المسلمون: إنَّ حتميةَ الفصلِ الدقيق والعميق بين الرجل والمرأة يُعدُّ ضرورةً أخلاقيَّة وسلوكيَّة واجتماعية وأمنية؛ لأنَّ تمكينَ الاختلاط بين الرجال والنساء أصلٌ كلِّ بليَّة ونقيصة وأساس كلِّ شرٍّ ورذيلة، فعن عقبه بن عامر الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «إياكم والدخولَ على النساء» فقال رجل من الأنصار: يا رسولَ الله، أفرأيتَ الحمومَ؟ قال: «الحمومُ الموت»^(٢) وعن أمِّ سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله إذا سلَّم -أي: إذا فرغ من الصلاة- مكث قليلاً، وكانوا يرون أنَّ ذلك كما ينفذ النساءُ قبل الرجال^(٣). وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله: «لو تركنا هذا البابَ للنساء»، قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى

(١) رواه البخاري (٤٧٠٦)، ومسلم (٤٩٢٣)، (٤٩٢٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣١)، ومسلم (٤٠٣٧).

(٣) سنن أبي داود (٨٧٦)، وهو عند البخاري (٧٩٣).

مات^(١). وعن أبي أسيد الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرَّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ: «اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكِنَّ أَنْ تَحْتَقِنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكَ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ»^(٢) ويقول جَلَّ فِي عِلَالِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَكَلَامِهِ الْبَلِيجِ الْوَجِيزِ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

تلك أدلة من الكتاب والسنة تردُّ أباطيل كلِّ مارقٍ وتحسِّم أضرَّاليل كلِّ ماذقٍ ممن عدلَ عن موردهما العذب الزُّلال إلى آسن قلوِّط أهل الفسق والضلال.

يا فتاة الإسلام، كوني كما أَرَادَكَ اللهُ وكما أَرَادَ لَكَ رَسُولُ اللهِ، لا كما يريدُه دعاةُ الفتنة وسُعاةُ التبرُّج والاختلاط، فأنتِ فينا مُرَبِّيَةُ الأجيال وصانعةُ الرجال وغارسةُ الفضائل وكريم الخصال ومرضعةُ المكارم وبانيةُ الأمم والأعاجد، فحاشاك حاشاك أن تكوني معولَ هدمٍ وآلةَ تحريبٍ وأداةَ تغييرٍ وتغريبٍ في بلادِ الإسلام الطاهرة وربوعه العامرة ضدَّ أمةِ محمد.

يا نساء المسلمين: إنَّ الله رفعكَنَّ وشرَّفكَنَّ، وأعلى قدركَنَّ ومكانتكَنَّ، وحفظ حقوقكَنَّ، فاشكُرنَّ النعمة، واذكُرنَّ المنَّة، فما ضُربَ الحجابُ ولا فُرضَ الجلبابُ ولا شُرعَ النقابُ إلاَّ حمايةً لأغراضكَنَّ وصيانةً لنفوسكَنَّ وطهارةً لقلوبكَنَّ وعصمةً لكنَّ من دواعي الفتنة وسُبلِ التحلُّل والانحدار، فعليكنَّ بالاختيار والاستتار، واغضضنَّ من أبصاركنَّ، واحفظنَّ فروجكنَّ، واحذرنَّ ما يلفت الأنظارَ ويُغري مرضى القلوبِ والأشرارِ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]. استرنَّ وجوهكنَّ وزينتكنَّ ومحاسنكنَّ عن الرجال الأجانِب عنكنَّ.

ولتحذرنَّ المرأة المسلمة الرقيقَ من الثيابِ الذي يصفى ويشفِّ، والضيقَ الذي يبين عن مفاتيها وتقاطيعِ بدنِها وحجمِ عظامها، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ:

(١) سنن أبي داود (٣٩١، ٤٨٤)، ورواه عقبه موقوفا على عمر بن الخطاب وقال: (وهو أصح)، وذكر الجزء المرفوع الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٣٩، ٥٣٤).

(٢) حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٣٩٢).



«المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من ربها إذا هي في قعر بيتها»^(١).

ولتحذر المرأة المسلمة أن تمر على الرجال متعطرة متبخرة، يقول رسول الهدى: «إذا استعطرت المرأة فمرت بالقوم ليجدوا ريحها فهي زانية»^(٢)، وعن عبيد مولى أبي رهم أن أبا هريرة رضي الله عنه لقي امرأة متطيبة تريد المسجد، فقال: يا أمة الجبار، أين تريدين؟ قالت: المسجد، قال: وله تطيبت؟! قالت: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله يقول: «أيما امرأة تطيبت ثم خرجت إلى المسجد لم تقبل لها صلاة حتى تغتسل»^(٣)، وعن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو أن رسول الله رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل، قيل لعمرة: نساء بني إسرائيل منعتن من المسجد؟! قالت: نعم^(٤).

ولتحذر المرأة المسلمة أن تخضع بقولها أو تترقرق في لفظها أو تتميع في صوتها أو تنظم وتتكسر في كلامها مع الرجال، فتطمع فيها ضعيف الإيمان ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

والمرأة الشريفة العفيفة لا تقبل أن تكون نبعة إثارة أو مثار فتنة للأعين الشرهة والنظرات الخائنة الوقحة والنفوس السافلة الدنيئة والأقوال المهينة البذيئة، قال جلّ في علاه: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فأين الامتثال؟! وأين الاستجابة في الحال؟! فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن

(١) صحيح ابن حبان (٥٥٩٨، ٥٥٩٩)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٧٣)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٦٨٨).

(٢) حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٥١٦).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٣٣).

(٤) رواه مسلم (٦٧٦)، وهو أيضا عند البخاري (٨٢٢).



الغربان من الأكسية. أخرجه أبو داود^(١) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنَّ نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلاة الفجر متلفعاتٍ بمروطهنَّ، ثم ينقلبن إلى بيوتهنَّ [حين] يقضين الصلاة، لا يعرفهنَّ أحدٌ من العَلَسِ^(٢).

أيتها المرأة المسلمة: تجللي بأشرفِ إكليل وتلفعي بأهدى سبيل وانتمي إلى خير قبيل، تجللي بالتقوى والإيمان والخشية والخوف والحياء من الرحمن، واحذري كل متبرجةٍ داعرة وكل حاسرة وسافرة وكل ماجنة وكافرة، وأرعي سمعك لقول رسول الهدى: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات ميلاتٌ مائلات، رؤوسهنَّ كأسيمة البُخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(٣) والطبراني وزاد: «العنوهنَّ فإنهن ملعونات»^(٤).

هذا مصيرُ العارِية من خشية الله، العارِية من شكر نعمة الله، العارِية من الأخلاق الكريمة، هذا مصير من تبرجت وترجّلت ومرجت وبرزت وتكشّفت وفتنت وافتننت، فاحذري سوء الخاتمة، ولا يجل بينك وبين الخاتمة الحسنة والدار الطيبة في الجنة العالية دعاءُ المخادنة وأعداء الشرف وأنصار التحلل والتفسخ والانحدار.

أيها المسلمون: كل ما أدى إلى محذور فهو في الشر محذور، وإن من أعظم أسباب الفساد والحيد عن سبيل العفة والرشاد سَفَر المرأة وليس معها ذو محرم منها أو خلوتها بأجنبي عنها، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله يخطب ويقول: «لا يخلون رجلٌ بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنَّ امرأتي خرجت حاجَّةً وإني اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا، فقال النبي: «انطلق فحجَّ مع امرأتك»^(٥).

(١) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٤٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥٤٤)، ومسلم (١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢).

(٣) رواه مسلم (٣٩٧١).

(٤) المعجم الصغير (١١٢٥) والأوسط (٩٣٣١) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو أيضا عند أحمد

(٢٢٣/٢)، وصححه ابن حبان (٥٧٥٣)، والحاكم (٨٣٤٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٦٨٣).

(٥) رواه البخاري (١٧٢٩)، ومسلم (٢٣٩١).



وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ مَقَامِي فَيَكُمُ فَقَالَ: «لَا يَخْلُونَ أَحَدَكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا»^(١). كُلُّ ذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرَائِعِ وَحَسْمًا لِلوَسَائِلِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى وَقُوعِ الْفَوَاحِشِ.

أَيُّهَا الْآبَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ: صُونُوا نِسَاءَكُمْ، وَاحْفَظُوا أَعْرَاضَكُمْ وَأَنْسَابَكُمْ، وَاجْتَنِبُوا التَّفْرِيطَ وَالتَّشَاغُلَ، وَحَازِرُوا التَّقْصِيرَ وَالتَّسَاهَلَ الَّذِي لَا تُؤْمَنُ لَوَاحِقُهُ وَتَوَابِعُهُ وَتَوَالِيهِ وَعَوَاقِبُهُ، بِيَدِ أَنَّ عَاقِبَتَهُ بَوَارٌ وَخَاتِمَتُهُ خَسَارٌ، كُونُوا أُبَاةَ الْعَارِ وَحُمَاةَ الْعَرِينِ، كُونُوا كَمُحَافِظٍ مُتَنَبِّهِ لَا يَغْفُلُ، وَمُرَاعٍ مُتَيَقِّظٍ لَا يَهْمِلُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ أَشْرَفَ النَّاسِ أَشَدُّهُمْ غَيْرَةً عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلُهُ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ لَا غَيْرَةَ عِنْدَهُ فَبَطْنُ الْأَرْضِ أَوْلَى بِهِ مِنْ ظَهْرِهَا، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرَعَاهُ: حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٢)، وَفِي الصَّحِيحِينَ: «وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»^(٣).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَ أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

جعلني الله إياكم من الهداة المهتدين المتبعين لسنة سيّد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) مسند أحمد (١/١٨)، وهو في صحيح سنن الترمذي (١٧٥٨).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٩٢)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/١١٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).

(٣) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٣٤٠٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون، اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون: إن مما يذيب القلب كمدًا ويعتصر له الفؤاد ألمًا ما يحدث من مخالفتٍ في الأعراس والأفراح ومنكراتٍ عظيمة في حفلات النكاح، أفرأح تعجج وتضجج بالمخالفات والمنكرات، استماع للمغنيين والمغنيات والمطربين والمطربات الذين يتغنون بأشعار الفسق والفجور، والبعض يستأجر هؤلاء بمبالغ باهظة وتكاليف عالية، سفة وإسراف ورياء وتبذير، وإيذاء واعتداء ناتجان عن رفع الصوت بالغناء، ونساء متبرجات يلبسن ثيابًا شفافَةً وضيقَةً ومجسمة وعارية وشبه عارية، ورقص كرقص العاهرات، واختلاط للرجال بالنساء، وبذل طائش وإسراف فاحش في المآكل والمشرب الذي لا يخفى مصيرها، وسهر لا خير فيه ولا تحصى مساويه.

أمورٌ مخجلة ومحنة سرت إلى صفوف المسلمين بطريق العدوى والتقليد الأعمى، فاتقوا الله أيها المسلمون، فما هكذا تُشكر النعم وتستدفع النقم، فانتهاوا عما نهيتُم، واستدركوا الفئات بالتوجع للعثرات والخروج من التبعات والتوبة من السيئات، والله يتوب على التائبين.

أيها الناس: إن الإسلام يقصد إلى بناء مجتمع كريم يلتزم قيمه ويتميز بأدابه، ويلتزم بأحكامه، مجتمع نقي من بواعث الفتن، ومواطن الريب؛ التزامًا للملابس السابغة المحتشمة التي تكرم ابن آدم وتحميه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩] أدب غض

البصر، وكف العيون الخائنة من البحث عن العورات: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

تحريم الخلوة بين الرجل والمرأة غير ذات المحرم طهارة لقلوبهم وقلوبهن. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

المباعدة بين مجالس الرجال ومجالس النساء، حتى في المساجد دور العبادة فللرجال صفوفهم وللنساء صفوفهن. منع الاختلاط المحرم في التعليم والعمل وكل مجال يقود إلى الفتنة، تيسير سبل الزواج، والتزام الاستئذان والحشمة حتى لا تقع على عورات.

ومن أعظم الآداب في هذا الباب الكف عن إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وهذا للأسف ما تفعله كثير من وسائل الإعلام، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

ألا فاتقوا الله رحمكم الله واستمسكوا بدينكم، والزموا آدابه وحدوده، عبودية خالصة، وسلوكا لمسالك الطهر والعفة يصلح الفرد كما يصلح المجتمع، فتسعدوا في الدنيا، وتسلموا وتفوزوا في الآخرة وتفعلوا، ثم صلوا وسلموا على نبيكم نبي الرحمة والهدى فقد أمركم ربكم جل وعلا فقال عز قائلًا عليًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأزواجه وذريته.





الخمير المزيف (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله العظيم شأنه، العزيز سلطانه، الدائم بره وإحسانه؛ نحمده تعالى ونشكره، نجعل الحياء شعبة من الإيمان، ومن لا حياء له فناقص إيمانه، ونشكره عَزَّوَجَلَّ أمر المرأة بالترام الحجاب والآداب، وعليها يقوم أساس البيت وبُنيانه، ونعوذ به تبارك اسمه أن يحيف رجال زماننا ونساؤه.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حفظ حق المرأة وأعلى قدرها، وجعل الحياء شطرين بين الرجال والنساء، وما أسعد الحياة إذا حفظت المرأة شطرها.

ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أظهر للعالمين فخرها، صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا من الشريعة سرها، وحفظوا للنساء حقوقهن، وألزموا المرأة خدرها، وعلى التابعين لهم بإحسان، وسلم تسليماً.

أما بعد:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وبالإنابة والرجوع إليه.

أيها الناس: لقد كنا نظن أن هذه الأحداث، وهذه المحنة المحدقة بنا سيكون لها أثرًا بالغًا في نفوسنا، ونفوس أبنائنا وإخواننا وأخواتنا، ومجتمعنا، وسيرجع فيها الجميع إلى الله، ولكن حدث من البعض ما لم يكن بالحسبان، اشتعلت أفكار المفسدين وأقلامهم، وقنواتهم وإعلامهم.

أيها المسلمون: لا يخفى عليكم ما عمت به البلوى في كثير من البلدان من تساهل الكثير من النساء بالحجاب والستر، وسفورهن وعدم تحجبهن عن الرجال، وإبداء الكثير منهن من



زيتتهن التي حرم الله إبداءها، وحيث أن هذا الداء من المنكرات العظيمة، والمعاصي الظاهرة، ومن أعظم أسباب حلول العقوبات ونزول النقمات؛ ذلك لما يترتب على التبرج والسفور من ظهور الفواحش، وارتكاب الجرائم، وقلة الحياء وعموم الفساد، وحيث أن أفكار المفسدين وإعلامهم، ما زالت تعمل كذلك في هدم الإسلام، وفي هدم قيمه وأخلاقه، فقد كان الأولى أن يكون الموضوع مشتملاً على حكم الحجاب، وموقف الإسلام من تحرير المرأة.

أيها الناس: كانت المرأة مهضومة مظلومة، معدودة عند كثير من الرجال في سقط المتاع، وكانت أوروبا وقوانينها الآثمة تسمح للآباء والأزواج أن تؤجر المرأة وتعار، وتشتري وتباع، وكان شريعة الرومان تكف فم المرأة عن الكلام، وتلحقها بالكلاب وضواري السباع، وكان العرب يمنعونها من الإرث، ويثدونها صغيرة.. إلى غير ذلك من الإهانات، فجاءت هذه الشريعة السمحة وأخرجت المرأة من الظلمات إلى النور، وصارت مكلفة متصرفة بتصرفات توافق طبيعتها، وتناسب معها، وخُف عنها من الأحكام ما تعجز عنه رقة العواطف وضعف الطباع.

كما أمر الإسلام بالرفق بها، وإسداء الخير لها، فقال ﷺ في الحديث: «خيركم خيركم لأهلها، وأنا خيركم لأهلي»^(١)، وقال: «استوصوا بالنساء خيراً»^(٢).

ثم حد الإسلام لها حدوداً تحفظها، وتحفظ عفتها وكرامتها، فشرع الله لها الحجاب؛ ليحجز العابثين عنها، ولكن أذعياء المدنية، وأتباع الشيطان من مدعيي تحرير المرأة يعدون الحجاب هضماً لحقها، وحكماً برقعها، وكذلك يدعي كل أفك أئيم، فلقد ظل أعداء الإسلام، وما يزالون يكافحون لإخراج المرأة المسلمة من دارها، ومن سترها وعفافها، وذلك تحقيقاً لمآربهم الخبيثة، وأغراضهم المشبوهة.

وأخذ كتابهم وشعراؤهم ينادون المرأة ويناشدونها خلع الحجاب، والتعري والسفور، والله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ

(١) الترمذي (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٩٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (١٤٦٨).



ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤَدِّنُ ﴿ [الأحزاب: ٥٩]، قال ابن الجوزي: ﴿يُدْنِيَنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، أي: يغطين رؤوسهن ووجوههن).

أيها الإخوة والأخوات: وحتى لا ينزلق البعض وينجرف في تيار دعاة الضلال من أهل الفن الماجن والإعلام الفاسد؛ لا بد أن نعرف حكم الحجاب معرفة مستمدة من الكتاب والسنة، فقد دلت الآيات والأحاديث على وجوبه وأهميته، من ذلك:

قول الله سبحانه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ مُحْرَمِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ومن ذلك: قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان الركبان يمرون بنا، ونحن محرمات مع الرسول ﷺ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها من رأسها، فإذا جاووزنا كشفناه»^(١).

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «إنما النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لم تمر بأحد إلا أعجبته، وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال: أين تريدين، فتقول: أعود مريضاً، أو أشهد جنازة، أو أصلي في مسجد، وما عبت المرأة ربها مثل أن تعبد في بيتها»^(٢) وهذا فيه دليل على أن بقاء المرأة في بيتها خير من خروجها حتى للعبادات والقربات.

وروى البخاري في صحيحه: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ مُحْرَمِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شققن مروطن فاختمرن بها»، قال ابن حجر: (اختمرن. أي: غطين وجوههن)^(٣).

ودخلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة، وعليها خمير رقيق فشققته عائشة، وقالت: «أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور، ثم دعت بخمير كثيف فكستها»^(٤).

(١) حسنه الألباني في تحريج مشكاة المصابيح (٢٦٢٢).

(٢) صححه الألباني موقوفاً في صحيح الترغيب (٣٤٨).

(٣) البخاري: (٨٩١٤)، وفتح الباري (٨/ ٤٩٠).

(٤) الموطأ: باب ما يكره للنساء من الثياب رقم (١٦٢٥).

ويقول عاصم الأحول: (كنا ندخل على حفصة بنت سيرين، وقد جعلت الجلباب هكذا، وتنقبت به، فنقول لها: رحمك الله، يقول الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]، قال: فتقول لنا: أي شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠]، كبيرة في السن، وقد رخص لها في كشف الوجه، ومع هذا فتأبى لتنال بذلك رضا الرحمن، وزيادة الأجر منه.

أيها المسلمون: إن المرأة المسلمة لقيت عناية فائقة من الإسلام بما يصون عفتها، ويجعلها عزيزة الجانب، سامية المكانة، وإن الضوابط والآداب والأحكام التي دُعيت إليها في ملابسها، وزينتها، وعلاقتها، لم تكن إلا لسترها وحمايتها وسد ذريعة استغلالها من قبل الطامعين في أن يروها سلعة رخيصة وبضاعة كاسدة معروضة لمن هب ودب، وإن أعداء الإسلام ليدركون تمامًا أن المرأة إذا انحرفت عن هذا السبيل، وحطمت تلك الحواجز، وتعدت تلك الضوابط، فثارت على البيت والولد، وانكشفت في المجمع والأندية والأسواق، فهنالك يحققون ما يشتهون، وهناك الويل والوبال، والفتنة والدمار، لمجتمعات الإسلام؛ لذلك يقول أحد المستعمرين: (كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرموها في حب المادة والشهوات).

ويقول أحد كبراء الماسونية: (يجب علينا أن نكسب المرأة، فأني يوم مدت إلينا يدها تبدد جيش المنتصرين للدين).

ولعلمهم: أن هذا لا يتأتى إلا بنزع الحجاب أولاً، وبالاختلاط ثانيًا، فقد ركزوا عليها مستعينين على ذلك بسفهاء من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويخالطوننا في مجالسنا.

ويبدأ المتفعون في دورهم، فيكتبون كتاباتهم، ويسخرون إعلامهم ليدلوا ويحرفوا ما أنزل الله؛ طاعة لأعداء الله، ولكن لا غرو وقد أخبر النبي ﷺ عن دعاة على أبواب جهنم، هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا يسعون لتمزيق ديننا وطمس هويتنا، وهؤلاء هم ممن قال الله فيهم: ﴿وَاللَّهُ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].



أيها الإخوة والأخوات: إن الأعراض إذا لم تُصن وتُحصن بالأسوار والسدود فستسقط لا محالة أمام هذه الإغراءات والدعايات الكاذبة؛ فاحذروا وصونوا بيوتكم وأبناءكم وأهلكم مما يكون سبباً في الفساد والانحراف.

أيها الفتاة المسلمة! حذارٍ من التردّي في المنحدر الذي تردت فيه المرأة الكافرة؛ فإن الكافرة لا تجد ديناً يوجهها ولا شرعاً يرشدها، وأما أنت فما عذرک وقد أنزل الله لك ديناً يحفظ لك العزة والكرامة؟

أيها الفتاة المسلمة! قولي لهم كما قالت المرأة الصالحة:

بيدي العفاف أصون عز حجابي	وبعصمتي أعلو على أترابي
وبفكرةٍ وقادةٍ وقريجحة	نقادة قد كملت آدابي
ما ضرنني أدبي وحسن تعلمي	إلا بكوني زهرة الألباب
ما عاقني خجلي عن العليا ولا	سدل الخمار بلمتي ونقابي

أيها المرأة المحافظة: إن المرأة الحرة الحصينة هي التي تدرك أن خالقها لا يأمر إلا بما يصلحها ويصلح غيرها، ولقد صور الشاعر المرأة بدون حجاب كأنها مدينة بلا أسوار، فقال:

إن المدينة يا ابتتي	تبقى محصنة أمينة
ما دامت الأسوار	تمنعها بأعمدة متينة
فإذا هوت جدرانها	نفذ العدو إلى المدينة

أيها الإخوة والأخوات: إن رواد الإعلام الفاسد يحملون بأيديهم معاول التهديم في صرح كيانتنا المتين، وإن هذا الطريق الذي سلكوه لا يريدون به مصلحة الأمة ولا المجتمع، بل يريدون من ورائه إشباع غرائزهم واتباع أهوائهم، ولقد كان الأولى والأحرى بهم أن يكونوا من خلال الوسائل الإعلامية والإمكانيات التقنية رواد نهضة حقيقية تبعث في الأمة

روح الكفاح والأدب والعلم والتقدم، وتجند لها حياتها الأسرية الهائلة؛ ليكون المجتمع مجتمعاً متياسكاً، قوي البنين، أصيل النشء.

فيا من سخرتم إعلامكم لتدمير الأخلاق وتدمير منظومة القيم لدى الأجيال، سخروا إعلامكم وجهودكم لإيجاد شباب صلاح وكفاح، وتعليم وعمل، وإيجاد نساء معلمات مريبات أجيال؛ فإن الذين استقيتم منهم السم قد عزَّ عليهم أن تجود أمهاتكم وأخواتكم على أمتهما كما جادت من قبل بالعلماء والمجاهدين، فصار همهم أن لا تلد المسلمة مثل عمر وخالد بن الوليد وصلاح الدين، فلقد ظلت المرأة المسلمة طيلة القرون الخالية مصونة متربعة على عرشها تهز المهديمينها، وتزلزل عروش الكفرة بشمالها؛ لذلك نصب أعداؤنا لها الشباك، واحتالوا عليها بشتى الحيل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله على كل حال، ونعوذ به من أحوال أهل الضلال، ونسأله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الحال والمآل، ونعوذ به من فتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، وخروج النساء عن طاعة الرجال؛ نحمده تعالى وهو الكبير المتعال، ونشكره على نعمه، والله يحفظها من الزوال.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عالم السر والجمهور، وبيده الخلق والأمر، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاماً دائمين بدوام الليالي والأيام.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله! واحفظوا ما استرعاكم عليه؛ فإنه سائلكم عنه يوم يقوم الأشهاد. أحبتي في الله! إن الإسلام حين أمر النساء بالاحتجاب عن الرجال الأجانب؛ لأن منهم البر والفاجر، وفيهم الطاهر والعاهر، والحجاب حاجز يمنع الفتنة، ويحجز عن دواعيها، ويدعو إلى الحياء والعفة، ويبعد عن مظان التهمة، ويحفظ النساء من تعرض الفساق لهن في بالأذى والنظر السيئ، كما حرم على المرأة مخالطة الرجل؛ محافظة على الثقة والمودة بينها وبين زوجها من تدخل كل أفك أئيم، يشعل الخصومة، ويثير الشكوك، ويفكك الأسر، ويهدم البيوت الآمنة، وحتى لا تعرض نفسها لأن تفتن أو تفتن بأحد من الناس، أو أن تتعرض لوسائل الإغراء، وحبائل المكر فتتعرثر، وقد تقع في لوثة الإثم ناقضة للعهد، وناكثة للوعد، وخائنة للأمانة.

ومن اللطائف أن رجلاً كان جالساً في مجلس من المجالس، فسمع أحدهم يقول: (لماذا تبقى نساء الشرق متحجبات في بيوتهن مدى حياتهن من غير أن يخالطن الرجال، ويغشين مجامعهن، فأجابه قائلاً: لأنهن لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن!) فسكت وكأنه ألقم الحجر.

أيتها المسلمة: إن البيت للمرأة في نظر الإسلام كمحل اللؤلؤة، تزداد فيه نضارة وحسناً، وبهاءً وضياءً، ونوراً وإيماناً، وحين تخرج منه يجبو نورها، ويتضاءل ضياؤها، ويذهب

جلاؤها، فالبیت حصن المرأة الحصين، وملجؤها الأمين، ولقد سمى الله مكث المرأة في بيتها قراراً، فقال سبحانه: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أيها المسلمون: إن التبرج إذا سيطر على النفوس، واستعبد القلوب، وأعمى البصائر، جعل المرأة كالسلعة المعروضة لكل من شاء أن ينظر إليها، فحصل ما حصل من الأضرار، ومن ذلك:

الإعراض عن الزواج وشيوع الفواحش، وسيطرة الشهوات.

ثانياً: اضمحلال الحياء.

ثالثاً: كثرة الجرائم.

رابعاً: فساد أخلاق الشباب.

خامساً: تحطيم الروابط الأسرية، وانعدام الثقة بين أفرادها.

سادساً: الإساءة إلى المرأة نفسها، فذلك يعرضها لأذية الأشرار.

سابعاً: تسهيل معصية الزنا والفاحشة.

ثامناً: استحقاق نزول العقوبات العامة، وذلك بقوله: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا

ففسقوا فيها فحق علينا القول فدمرناها تدميراً ﴾ [الإسراء: ١٦].

تاسعاً: الوقوع في الوعيد الشديد، وذلك بقوله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم

معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات،

رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من

مسيرة كذا وكذا»^(١).

أيها المسلمون: وإنه لمن المؤسف جداً أن ترى بعض من يدعين الحجاب قد ارتدت

إحداهن خماراً مزيناً مطرزاً، ثم تزعم صاحبة هذا الخمار أنها محجبة، وأي حجاب هذا؟! إن

هذا خمار خداع وتزييف، حجاب زينة وفتنة، فالحجاب إنما وضع ليحجب الزينة، فكيف إذا

كان زينة وفتنة في نفسه!

(١) رواه مسلم (٢١٢٨).



أيها الغيورون: إن معصية التبرج ليست معصية فردية، بل هي معصية جماعية تشترك فيها المتبرجة مع ولي أمرها الذي يسمح لها بذلك، ويشترك أفراد المجتمع الذين لا يباليون بزجرها وردّها عن غيرها، كما يشترك فيها ولاة الأمر إذا تركوا الحبل على الغارب، وذلك لقول الرسول ﷺ: «كلُّكم راعٍ ومَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ؛ فالإمامُ راعٍ ومَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ في أهله راعٍ وهو مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ...»^(١).

اتقوا الله عباد الله: واعلموا أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وأن أول نزول البلياء عليهن، والعقوبات العامة فيهن، إنما حلّت حينما خرجت نساؤهن كاسيات عاريات، نسأل الله أن يحفظ بنات المسلمين، وأن يستر نساء المسلمين، وأن يرزقنا العفاف والستر والصيانة، وصدق الإيثار والديانة.

عباد الله: صلوا وسلموا على خير العالمين محمد ﷺ، نبي ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منه، فقد أمركم الله بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد...



(١) رواه البخاري (٢٥٥٨).

التحذير من التبرج والاختلاط^(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلائق فأتقن ما صنع، وشرع الشرائع فأحكم ما شرع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله، أقام صرح الفضيلة ورفع، ودفع أسباب الرذيلة ووضع، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل التقى والحياء والزهد والورع، ومن سار على نهجهم واتبع، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تبارك وتعالى حق التقوى.

عباد الله: مقياس صلاح الأفراد والمجتمعات، ومعياري رقي الأمم والحضارات، عقيدة تزكي النفوس، وإيمان يقوّم الأخلاق، ودين يهدي إلى الفضائل، ويعصم من الوقوع في الرذائل، وعنوان نقاء المعدن، وزكاء العنصر، وحياة الضمير، وازع يمنعه من اقتراف الآثام وارتكاب الدنيا.

وأرق الناس طبعاً، وأقواهم ديناً، وأنبلهم سيرةً، وأصلحهم سريرة من عاطفته حية متوقدة، وضميره يقظ مرهف، يترفع به أبداً عن مقارفة الخطايا، ويستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور، والاشمئزاز من كل المنكرات والشرور.

وقليل المروءة وبليد الشعور من لا يبالي بفضيلة، ولا يتورع عن فعل رذيلة، ينفلت من الأخلاق بلا مبالاة، ويتحرر من القيم بلا اكتراث، ويتحول وحشاً كاسراً ينطلق وراء

(١) عبدالرحمن السديس.



شهواته، وينساق خلف ملذاته، ويدوس في سبيلها أزكى العواطف، وأنبيل المشاعر والقيم، فلا وازع يردعه، ولا حياء يمنعه، بل ولا فطرة نقية وعقلية سوية.

هب البعث لم تأت نارسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحتم حياء العباد من المُنعم

أيها الناس: ولم يزل الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة مستمرًا، وقد بلغ أوج خطوته في عصر الانفتاح والانفلات، والانسياق وراء الشهوات، والاسترسال خلف المذات، والتلاعب بالألفاظ والمصطلحات، ولقد كان التساهل بقضايا المرأة من الأسباب الرئيسة في حصول واقع منحرف، ومجتمع منحرف، وجيل عن تحصيل الخير منصرف، وإن الثالث الخطير -الذي يمثل أخطر معاول الهدم والتدمير في المجتمع الإسلامي- كله يركز على المرأة، تبرجًا وسفورًا واختلاطًا، وذلك كله لم يأت مصادفةً، ولا اعتبارًا، وإنما نتيجة تخطيط دقيق، ومؤامرة شرسة ضد دين الأمة ومثلها وقيمها، حتى خدع كثير من المسلمين والمسلمات بشعارات براقية، ودعايات مضللة، تعد الالتزام بنهج الله وشرعه جهودًا ورجعيةً، والانفلات والإباحية حريةً وتقديميةً، والانسياق وراء الشهوات رقيًا وتحضرًا ومدنيةً، والتبرج والسفور والاختلاط موضة، والخلاعة والفجور والانحلال فناً، والعلاقات المحرمة حبًا، مما يتطلب يقظة الأجيال والمسئولين عنهم من النساء والرجال، أداءً لحق القوامه والرعاية، وامتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَءَأَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

أيها الأحبة في الله: وما حرم الإسلام التبرج والسفور والاختلاط، وشرع الحجاب إلا تكريمًا للمرأة، وحفاظًا على مكانتها، وحرصًا على إقامة المجتمع النظيف، والجيل العفيف الذي لا تهيجه الشهوات، وتستثيره المغريات، وسدًا لذريعة الفساد، وحثًا على اتخاذ التدابير الواقية من الوقوع في الشر والانحراف، وذلك هو هدي الإسلام في صيانة المجتمع من المزالق، وهو أهدى سبيل لسعادة البشرية جمعاء بكل عزة وإباء في عيش خير، وحياة هنيئة يظللها الإيمان، ويرفرف على جنباتها الحياء؛ إذ بدونه يفسد العيش وتظلم الحياة.

فلا والله ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

أمة الإسلام: إن تبرج المرأة وزينتها واختلاطها بالرجال في الأماكن العامة تزاحمهم وتستهوون نفوسهم وتفتن قلوبهم، لهو دليل على ضعف الوازع الديني في نفسها، أو عدمه، وأمارة على موت الغيرة وبلادة العفة وقلة الحياء.

وإذا الحياء تهكت أستاره فعلى الحياة من الحياء عفاء

إن المرأة المتبرجة المختلطة الخرجة الولاجة إن سلمت في نفسها، فإن الناس لا يسلمون من فتنها، والافتتان بها، فكم فيهم من عزب لا يجد نكاحًا، بل وكم فيهم من ذئب محترف، ولص متفنن بسرقة الأعراض، بارع في أساليبها واقتناصها، وقد يكون فيهم عبدٌ صالح عفيف، ورجل تقي شريف أغواه الشيطان، فذل بعد العز، وتندس بعد العفة بفعل هذه الفاتنة المفتونة، وقد قال الأول:

قل للمليحة في الخمار الأسودِ ماذا فعلت بناسكٍ متعبدٍ

قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى عرضت له بباب المسجد

ردي عليه صلواته وصيامه لا تفتنيه بحق دين محمد

معاشر المسلمين: اختلاط الرجال بالنساء أصل كل فساد وبلاء، ما سرى في مجتمع، ولا فشا في أمة إلا وأوردها موارد الهلاك، لما يسببه الاختلاط بين الجنسين من فتن وفضائح، ودمار يحول الديار براقع، إنه يحرك في النفوس كوامن الغريزة، ويشعل نار الشهوة الجاحمة، ويؤجج عواطف الغرام، ويغري كلاً من الجنسين بالآخر، فيرخي العنان للشهوات التي لا حدود لها، يقترن بذلك مجون فاحش، في أغانٍ ماجنة، ومسلسلات هابطة، ولوسائل الإعلام في ذلك نصيب وافر، فينشأ الناشئة، ويتخرج الأجيال في هذا الجو المحموم، وهذا الوضع المسموم، الذي تغلي مراجله بصور الإغراء والإثارة، التي تغتال تربيتهم، وتدمر فيهم بنية الآداب والقيم، والأخلاق والشيم، وتطفئ فيهم القوى الإيمانية والفكرية، وتقضي على صفاتهم الرجولية والأخلاقية والسلوكية، ولا يكادون يشبون عن الطوق ويبلغون الحلم حتى تغتالهم الشهوات البهيمية، لأن المظاهر مغرية، والنفوس أمارة، والشيطان عدو يترصد، والشهوة



هائجة، والرقيب يغفل ويتشاغل، بل ويتكاسل ويتساهل، فيتحول المجتمع إلى هو وعبث ومجون يعج بالفوضى والعشوائية الغريزية والفسق والإباحية، فتندره بالويل والثبور، وتجره إلى الهلاك والعطب وعظائم الأمور. ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١] الآية.

إن الرجال الناظرين إلى النساء مثل الكلاب تطوف باللحمان إن لم تصن تلك اللحوم أسودها أخذت بلا عوض ولا أثمان

أيها الناس: إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، ولذا قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فهى عن كل ما يقرب من الفاحشة، ومن ذلك أنه نهى عن الدخول على النساء، فقد روى البخاري و مسلم عن عقبه بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَفَرَأَيْتَ الْحَمُوِيَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْحَمُوِيَا الْمَوْتُ»^(١) والحمو: قريب الرجل كأخيه، وابن أخيه، وعمه وابن عمه وخاله وابن خاله.

والمعنى: أن خلوة الحمو أشد خطراً من خلوة الغريب، لأنه أجراء من غيره، ودخوله لا يثير ريبة، ولا يلفت الأنظار، والناس كثيراً ما يتساحون فيه، فشبهه بالموت في المفسدة، فالله المستعان، كيف استباح بعض الناس أمراً كهذا حتى لكأنه مباح مألوف! بل بعض الناس لا يتورع أن يسمح لزوجته، أو مؤلّيته، بمجالسة أصدقائه واستقبالهم، فهل هذه أخلاق الإسلام؟!

أيها المؤمنون: لقد حرم الإسلام أيضاً الخلوة بالمرأة الأجنبية، فقد روى البخاري و مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا يَخْلُ لَامْرَأَةٍ تَوْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تَسَافِرُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»^(٢) وعند الترمذي وغيره

(١) رواه البخاري (٥٢٣٢) و مسلم (٢١٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٨٦٢) و مسلم (١٣٤١).



بسند صحيح أنه ﷺ قال: «ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا كان الشيطان ثالثهما»^(١) ولا يخفى على كل أحد ما عمت به البلوى من تساهل كثير من الناس في ذلك، ومن التساهل الملاحظ: مصافحة المرأة الأجنبية، وهو يحصل عند كثير من الناس بسبب الاختلاط، وهذا لا يجوز حتى لو كان المصافح ابن عم، أو ابن خال، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط»^(٢).

وقالت أميمة بنت رقيقة وصاحباتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ عند البيعة: ابسط يدك -يا رسول الله- نبايعك، قال لهنَّ: «إني لا أصافح النساء»^(٣) وعند البيهقي والطبراني ورجاله ثقات «لأنَّ يطعن في رأس أحدكم بمخيطٍ من حديد خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له»^(٤).

أختي المسلمة: يا فتاة الإسلام! يا سلالة الأكرمين! ويا حفيذة أمهات المؤمنين! إن بيتك لك حصن حصين، وملجأ أمين، وظل وارف، هو قوقعة الجوهرة، وصدفة اللؤلؤة، ومكنون الدرّة، تزداد فيه نضارةً وبهاءً، وحسناً وضياءً، وحين تخرج منه، يجبو نورها، ويتضاءل ضياؤها، ويذهب جلاؤها، اسمعي إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وإن الدعوة إلى اختلاط الجنسين، دعوة آثمة، يريد أصحابها تدمير أخلاق الأمة وقيمها، تصوروا وضع مجتمع مختلط، هائج مائج، نساؤه ورجاله في الشوارع والأزقة، والمدارس والدوائر والمؤسسات، والشواطئ والمنتزهات، تصوروا المرأة الضعيفة وهي تعمل آلة في مصنع، أو في ميدان حرب، أو تحمل الأمتعة، وتعقب في الدوائر، تصوروهن وقد أنهكهن العمل، أو ليس هذا الوضع محزناً ومؤملاً لامرأة صانها الإسلام، وكرمها وضمن لها الحقوق؟!!

ها هي المرأة الغربية، أما يكفي ذلك زاجراً، ورادعاً وضع المرأة الغربية؟! هاهي تصيح وتنادي، ألا ما أحسن للمرأة من بيتها وزوجها وأولادها، تربي وتبني وتنشئ الأجيال، بعدما

(١) صحيح الترمذي (٢١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٢٨٨).

(٣) صحيح النسائي (٤١٩٢).

(٤) صحيح الجامع (٥٠٤٥).



عمت الإحصاءات وبلغت من الجرائم أرقاها وأعظمها، أرقامًا مذهلة من جراء الاختلاط والتبرج، ولكننا نعجب كل العجب حينما تطالعا دعوات آثمة بأقلام ماجورة؛ لأناس يعيشون بين ظهور المسلمين، ومن بني جلدتهم، ويتكلمون بلغتهم، يطالبون بالاختلاط بين الجنسين في مراحل التعليم، وتوظيف المرأة جنبًا إلى جنب مع الرجل، فماذا يريد هؤلاء؟ وأي هدف يقصدون؟ ولربما اغتر بعضهم بثقافات وافدة، وأعجب بمؤهل يحمله، وشهادة زور يتصدر بها. ولكن والله الحمد والمنة أن هذه الدعوات الآثمة لم تعد تلقى القبول إلا من قلة قليلة لا اعتبار لها.

فيا أيها المرأة المسلمة: عودي إلى الله، والتزمي شرع الله، ولا تغتري بهريق الشعارات، وزائف الدعايات.

ويا أيها الرجال: أين القوامه والرعاية، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]؟ أين القيام بالأمانة والمسئولية؟ ولا نبالغ حينما نقول: إن الاختلاط والتبرج الذي حل بالمجتمعات سببه موت غيره بعض الرجال، وبلاذة إحساسهم، وسُبات ضمائرهم! وإلا فهل يرضى صاحب العفة والغيرة، والشرف والمروءة أن تكون موليته لقمة سائغة، ومائدة مكشوفة تلاحقها نظرات الناس، تلتفت لكل هامس، ولا ترد يد لامس؟! وقد قال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(١).

ألا فاتقوا الله عباد الله! وخذوا على أيدي سفهائكم، ولا تتساهلوا بها أوجب الله عليكم، فكلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يهدي ضال المسلمين إلى الحق، وأن يحفظ مجتمعات المسلمين من أسباب الشر والفساد، بمنه وكرمه إنه جوادٌ كريم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين والمسلمات، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه مسلم (٢١٢٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله العظيم شأنه، العزيز سلطانه، الدائم بره وإحسانه، نحمده تعالى ونشكره، وشكره دليل الصدق وعنوانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله! وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، واعلموا أن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

عباد الله: يتمسك بعض المفتونين بالاختلاط، بشبهه هي أوهى من بيت العنكبوت، لكن قد يغتر بها بعض الجهال، ومن ذلك قولهم: إن الاختلاط موجود في عصر النبوة، فكان الرجال والنساء يختلطون في المساجد ونحوها، والحق أن ليس في ذلك مستمسك لهم، فقد كان النساء يصلين مع رسول الله ﷺ، وهن بكامل حجابهن وحشمتهن وحيائهن، ثم قد كان ﷺ يحث النساء في الصلاة في آخر الصفوف، يقول ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها»^(١)، كما كان ﷺ يثبت هو وأصحابه في المصلى حتى تخرج النساء، حتى لا يختلطن بالرجال^(٢)، وعند أبي داود أنه ﷺ أمر النساء بلزوم حافات الطريق حتى لا يختلطن بالرجال^(٣).

هذا هو الذي ينبغي للنساء، حتى لا يفتنن، أو يُفتنن.

ومما ينبغي التنبيه عليه والتنويه إليه أن المرأة إذا صلت في المساجد، فعليها أن تلتزم الأدب الإسلامي، وأن ترعى حرمة هذه البقاع الطاهرة، حتى ترجع بالأجر والمثوبة، أما إذا

(١) رواه مسلم (٤٤٠).

(٢) رواه البخاري (٨٦٦).

(٣) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٧٢).

تساهلت بحجابها، ونبذت الحياء والحشمة، ووقعت في التبرج والزينة، فيخشى أن تكون مأزورة غير مأجورة.

ومما ينبغي ملاحظته، ضرورة تربية البنات منذ الصغر، على الحجاب والستر، والبعد عن الاختلاط بالرجال، حتى يتربن على العفة والفضيلة.

إن من الحياء المطلوب شرعاً وعرفاً احتشام المرأة وبعدها عن مواقع الفتن ومواطن الريب، وإن حجابها بتغطية وجهها محل الحسن والجمال ومواضع الزينة منها لهو من أكبر احتشام تفعله وتتحدى به، وقد اتفق أهل العلم على أنه إذا لم تؤمن الفتنة فيجب على المرأة بإجماع أن تغطي وجهها ومحاسنها، وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر ويغار على عرضه ومحارمه أن هذا العصر - بفتنه ومغرياته وشهواته وشبهاته - لا تؤمن فيه الفتنة؟ نعوذ بالله من الهوى وانتكاس الفطرة، ونسأله العصمة من الفتن.

أيها الإخوة والأخوات: هل هناك قضية بعد قضية اعتقادنا وتوحيدنا لربنا أهم من قضية الاهتمام بقيمنا ومثلنا، والتمسك بحياتنا وعفتنا وإبائنا، والثبات على أصالتنا وأخلاقنا وسلوكنا والغيرة على حرماننا وأعراضنا، وإحاطتها بسياج منيع من الفضيلة، وصونها عن مستنقعات الرذيلة؟! لا والله، يستوي في ذلك الرجال ذو القوامة والرعاية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] والنساء ذوات التوجيه والتربية والعناية ﴿قَالَ الصَّادِقُ قَنِينْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

أيها المسلمون والمسلمات: أرأيتم إلى الجوهر المكنون، والدر المصون إذا حفظ من العبث والضياع، ولم تنله يد الهمج الرعاع، وحرص عليه فلم يعد من سقط المتاع، كيف تبقى لها نظارته وبهاؤه وسلامته وصفائه وتألؤه ونقاؤه؟ أرأيتم إلى الزهرة المتفتحة، والوردة المتضخمة والريحانة الفواحة في الروضة الغناء، كيف يبقى لها شذاها وأريجها وطيبها ونسيمها في سلامة من الفساد والذبول والخراب والأفول؛ إذا صينت من عبث العابثين وكيد الكائدين؟

فذلكم مثل لوضع المرأة في هذه الحياة، فالمرأة أرفع قدرًا وأعلى شأنًا من أن تكون كلاً مباحًا وعرضًا مستباحًا، فهي مخلوق أكرمه الله بالعقل والإنسانية، وشرّفه بحمل الرسالة



الإسلامية بعد أن كانت المرأة في ظل الجاهلية والديانات الوثنية مهيضة الجناح، مهضومة الحقوق، مسلوبة الكرامة، معدودة من سقط المتاع، تباع وتشترى، وتوهب وتكترى، ولا حق لها في الإرث والتملك، بل إنها تقتل وتوآد دون ذنب أو جريرة، فجاء الإسلام بحكمته وعدله فأعزَّ شأنها، وأعلى مكانها، ورفع قدرها، وحفظ حقوقها، وصانها من الابتذال والضياع، وجعلها شريكة للرجل في الحياة، شقيقة له في تحمل الأعباء والمسئوليات.

ولقد ذكر الله المرأة في كتابه مع الرجل في مواضع كثيرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]

ألا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على الحبيب المصطفى، والنبي المجتبي، كما أمركم بذلك ربكم جل وعلا، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





غلاء المهور (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، لا إله بحق غيره يُعبد، أحمده سبحانه وأشكره يرى دبيب النمل على الصخرة
الملساء في الليل البهيم الأسود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد،
الفرد الصمد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله رسولاً لا يكذب وعبد لا يُعبد،
صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه أهل الفضل والشرف والسؤدد، والتابعين
ومن تبعهم بإحسانٍ ومن تبعد.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فاتقوا الله ربكم؛ فأهل النجاة
والخلاص هم أهل التقوى والوفاء والإخلاص، الذين يوفون مع الله موثيقه، ويخلصون له
في يقينه وتصديقه؛ فيا ويح الغافلين؛ خف زادهم، وقل مزادهم؛ فطال عليهم السبيل، وحر
فيهم الدليل، قصر أجل مع طول أمل وتقصير في عمل؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله؛ فالأجداد
أبلتهم الأيام، والأبناء على ما بقي عنهم من الأنباء؛ ففيم الحرص؟! أعلى ضل زائل، ومقيل
أنت عنه حائل؛ فاتقوا الله رحمكم الله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيها المسلمون: لقد جاءت الشريعة بالتيشير دون التعسير، وبالتبشير دون التنفير، ومن
حكم الشريعة ومقاصدها تيسير مؤونة النكاح ليسهل البديل الشرعي ويتيسر على الناس،
فأيسر النساء مؤونة هن الأكثر بركة، كما جاء عن الصادق المصدوق عليه السلام..

ولقد ازدادت مشكلة غلاء المهور، حتى صار الزواج عند بعض الناس من الأمور الشاقة والمستحيلة، وبلغ المهر في بعض البقاع حدًا خياليًا، لا يطاق إلا بجبال من الديون التي تثقل كاهل الزوج. ويؤسف كلَّ غيور أن يصل الطمع ببعض الأولياء أن يطلب مهرًا باهظًا من أناس يعلم الله حالهم، فيا سبحان الله، إلى هذا المستوى بلغ الطمع وحب الدنيا ببعض الناس؟! وكيف تعرض المرأة المسلمة سلعة للبيع والمزايدة وهي أكرم من ذلك كله؟! حتى غدت كثيرات من العوانس مخدرات في البيوت حبيسات في المنازل بسبب ذلك التعنت الذي لا مسوغ له.

إخوة الإسلام: يقول الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى في الآخرة لكان النبي أولاكم بها؛ لم يصدق امرأة من نسائه ولم تُصدق امرأة من بناته بأكثر من اثني عشرة أوقية»، ولعله لا يزيد في عملتنا المعاصرة على عشرين دينارًا فقط.

وجاءت امرأة إلى رسول الله فقالت: إني وهبت من نفسي، فقال رجل: زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل عندك من شيء تصدقها؟»، قال: ما عندي إلا إزار، فقال: «إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك، فالتمس شيئًا»، فقال: ما أجد شيئًا، فقال النبي: «التمس ولو خاتمًا من حديد»، فلم يجد، فقال: «أمعك من القرآن شيء؟»، قال: نعم سورة كذا وكذا وسورة كذا، لسور سمّاها، فقال: «قد زوجناكها بما معك من القرآن»^(١).

ولقد خطب أبو طلحة أم سليم فقالت: والله، ما مثلك يرد، ولكنك كافر، وأنا مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذلك مهري، ولا أسألك غيره، فكان كذلك، أسلم وتزوجها.

وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو من أغنى أهل المدينة، والذي توفي عن أربعة وستين مليون دينار، تزوج على وزن نواة من ذهب، صاحب الملايين تزوج على وزن نواة من ذهب.

(١) رواه البخاري (٢٣١٠).

وهذا سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ سِيدُ التَّابِعِينَ، يتقدم لخطبة ابنته الخليفة عبد الملك بن مروان لابنه الوليد ولي العهد، فيرفض، ويزوجها لتلميذ صالح صاحب دين وخلق، اسمه عبد الله بن أبي وداعة، ماتت زوجته، فقال له شيخه: (وهل استحدثت امرأة غيرها؟ قال: ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟! فقال: أنا أزوجك، وزوجه بابنته على درهمين أو ثلاثة. يقول التلميذ عبد الله بن أبي وداعة: فدخلت بها فإذا هي من أجمل النساء، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله، وأعرفهم بحق الزوج، وبعد شهر عاد إلى شيخه سعيد، فدفع له شيخه عشرين ألف درهم).

معاشر الإخوة: إن قصة سعيد بن المسيب وتلميذه عبد الله بن أبي وداعة تويخ لمن باع ابنته بالدرهم والدينار، واشترط لها أموالاً طائلة وتكاليف باهظة، لقد آثر سعيد ما يبقى على ما يفنى، والسعادة والله ليست في الأموال، وإنما في الإيمان بالله والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد أنكر الرسول على المغالين في المهور، فقد جاءه رجل يسأله فقال: يا رسول الله، إني تزوجت امرأة على أربع أواق من الفضة، فقال النبي: «أوه، على أربع أواق من الفضة؟! كأننا نتحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك». ويقول عليه الصلاة والسلام: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(١). هذا أمر رسول الله الذي خالفه بعض الأولياء هداهم الله، فخانوا الأمانة التي حملوها في بناتهم بمنعهن من الزواج من الأكفاء ديناً وخلقاً وأمانة، فقد يتقدم إليهم الخاطب الكفء فيما طلونه ويعتذرون له بأعذار واهية، وينظرون فيه إلى أمور شكلية وجوانب كمالية، يسألون عن ماله، وعن وظيفته، وعن وجاهته ومكانته، ويغفلون أمر دينه وخلقه وأمانته، بل لقد وصل ببعض الأولياء الجشع والطمع أن يعرض ابنته سلعة للمساومة وتجارة للمزايدة والعياذ بالله، وما درى هؤلاء المساكين أن هذا عضل وظلم، ألم يسمع هؤلاء بالقصص

(١) حسنه الألباني في تحريج مشكاة المصابيح (٣٠٢٦).



الواقعية لضحايا هذه الظاهرة؟! إنها صرخة نذير في آذان الآباء والأولياء، ورسالة عاجلة إليهم أن يتداركوا شرفهم وعفتهم وعرضهم قبل فوات الأوان.

أين الرحمة في قلوب هؤلاء الأولياء؟! كيف لا يفكرون بالعواقب؟! أيسرُّهم أن تَلطَّخ سمعتهم مما يندى له جبين الفضيلة والحياء؟! سبحان الله، كيف يجروُّ مسلم غيور يعلم فطرة المرأة وغريزتها على الحكم عليها بالسجن المؤبد إلى ما شاء الله؟! ولو عقل هؤلاء لبحثوا هم لبناتهم عن الأزواج الأكفاء، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعرض ابنته حفصة على أبي بكر ليتزوجها، ثم على عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أجمعين. وهذا سعيد بن المسيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيد التابعين يزوج تلميذه أبا وداعة.

أيها المسلمون: يا أحبَّاب محمد، إن الإسلام لم يشرع في نفقات العقد والزفاف سوى المهر للمرأة، والوليمة لحفلة العرس، وإكرام الضيف بما يناسب الحال. أما ما عداها من الهدايا والنفقات، كغرفة النوم وأثاث البيت والملابس والمال الذي يعطى لأب العروس وإخوتها وعمها وخالها، فهي ليست فرضاً واجباً، وليس من شروط العقد والنكاح في شيء أبداً.

يا أمة محمد: يا خير أمة أخرجت للناس، لم يشرع في الزواج إلا المهر، فمن أين جاءت تلك التكاليف الباهظة في بعض الأعراف؟! حتى توسعت عند البعض إلى أمور كثيرة، كهدايا لأقارب العروسين، العم والخال، وغير ذلك من تبعات الزواج!

فيا أولياء الأمور، تعاونوا على تخفيض المهور، ويا أيها العلماء، يا أئمة المساجد، يا أهل الدين، يا أهل الخير، يسروا ولا تعسروا، وزوجوا بسنة محمد، فأنتم القدوة، وغيركم تبع لكم. سنة ميتة، من يحييها ويكون أهلاً لها؟! من منكم يملك المرأة الكافية والإيمان القوي لينتصر على نفسه وعلى تلك العادات الجاهلية الموروثة، فيثبت بذلك حبه لرسول الله، ويسن سنة حسنة، له أجرها وأجر من عمل بها؟!!



أيها المؤمنون: يقول النبي: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(١). وهذا خطاب للرجال العقلاء، لا للنساء اللواتي قلدن أمر الزواج في هذا المجتمع.

لقد كثرت العوانس، وغلت المهور، وتضاعفت نفقات الزواج. ولا شك أن المرأة بما جبلت عليه من فعال وعاطفة، وبما تحبه من المظاهر والمفاخرة وحب الظهور أمام الناس، قد تفسد على نفسها، إلا إذا كانت تزن الأمور بميزان الشرع والدين، ومثل ذلك قليل. فكم سمعنا عن أمهات يفسدن زواج بناتهن؛ لأن الواحدة منهن تدعي أن ابنتها ليست بأقل من بنت فلان.

فاتقوا الله عباد الله فيمن تحت أيديكم من البنات، بادروا بتزويجهن متى ما تقدم الأكفاء في دينهم وأخلاقهم، «إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

بارك الله لي ولكم في الكتاب والسنة، ونفعني وإياكم بالآيات والحكمة، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولكافة المسلمين، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه كان حليماً غفوراً.

(١) حسنه الألباني في تحريج مشكاة المصابيح (٣٠٢٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي خلق من الماء بشرًا فجعله نسبا وصهرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أيها الأحبة: إننا نقولها وبصراحة: ماذا ينفع المرأة أهلها إذا بقيت عانساً قد فاتها ركب الزواج، وأصبحت أيمًا لم تسعد في حياتها بزواج وأولاد، يكونون لها زينة في الحياة، وذخراً لها بعد الوفاة؟! وكم من امرأة قطار الزواج، وذهبت نصارتها، وذبلت زهرتها، وتمت بعد ذلك الموت لمن عطل زواجها، لأنها لم تسمع كلمة الأمومة على لسان وليدها، وكم هي الصيحات والزفرات الحراء التي أطلقت من مثل هؤلاء، فأين الرهماء بيناتهم؟! أين العقلاء!؟

والله، إننا لنحزن على أخوات لنا ظلمهن أولياً وهن ظلمنا كبيراً، فلا هن متزوجات فيسعدن، ولا هن بميتات فيسترحن. فهذه فتاة تقدم إليها الخطاب، فرفض أبوها أن يزوجه، فلما تقدم بها السن، وحضرت أباه الوفاة، قال لها: (يا بنية، اجعليني في حل، سأليني سأل الله، فقالت له: والله، لا أسألك، بل حسابك عند الله كما حرمتني من حقي في الحياة). وهذا رجل آخر يزور أخته في المستشفى، وقد تقدم بها السن ولم تتزوج، بعد أن رد أخوها خطابها، ولما كانت على فراش الموت في آخر لحظة من حياتها قالت لأخيها: (اقرب مني يا أخي، فلما اقترب منها، قالت له: حرمك الله الجنة كما حرمتني من الزواج). هذه المآسي يا عباد الله بسبب المغالاة في المهور وتعسير أمور الزواج.

أمة الإسلام: لقد حث الإسلام على تسهيل الزواج وتيسير أموره، ونهى عن المغالاة في المهور، والمبالغة في تكاليفه، فهذا خير البشر محمد يزوج ابنته فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعلي بن أبي طالب بما يساوي أربعة دراهم. والإسلام اعتبر أن المرأة كلما كان مهرها قليلاً كان خيرها كثيراً، قال



رسول الله: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة»^(١)، وقال: «خيرُ النكاحِ أيسرُهُ»^(٢). «يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير رحمها»^(٣).

فاتقوا الله عباد الله: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وإياكم من الرغبة في المال دون الدين، فالمال عرض زائل وعارية مستردة، والبقاء للدين. وليست بناتنا بأكرم من بنات النبي ولا نساءه، فاحرصوا على من ترضون دينه وخلقه، اجعلوا مقياسكم هو الدين والخلق، والرجولة والأدب، مع ما تيسير من الصداق، ليستغني الشباب بالحلال عن الحرام، وفي ذلك البركة والتوفيق بإذن الله.

ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد، فقد أمركم بذلك ربكم فقال في محكم تنزيله:
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
[الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...



(١) ضعفه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٣٠٣٣).

(٢) السلسلة الصحيحة (١٨٤٢).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣٥).

هادم البيوت (الطلاق) (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، هو الحكم العدل، خلق الذكر والأنثى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، أحمده سبحانه وأشكره على نعم من ربنا لا تعد ولا تحصى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقرب لديه الزلفى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله خاتم النبيين وسيد الورى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسار على نهجهم فاهتدى.

أما بعد:

فيا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، اتقوه حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى واحذروا المعاصي، فإن أقدامكم على النار لا تقوى، واعلموا أن ملك الموت قد تخطاكم إلى غيركم وسيخطى غيركم إليكم فخذوا حذركم. الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى.

عباد الله: يحكي واقع كثير من الناس اليوم، صوراً شتى من اللامبالاة، بقيم الألفاظ ودلالات الكلام وثمراته، ترى الكلمة تخرج من فم المرء، لا يلقي لها بالا، ربما أهوت به في مسالك الضياع والرذيلة، استحقق بعضهم حجم الكلمات، واستنكف عن معانيها، وما علم أولئك

أن النار بالعيدان تذكى وأن الحرب مبدأها كلام

أيها الناس: أيستغرب أحدكم لو قيل له: إن كلمة من الكلمات تكون معولا صلبا، يهدم به صرح أسر وبيوتات؟ أيستغرب أحدكم لو قيل له: إن كلمة من الكلمات تنقل صاحبها من

(١) زهير بن حسن حميدات.

سعادة وهناء، إلى محنة وشقاء؟ أيستغرب أحدكم لو قيل له: إن كلمة من الكلمات تحرك أفرادا وجماعات، وتنشئ تزلفا وشفاعات، لرأب ما صدعت وجمع ما فرقت؟ أتدرون أي كلمة هذه؟

إنها كلمة أبكت عيوننا، وأجهشت قلوبنا، وروعت أفئدة، إنها كلمة صغيرة الحجم، لكنها جلييلة الخطب، إنها كلمة ترعد الفرائص بوقعها، وتقلب الفرح ترحا والبسمة غصّة، إنها كلمة الطلاق، إنها كلمة الطلاق، وما أدراك ما الطلاق؟! كلمة الوداع والفراق، والنزاع والشقاق، فلله كم هدمت من بيوت للمسلمين! وكم قطعت من أواصر للأرحام والمحبين! يا لها من ساعة رهيبه، ولحظة أسيفة، يوم تسمع المرأة طلاقها، فتكفكف دموعها، وتودع زوجها! يا لها من لحظة تجف فيها المآقي، حين تقف المرأة على باب دارها، لتلقي النظرات الأخيرة، نظرات الوداع على عش الزوجية، الميء بالأيام والذكريات! يا لها من لحظة عصيبة، حين تقتلع السعادة أطنابها، من رحاب ذلك البيت المسلم المبارك!

عباد الله: العشرة الزوجية ضرب خاص من المحبة في النفس، ليس له في أنواعه ضريب، فهو الذي يسكن به الزوجان، وهو الذي يلتقي به بشران، فيكون كل منهما متمما لوجود الآخر، ينتجان بالتقائهما بشرا مثلهما ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

إن اختلال العشرة بين الزوجين، يذكي نار الفرقة، وكثرة الخصام تضرم^(١) أوارها^(٢)، ولو أحب الأزواج أنفسهم حبا صادقا، وسكن بعضهم إلى بعض، لود كل منها الآخر، وود لأجله أهله وعشيرته؛ لأن المودة بين الزوجين سبب من أسباب سعادة العشيرة، وسعادة العشيرة للأمة المؤلفة من العشائر، المؤلفة من الأزواج، فهذا التآلف والتأليف، هو الذي يتكون من مزاج الأمة، فما يكون عليه من اعتدال وكمال، يكون كما لا في بنية الأمة واعتدالا، وقرّة عين لمجموعها، وما يطرأ عليه من فساد واعتلال، يكون مرضا للأمة، يوردها موارد

(١) تضرم: توقد (القاموس، مادة ضرم).

(٢) الأوار: حَرّ النار (القاموس، مادة أور).



الهلكة، فمن لا خير فيه لأهله لا خير فيه لأمته، قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» أخرجه الترمذي بإسناد صحيح^(١).

عباد الله.. لقد قال المصطفى في الحديث المشهور: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢). هذه هي الزوجة التي يحث الشارع على تحصيلها والرضا بها، ويدعو على من أراد غيرها، وزهد فيها ورغب عنها. ومن المعلوم بداهة؛ أنه لا يرغب في الظفر بذات الدين، إلا من كان قلبه معلقا بالدين، وكانت نفسه من النفوس الزكية، ومن هذه حاله، فلا غرو أن يرزق المودة بينه وبين زوجته؛ لأنها من ثمرات المشاكلة في السجايا والصفات الفاضلة، وعلى العكس من ذلك، المشاكلة في الصفات الرديئة، والسجايا الدنيئة، فهي لا تثمر محبة، ولا تورث توددا.

قال رسول الله ﷺ: «خير متاع الدنيا المرأة الصالحة»^(٣).

إنه متى كان الدين بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدابرا، وتعددت أنفسهما، فإن كل عقدة من العقد لا تحيء إلا ومعها طريقة حلها ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، وهو اليسر والمساهلة، والرحمة والمغفرة، وهو العهد والوفاء، وهو اتساع الذات، وارتفاعها فوق ما تكون به منحطة أو وضیعة.

ومن كانت هذه حاله، فلن يستنكف أن يكون ممثلا لما خوطب به من قول المصطفى: «لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي وهو صحيح^(٤). وقوله: «استوصوا بالنساء خيرا»^(٥).

وثمره الدين في المرأة يظهر في مثل قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكم عليكن، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحر وجهها». فما أحق الرجل يسيء معاشره امرأته! وما أحق المرأة تسيء معاملته بعلمها.

(١) صحيح الترمذي (٣٨٩٥).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٤) سنن الترمذي ح (١١٥٩)، كما رواه أبو داود ح (٢١٤٠)، وابن ماجه ح (١٨٥٢).

(٥) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (٦٠).

أيها الناس: الطلاق كلمة، لا ينازع أحد في جدواها، وحاجة الزوجين إليها، حينما يتعذر العيش تحت ظل واحد، وإذا بلغ النفور بينهما مبلغا، يصعب معه التودد، فالواجب أن يتفرقا بالمعروف والإحسان، كما اجتمعا بهذا القصد ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّنْ سَعَتِهِۦ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠].

إن الله عزَّ وجلَّ لم يخلق الزوجين بطباع واحدة، والزوجان اللذان يظنان، أنهما مخلوق واحد، يعيشان في أوهاام؛ إذ كيف يريد منها زوجها أن تفكر برأسه، وكيف تريد هي منه، أن يحس بقلبها ﴿ وَهُنَّ مِثْلُ مَثَلِ الَّذِي عَلَّمَنِ بِالْمَعْرُوفِ وَالرِّجَالِ عَلِيمَنَ دَرَجَةً ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

إن النسيم لا يهب عليلا داخل البيت على الدوام، فقد يتعكر الجو، وقد تشور الزوابع، وإن ارتقاب الراحة الكاملة نوع وهم، ومن العقل توطين النفس على قبول بعض المضايقات، وترك التعليق الميرير عليها. ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]. وقال رسول الله: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر» رواه مسلم^(١).

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحبُ بيد أن بيوتات كثيرة فقدت روح التدين، فهي تتنفس في جو من الشراسة والنكد، واكتنفتها أزمات عقلية وخلقية واجتماعية، فقد تطلق المرأة اليوم، في رطل لحم، علق الرجل به طلاقها إن قامت بشرائه، فيخبط هؤلاء خبط العشواء^(٢)، ويتصرفون تصرف الحمقى؛ فيقعون في الإثم والحيف^(٣).

عباد الله: لقد كثر الطلاق اليوم، لما فقدت قوامه الرجل في بعض المجتمعات، إبان غفلة تقهقر عن مصدر التلقي من كتاب وسنة، وركن فثام من الناس إلى مصادر مريضة، قلبت

(١) رواه مسلم ح (١٤٦٩).

(٢) يقال: خبطه خبط عشواء أي: ركب على غير بصيرة. والعشواء: الناقة لا تبصر أمامها (القاموس، مادة عشو).

(٣) الحيف: الجور والظلم (مختار الصحاح، مادة حيف).



مفاهيم العشرة، وأفسدت الحياة الزوجية، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وتولى كِبَرٌ^(١) تلك المفاهيم الإعلام بشتى صورته، من خلال مشاهدات متكررة يقعد فيها مفاهيم خاطئة، ومبادئ مقلوبة في العشرة الزوجية، حتى وضع الزوجات تاريخهن.

ولرب منظر يشهده ألف امرأة بمرة واحدة، فإذا استقر في وعيها، وطافت بهنّ الخواطر والأفكار، سلبن القرار والوقار، فمثلته ألف مرة، بألف طريقة، في ألف حادثة، فلا تعجبوا حينئذ إذا استأسد الحَمَل، واستنوق الجمل! والعجب كل العجب، أنه في ثنانيا المناقشة يقرر الإعلاميون أن دور الإعلام مع المرأة، إنما هو كالتلقيح بمصل بعض الأدوية المعدية، والتسليم بميكروبها، بزعم أنها تكسب صاحبها مناعة، تقيه من أن يعي بوبائها.

وحقيقة الأمر أنهم بالذي وضعوا زادت العقد، وإن ما يذكره الإعلاميون، هو التعرض لعدوى الوباء في عنفوان شدته، وصدق من قال:

وكانت دوائِي وهي دائِي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

والواقع أيها المسلمون أن داخل البيت المسلم يتأثر بخارجه، وتيارات الميوعة والجهالة إذا عصفت في الخارج، تسللت إلى الداخل، فلم ينج من بلائها إلا من عصم الله.

الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس يرجع إليه عند الاختلاف في الرأي والرغبة، والرجل أحق بالرياسة؛ لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ، بما أودع الله فيه من ذلك. وإن ما تتلقنه المرأة من الأجواء المحيطة بها، على منازعة الرجل قوامته، لمن الانحراف الصَّرف، والضلال المبين.

وإن قوامة الرجل في بيته لا تعني منحه حق الاستبداد والقهر، فعقد الزوجية، ليس عقد استرقاق، ولا عقد ارتفاق لجسد المرأة، إنه أزكى من ذلك وأجل.

وكل من الزوجين بشر تام، له عقل يتفكر به، وقلب يجب به ويكره، فوجب الحق للمرأة حتى مع قوامة الرجل ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. كما أن قوامة الرجل، لا تعني استغناؤه عن زوجته، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هِنَّ لِيَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسُ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

(١) كِبَرُ الشيء: معظمه (مختار الصحاح، مادة كبر).

عباد الله: لقد كثر الطلاق اليوم، لما صار المطلق أحد رجلين: إما رجل أعمل سلطته وأهمل عاطفته؛ فكان في بيته سيّداً، ولكنه لم يذق طعم المحبة والسعادة، ولا عرف الصفاء والهناء. وإما رجل تبع عاطفته فأطاعها، وأهمل سلطته فأضاعها، فعاش في داره عبداً رقيقاً.

لقد الطلاق ضرورة حين يتأكد الزوجان بعد مزيد تأمل وتفكير، ومحاوره ومشاوره، أن استمرار العلاقة الزوجية أمر غير ممكن، أو أنه لن يزيد المشاكل إلا تفاقمها، نظراً لظروف خاصة، أو حالات معينة، ثم بعد ذلك إذا طلق أحدهم فتسريح بإحسان.

وقد روي عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه طلق امرأة فبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق. ونقل عن بعض الصالحين أنه أراد تطليق امرأته، فقليل له: ما يريك منها؟ فقال: (العاقل لا يهتك سراً. فلما طلقها، قيل له: لم طلقته؟ فقال: ما لي ولا امرأة غيري؟!).

أما اليوم فقد كثر الطلاق لأنفه الأسباب لما كثر الحسدة والواشون، فنكسوا الطباع، وعكسوا الأوضاع، وصيروا أسباب المودة والالتئام، عللاً للتباغض والانقسام. ولربما كان لأهل الزوجين مواقف ظاهرة، بدت سبباً مباشراً في كثير من الخلافات، فقد يتدخل الأب، وقد تتدخل الأم أو الأخ، أو الأخت، فيحار الزوج من يقدم؟ والديه، الذين عرفاه وليداً، وربياه صغيراً؟ أم زَوْجُهُ التي هجرت أهلها، وفارقت عشها من أجله؟ إن هذه مُرْتَقِيَاتٌ صعبة، أهونها أصعب الصعاب، وأحلاها أمرٌ من المر.

إن مثل هذه التدخلات في الحياة الزوجية، هي مكمّن الخطر لدى كثير من الأسر، فما بال أولئك يهجمون على البيوت؟ فيأتونها من ظهورها، ويمزقون ستارها، ويهتكون حجابها، ويتزعمون الجرائد من أكنافها، والفرائد من أصدافها، ويوقعون العداوة والبغضاء بين الأزواج. ماذا يكون أثر هؤلاء في البيوت التي تتكون منها الأمة، في الأمة المكونة من البيوتات؟! إنه لا يغيب عن فهم عاقل، أن شرهم مستطير، وأن ما يفعلونه فتنة في الأرض وفساد كبير.



عباد الله: إن العلاقات الزوجية، عميقة الجذور، بعيدة الآماد، فرحم الله رجلا محمود السيرة، طيب السريرة، سهلا رفيقا، لينا رؤوفا، رحيا بأهله، لا يكلف زوجته من الأمر شططا، وبارك الله في امرأة لا تطلب من زوجها غلطا، ولا تحدث عنده لغطا.

قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلمها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت» رواه ابن حبان^(١).

وبهذا كله، يفهم الرجل أن أفضل ما يستصعبه في حياته، ويستعين على واجباته، الزوجة اللطيفة العشرة، القويمة الخلق، وهي التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره، إن هذه الزوجة هي دعامة البيت السعيد، وركنه العتيد.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَاتٌ حَفِظْنَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

(١) صحيح، صحيح ابن حبان (الإحسان ح ٤١٦٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: إن أحدنا لتمر عليه فترات، لا يرضى فيها عن نفسه، ولكنه يتحملها، يتعلل بما يحضره من المعاذير، وإذا كان الأمر كذلك، فليكن هذا هو الشأن بين الزوجين، يلتمس كل منهما لقرينه المعاذير فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات؛ ولا بد من غض الطرف عن المفوات والزلات، حتى تستقيم العشرة،

من ذا الذي ماساء قط ومن له الحسنى فقط

ولا شيء يخفف أثقال الحياة، وأوزار المتاعب، عن كاهل الزوجين، كمثل أحدهما للآخر، ولا شيء يعزي الإنسان عن مصابه في نفسه وغيره مثل المرأة للرجل، والرجل للمرأة؛ فيشعر المصاب منها بأن له نفسا أخرى، تمده بالقوة، وتشاطره مصيبتة.

فهذه أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي، كانت له في المحنة قلبا عظيما، وكانت لنفسه كقول: (نعم)، فكأنما لم تنطق قط (لا)، إلا في الشهادتين، وما زالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعطيه من معاني التأييد والتهوين، كأنها تلد له المسرات من عواطفها، كما تلد الذرية من أحشائها؛ بإلها تواسيه، وبكلامها تسليه «كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»^(١).

وحدث أنس بن مالك، عن أمه أم سليم، بنت ملحان الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: مرض أخ لي من أبي طلحة، يدعى أبا عمير، فبينما أبو طلحة في المسجد، مات الصبي، فهيات أم سليم أمره، وقالت: لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه، فرجع من المسجد، وقد تطيب له وتصنعت، فقال: ما فعل ابني؟ قالت: هو أسكن مما كان، وقدمت له عشاءه، فتعشى هو وأصحابه، ثم

(١) رواه البخاري ح (٣).



أتما ليلتها على أتم وأوفق ما يكون، فلما كان آخر الليل قالت: يا أبا طلحة، ألم تر إلى آل فلان، استعاروا عارية فتمتعوا بها، فلما طلبت إليهم شق عليهم، قال أبو طلحة: ما أنصفوا. قالت: فإن ابنك فلانا، كان عارية من الله فقبضه إليه، فاسترجع وحمد الله وقال: والله لا أدعك تغليبنني على الصبر. حتى إذا أصبح، غدا على رسول الله فلما رآه قال: «بارك الله لكما في ليلتكما» متفق عليه^(١).

الله أكبر! بمثل هذا فلتكن العشرة أيها الأزواج، بمثل هذا فلتكن الحياة الهانئة السعيدة، في النفس والولد والمال.

ثم اعلّموا رحمكم الله أن لكلا الزوجين حقا على الآخر؛ فحقّ على الزوج أن ينفق عليها، ولا يكلفها من الأمر ما لا تطيق، وأن يسكنها في بيت يصلح لمثلها، وأن يعلمها، ويؤدبها، ويغار عليها، ويصونها، وألا يتخونها، ولا يلتمس عثرتها، وأن يعاشرها بالمعروف، قال رسول الله: «استوصوا بالنساء خيرا» متفق عليه^(٢).

وسئل: ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: «تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تُقبَّح، ولا تهجر إلا في البيت» رواه أبو داود^(٣).

ومن حق الزوج على زوجته، أن تطيعه في المعروف، وأن تتابعه في مسكنه، وألا تصوم تطوعا إلا بإذنه، وألا تأذن لأحد في بيته إلا بإذنه، وألا تخرج بغير إذنه، وأن تشكر له نعمته عليها ولا تكفرها، وأن تدبر منزله وتهبئ أسباب المعيشة به، وأن تحفظه في دينه وعرضه. قال رسول الله: «إذا صلّت المرأةُ حَمْسَهَا، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت الجنة»^(٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع.

هذا وصلوا رحمكم الله على خير البرية وأفضل البشرية...

(١) رواه البخاري ح (٥٤٧٠)، ومسلم ح (٢١٤٤)، ورواه أحمد (٣/١٠٥-١٠٦) واللفظ له.

(٢) تقدم تخريجه أول الخطبة.

(٣) صحيح، سنن أبي داود ح (٢١٤٢). ورواه أيضًا أحمد (٤/٤٤٧) وابن ماجه ح (١٨٥٠).

(٤) رواه الزوار (٧٤٨٠) من حديث أنس، ورواه ابن حبان (٤١٦٣)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩٨) من

حديث أبي هريرة..

فضل شهر الله المحرم^(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونتوب إليه ونستغفره، ونشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، الملك العزيز الجبار، الذي قضى بزوال هذه الدار، وهدم بالموت مشيد الأعمار، وجعل في تعاقب الليل والنهار عبرة لأولي الأبصار، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، المصطفى المختار، القدوة المثل في العمل لحسن الخاتمة وعدم الركون إلى هذه الدار، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، وتابعيه الأخيار، إلى يوم البعث لدر القرار.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

يقول الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا قَتَلْتُمُوهُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

أيها الإخوة: أنتم في شهر الله المحرم أحد الأشهر الأربعة الحرم التي فضلها الله تعالى على غيرها من الشهور، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، حرمها الله سبحانه وأمر بالابتعاد فيها عن الظلم، فخص هذه الأربعة بقوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، قال ابن عباس: «لا تظلموا أنفسكم في الشهور

(١) عبدالله بن فهد السلوم.

كلها، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حرامًا وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم»، وقال قتادة: (إن الظلم في الأشهر الحُرْمِ أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء).

وقد كانت العرب في الجاهلية تُحِلُّ هذه الأشهر وتحرم فيها القتال، ولكنهم كانوا أيضا يُغيِّرون ويبدلون هذه الأشهر كما يحلو لهم، فإذا احتاجوا أن يغزوا قوماً أو يجاربوهم بدلوا الشهر الحرام بغيره، وهو ما يسمى عندهم بالنسيء أي: التأجيل، يقول شاعرهم:
ألسنا الناسئين على معدِّ شهور
الحل نجعلها حراماً؟!!

فجاء الإسلام، وذم الله سبحانه في كتابه هذا الأمر فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْبٌ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧]، ثم لم يمت رسول الله حتى عادت دورة الزمان إلى وضعها الطبيعي، وعادت الأشهر التي بدلها المشركون إلى موضعها الصحيح، فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمُ، وَرَجَبٌ مُضَرَّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(١).

وهذا الشهر المحرم فيه من الفضائل ما ليس في غيره ومن ذلك فضل الصيام فيه، فصيامه هو أفضل الصيام بعد رمضان، كما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(٢) ومن خصائص هذا الشهر أن فيه فضيلة صيام عاشوراء وهو العاشر من محرم ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية وكان

(١) رواه البخاري (٥٥٥٠) ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم (١١٦٣).



النبي يصومه فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه فلما نزلت فريضة شهر رمضان كان رمضان هو الذي يصومه فترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء أفطره»^(١). واعلموا يا عباد الله أن شهركم هذا شهر نصر وعز لنبي الله موسى وقومه على فرعون الطاغية المتجبر رغم كثرة عددهم وعددهم، وخيلائهم وجلدهم، فإن الله ينصر أوليائه الداعين إليه ولا يخذلهم ويوجب رجاءهم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]. وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه»^(٢) وعن سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ في يوم عاشوراء: «أمر رجلاً من أسلم أن أذن في الناس من أكل فليصم بقية يومه ومن لم يكن أكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء»^(٣) وعن أبي قتادة أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن صيام عاشوراء فقال: «احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»^(٤). وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر يعني عاشوراء»^(٥)، مخالفة لليهود، فاجتهد أيها المسلم في صيام التاسع مع العاشر وإن لم تفعل فصم العاشر في هذا الشهر الحرام واجتهد فيه بصيام غير عاشوراء كالاثنين والخميس وأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وتزود من الخيرات لتقدم لنفسك زادًا تجده غداً أمامك والله يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]

(١) رواه البخاري (٤٥٠٤) ومسلم (١١٢٥).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤) ومسلم (١١٣٠).

(٣) رواه البخاري (٢٠٠٧) ومسلم (١١٣٥).

(٤) رواه مسلم (١١٦٢).

(٥) رواه مسلم (١١٣٤).



تزود من الدنيا فإنك لا تدري إذا جنّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم ساكن عند الصباح بقصره وعند المساء قد كان من ساكني القبر

فتفطن أيها المسلم في هذا الشهر وأنت تصلي وتصوم لله وتسارع في الخيرات صائماً مخلصاً
تفطن أنك منصور وأن الله راض عنك يحفظك ويؤيدك واستشعر عندما تكون في طاعة ربك
فإن الله يحبك وسيجزيك أحسن الجزاء لأن الله لا يوفق لطاعته إلا من يحب ولا يهدي إليه إلا
من ينيب، فكم حرم من الخلق من حرم من نعمة الطاعة والعبادة، وأنت فرض الله عليك
بتوقيفه فوهبك هذا الخير من العبادات التي أنت فيها وتأتي إليها مسرعاً حريصاً على مرضاة
ربك، فافرح بهذا الخير واحرص عليه ولا تتهاون فيه، وخف عليه من الحبوط والرد
والنقصان وخف من سوء الخاتمة واحرص على حسن الختام فإن الأعمال بالخواتيم.

قال رسول الله ﷺ: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما
يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم
ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل
أهل الجنة فيدخلها»^(١)، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا
وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه واتباع سنة نبيه، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم
فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وصلاة وسلاما على عبدك ورسولك محمد الداعي إلى رضوانك، وعلى آله وصحبه الذين أنعمت عليهم بفضلك وإحسانك.

أما بعد:

إخوة الإيمان: لقد فضل الله سبحانه في هذه الدنيا بعض الأيام، فبارك فيها وجعل أجر الأعمال الصالحة فيها مضاعفا؛ لكي نتخذها وسيلة إلى مضاعفة الثواب ووسيلة إلى الجنة، وأمرنا سبحانه بالمسارعة والمسابقة إلى مغفرته ورحمته، يقول سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[الحديد: ٢١]﴾، فلا شك أن العبد المؤمن يسعى إلى الخير والنور، ويجب أن يرضي الله سبحانه في أفعاله وأقواله، وأن يطيعه في الأمور التي رغب في فعلها أو الأمور التي حذر من فعلها.

عباد الله: إن من رحمة الله أن جعل الحساب الشرعي العربي مبنياً على الشهور الهلالية؛ لأن لها علامة حسية يفهمها الخاص والعام وهي رؤية الهلال في المغرب بعد غروب الشمس فمتى رؤي الهلال فقد دخل الشهر المستقبل وانتهى الشهر الماضي، فابتداء التوقيت اليومي من غروب الشمس لا من زوالها، فأول الشهر يدخل بغروب الشمس.

ولقد كان ابتداء التاريخ الإسلامي منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث جمع الناس سنة ست عشرة أو سبع عشرة من الهجرة، فاستشارهم من أين يبدأ التاريخ، فقال بعضهم: «يبدأ من مولد النبي». وقال بعضهم: يبدأ من بعثته. وقيل: يبدأ من هجرته. وقيل: من وفاته». ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجح أن يبدأ من الهجرة؛ لأن الله فرق بها بين الحق والباطل، فجعلوا مبتدأ تاريخ السنين في الإسلام سنة الهجرة لأنها هي التي كان فيها قيام كيان مستقل للمسلمين وفيها تكوين أول بلد إسلامي يحكمه المسلمون، ثم شاور عمر الصحابة من أي شهر يبدأون السنة فقال بعضهم: «من ربيع الأول لأنه الشهر الذي قدم فيه النبي مهاجراً إلى



المدينة وقال بعضهم: من رمضان»، واتفق رأي عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على ترجيح البداءة بالمحرم لأنه شهر حرام ويلى ذي الحجة ويلى الشهر الذي بايع فيه النبي الأنصار على الهجرة، فكان أولى الشهور بالأولية شهر المحرم.

عباد الله: إن علينا أن نشكر الله على ما يسره لنا من هذا الحساب البسيط الميسر في معرفة التاريخ اليومي الذي يبدأ من الهجرة (هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة) ومن هنا ينبغي علينا جميعاً فرادى وأمة مسلمة أن نعزز بديننا وتاريخنا، وأن نكون أمة متميزة بأخلاقها ورأيها ومعاملاتها تميزاً عن سائر الأمم، لنكون أمة عدل وخير وأمة صدق مع الله في كل تصرفاتنا، ليحصل لنا صلاح أحوالنا مع أنفسنا، فنعيش الرضى والطمأنينة والسكينة وانسراح الصدر، وقرة العين بالإيمان الصادق، ويحصل لنا صلاح أحوالنا مع الناس جميعاً، لأن من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن توكل على الله كفاه، ويحصل لنا النصر على أعدائنا، فتعيش الأمة حياة العزة والإباء، ويتحقق قول الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فإن الخيرية والرفعة والسؤدد والتوفيق من الله إنها تحصل بالإيمان الصادق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، فجددوا أيها الإخوة إيمانكم، وتوبوا إلى ربكم وصلوا قلوبكم فيه تفوزوا بجنته ورضوانه في الدنيا والآخرة، فإن الله يحب المستجيبين لأمره، وينصرهم ويرحمهم، ويشرح صدورهم، ويقوي قلوبهم بالتوكل عليه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].



الاحتفال برأس السنة الميلادية (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى، أحمده سبحانه وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، وأثني عليه وأشكره أسبغ علينا آلاءً وأفضالاً ونعمًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصةً مُخلصَةً تكون لبلوغ رضوانه سُلماً، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدَ الله ورسوله فتح به أعيننا عمياً، وقلوبنا غُلْفًا، وأذانًا صُمًّا، وآتاه من فضله علماً وحكمةً وحكماً، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه هم الأرحم عقلاً وحلمًا، والأوفرُ علماً وفهماً، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

إخوة الإيمان: إن من يزور كثيراً من بلاد المسلمين في هذه الأيام، ما إن تطأ قدماه أرضه، ويتجول في شوارع مُدُنِها، ويُراقب سلوك الأفراد في مجتمعاتها، حتى يجد أن الصورة التي كانت منطبعة في ذهنه، قد انقلبت رأساً على عقب. فما يراه من مظاهر الفرح والابتهاج في مدنهم، وما يلمسه في مختلف فئات المجتمع من تاهبٍ واستعدادٍ لاستقبال عيد الميلاد المسيحي، والاحتفال برأس السنة الجديدة يكذب ما كان يسمعه عن بلاد المسلمين وتشبث شعوبها بدينهم الحنيف.

حتى إنك تجد واجهات المتاجر والمقاهي والفنادق في بعض البلاد الإسلامية مزينة بالرسوم التي ترمز إلى ميلاد المسيح وحلول السنة الجديدة، والمصورون بلباس (بابأهم نويل)



يجوبون الشوارع ويقفون في الساحات والحدائق؛ ليأخذ الناس لهم ولأطفالهم صورًا تذكارية بالمناسبة.

وباعة الورد والزهور يتنافسون في عرض أقصى ما يستطيعون من أصناف بضاعتهم التي يتسابق الناس إلى شرائها بالغة من الثمن ما بلغت.

والإعداد قائم على قدم وساق في كلِّ جهة ومكان لإحياء الحفلات الصاخبة التي تقام في البيوت والفنادق بمناسبة ليلة الميلاد، وليلة رأس العام الجديد، وتساهم الفنادق السياحية بجهد كبير في إغراء الناس بذلك، حيث تتكرَّم بتسهيلات وامتيازات لمن يقيم في أكنافها خلال هذه الفترة المشهودة.

وتشارك وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة في مظاهر الحفاوة هذه، فتعدُّ برامج وأحاديث وملحقاتٍ للمناسبة. حتى إذا جاءت الليلة الموعودة سَهَرَ من يجلو له السهر، بما يجب أن يكون في تلك الليلة من لهو ولغو، وقد يتعدى ذلك إلى فسق وفجور، وتفنُّن في ارتكاب شتى المنكرات، والله المستعان.

إخوة الإيمان: في الحقيقة، إن هذا التقليد الكلي لما هو غربي، ناتج عن نقصان الثقة وضعف الإيمان بالله أو انعدامه، مع ضياع العقيدة الصحيحة أو انعدامها، وانسلاخ من مستلزمات التميز الإسلامي، ومنكر يُدخلنا في دائرة من قالَ فيهم رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)، وفي رواية أنه ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَهَ بِغَيْرِنَا، لَا تَشَبَهُوا بِالْيَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى..»^(٢).

قال الإمام أحمد رحمه الله: (... وهذا الحديث أقلُّ أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المشبه بهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ مِنْكُمْ مَثَلًا فَقَدْ جَاءَ مِنْكُمْ بِالْحَقِّ وَمَنْ كَفَرَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾. [المائدة: ٥١].

وتشبه المسلمون بالكفار هبوط وسفول؛ لأن المسلم أعلى من الكافر، فإذا قلده هبط من عليائه ومنزلته، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وهذا كفران للنعمة وإهانة للإسلام،

(١) أبو داود (٤٠٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٩٥).

والإسلامُ يعلو ولا يُعلى عليه. وشريعتنا تقيمُ لنا هديًا مخالفًا للكفار من أهل الكتاب وغيرهم، فشريعتنا ناسخة لا منسوخة، وأمتنا متبوعة لا تابعة.

روي عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهَا. فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ»^(١).

وعليه -أيها الإخوة- لا يحلُّ لمسلم أن يُحييَ عيدَ رأس السنة، فليسَ عيدُنا -أهل الإسلام- هذا اليوم.

فعلى تجار المسلمين أن لا يساهموا في مظاهر الاحتفال، فيتشبهوا بالتجار من النصارى في نوع التجارة التي يروجون لها هذه الأيام، وتزيين الدكاكين بالأضواء ونحوها.

نقل الفقيه المغربيُّ ابنُ الحاج في كتابه المدخل، عن علماء المذهب المالكي أنه (لا يحلُّ للمسلمين أن يبيعوا للنصارى شيئاً من مصلحة عيدهم، لا لحماً ولا إداماً ولا ثوباً... ولا يعانون على شيءٍ من دينهم؛ لأن ذلك من التعظيم لشركهم وعونهم على كفرهم، وينبغي للسلطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك. وهو قولُ مالكٍ وغيره، لم أعلم أحداً اختلفَ في ذلك).

ونحن -أيها الإخوة- الواجب علينا أن نقاطع هذه الاحتفالات، ألا يستطيع كلُّ واحدٍ منا أن يمنع أولاده وبناته وكلَّ من في بيته عن هذه الاحتفالاتِ الماجنة.

فبالله عليكم كيف يُعقلُ من أبٍ مسلمٍ أن يرى أولاده وبناته يستعدون ويهيئون داخل بيته للاحتفال برأس السنة وهو لا يحركُ ساكناً.

بل من الآباء المسلمين من يشاركهم في احتفالهم فيشتري لهم كلَّ الحاجيات، ويهيئ لهم الجوَّ المناسب، ويعتبرُ كلَّ هذا شيئاً عادياً لا حرج فيه، وينسى أنه مسؤولٌ عن رعيته الخاصة وصيانتها؛ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

(١) صحيح أبي داود (١١٣٤).

فهل هذا الأب الذي لا يمنع أولاده من الاحتفال برأس السنة الميلادية، أو يشاركهم فيه،
اتخذ لنفسه وقاية من النار؟!

ألا فاتقوا الله -عباد الله- في أنفسكم فالزموها بطاعة الله، وأبعدوها عن معصيته، وحُثُوا
زوجاتكم وأولادكم على الالتزام بأحكام الشرع، وساعدوهم على ذلك، وازجروهم عن
ارتكاب المعاصي حتى لا تصيروا معهم إلى النار.

نفعني الله وإياكم بالقرآن المبين، وبحديث نبيه الصادق الأمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب،
فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو التواب الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فيا إخوة الإيمان: اعلّموا أن كثيراً من المسلمين سيشاركون في احتفالات عيد رأس السنة الميلادية، وما علم هؤلاء أن المشاركة فيها مشاركة في شعيرة من شعائر النصارى، والفرح بعيدهم فرح بشعائر الكفر وظهوره وعلوه، وفي ذلك من الخطر على عقيدة المسلم وإيمانه ما فيه؛ فكيف بمن شاركهم في شعائر دينهم وحضر قداسهم -زعموا-؟!

وقد يسأل البعض فيقول: هناك من النصارى من نعمل معهم وهم يحسنون التعامل معنا، وقد يقفون معنا في بعض قضايانا، ويحسنون ويقسطون إلينا، فكيف نتعامل معهم في هذا الموطن؟

والجواب: أن المسلم العاقل الموفق يدرك أنه حين يعايش أناساً من هؤلاء ممن قد يكون بينه وبينهم حسن تعامل، وبر وقسط، فإنه يعلم أنه إن جاملهم وهنأهم على شركهم وزاد في تضليل الضالين، فمن يدعوهم إلى الحق المبين؟ ويبين لهم الصراط المستقيم؟ فيمكن تبيين الأمر إليهم بصورة مؤدبة تجمع بين الاعتذار ولفت الانتباه إلى هذه المسألة الجدلية بطريقة تلفت انتباههم وتقذح التساؤل والبحث عن الحق في نفوسهم، وأما مسألة التعامل معهم بإحسان وقسط، فإن ذلك يمكن أن يكون في موطن غير موطن الإقرار لهم على كفرهم وشركهم بالله تعالى. وإن صاحب المبدأ يجوز على احترام الآخرين وتقديرهم.

وهل يرضى المسلم أن يهتّمهم ويشاركهم في أعيادهم وهم يزعمون أنهم يحتفلون بميلاد ابن الرب؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً...؟! إن هذا الكذب والإفك المفترى تكاد تنشق له السموات والأرض وتخر الجبال هدأً، يقول تعالى عند ذكر شركهم هذا في سورة مريم: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدَأً﴾ [مريم: ٩٠-٩٢].



كيف يرضى البعض أن يشاركهم في أعيادهم وهو يقرأ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قول الله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

كيف يفرح البعض بعيد الكفار وهو يقرأ في القرآن قول الباري -جل وعز-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كيف يجامل المسلم على حساب عقيدته ويشارك النصارى في شعائر كفرهم وهو يقرأ قول الله سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ٢].

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى، واشكروا نعمته عليكم أن هداكم للإسلام، وخصَّكم بمحمد نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، وجعلكم -إن تمسكنم بهذا الدين، واتبعتم هذا الرسول- خير أمة أخرجت للناس.

واعتزوا بدينكم، فدينكم غني بالعقيدة الصحيحة، والشريعة العادلة، والأخلاق الفاضلة.

ولا تغتروا بما يفعله البعض من جهلة المسلمين، فهم يجهلون حقيقة الإسلام، وقاموا هذه البدع والمنكرات التي غزت مجتمعاتنا بعدم المشاركة فيها ومقاطعتها، وصحَّحوا نسبكم إلى دينكم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، واعملوا بما تسعدوا به في دنياكم وأخراكم.

هذا، وصلوا وسلموا على محمد سيد الأولين والآخرين، وأفضل الخلق أجمعين...



اعتقادات في شهر صفر^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله مجيب من دعاه، وهادي من استهداه، أحمده وأشكره على جزيل مَنَحِهِ ووافر عطاياه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره، ولا رب لنا سواه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً رسول الله وخليله ومُصطفاه، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم أن نلقاه.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون:

دخل علينا في هذه الأيام شهر جديد، ونزل ضيفا علينا، ألا وهو شهر صفر، وشهر صفر هو أحد الشهور الاثني عشر الهجرية، ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْدِينُ الْقَئِيمُ﴾ [التوبة: ٣٦] وشهر صفر هو الشهر الذي بعد المحرم، وإنما سمي صفرا: لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا، وروي عن رؤبة أنه قال: (سموا الشهر صفرا لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل، فيتركون من لقوا صفرا من المتاع، وذلك أن صفرا بعد المحرم)^(٢)، ولقد كان للعرب في جاهليتهم وقبل الإسلام في شهر صفر منكران عظيمان:

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) تاج العروس (١/٣٠٦٧).



الأول: التلاعب فيه تقديمًا وتأخيرًا حيث (كانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا - أي: يوافقوا - عدة الأشهر الأربعة^(١)) حتى لا تحول الأزمنة الفاضلة بينهم وبين ما يشتهون. أما المنكر الثاني الذي يرتكبه العرب في هذا الشهر فهو: التشاؤم حيث يعتقدون أن شهر صفر شهر حلول المكاره ونزول المصائب، وقد كان المشركون يتشاءمون من شهر صفر لأنهم يعودون فيه إلى السلب والنهب والغزو والقتل بعد الكف عنها في الأشهر الحرم، حتى أنه لا يتزوج من أراد الزواج في هذا الشهر لاعتقاده أن لا يوفق، ومن أراد تجارة فإنه لا يمضي صفقته في شهر صفر خشية ألا يربح.

أيها المسلمون: إن من أوجب الواجبات على العباد معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده وعبادته والتوكل عليه، والحذر مما يناقض ذلك من الشرك، والخرافات والبدع؛ لأن التوحيد هو القاعدة والأساس في دين الإسلام فلا يقبل الله عملاً إلا به، وهو أصل الأصول الذي خلقنا لأجله، والأعمال كلها متوقف قبولها واعتبارها على تحقيق هذا الأصل العظيم، ولقد تنادت الأدلة المتكاثرة، والحجج المتظافرة، والأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على عظم أمر التوحيد وخطر ما يضاده، فالشياطين ما فتئت ترصد لبني آدم تجتاهم وتغويهم، وإن مما يضاد التوحيد، ويناقضه ما اعتقده أهل الجاهلية، وأتباعهم في هذا الزمان من اعتقادات وبدع في بعض الأيام وبعض الشهور من العام، ومن ذلك ما يعتقد به البعض في هذا الشهر من العام ألا وهو شهر صفر، وإذا كان أهل الجاهلية يعتقدون في بعض الأشهر الاعتقادات الباطلة فإن الناظر لحالهم قد يجد لهم عذرًا وهو جهلهم وبُعدهم عن الهدى الرباني السليم، والواضح فهم لا يعلمون، إذًا فما بال فئة من أمة محمد ﷺ ممن هم من أهل التوحيد، والهدى الرباني النبوي أبت أنفسهم إلا التشبه بأهل الجاهلية، والحذو حذوهم في بعض بدعهم واعتقاداتهم، فهناك من أمة محمد ﷺ من يتشاءم بهذا الشهر شهر صفر، وطائفة تمنع إقامة حفلات النكاح

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٥٠).



في هذا الشهر تمسكًا بما عليه أهل الجاهلية من التشاؤم، وفي بعض البلدان توجد خرافات أخرى وخزعبلات لا يقرها عقل ولا شرع.

أيها الناس: لقد حارب النبي ﷺ هذه المعتقدات الباطلة، فقد ثبت عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ»^(١) أراد ﷺ بهذا الحديث نفي ما كان يعتقدُه أهل الجاهلية من الاعتقادات الباطلة التي تؤثر في القلب وتضعف الظن الحسن بالله عَزَّوَجَلَّ، (فلا عدوى أي لا عدوى مؤثرة بطبعها؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن العدوى تؤثر بنفسها تأثيرًا لا مرد له، وتأثيرًا لا صارف له، ولا طيرة أي لا تشاؤم ومعناه لا تطيروا ولا يقع منكم ذلك)^(٢).

(ولا صفر: وهو تأخير المحرم إلى صفر في النسئ، أو دابة بالطن تعدى عند العرب، ويحتمل أن يكون نفيًا لما يتوهم أن شهر صفر تكثر فيه الدواهي والفتن)^(٣).

فأبطل النبي ﷺ هذا الحديث قضية التشاؤم في شهر صفر، وأنه ليس من الدين في شيء، وأن شهر صفر شهر من الأشهر التي عدها الله عَزَّوَجَلَّ، وأيامه من أيام الله تبارك وتعالى فليس فيها ما يدعيه بعض الجهلة بالدين، من الذين لبس الشيطان عليهم.

أيها المسلمون: ومن البدع المنتشرة في هذا الشهر: الاعتقاد أن آخر يوم أربعاء من الشهر ينزل الله سبحانه فيه البليات، والمصائب، والكوارث حتى وصل الحال لدى بعضهم بأن يكون ذلك اليوم هو أصعب أيام السنة وأشدّها، وعلى هذا فمن أراد الخلاص من شرور ذلك اليوم أن يصلي لله تعالى أربع ركعات بصفة معينة ثم يختم صلاته بدعاء معين ومنه: اللهم أكفني شر هذا اليوم وما ينزل فيه يا كافي المهفات، ويا دافع البليات،... الخ، وهذا من البدع المحدثّة التي لا أصل لها في الدين الحنيف، والتي لم يثبت عن الرسول ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه -رضوان الله عليهم- منها شيء، ولا يوجد لها أصلٌ في الشرع لا من الكتاب ولا

(١) البخاري(٥٣١٦)، ومسلم(٤١١٦).

(٢) مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها(٦٣/١) بتصرف.

(٣) فيض القدير(٥٦١/٦).

من السنة، وقد روت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

عباد الله: من البدع المحدثه في هذا الزمان ما يراه البعض، وهو معتقد بذلك أن من يقرأ في آخر أربعاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] من قرأها كذا مرة فإنها تدفع الشر، وتزيل المكاره التي تنزل آخر شهر صفر، وهذا من الأمور التي لم تثبت في ديننا، وليس لها أصل، وبهذا أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وإليكم نص الفتوى حيث جاء في الفتوى:

هذه النافلة المذكورة لا نعلم لها أصلاً من الكتاب، ولا من السنة، ولم يثبت لدينا أن أحداً من سلف هذه الأمة وصالحها خلفها عمل بهذه النافلة، بل هي بدعة منكرة، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢) وفي صحيح البخاري: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٣)، ومن نسب هذه الصلاة وما ذكر معها إلى النبي ﷺ أو إلى أحد من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فقد أعظم الفرية، وعليه من الله ما يستحق من عقوبة الكذابين، وبالله التوفيق.

(١) رواه البخاري (٢٤٩٩)، ومسلم (١٨٨).

(٢) مسلم (٣٢٤٣).

(٣) البخاري (٢٤٩٩)، ومسلم (١٨٨).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين معز من أطاعه، ومذل من عصاه، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على البشير النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير.

أما بعد:

أيها الموحدون: هل يؤثر الزمان بنفسه؟ هل يصرف الدهر شؤونه؟ هل للوقت تأثير بذاته؟ فلماذا يعتقد الناس في يوم أو شهر أو سنة أو زمان أو مكان؛ بأنه يجلب خيراً أو يدفع شراً وضراً؟ ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩-٥٠]، الله وحده خالق الخلق ومقدر الأقدار، وهو الدهر الذي يقرب الليل والنهار. إن من سلامة قلب المؤمن وصدق إيمانه أن لا يعقل قلبه بغير الله خوفاً ولا طمعاً، رغبة ولا رهبة، خشية ولا محبة، ولا يتكل على غير الله كائناً ما كان ذلك الشيء.

وإن من البدع التي يعتقدونها بعض الناس -هداهم الله- أن من يتزوج في هذا الشهر لا يوفق في زواجه، ومصيره إلى الفشل، فتراهم لا يقيمون فيه مناسبة ولا فرحاً، ولا يعقدون فيه ولا يتجرون، وكل هذا يدل دلالة واضحة على أن من يتصف بهذه الصفة، ويعتقد هذا الاعتقاد أن هذا نتيجة جهلهم بالدين عموماً، وضعف عقيدة التوحيد فيهم خصوصاً، وسبب ذلك الجهل، ونقص التوحيد، وضعف الإيمان، هو عدم انتشار الوعي الصحيح فيهم، ومخالطة أهل البدع والضلال، فينبغي على العبد الحذر كل الحذر من أن يقع نفسه في الإثم، وأن تزل قدمه.

ومن العجيب أن هؤلاء لم يكتفوا بمخالفتهم للهدى النبوي، وللدين الإلهي، بل تراهم يستدلون على هذه البدع والخرافات بأحاديث مكذوبة، وموضوعة على النبي ﷺ.

من ذلك قولهم: «من بشرني بخروج صفر بشرته بالجنة» وهذا الحديث باطل لا أصل له قال الإمام الألباني عنه: (موضوع) (١).

وقال صاحب كتاب الفتاوى الهندية: (هو كذب محض) (٢).

(١) حجة النبي (١/١٠٤).

(٢) الفتاوى الهندية (٤٤/٣١٠).

إن على هؤلاء أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ في أنفسهم، وأن يراجعوا أنفسهم، وعلاقتهم وإيمانهم بالله تبارك وتعالى وأن يعلموا علمًا يقينًا حقيقة قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]، ويؤمنوا إيمانًا صادقًا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

هذا هو حال المؤمن الصادق، والوائق بها عند الله عَزَّوَجَلَّ العالم علمًا يقينًا لا يتطرق إليه شك أنه لن يقع إلا ما أراد الله في وقت رضيه تبارك وتعالى، وفق قضائه وقدره عَزَّوَجَلَّ، ويكون نصب عينيه حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَفَّارَةٌ ذَلِكَ قَالَ أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرٌ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(١).

فالمؤمن يجب عليه أن يتوكل على الله حق التوكل، وأن يعلم أن الطيرة باطلة، ولا أثر للأسباب إلا بقضاء الله وقدره، وإنما ذكر الله تعالى الأسباب؛ لأن الشرائع تتعلق بها، والأحكام عائدة عليها بالثواب والعقاب، فالعبد لا بد أن يعتقد أنه لا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، وأن الرب الذي يرزق، ويشفي، ويحيي، ويميت، بأسباب، وهو قادر على أن يرزق، ويشفي، ويحيي، ويميت، من غير أسباب، ولكن الأخذ بالأسباب ركن من أركان التوكل على الله فلا يضر التصرف في أسباب العيش، والتكسب في أسباب الرزق، والأخذ بأسباب الشفاء، والنجاة من الهلاك لمن صحَّ توكله، وهذا لا يقدر في مقامه ولا ينقص ذلك من حاله، فالموحد يعلم أن الله تعالى قد جعل في الأسباب منافع خلقه، ومفاتيح رزقه، وخزائن حكمته، ويعلم أنه بهذا مقتد في ذلك بنبيه ﷺ، ومتبعٌ لسنته.

عباد الله: إن بعض الناس يدفعه حبه لمنهجه فيقوم بمخالفة أهل الجاهلية في تشاؤمهم بشهر صفر فيقول في شهر صفر: إنه شهر الخير، وهذا الفعل يدخل في باب مدافعة البدعة بالبدعة؛ لأن هذا الشهر إنما هو كسائر شهور السنة، فلا يوصف بخير ولا بشر، بل يقع فيه ما

(١) احمد (٦٧٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٣/٣).



قدره الله عَزَّوَجَلَّ من المقادير، ولا يحصل فيه إلا ما قضاه وقدره الله، ولم يختص الله هذا الشهر بوقوع مكارم أو مكاره، فهو شهر من أشهر الله، وزمان من الأزمنة، والأزمنة لا دخل لها في التأثير ولا في ما يقدره الله سبحانه، إن التشاؤم بالأزمنة، أو بالأشهر، أو ببعض الأيام أمر يبطله الإسلام لما فيه من الظن السيئ بالرب - سبحانه -، ولما فيه من الاعتقاد الباطل الذي لا يبنني على دليل أو برهان، وهذا التشاؤم في هذا الشهر أو غيره من جنس الطيرة التي نهى عنها ﷺ.

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[التوبة: ٥١].

نسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا أن يهدينا سواء السبيل، وأن يرزقنا اتباع منهجه القويم على النهج الذي يرتضيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.



دروس من الهجرة (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وقدّرهُ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، أحمده سبحانه العزيز الوهاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله خيرٌ من اتقى ربه وأنا، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.

أمَّا بعد:

فأوصيكم - عباد الله - ونفسي بتقوى الله، فهي أربح المكاسب، وأجزل المواهب، وأسمى المناقب، وبها تُنال أعلى المراتب، وتحقق أعظم المطالب.

عباد الله: تعيش الأمة الإسلامية هذه الأيام إشراقاً سنة هجرية جديدة، وإطلالة عام مباركٍ بإذن الله، بعد أن أفلت شمسُ عامٍ كامل، مضى بأفراحه وأتراحه، فقوّضت خيامه، وتصرّمت أيامه، فالله المستعان عباد الله، ما أسرع مرور الليالي والأيام، وتصرّم الشهور والأعوام! لكن الموفق الملهم من أخذ من ذلك دروساً وعبراً، واستفاد منه مُدكراً ومُزدجراً، وتزوّد من الممّر للممّر، فإلى الله سبحانه المرجع والمستقر، والكيس المسدّد من حاذر الغفلة عن الدار الآخرة حتى لا يعيش في غمرة، ويؤخذ على غرة، فيكون بعد ذلك عظةً وعبرة، والله نسأل أن يجعل من هذا العام نصرةً للإسلام والمسلمين، وصلاحاً لأحوالهم في كل مكان، وأن يعيده على الأمة الإسلامية بالخير والنصر والتّمكن، إنه جوادٌ كريم.

إخوة الإسلام: حديث المناسبة في مطلع كل عام هجريٍّ: ما سطره تاريخنا الإسلاميّ المجيد من أحداث عظيمة، ووقائع جسيمة، لها مكانتها الإسلامية، ولها آثارها البليغة في عزّ



هذه الأمة وقوتها وصلاح شريعته لكل زمانٍ ومكان، وسعيها في تحقيق مصالح العباد في أمور المعاش والمعاد.

معاشر المسلمين: ما أجمل أن نشير إشارات عابرة لعدد من القضايا المهمة الجديرة بالإشادة والتذكير ونحن في بداية هذا العام الجديد، علّها تكون سبباً في شحذ الهَمَم، واستنهاض العزمات للتمسك الجادّ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحاملةً على الاتعاض والاعتبار، ووقفات المحاسبة الدقيقة، ونظرات المراجعة المستديمة في الأمة، تجديداً في المواقف، وإصلاحاً في المناهج، وتقويةً للمسيرة في كافة جوانبها.

وأول هذه الإشارات - مع حدّث الساعة وحدثها -: الحدث الذي غير مجرى التاريخ، الحدث الذي يحمل في طياته معاني الشجاعة والتضحية والإباء، والصبر والنصر والفداء، والتوكل والقوة والإخاء، والاعزاز بالله وحده مهما بلغ كيد الأعداء، إنّه حدّث الهجرة النبوية، الذي جعله الله سبحانه طريقاً للنصر والعزة، ورفع راية الإسلام، وتشيد دولته، وإقامة صرح حضارته، فما كان لنور الإسلام أن يُشعّ في جميع أرجاء المعمورة لو بقي حبيساً في مهده، والله الحكمة البالغة في شرعه وكونه وخلقه.

إنّ في هذا الحدث العظيم من الآيات البيّنات والآثار النيّرات والدروس والعبر البالغات ما لو استلهمته أمة الإسلام اليوم وعملت على ضوئه وهي تعيش على مفترق الطُرق؛ لتحقّق لها عزّها وقوتها ومكانتها وهيبتها، ولعلمت علم اليقين أنّه لا حلّ لمشكلاتها ولا صلاح لأحوالها إلّا بالتمسك بإسلامها، والتزامها بعقيدها وإيمانها، فوالذي بعث محمّداً بالحقّ بشيراً ونذيراً ما قامت الدنيا إلا بقيام الدّين، ولا نال المسلمون العزة والكرامة والنصر والتّمكين إلّا لما خضعوا لربّ العالمين، وهيئات أن يحلّ أمنٌ ورخاءٌ وسلامٌ إلّا باتّباع نهج الأنبياء والمرسلين.

إذا تحقّق ذلك - أيها المسلمون - وتذكّرت الأمة هذه الحقائق النَّاصعة، وعملت على تحقيقها في واقع حياتها؛ كانت هي السلاح الفاعل الذي تقااتل به، والدّرع الحصين الذي تتقي به في وجه الهجمات الكاسحة والصراع العالمي العنيف، فالقوة لله جميعاً، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.



أُمَّة التَّوْحِيدِ وَالْوَحْدَةِ: لقد أكَّدت دروس الهجرة النبويَّة أن عَزَّة الأُمَّة تكمن في تحقيق كلمة التَّوْحِيدِ، وتوحيد الكلمة عليها، وأنَّ أيَّ تفرُّطٍ في أمر العقيدة أو تقصيرٍ في أخوَّة الدِّين مآله ضعف الأفراد وتفكُّك المجتمع وهزيمة الأُمَّة، وإنَّ المتأمل في هزائم الأمم وانتكاسات الشُّعوب عبر التاريخ - يجد أن مرَدَّ ذلك إلى التفرُّط في أمر العقيدة والتساهل في جانب الثَّوابت المعنويَّة مهما تقدَّمت الوسائل الماديَّة، وقوَّة الإيمان تفعل الأعاجيب، وتجعل المؤمن صادقاً في الثِّقة بالله والاطمئنان إليه والاتكال عليه، لا سيَّما في الشَّدائد.

ينظر أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى مواضع أقدام المشركين حول الغار فيقول: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا! فيجيبه جواب الواثق بنصر الله: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!»^(١).

الله أكبر! ما أعظم لطف الله بعباده ونصره لأوليائه، وفي هذا درسٌ بليغٌ لدعاة الحقِّ وأهل الإصلاح في الأُمَّة: أنه مهما اشتدت الأزمات واحلَّو لَكَتِ الظُّلُمَاتِ فوعد الله آتٍ لا محالة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

أُمَّة الإسلام: ودرسٌ آخر من دروس الهجرة النبويَّة، يتجلَّى في أنَّ عقيدة التَّوْحِيدِ هي الرِّابطة التي تتضائل أمامها الانتساءات القوميَّة والتمييزات القبليَّة والروابط الحزبيَّة، واستحقاق الأُمَّة للتبجيل والتكريم مدينٌ بولائها لعقيدها وارتباطها بمبادئها، يُقال ذلك - أيها المسلمون - وفي الأُمَّة في أعقاب الزَّمن منهزمون كُثُر، أمام تيارات الحاديَّة وافدة ومبادئ عصريَّة زائفة، لم يجنِ أهلها من ورائها إلا الذلَّ والصَّغار، والمهانة والتَّبار، والشَّقَاء والبوار، فأهواءٌ في الاعتقاد، ومذاهبٌ في السياسة، ومشاربٌ في الاجتماع والاقتصاد، كانت نتيجتها التخلُّف المهين والتمزُّق المشين.

وفي خضمِّ هذا الواقع المُزري يحقُّ لنا أن نتساءل بحرقه وأسى: أين دروس الهجرة في التَّوْحِيدِ وَالْوَحْدَةِ؟! أين أخوَّة المهاجرين والأنصار من شعارات حقوق الإنسان المعاصرة

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).



ومدنيته الزائفة؟! فقولوا لي بربكم: أي نظامٍ راعى حقوق الإنسان وكرّمه أحسن تكريمٍ وكفل حقوقه كهذا الدين القويم؟!

إن الهجرة النبوية تحوي دروسًا وعبّرًا في التّضحية والبذل والفداء، ومراعاة كرامة الإنسان والحفاظ على حرّيته وحقوقه، يجرُّ يا رعاكم الله إلى تذكّر أحوال إخواننا في العقيدة في بقاع شتى من العالم؛ حيث حلت بهم مصائب وبلايا، ونكبات وروايا.

سائلوا بلاد الإسلام، وانظروا ما يعانیه إخوانكم هنا وهناك، سائلوا أرض النبوات ومهد الحضارات ومنطلق الرسالات وبلاد المعجزات؛ فلسطين المجاهدة: ماذا تعاني من صلفٍ يهوديٍّ سافر، علّ دروس الهجرة النبويّة تحرك نخوةً وتشحذ همّةً وتستنهض عزمًا، وما ذلك على الله بعزيز.

إخوة الإيمان: وفي مجال تربية الشّباب والمرأة، وميدان البيت والأسرة - يبرز الأثر العظيم في حدث الهجرة المصطفويّة، على صاحبها أفضل الصّلاة وأتمّ التسليم؛ ففي موقف عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنهما عند الهجرة في خدمة ونصرة صاحبها عليه الصّلاة والسّلام - بأبي هو وأمي - ما يجلي أثر الشّباب في الدّعوة، ودورهم في الأمّة ونصرة الدّين والملة. أين هذا ممّا ينادي به بعض المحسوبين على فكر الأمّة وثقافتها من تخدير الشّباب بالشّهوات، وفتنتهم بالأهواء والملهيات، وجعلهم فريسةً لمهازل القنوات وشبكات المعلومات، في الوقت الذي يعدّون فيه للاضطلاع بأغلى المهّمات؛ في الحفاظ على الدّين والقيّم، والثّبات على الأخلاق والمبادئ، أمام المتغيّرات المتسارعة؟!

أيها الإخوة والأخوات: وفي موقف أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها، ورضي الله عن آل أبي بكر وأرضاهم - ما يجلي دور الفتاة والمرأة المسلمة في خدمتها لدينها ودعوتها؛ فأين هذا من دعاة المدينة الذين أجلبوا على المرأة بخيلهم ورجلهم، زاعمين أنّ تمسك المرأة بثوابتها وقيّمها، واعتزازها بحجابها وعفافها - تقييدٌ لحرّيتها وفقدٌ لشخصيّتها، وبئس ما زعموا؟! فأخرجوها من البيت تبحث عن سعادةٍ موهومة وتقدميّة مزعومة، لتظنّها في الأسواق والشوارع والملاهي والمصانع، فرجعت مسلوبة الشّرف، مدنّسة العرّض، مُغتصبة الحقوق، عديمة الحياء، مؤودة الغيرة، وتلك صورةٌ من صور إنسانيّات العصر المزعومة وحرّيته



المأفونة ومدنيته المدعاة، وإن التفاتة يسيرة إلى إحصائيات المجتمعات التي تسمى متحضرة متمدنة؛ يكشف ما تعانيه من مأس لا تكاد تصدقها العقول ولا تتخيلها الأذهان.

أيها الأحبة في الله: وإشارة أخرى إلى أمر يتعلق بحدوث الهجرة النبوية، في قضية تعبر بجلاء عن اعتزاز هذه الأمة بشخصيتها الإسلامية، وثبت للعالم بأسره استقلال هذه الأمة بمنهجها المتميز المستقى من عقيدتها وتاريخها وحضارتها، إنها قضية إسلامية، وسنة عمرية أجمع عليها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما التوقيت والتاريخ بالهجرة النبوية المباركة، وكم لهذه القضية من مغزى عظيم يجدر بأمة الإسلام اليوم تذكره والتفكير به، كيف وقد فتن بعض أبنائها بتقليد غير المسلمين والتشبه بهم حتى في تاريخهم وأعيادهم، أين عزة الإسلام؟! وأين هي شخصية المسلمين؟! هل ذابت في خضم مغريات الحياة!؟

نحن أمة ذات أمجاد وأصالة، وتاريخ وحضارة، ومنهج متميز منبثق من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم فلسنا بحاجة إلى تقليد غيرنا؛ بل إن غيرنا - في الحقيقة - بحاجة إلى أن يستفيد من أصالتنا وحضارتنا، لكنه التقليد والتبعية، والمجارة والانزامية، والتشبه الأعمى من بعض المسلمين - هداهم الله - وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من ذلك بقوله فيما أخرجه الإمام أحمد وأهل السنن: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١).

هذا هو الاتباع والتقليد حتى لو كلف دخول جحر الضب وراء سنن الأمم الأخرى، مع أنه ليس في جحر الضب ما يغري، لكنها التبعية العمياء، والاضمحلال الثقافي، والضعف الإيماني، والانزمام النفسي، الذي يقود إلى أن يمشي البعض مكباً على وجهه، والله المستعان.

أيها الإخوة المسلمون: ومن هذه الإشارات: الإشارة إلى حدث عظيم في شهر الله المحرم، إذ فيه درسٌ بليغٌ على نصره الله لأوليائه وانتقامه من أعدائه مهما تطاولوا، إنه حدث قديم، لكنه بمغزاه متجددٌ عبر الأمصار والأعصار، إنه يوم انتصار نبي الله وكليمه موسى عليه السلام وهلاك فرعون الطاغية، وكم في هذه القصة من الدروس والعبر والعظات والفكر للدعاة إلى

(١) رواه أحمد (٥٠/٢)، وأبو داود (٤٠٣١)، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٢٧١/١٠)، وصححه الألباني في حجاب المرأة المسلمة (ص ١٠٤).

الله في كلِّ زمانٍ ومكان، فمهما بلغ الكَيْد والأذى والظُّلم والتسلُّط؛ فإن نصر الله قريبٌ، ويا لها من عبرةٍ لكلِّ عدوِّ الله ولرسوله ممَّن مشى على درب فرعون، أن الله منتقمٌ من الطُّغاة الظَّالمين، طال الزمن أو قصَّر؛ فيوم الهجرة ويوم عاشوراء يومان من أيام النصر الخالدة. ألا فلتقرَّ أعين أهل الحقِّ ودُّعاته؛ فالعاقبة للمتقين، وليتنبه لذلك قبل فوات الأوان أهل الباطل ودُّعاته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِأَلْمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤].

إنَّ في الحوادث لعبراً، وإنَّ في التاريخ لحبراً، وإنَّ في الآيات لنُدراً، وإنَّ في القصص والأخبار لمدكراً ومزدجراً، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

اللهمَّ اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أعمارنا أواخرها، وخير أيَّامنا يوم نلقاك.
اللهم اجعل حاضرنا خيراً من ماضينا، ومستقبلنا خيراً من حاضرنا، إنَّك خير مسؤُول وأكرم مأمول.
أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين والمسلمات، من كلِّ الذنوب والخطايا والسيئات، فاستغفروه وتوبوا إليه إنَّه كان تواباً.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الملك القدوس السلام، مُجْري الليالي والأيام، ومُجَدِّد الشهور والأعوام، أحمده تعالى وأشكره على ما هدانا للإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جعل شهر المحرَّم فاتحة شهور العام، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله سيد الأنام، وبدر التَّمام، ومِسْك الختام، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارك عليه وعلى آله البررة الكرام، وصَحْبِهِ الأئمة الأعلام، والتَّابعين ومن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ ما تعاقب النُّور والظَّلام.

أَمَّا بعد:

فاتَّقوا الله - عباد الله - وتمسَّكوا بدينكم، فهو عصمة أمركم، وتاج عزِّكم، ورمز قوتكم، وسبب نصركم، واعلموا أن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالةٌ.

أيُّها الناس: إشارةً رابعةً إلى فاتحة شهور العام؛ شهر الله المحرَّم، إنه من أعظم شهور الله - جلَّ وعلا - عظيم المكانة، قديم الحُرمة، رأس العام، من أشهر الله الحرام، فيه نصر الله موسى وقومه على فرعون وملئه، ومن فضائله: أن الأعمال الصالحة فيه لها فضلٌ عظيمٌ، لا سيَّما الصَّيام؛ فقد روى الإمام مسلم في (صحيحه) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصَّيام بعد رمضان شهر الله المحرَّم، وأفضل الصَّلَاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(١).

وأفضل أيام هذا الشَّهر - يا عباد الله - يوم عاشوراء، وفي (الصحيحين) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء؛ فقال لهم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟». قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا؛ فنحن نصومه. فقال: «نحنُ أحقُّ بموسى منكم»؛ فصامه وأمر بصيامه^(٢).

(١) رواه مسلم (١١٦٣).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

وفي (صحيح مسلم) عن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ؛ فَقَالَ: «أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفُرَ السَّنَةُ الَّتِي قَبْلَهُ» (١). اللهُ أَكْبَرُ! يَا لَهُ مِنْ فَضْلِ عَظِيمٍ لَا يَفُوتُهُ إِلَّا مُحْرَمٌ.

وقد عزم على أن يصوم يوماً قبله مخالفةً لأهل الكتاب؛ فقال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومنَّ التَّاسِعَ» (٢).

لذا فيستحبُّ للمسلمين أن يصوموا ذلك اليوم اقتداءً بأنبياء الله، وطلباً لثواب الله، وأن يصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده؛ مخالفةً لليهود، وعملاً بما استقرَّت عليه سنة المصطفى ﷺ فيا له من عملٍ قليلٍ وأجرٍ كبيرٍ وكثيرٍ من المنعم المتفضل سبحانه!

إنَّ ذلك - أيها الأحبة في الله - لمن شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه، واستفتح هذا العام بعملٍ من أفضل الأعمال الصالحة التي يُرجى فيها ثواب الله سبحانه وتعالى والكيس الواعي والحصيف اللبيب يدركُ أنه كَسَبُ عَظِيمٌ ينبغي أن يُتَّوَجَّعَ به صحائف أعماله.

إن المؤمن الذي يدعو ربَّه قائلاً: اللهم اجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، والموت راحةً لي من كل شر، شديد الحرص على اغتنام فرصة العمر باستثمار الليالي والأيام في كل خيرٍ يُرضي به ربَّه، ويعلو به قدره، وتطيبُّ به حياته. ولذا فإنه يفرحُ بها من الله عليه من نعمة الإمهال حتى بلَّغه العام الجديد ليستكثر فيه من أسباب الرُّلْفَى إلى ربه، وليستدرك ما فاتته وما فرطَ منه بالتوبة والإنابة، وهذا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ أنه: «لا يزيدُ المؤمنَ عمره إلا خيراً» (٣).

فاتقوا الله - عباد الله -، واشكروا الله الذي بلَّغكم ما لم يُقدِّرَ لكثيرٍ من إخوانكم ممن طُوِّبَتْ صحائفُهم، ووُسِّدوا الثرى فلم يستكملوا عامهم بعد أن كانوا فيه ملء الأَسْهَاعِ والأبْصَارِ.

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١١٣٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

هل الدنيا إلا دار ممر إلى دار مقر؟ وهل العمر إلا حبل كلما طال قصر؟ فأين المعتبرون؟ وأين التائبون؟ وأين الذين هم لأنفسهم محاسبون؟ وعلى إصلاحها عازمون؟ وعلى ربهم يتوكلون؟

أيها الناس: تفقدوا أعمالكم، واستدركوا أعماركم، واستغلوا أوقاتكم، واعتبروا بمن مات من أقرانكم، وبما فات من أيامكم، فإن كل يوم خطوة إلى القبر، وإن في تعاقب الليل والنهار لذكرى لأولي الألباب، وموعظة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا..

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: (رُؤْيِي بَعْضِ السَّلَفِ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ: نَدِمْنَا عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ: نَعْلَمُ وَلَا نَعْمَلُ، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ، وَاللَّهُ لِتَسْبِيحَتِهِ أَوْ تَسْبِيحَتَانِ أَوْ رُكْعَةً أَوْ رُكْعَتَانِ فِي صَحِيفَةٍ أَحَدُنَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا). وقال بعض السلف: (كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة).

فاغتنموا - يا عباد الله -، اغتنموا فرصة العام الجديد في الاستزادة من كل خير عاجل أو آجل تكونوا من المفلحين الفائزين المشمرين، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم بمنه وكرمه. هذا، واعلموا - رحمكم الله - أن من أفضل الطاعات وأشرف القربات كثرة صلاتكم وسلامكم على خير البريات، صاحب المعجزات الباهرات، والآيات البيئات؛ فقد أمركم بذلك ربكم جلّ وعلا فقال تعالى قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم وبارك على نبيّنا وحبينا وقدوتنا محمّد بن عبد الله، وارض اللهم عن خلفائه الرّاشدين ذوي المقام العليّ، أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وعن سائر الصّحابة والتّابعين...



حقيقة محبة النبي والاحتفال بمولده (١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: اتقوا الله حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوى، فبتقوى الله عزَّ وجلَّ تجتمع الكلمة، وتتم النعمة، وتتجلى الحكمة.

عباد الله: إن الله جلَّ جلاله ذكَّر عباده المؤمنين منته عليهم وفضلهم بمبعث محمد، ليعرفوا قدر هذه النعمة، فيشكروا الله عليها، ويمجدوه عليها، ويلتزموا ما جاء به محمد علمًا وعملاً: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. أجل، إنها منة كبرى ونعمة عظيمة لمن تدبَّر وتعقل.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فالمؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله هم الذين يستشعرون هذه المنة، ويعرفون قدر هذه النعمة حقَّ المعرفة، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعرفون حسبه، يعرفون نسبه، يعرفون صدقه، ما جُرِّب عليه كذب، وما عُرف بخيانة، ولا عُثر فيه على خلقٍ سييء، بل هو محفوظ بحفظ الله من نشأته إلى وفاته، محفوظ بحفظ الله من كل سوء، ما عبد وثناً، وما تعاطى مسكرًا، وما اقترف جريمةً، بل هو معروف عندهم بالصادق الأمين،

(١) عبدالعزيز آل الشيخ.

أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعلمه فأحسن تعليمه، واختاره لهذا الأمر العظيم، لهذه الرسالة الكبرى، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، يتلو عليهم هذا القرآن، فيه خبر من قبلهم، وحكم ما بينهم، ونبأ ما بعدهم. يتلو عليهم هذا القرآن الذي هو سبب لإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى، ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، يزكي أخلاقهم، يزكي نفوسهم، يزكي عقولهم بطهارتها من الشرك قليله وكثيره، وطهارتها من رذائل الأخلاق وسفاسف الأعمال.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، علمهم القرآن، وعلمهم السنة، وإن كانوا من قبل مبعثه لفي ضلال مبين. أجل، كانوا قبل مبعث محمد في غاية من الضلال، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء. فلقد نظر الله حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. يقول جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَخْبِراً النجاشي لما سأله قال: «كنا عباداً أوثان، نأكل الميتة، ونشرب الخمر، ونقطع الرحم، ونأتي الفواحش، حتى بعث الله فينا محمداً، فأخرجنا الله به من الظلمات إلى النور»^(١). فهم قبل مبعثه في غاية من الضلال، قد اندرست أعلام الهدى، فليس الحق معروفاً، ولكن الله أنقذ هذه الأمة بمبعث محمد.

إن مبعثه رحمة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكتابه نذير للعالمين، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، بعثه الله برسالة للخلق كلهم، عربهم وعجمهم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية (١٧٧/٢-١٨٠)، ومن طريقه أحمد (٢٠٢/١، ٢٩١/٥) وصححه ابن خزيمة (٢٢٦٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٧/٦): رجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسباع).

وَلَنْ كُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [سبأ: ٢٨]، ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فنسخ الله به كل الشرائع، نسخ الله بشريعته كل الشرائع، وألزم الخلق طاعته، وحكم على من خرج عن شريعته بالخسارة في الدنيا والآخرة: ﴿ وَمَنْ يَبْغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ويقول: «لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١)، لأن الله جل وعلا ختم برسالته كل الرسالات، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

أيها المسلمون: حق نبينا علينا عظيم، فمن أعظم حقه أن نؤمن به، ونصدق رسالته، ونعتقد أنه عبد الله ورسوله، أرسله الله إلى الخلق كلهم. ومن حقه علينا أن نسمع ونطيع له، فإن طاعته طاعة لله، ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وطاعته سبب للهدى، ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤]. ومن حقه علينا أن نحكم سنته، ونتحاكم إليها، ونرضى بها، وتطمئن بها نفوسنا، وتنشرح لذلك صدورنا، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وإذا أمر بأمر أو حكم بحكم قبله وليس لنا خيرة في ذلك، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. إن طاعته سبب لدخول الجنة، يقول: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: ومن أبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٢).

أيها الناس: وإن محبة رسول الله عنوان الإيمان، محبة رسول الله المحبة الصادقة، بأن تحبه محبةً فوق محبة نفسك التي بين جنبيك، قال عمر: يا رسول الله، والله إنك لأحب الناس إليّ إلا نفسي، قال: «لا والله، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، قال: لأنت الآن أحب إلي من

(١) رواه مسلم (١٥٣) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٠).



نفسى، قال: «الآن يا عمر»^(١). وأخبر أن محبته محبة فوق محبة الولد والوالد فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده»^(٢). وأخبر أن العبد لا ينال كمال الإيمان حتى يجب هذا النبي محبة فوق محبة الأهل والناس أجمعين، فيقول: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله والناس أجمعين»^(٣).

أيها المسلم: إن ثمرة تلك المحبة أولاً: طاعة الله ومحبة الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلا ينال عبد محبة الله حتى يحب هذا النبي الكريم محبة صادقة من عميق قلبه. ومن ثمرات محبته أن المحب له يُحشَر معه يوم القيامة، ويلتحق به يوم القيامة، سأل رجل النبي فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: حب الله ورسوله، قال: «المرء مع من أحب»، قال أنس: فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بقوله: «المرء مع من أحب»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإني لأحب رسول الله وأبا بكر وعمر، وأرجو الله أن يلحقني بهم وإن قلَّ عملي^(٤).

أيها الأحبة: إن لمحبة رسول الله علامات تدل على كمال محبة المسلم له، فليست المحبة له مجرد ادعاء، ولكنها حقائق واقعة باتباع سنته وتطبيقها، والسؤال عنها ومحبتها، ومحاولة تطبيق المسلم سنة رسول الله في كل عباداته وأحواله، فما بلغه من سنته من شيء إلا أخذ بها وعمل بها وطبقها وفرح بذلك. إن محبته لا تكون بغلو الغالين، ولا تكون بجفاء الجافين، ولا تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين. إن محبته تكمن في اتباع ما جاء به وتحكيم شريعته، وأعظم ذلك عبادة الله وحده لا شريك له، وصرف كل أنواع العبادة لرب العالمين، وأن لا يُصرف منها شيء لغير الله، وقد أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ قُلْ إِنْ لَمْ يُحْيِرْنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢]، وقال له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) رواه البخاري (١٤) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) بنحوه.

(٤) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) بنحوه.



وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴿١﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وحذرنا أن نغلو فيه فقال: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»^(١)، وقال لنا: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢)، ولعن في آخر حياته اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وقال: «ولا تتخذوا قبوري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني أين كنتم»^(٣).

هكذا أُرشدنا، هو مبعوثٌ لإقامة شرع الله، للدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، والعبادة لا حقَّ له ولا لغيره فيها، بل هي حقٌّ خالص لربنا جل وعلا، لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده»^(٤).

أيها المسلم: إن علامة محبة النبي تكون كما سبق باتباع سنته، والعمل بشريعته، والافتداء به [في] القليل والكثير، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. فالمحب له هو المعظمُ لسنته، العامل بها إذا بلغته، سواء في العبادات أو في المعاملات أو في كل الأحوال، يقتفي سنته، ويبحث عنها، ويسأل عنها، ويهتمُّ بها، ويقيم لها وزناً، هكذا المؤمن المحب.

أيها المسلم: إن أصحابه الكرام قد أظهروا من كمال محبتهم له وحرصهم على سنته ما لا يخفى، أظهروا من محبتهم له وشفقتهم عليه وحرصهم على الاقتداء به ما جعلهم خير الخلق وأفضل الخلق على الإطلاق بعد الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاسمع أخي إلى أنواع من محبتهم له تدلُّ على قوة الإيثار به، ومحبتهم له، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

(١) رواه أحمد (٢١٥/١) وغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) رواه أحمد (٣٦٧/٢)، وأبو داود (٢٠٤٢)، وحسنه الألباني في تحذير الساجد (ص ٩٦، ٩٧).

(٤) رواه أحمد (٢١٤/١) بنحوه، والطبراني في الكبير (١٢/٢٤٤-٦-١٣٠) واللفظ له، وصححه الألباني

في السلسلة الصحيحة (١٣٩، ١٠٩٣).



يوم أراد المهاجرة من مكة إلى المدينة أتى الصديق في الظهرية، فلما قيل للصديق: هذا رسول الله، قال: بأبي وأمي، ما أتى به إلا لأمرٍ جَلَلٍ، فلما دخل عليه قال: «أذن لي بالهجرة»، فقال الصديق: الصحبة يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فبكى الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فرحًا، تقول عائشة: وما كنت أظن الفرح يوجب البكاء بعد الذي رأيت من أبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه^(١).

ومن ذلكم أن الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما فطن لخطبة خطبها النبي أنها توديعٌ لهم وإخبارٌ بقرب أجله بكى الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فخطب في آخر حياته قائلاً: «إن عبدًا خيرَ الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، فبكى الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالوا: إن المخير هو رسول الله، وإن الصديق كان أعلمنا بذلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه^(٢).

ولما خطب بعد موت النبي بسنة، وأراد أن يقول: إن رسول الله خطبنا في هذا اليوم من العام الأول بكى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغلبه البكاء مرارًا، ثم قال: سمعت رسول الله يقول: «ما أوتي عبد بعد الإسلام خيرًا من العافية، فاسألوا الله العافية»^(٣).

ولما حضرت أبا بكر الوفاة، قال لهم: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم الاثنين، قال: «إن متُّ مساءً فلا تنتظروا بي إلى الصباح، فإن أفضل يوم أو ليلة عندي أن ألق بمحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، فرضي الله عنه وأرضاه.

وهذا خليفته عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حينما طعن وعلم أنه قرب أجله قال لابنه: «يا بني، إن أهم أمر علي أن أدفن بجوار محمد وصاحبه أبي بكر، فاذهب إلى عائشة فقل لها: يقرئك عمر السلام، ويستأذنك في أن يدفن بجوار محمد وصاحبه، فذهب عبد الله إليها، وإذا هي تبكي

(١) رواه البخاري (٢١٣٨) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) بنحوه.

(٣) رواه أحمد (٣/١، ٥، ٧، ٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٤)، وابن ماجه (٣٨٤٩) وغيرهم، وصححه والألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٧).

(٤) رواه أحمد (٨/١).



على عمر حزنًا عليه، فقال: يقرئك عمر السلام، ويقول: أستأذنُ منك أن أدفن بجوار محمد وصاحبه، قالت: لقد كنتُ أعدُّه لنفسي، وإني لأؤثره على نفسي، فرجع عبد الله إلى عمر، فقيل: هذا عبد الله، فقال: أسندوني، ما وراءك؟ قال: ما يسرك يا أمير المؤمنين، لقد أذنتُ أن تُدفن بجوار محمد وصاحبه، قال: الحمد لله، إنه لأمرٌ كان يهمني، ثم قال: يا عبد الله، إذا صليتم عليّ، فمروا بجنازتي إلى عائشة، فلعلها أن تكون أذنت حياءً مني، فإني أذنتُ لي وإلا فضعوني مع المسلمين، فلما صلوا عليه مروا به فقالت: ما كنت لأذن له حيًّا وأمنعه ميتًا^(١)، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

وهؤلاء أنصارُ الإسلام الأوس والخزرج، كانت محبتهم لرسول الله محبةً صادقةً حقًا، فلما قسم النبي غنائم حنين، ولم يعطهم ولا المهاجرين شيئًا، وخصَّ بها المؤلفَةَ قلوبهم، وجد بعضهم في نفسه شيئًا، فدعا الأنصار وقال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟! وعالة فأغناكم الله بي؟! ومتفرقين فألفكم الله بي?!»، فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: «يا معشر الأنصار، أترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون بالنبي إلى رحالكم؟!» قالوا: نعم، قال: «المحيا محياكم، والممات مماتكم، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم اغفر للأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»^(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

ربيعة الأسلمي قدّم للنبي وضوءه فقال: «يا ربيعة، سلني»، فقال: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أو غير ذلك؟!» قال: هو ذلك، قال: «يا ربيعة، أعني على نفسك بكثرة السجود»^(٣).

أيها المسلمون: محبةُ المسلم لرسول الله لا تكون بغلوًّا فيه، ولا بإطرائه، ولا برفعه عن منزلته، ولا بإحياء مولدٍ أو أمثال ذلك مما ابتدعه المتدعون وأحدثه الجاهلون، وإنما تكون

(١) رواه البخاري (١٣٩٢) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) بنحوه.

(٣) رواه مسلم (٤٨٩).

باتباع سنته والعمل بشريعته والطمأنينة إليها. إن صلة المسلم بنبيه صلةً دائمة، وصلة مستمرة، وصلة لا تنقطع، في كل أحواله، في كل حركاته وسكناته، فله صلة بنبيه، إن صلى فإن صلته برسول الله الاقتداء: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١)، إن حجَّ فصلته بنبيه: «خذوا عني مناسككم»^(٢)، وهكذا في صيامه وزكاته وفي أكله وشربه ونومه وبكائه وضحكه وغضبه ورضاه، في كل أحواله هو يقتدى بمحمد ﷺ، ويتحرى الاقتداء به والتأسي به في القليل والكثير.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٦٣١).

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧).



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى حق التقوى.

عباد الله: الأصل في عبادتنا أن تكون خالصةً لله، وأن تكون على وفق ما دل الكتاب والسنة عليه، فكل عبادة تتعبد بها لا أصل لها في سنة النبي فإنها عبادة باطلة؛ لكونها غير موافقة لطريقته. وإن أصحابه الكرام أقرب الناس إليه، عاشوا معه وعرفوا هديته، وعرفوا عبادته، فكل عبادة ما تعبدوها فلنعلم أنها عبادة على غير هدى، إذ لو كانت عبادة حقاً لكانوا أولى الناس بها، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولُو الْأَوْلَويْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهم أسوتنا وقدوتنا، ما نقلوا لنا عن محمد فهو الحق المقبول، وما لم ينقلوه في العبادة فالأصل أن كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب رسول الله نعلم أنها مبتدعة لكونها لا دليل عليها، وإنما الحق ما وافق هديه، وكل بدعة تُنشأ وتقام فلا بد أن يقابلها تعطيل لسنة من السنن.

إن أصحاب النبي ﷺ، يعلمون ليلة مولده، ويعلمون ليلة مهاجره، ويعلمون أيام انتصاره، ويعلمون ليلة موته، ويعلمون كل هذه الأمور، فهل احتفلوا بشيء من ذلك؟ هل احتفلوا بالانتصار في غزوة بدر؟ هل احتفلوا بيوم فتح مكة؟ هل احتفلوا بغير ذلك من المواقف والمشاهد؟

لم ينقل عنهم شيء من هذا، فهذا رسول الله أحب الناس إليهم، وهم المحبون له على الحقيقة والكمال، ومع هذا ما علمنا شيئاً أحدثوه، ولو كان خيراً لفعلوه، ولكنهم متبعون ومقتدون ومتأسون به، فليكن المسلمون على ذلك. حيث إن هذه حقيقة المحبة، حقيقة الإيمان والاتباع، السير على ما سار عليه، وعلى ما كان عليه أصحابه والتابعون وتابعوهم



السائرون على المنهج القويم والطريق المستقيم، وفي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١)، وفيه: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

إن المحيين لليلة المولد قد يكون قصد بعضهم خيراً لكنه لم يوفق للصواب، ثم إنها تُعمّر بأذكار وقصائد ودعوات باطلة، فيها غلو ودعاء للنبي، واستغاثة به، ولا تسلم من الشركيات، كقول صاحب البردة:

فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علمك علم اللوح والقلم

والبردة من أكثر ما يُنشد من القصائد، وفيها من هذا الغلو في مقام النبوة الشيء الكثير. ولا شك أنه ﷺ يكره هذا الغلو والإطراء ويأباه ولا يرضاه، وأحب الناس إليه من أمته من كان متبعاً لسنته سائراً عليها بعيداً عن هذه البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، قال بعض السلف: (اتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتم)^(٣)، فالحق ما كان عليه أصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان، وهم المطبقون لسنته العاملون بها، جعلنا الله وإياكم من أتباعهم، إنه على كل شيء قدير.

فاتقوا الله عباد الله: وأحيوا سنة نبيكم، وانشروا آدابه وشماله، وأحاديثه وسننه، وتفقهوا في دينكم، وبلغوا شرعة ربكم، وقوموا بما أوجب الله عليكم، ففي ذلكم الفلاح والنجاح والنجاة.

ثم اعلّموا رحمكم الله أن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين، فإن يد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار.

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) هذا من كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه الدارمي عنه في مقدمة سننه (٢٠٥) وغيره، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨١): (رجاله رجال الصحيح).



حقيقة محبة النبي والاحتفال بمولده

وصلوا رحمكم الله على محمد بن عبد الله، كما أمركم بذلك ربكم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



شهر رجب

وتخصيصه بشيء من العبادات والاحتفالات (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله منشىء الأيام والشهور، ومفني الأعوام والدهور، ومكور الليل على النهار، ومقلب الأجواء من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ويديل الأيام بين عباده، عبرة لذوي العقول والأبصار. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا ند ولا نظير ولا ظهير. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، الشافع المشفع، الذي عمّر سنينه وشهوره وأيامه ولياليه بطاعة ربه ومولاه، فغفرت له جميع الذنوب والزلات، ونال المنازل العالية وجزيل المكرمات، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آل بيته وأصحابه الدائنين في طاعته، ما تكررت الأعوام والساعات، وتعاقب الليل مع النهار.

أما بعد:

أيها الناس: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ها قد أوشك نصف عامنا على أن يذهب عنا ويرتحل، وانقضت عنا أيامه ولياليه إلى غير عودة، ونحن إلا من رحم الله في غفلة شديدة عن الآخرة، وتنافس كبير على العاجلة، وضعف وتقصير وتكاسل عن أعمال البر الطيبة، وتسويق وتباطؤ عن التوبة والإنابة، وما أكثر ما سمعنا: إن فلاناً قد قضى نحبه ومات، وترك ماله وأهله وخلانه، وأصبح في قبره رهين أعماله، وفيها الصالح أو السيئ من أقواله وأفعاله واعتقاداته.

ألا فهل من متعظ؟ ألا هل من معتبر؟ ألا هل من متذكر؟ ألا هل من تائب ومنزجر عن ذنوبه وآثامه، عن بدعه وضلالاته، عن مخالفته لما كان عليه نبيه ﷺ وأصحابه؟ قبل أن تأتي عليه ساعة سكرته، وتحل به لحظة منيته، ويعاني حشرة صدره، ويكابذ منازعة روجه، قبل أن ينطق فيقول: ﴿بِحَسْرَتِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

أيها الناس: ما للعيون مع وعيد الله ووعدته جامدة غير باكية؟ وما للقلوب عن الآخرة غافلة لاهية؟ وما للنفوس عن الخيرات كسلة متقاعسة؟ وما للألسن والأبصار والجوارح إلى مسالك الغفلة والفسق والبدع والعصيان مسارعة؟.

أما سمعت هذه النفوس قول خالقها ومليكيها ومدبر أمورها معاتبًا لها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وثبت عن نافع مولى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كان عبد الله بن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] بكى حتى يبسل لحيته البكاء، ويقول: بلى يا رب».

أما سمعت قوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۗ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۗ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٤-٧٦].

أيها الناس: إنكم داخلون بعد أيام قليلة جدًا في أحد الأشهر الأربعة الحُرْم، ألا وهو شهر رجب، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في إثبات حرمة وحرمتها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَٰلِكَ الَّتِي أَلْفِئَةٌ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

أخرج البخاري ومسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في (صحيحهما) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا،



شهر رجب وتخصيصه بشيء من العبادات والاحتفالات

مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمُ، وَرَجَبٌ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(١).

ألا فاحذروا أشد الحذر سلمكم الله وسددكم أن تظلموا أنفسكم في هذا الشهر، وفي بقية الأشهر الحرم بالسيئات والخطايا، والذنوب والمعاصي، والبدع والضلالات، والفسق والفجور، والظلم والعدوان، والقتل والافتتال، والغش والكذب، والغيبة والبهتان، والحسد والغل، فإن الله جل شأنه قد زجركم ونهاكم عن ذلك فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

فإن السيئات من البدع والمعاصي تعظم وتشدد، وتكبر وتتغلظ في كل زمان أو مكان فاضل.

وقد ثبت عن التابعي قتادة بن دعامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (فَإِنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ أَعْظَمَ خَطِيئَةً وَوِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا، وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَظِيمًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُعْظِمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ، ... وَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنَ الشُّهُورِ رَمَضَانَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرْمَ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَاصْطَفَى مِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَعَظَّمُوا مَا عَظَّمَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا تُعْظَمُ الْأُمُورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللَّهُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ).

أيها الناس: هذه وقفات أربع يجدر بالمسلم أن يتنبه لها، ويفقه حكمها، ويتبصر بواقعها، لتسلم له عبادته من النقص والخلل، ونفسه من الإثم والوزر، وتقل في بلاده البدع والآثام. الوقفة الأولى: حكم تخصيص شهر رجب أو أول يوم منه أو أول جمعة أو خميس منه بالصيام.

فقد جرت عادة بعض المسلمين رزقهم الله لزوم السنة النبوية على تخصيص شهر رجب أو أول يوم منه أو أول جمعة أو أول يوم منه بالصيام.

وهذا التخصيص بالصيام ليس عليه أثارة من علم تدعمه، فإنه لم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ فَعَلُوهُ، وَلَا دَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ، وَلَا رَغَّبُوهُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ.

(١) رواه البخاري (٥٥٥٠) ومسلم (١٦٧٩).

بل لا زال العلماء ينكرون ما يُروى في ذلك من أحاديث وآثار ضعيفة أو مكذوبة، ويبينون للناس بطلانها وعدم صحتها، على اختلاف بلدانهم ومذاهبهم وأزمانهم.

فقال الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (لم يرد في فضل شهر رجب ولا في صيامه ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه، حديث صحيح).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: (وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه).

بل إنه قد صح عن خَرْشَةَ بنِ الحُرِّ رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «رأيت عمر يضرب أكف الناس في رجب حتى يضعونها في الجفان، ويقول: كلوا فإنما هو شهر كانت تعظمه الجاهلية»^(١).

وقال شيخ المالكية في وقته أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللهُ عقب قول عمر هذا وغيره: (دلت هذه الآثار على أن الذي في أيدي الناس من تعظيمه يعني: شهر رجب إنما هي غبرات من بقايا عقود الجاهلية).

وأما من كانت له عادة بصيام يوم وإفطار يوم من كل الأشهر، أو صيام الأيام البيض أو الاثنين والخميس من كل شهر، فهذا لا حرج عليه في صيامه ذلك، لأنه لم يقصد تخصيص شهر رجب ولا تعظيمه على باقي الشهور بالصيام فيه.

الوقف الثانية: حكم تخصيص شهر رجب ببعض الصلوات.

جرت عادة بعض الناس أرشدهم الله إلى اتباع السنة على تخصيص شهر رجب بصلاة تسمى (صلاة الرغائب)، وتكون في ليلة أول جمعة منه، بين المغرب والعشاء، وأول ما ظهرت هذه الصلاة في القرن الخامس الهجري. وهذه الصلاة لا يشع للمسلم أن يفعلها أو يدعو الناس إلى فعلها، لأن الصلاة مرجعها إلى نصوص القرآن والسنة، ولم ترد آية في القرآن تدل على فعلها، ولا صح عن رسول الله ﷺ أنه فعلها أو رَغَّبَ الناس فيها، بل إن الناس لم يسمعوا بها إلا بعد وفاته ﷺ ووفاته أصحابه بمئات السنين.

(١) صححه الألباني في إرواء الغليل (٩٥٧).



شهر رجب وتخصيصه بشيء من العبادات والاحتفالات

وقد قال فقيه الشافعية علاء الدين بن العطار الدمشقي رَحْمَةُ اللَّهِ: (والأحاديث المروية في فضلها، وفي الصلاة فيها كلها موضوعة باتفاق أهل النقل والعدالة).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحْمَةُ اللَّهِ: (فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء).

بارك الله لي ولكم فيما سمعتم، وجعلنا من التائبين المستغفرين، إنه جواد كريم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله العظيم الجليل، القوي المتين، خالق الخلق أجمعين، وصلواته وسلامه على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله وأصحابه وكافة أتباعه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: فلا يزال الحديث معكم متواصلًا عن شهر رجب، وبعض ما يتعلق به، ويقع فيه من أمور.

الوقفة الثالثة: عن حادثة الإسراء والمعراج وهل وقعت في شهر رجب أم لا.

هذه الحادثة العظيمة، والآية الكبيرة، والمعجزة الظاهرة الباهرة، قد جاء إثباتها في القرآن العظيم، وتكاثر واستفاضت بها نصوص السنة النبوية، إلا أنه مع ذلك لم يصح في تعيين وقت وقوعها حديث واحد ولا أثر، لا عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن التابعين.

وقد اختلف المؤرخون وأهل السير وغيرهم في تحديد زمن وقوعها اختلافاً كبيراً، فمنهم من قال: (إنها كانت في شهر ربيع الأول، ومنهم من قال: في شهر ربيع الآخر، ومنهم من قال: في شهر رجب، ومنهم من قال: في شهر رمضان، ومنهم من قال: في شهر شوال، ومنهم من قال: في شهر ذي القعدة، ومنهم من يجعلها في أوائل الشهر، ومنهم من يجعلها في أوسطه، ومنهم من يجعلها أواخره).

ومن أضعف الأقوال قول من قال: (إنها كانت في شهر رجب في ليلة السابع والعشرين منه).

حتى قال الفقيه أبو الخطاب الأندلسي المالكي الشهير بـابن دحية الكلبي رَحِمَهُ اللهُ: (وذكر بعض القصاص أن الإسراء كان في رجب، وذلك عند أهل التعديل والتجريح عين الكذب).

وقال الفقيه الشافعي علاء الدين بن العطار الدمشقي رَحِمَهُ اللهُ: (وقد ذكر بعضهم أن المعراج والإسراء كان فيه، ولم يثبت ذلك).



شهر رجب وتخصيصه بشيء من العبادات والاحتفالات

وقال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ: (أما ليلة الإسراء والمعراج فالصحيح من أقوال أهل العلم أنها لا تُعرف، وما ورد في تعيينها من الأحاديث فكلها أحاديث ضعيفة لا تصح عن النبي ﷺ، ومن قال: إنها ليلة سبع وعشرين من رجب فقد غلط، لأنه ليس معه حجة تؤيد ذلك، والله الحكمة البالغة في إنساء الناس لها).

الوقف الرابع: عن حكم الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج والاجتماع لها.

حادثة الإسراء والمعراج معروفة مشهورة، ذكرها الله تعالى في كتابه، وذكرها النبي ﷺ في سنته، وأجمع على وقوعها أهل العلم، ومع هذا لم يرد الاحتفال بها والاجتماع لها لا عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من أهل القرون المفضلة، ولا عن أحد من الأئمة المتبوعين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، بل هذا الاحتفال والاجتماع عند جميعهم متروك غير معمول به ولا معروف.

وهذا الترك من هؤلاء السابقين الأفاضل الأجلاء يكفي كل عالم بالحق، مثبت في دينه، محب لله ورسوله ومعظم وموقر، في أن لا يكون من المحتفلين والمجتمعين، ولا من الداعين إليه، إذ لو كان هذا الاحتفال من الخير والهدى، والرشد والصلاح، والطاعة والعبادة، وزيادة الدين وقوته، لما تركه أشد الناس تعظيماً وانقياداً ومحبة للنبي ﷺ، وأرغبهم في الخير والإكثار منه، ألا وهم أهل القرون الثلاثة الأولى، وعلى رأسهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الذين قال الله تعالى في شأن نبيه ﷺ وشأنهم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»^(١).

ومن لم يسعه ما وسع النبي ﷺ وأصحابه وأئمة الإسلام الماضين من الترك لهذا الاحتفال والاجتماع وغيره من الاحتفالات والاجتماعات فليس على سبيل هدى، فإنه لا يسير إلا على غير طريق رشاد، ولا يمشي إلا في سبيل نقص من الخير لا ازدياد.

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٢).



أيها الناس: اعلّموا سدّدكم الله أن الأعمال التي يقوم بها الناس من صيام أو صلاة أو ذكر أو احتفالات أو غيرها تقريباً إلى الله تعالى، وطلباً للأجر منه، ولم يأت دليل من القرآن والسنة في دعوة الناس إلى فعلها، ولا فعلها النبي ﷺ ولا أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، يطلق العلماء ويحكمون عليها بأنها بدعة، وهي الشيء المبتدع على غير مثال سابق، وقد قيل: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتهم، وكل خير فقد دلنا عليه خاتم الأنبياء، وسار عليه الصحابة والتابعون والعلماء.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: (من ابتدع في الإسلام بدعةً ورآها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً).

فإحداث البدع في الدين أو فعلها أو دعوة الناس إلى فعلها ونشرها في مجتمعاتهم ومساجدهم وبيوتهم ومجالسهم من المحرمات المنكرات، والسيئات المنهيات، فقد كان عن النبي ﷺ إذا خطب الناس يحذرهم من البدع، ويبين لهم بأنها ضلالة، فيقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ» (١).

فاللهم جنبنا الشرك والبدع والمعاصي، وارزقنا لزوم التوحيد والسنة والاستقامة، وأعنا على ما تحب وترضى، وخذ بناوصينا للبر والتقوى..



شهر شعبان أحكام وفضائل (١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله ربكم، الذي شرع لكم مواسم الخير، وفتح لكم أبواب الخيرات، وأجزل عليها المثوبات، ويسر للعبد فعلها، وجعل له عليها أعوانا يشدون من أزره، فما أكرمه من إلهٍ عليّ قدير.

معاشر المسلمين: نحن في شهر شعبان، وهذا الشهر له أحكام وفيه فضائل، لا يقوم بها إلا من علمها ووفق لذلك، ولنعرض شيئاً من ذلك.

شهر شعبان شهر يغفل الناس فيه عن العبادة، فهو بين رجب ورمضان، وأقرب موسم خير من قبله هو صيام يوم عاشوراء، فالناس في بعد عن مواسم الخير، ولهذا نبه النبي ﷺ عن فضل صيام شهر شعبان بقوله وفعله من حديث أسامة بن زيد يقول ﷺ عن شعبان: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»^(٢).

(١) خالد الشايع.

(٢) رواه أحمد والنسائي (٢٣١٧) وحسنه الألباني.

ولهذا كان يصوم عليه الصلاة والسلام في شعبان كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: «لم أره أكثر صيامًا في شهر قطُّ من صيامه في شعبان؛ كان يصوم شعبانَ كلَّه.. كان يصوم شعبان إلا قليلاً»^(١).

ويقول أنس: «وكان أحبُّ الصوم إليه في شعبان»^(٢).

فصيام شعبان قبل رمضان؛ كالسنة الراتبية القبلية والست من شوال كالسنة الراتبية البعدية.

فينبغي للعبد أن يستغل هذا الشهر بالصيام، وأن لا يفوت الأيام الفاضلة فيه، كصيام الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر.

عباد الله: يتساءل البعض عن الصوم في النصف الثاني من شعبان هل يجوز أم لا؟ وقد ورد في ذلك حديث أبي هريرة: «إذا انتصف شعبان فلا تصوموا حتى يكون رمضان»^(٣).

فيجاب عنه أنه قد أنكر هذا الحديث الإمام أحمد وابن مهدي وابن معين وابن المديني وأبي زرعة والأثرم وعدُّوه من الأحاديث المنكرة، بل قال أحمد: (لم يرو العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه أنكر من هذا الحديث)، وقال الأثرم: (الأحاديث كلها تخالف)، وقال ابن رجب: (أكثر العلماء على أنه لا يعمل بهذا الحديث).

وقد ذكر بعض أهل العلم كالحافظ ابن حجر وغيره، وكذا من المعاصرين ابن باز رحم الله الجميع: (أنه إنما يُنهي عن ذلك من يتدئ الصوم في النصف الثاني من شعبان، كما لو كان من باب استقبال رمضان أو نحوه، أما من كان له صوم فليصمه، وكذا من أراد الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام في صيام أكثر شعبان).

(١) رواه البخاري (١٩٦٩) ومسلم (١١٥٦).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٢٣).

(٣) صحيح الجامع (٣٩٧) وصححه ابن باز في مجموع فتاويه (٢٥/٢١٩).



فلا بأس على المسلم أن يصوم في النصف الثاني من شعبان ولو لم يكن قد صام في النصف الأول، غير أنه لا يجوز له أن يصوم آخر يومين من شعبان إلا لمن كانت له عادة؛ لما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لا تقدّموا رمضان بيوم أو يومين إلا من كان يصوم صوماً فليصم»^(١).

وللنهي عن تقدم صوم رمضان بصوم يوم أو يومين عدة حكم منها: الاحتياط لرمضان لئلا يزداد فيه ما ليس منه، ومنها الفصل بين صيام الفرض والنفل؛ لأن جنس الفصل بين النوافل والفرائض مشروع، ومنها التقوي على صيام رمضان فإن مواصلة الصوم قد تضعف عن صيام الفرض^(٢).

ومن الأعمال الفاضلة في شعبان، قراءة القرآن، فإن في ذلك استعداد لرمضان وتمهئة للنفوس وتأهيل لها، لتدخل رمضان على نشاط وأهبة، ثم هو للحفاظ محطة مراجعة ليتمكنوا في رمضان من كثرة التلاوة والصلاة بالليل من حفظهم عن ظهر قلب، وهذا أمر مجرب. قال أنس: «كان المسلمون إذا دخل شعبان أكبوا على المصاحف فقرؤوها وأخرجوا زكاة أموالهم تقوية لضعيفهم على الصوم». وقال سلمة بن كهيل: (كان يقال شهر شعبان شهر القراء).

وكان قيس بن عمر الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وأكب على قراءة القرآن. وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: (هذا شهر القراء)^(٣).
فالله الله بقراءة القرآن، فهو كلام الله وبه تحيي القلوب وتستنير العقول وتمتلئ الخزائن. اللهم بلغنا رمضان وارزقنا فيه صالح الأعمال والأقوال.

(١) رواه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).

(٢) لطائف (٣٠٧-٣٠٩).

(٣) لطائف (٢٩٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يجب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: ها قد اقتربت أوقات الرحمة والمغفرة والعتق من النار، أفلا يجدر بنا أن نستعد لها.

إن شهر شعبان شهر تكثر فيه الغفلة، وذلك لبعده عن مواسم الخيرات، فيكون الذي يعبد الله في زمن الغفلة هذا أعظم أجراً، ومما يشبه هذا أنه كان بعض السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة ويقولون هي ساعة غفلة، أي: يغفل عنها الناس.

وفي إحياء الوقت المغفول عنه فوائد: منها أنه يكون أخفى وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل.

ومنها: أنه أشق على النفوس لقلّة الموافقين، ومنها: أن المنفرد بالطاعة عن أهل المعاصي والغفلة قد يدفع البلاء عن الناس فكأنه يحميهم ويدفع عنهم.

وهكذا -أيها الإخوة- يكون العابد المجدد في هذا الشهر قد حاز فضيلتين: حسن الاستعداد لرمضان، والذكر زمن الغفلة. فهل من مشمر لطاعة الله؟ هل من مبادر إلى الصالحات يا عباد الله؟

عباد الله: يعتقد البعض أن ليلة النصف من شعبان ويومها له مزية من بين الليالي والأيام، حتى إن بعضهم فضّلها على ليلة القدر، وأقول إن كل ما يروى في فضلها لا يصح عن النبي ﷺ، وأصح ما ورد فيها ما أخرجه ابن ماجه وابن أبي عاصم واللالكائي^(١) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان،

(١) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٤٨).



فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك أو مشاحن». واختلف في تصحيحه، وعلى القول بصحته فلا يدل على تخصيص الليل بالقيام والنهار بالصوم، بل فيه فضل التوحيد وسلامة الصدر. أما صوم يوم النصف من شعبان مفردًا باعتبار أن له فضيلة معينة، فلا أصل له، بل الحديث الوارد في ذلك موضوع.

وأما إحياء ليلة النصف من شعبان بالعبادة فلم يثبت في قيام ليلة النصف من شعبان شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه -رضوان الله عليهم-، ومن ثم اختلف أهل العلم أيضًا في مشروعية إحياء هذه الليلة بعبادة معينة كقيام ونحوه، والصحيح من أقوالهم أنه لا يشرع إحياء هذه الليلة بأي نوع من أنواع العبادة، سواء أكان إحياءها جماعة أو فرادى، وهو قول أكثر علماء أهل الحجاز منهم: عطاء وابن أبي مليكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم، ونسبه ابن حجر الهيتمي إلى الشافعية، وهذا اختيار ابن باز وابن عثيمين - رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى.

وجاء في كتاب [الحوادث والبدع لأبي بكر الطرطوشي (ص ٢٦٣-٢٦٤)] وكتاب [الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (ص ١٢٥)] أن ابن وضاح روى عن زيد بن أسلم قال: (ما أدركنا أحدا من مشيختنا ولا فقهائنا يلتفتون إلى النصف من شعبان، ولا يلتفتون إلى حديث مكحول، ولا يرون لها فضلا على ما سواها).

وختامًا: ينبغي لمن أراد إدراك فضيلة هذه الليلة أن يحقق التوحيد الخالص، وينأى بنفسه عن الشرك وذرائعه، ويصفح عما بينه وبين أخيه من عداوة وشحناء، حتى تشمله رحمة الله جل وعلا ومغفرته، وهذا غاية ما تفيد جملة الأحاديث الواردة في هذا الباب -إذا صحّت-، أما إحداث البدع فيها والتي ما أنزل الله بها من سلطان، فإن أهلها على خطر عظيم حتى يقلعوا عن بدعتهم.

أيها المؤمنون: إن شهر شعبان مقدمة وقنطرة إلى رمضان، فليكن شعبانكم هذا مختلف عما مضى، من أجل أن يختلف رمضانكم عما مضى من رمضانات، أليس من الغبن أن لا ينتبه أحدنا إلا وقد قيل له: غداً رمضان، فإذا به لم يتأهب للطاعات والتلاوات والأذكار والصلوات، بل تتكاثر عليه الشواغل والأعباء، فلا يزال ينشغل يوماً بعد يوم في رمضان،



إضافة إلى ما يُقضى من الأوقات في النوم واللهو، حتى يخرج شهره ولم يقض منه وطره، ولا شك أن من أهم أسباب ذلك عدم أخذ الأهبة من شعبان.

فمن كانت له أعمال في رمضان فليخففها على نفسه من الآن، ومن كان يريد شراء حاجيات، فليجهز نفسه في شعبان إن استطاع، ومن أراد شراء شيء للعيد فلا يترك ذلك لرمضان والعشر الأواخر، بل يحاول تفريغ نفسه من الآن لشهر الصيام والقرآن والغفران..

عباد الله: تأهبوا بصادق النيات، واستعدوا بالأعمال الصالحات، واسألوا الله أن يبلغكم شهر الصوم والقيام والقرآن، فمن بلغه منا جاءه مستعداً متأهباً، ومن لم يبلغه فإن نية المؤمن أبلغ من عمله، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية...



خطبة عيد الفطر

الخطبة الأولى:

الحمد لله، عَمَّنَا نِعْمًا وَإِنْعَامًا، والله أكبر مَنَحْنَا عقولًا وأفهامًا، والحمد لله لا رادَّ لما أَرَادَ، والله أكبر ما لَرزِقِهِ من نَفَادٍ، والحمد لله مُصَرِّفَ الأَوَاقَاتِ، والله أكبر مُبَسِّرَ الأَقْوَاتِ، لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ قَدَّرَ الأُمُورَ وَقَضَاهَا، وَعَلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ أَجْرَاهَا وَأَمْضَاهَا، سَبَّحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَصَوَّرَهُ، وَكَتَبَ رِزْقَهُ وَالْأَجَلَ قَدَّرَهُ، وَأَشْكُرُهُ وَأُثْنِي عَلَيْهِ فَلهُ الْحَمْدُ فِي الأَوَّلَى وَالآخِرَةِ، وَإِلَى عَلَيْنَا نِعَمَهُ وَآلَاءَهُ بَاطِنَةً وَظَاهِرَةً، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ مُقِرًّا بِتَوْحِيدِهِ وَمُعْتَرِفًا، جَلَّالَهُ لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مُتَّصِفًا، إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أَوْعَدَ عَفَا، وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ رَفِيعُ الْمَقَامِ جَلِيلُ الْجَنَابِ، اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَاصْطَفَاهُ، وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، أَنْزَلَ عَلَيْهِ ذِكْرًا حَكِيمًا، وَهَدَى بِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ السَّادَةِ الطَّيِّبِينَ الْأَطْهَارِ، وَأَصْحَابِهِ الْعُرَّةِ الْمِيَامِينَ الْأَخْيَارِ، الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا تَعاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

الله أكبر، الله أكبر، لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد:

فَأَوْصِيكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاتَّقُوا اللهُ - رَحِمَكُمُ اللهُ -، اتَّقُواهُ حَقَّ التَّقْوَى، اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ، يَوْمَ يُبْعَثُ مَا فِي الْقُبُورِ، وَيُحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ، يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، يَوْمَ يَعُضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ أَسْفًا عَلَى مَا اقْتَرَفَهُ وَجَنَاهُ.

فاتقوا الله -رحمكم الله-، وبادروا إلى ما يُحِبُّه رَبُّكُمْ ويرضاه، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا
اللَّهُ وَلَنَنْظُرَ نَفْسًا مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

الله أكبر، وهو أحقُّ من عُبد، والله أكبر، وهو أحقُّ من ذُكر، والله أكبر، وهو
أحقُّ من سُكِر.

معاشر المسلمين: عيدكم سعيدٌ ويومكم مُبارك، وتقبَّل الله منا ومنكم الصيامَ والقيامَ
وصالح الأعمال، البسوا الجديد، واشكروا العزيز الحميد في فرحٍ لا يُشغل، وبهجةٍ لا تُبتر.
هذا يومُ العيد، يومُ الزينة، يومُ عَظَّمَ اللهُ قدره، وأفاضَ علينا من النعم ما يُوجبُ شكره.
فاحمدوا الله على التمام، واستقيموا على شرائع الإسلام. كلُّوا واشربوا، وتزيّنوا وتجمّلوا،
﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

أيامُ العيد أيامُ بَشْرٍ وسُرور، وفرحٍ وحُبور، فاستديموا نِعَمَ اللهُ بِشكرها. المسلمُ كما يتصلُّ
بربِّه عبادةً وشُكراً يتصلُّ بخلقه محبةً وإخاءً، ولُطفًا ومودَّة. يومُ فرحٍ وزينةٍ وعبادة. المسلم
يؤمن بالله العظيم، ويخصُّ على طعام المسكين.

ليس مطلوبًا أن تُذرفَ الدموعُ في العيد بُكاءً على المآسي، ولا أن يعلو الحزنُ على المُحيَّا
اشتغالاً بالهموم. ليس العيدُ لإحياء الأحياء والأحزان وتذكُّر الآلام؛ فهو يومُ الزينة، ويومُ الإحسان
والبرِّ، ويومُ التزاوُر والتهادي.

الله أكبر ما تنزَّلت الرحمتُ من الكريم المَنَّان، والله أكبر ما تواصلت الصلوات على سيِّدنا
محمدٍ سيِّد الثَّقَلَيْنِ الإنس والجان.

أيها المسلمون: لا يعيشُ المسلم فرحةَ العيد إلا حين يشعرُ بالبهجة في مشاعره، والسرور
على مُحيَّاه، وقسماتُ وجه المرء انعكاساتٌ لدواخله، والذي لا يُغيِّر ما بنفسه لا يُغيِّر ما حوله.
من حقُّ أهل الإسلام في يوم عيدهم أن يسمعوا حديثاً مُبهجاً، وكلاماً مُؤنساً. يقول
ابن بطَّال: (جعل اللهُ من فطر الناس محبةَ الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح
بالمنظر الأنيق والمعين الصافي وإن كان لا يملكه ولا يشرُّه).



بطبع الإنسان أن يتهيجَ بالهيئة الحسنة والمكان الفسيح والمنظر البهيح، وإذا كان ذلك كذلك فإن الحديث عن الجمال والزينة في يوم الزينة يسهم في الإسعاد في يوم العيد، والإبهاج في يوم البهجة.

ما عيدك الفخم إلا يوم يغفر لك لا أنت تجربه مستكبراً حُللك
كم من جديد ثياب دينه خلق تكاد تلغنه الأقطار حيث سلك
ومن مرقع الأطمار ذي ورع بكت عليه السماء والأرض حين هلك

كل يوم يمر بغير معصية لله فهو فرحة لك، العيد العودة للدين، العيد يذكرنا بكمال الدين، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. العيد فرحة بالنعمة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. العيد فسحة، «حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة»^(١)، هكذا قال عليه الصلاة والسلام: «لكل قوم عيداً وهذا عيدنا، إني أرسلت بحنيفية سمحة». هذه عبارات نبوية قالها في العيد، لما جاءهم في يثرب ولهم يومان يلعبون فيها، فسألهم عنهما، ثم قال: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر»^(٢).

الله أكبر، وربُّنا أحقُّ من مُجِدِّ، والله أكبر، وربُّنا أجودُّ من سُئِلَ، والله أكبر، وربُّنا أوسعُّ من أعطى، والله أكبر كلما صَلَّى الْمُصَلُّونَ عَلَى صَاحِبِ اللِّوَاءِ وَالْكَوْثَرِ.

اللهم بارك لنا فيما آتيتنا، واجعله عوناً لنا على طاعتك، اللهم إنا نسألك فعل الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، اللهم ارزقنا حبك وحب كل عمل يقربنا إليك.
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه أحمد (٢٥٩٦٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٤٤٣).

(٢) صحيح أبي داود (١١٣٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله مُصَرِّف الليالي والأيام، أحمدُه سبحانه على تراءُف الإنعام وتتابع الإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس السلام، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه الأبرار الأتقياء الأعلام.

أما بعد:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، والله أكبر وهو العظيمُ جُودُه، الكثيرُ موجودُه، المُتعالِي بعظمته ومجده، نَزَلَ الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

أيها المسلمون: احمدوا ربكم يا عباد الله على إتمام شهركم، وقد قال ربكم: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فها أنتم أكملتُم العدة، وكبرتُم الله، وبقي علينا الشكر يا عباد الله، فعلاً ما أسرع تلك الأيام لقد انقضت ورحلت والله، فهل علمتم يا عباد الله كيف ذهبت؟ هل أحسستم كيف انقضت وتولت؟ صدق الله الذي قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]. جمع قلة، مع أنه شهر كامل، ولكن والله لقد ذهب مثل الضيف، وولى مسرعاً كأنه طيف، ولكن هنيئاً لكم، فقد صمتم شهركم، هنيئاً لكم وقد قمتُم ليلاليه، هنيئاً لكم وقد بلغتُم آخره، وعدد قد مات ولم يتمكنوا من بلوغه، وآخرون ماتوا أثناءه ولم يتمكنوا من إكماله، فكل واحد منا من ذكر أو أنثى عليه نعمة كبيرة من الله.

عباد الله: إن يومكم هذا هو يوم بر وصلة، وصدقة وإنفاق، سواء صدقة الفطر، أو الصدقة المطلقة، وقد خطب النبي ﷺ العيد فجاء للنساء وقال: «تصدقن». فبسط بلال ثوبه، ثم قال: «هلم لكن فداءً أبي وأمي»، فجعلن يلقين الحلي في ثوب بلال^(١).

أيها المؤمنون: إن الإسلام قد غرس حبَّ الجمال وإدراك الزينة في أعماق المسلم، فيكون جميلاً ويُشاهد الجمال، ويستمتع بمباهج الزينة ماثوثةً في الكون كله تتجلى في صنعة الله الذي

(١) رواه البخاري (٣٠٤).



أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، وَفِي خَلْقِهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣]، والذي خلقكم فأحسن صوركم، وجعلكم في أحسن تقويم.

معاشر المسلمين: ومع هذا كله ووضوحه وجلاله، إلا أن الجمال في الإسلام لا يرتبط بالمظاهر الحسيّة وحدها، ولكنه مُرتَّبٌ ومُنظَّمٌ ومُرشدٌ؛ فليس الجمال في جرّ الرجال للإزار وإسبال الثياب كبراً ورياءً، ولا بتخليّ المؤمنات عن الحشمة والعفة والحياء.

الجمال المحمودُ منه ما أعان على طاعة الله كما كان ﷺ يتجمل للوفود، والمذموم ما كان للدنيا والفخر والحِيلاء، والتوصّل إلى الشهوة المحرّمة، أو أن يكون غاية العبد وأقصى همّته ومطلبه.

المطلوبُ أن يُجمل العبد قلبه بالإخلاص لله ومحبته والتوكل عليه والإنابة إليه. ولسانه بالصدق، وحسن المنطق، وعدوية اللفظ. والجوارح بالطاعة، والعمل النافع. وبدنه بإظهار نعم الله عليه في لباسه، وتطهيره من الأنجاس والأوساخ والمستقدّرات.

إنه الجمال في مجالاته الحقّة، والزينة في ميادينها النقيّة، وليس إلا أهل الفضل والصلاح ليكونوا رموز الجمال، ونماذج الزينة والبهجة، بهم يقتدي أهل الهمم بالتوجّه نحو العزائم والأذواق الرفيعة، والتعامل الكريم، وأخلاقه العليّة في كرمٍ وحلمٍ، وطهارة لسانٍ، وكفٍّ نديٍّ.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله كثيراً، وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيراً.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-، واهنأوا بعيديكم، وأصلحوا ذات بينكم، تسامحوا وتصافحوا، وتزاوروا وتجاوروا، والبسوا وتجمّلوا، وكلّوا واشربوا ولا تسرفوا، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين؛ فالعيدُ فرحةٌ وبهجةٌ، فمن أحبّ أن يسامحه الناس فليسامحهم، ومن أحبّ أن يقبله الناس فليتجمل لهم، ومن زاد كبره وحبّه لنفسه ازداد كرهه الناس له، الألفة دليلُ حسن الخلق، والثفرة علامةُ سوء الخلق.



لا يسعدُّ بالعيد من عَقَّ والديه وحُرِّم الرضا في هذا اليوم المبارك السعيد، ولا يسعدُّ بالعيد من قطع رحمه، ولا من ترسخت الأحقاد في قلبه، أو من يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وليس العيدُ لخائنٍ غشَّاشٍ يسعى بالفساد بين الأنام؛ كيف يفرح بالعيد من أضع أمواله في مَلاهٍ مُحَرَّمة وفسوقٍ وفجور، ليس له من العيدِ إلا مظاهره، وليس له من الحظِّ إلا عوائِره، السعيد من اتقى الله ربه، وشكر نعم الله باستعمالها في طاعته، وخالق الناس بالتواضع والخلق حسن.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

ثم اعلّموا أن من مظاهر الإحسان بعد رمضان: استدامةُ العبد على نهج الطاعة والاستقامة، وإتباعِ الحسنة الحسنة، وقد ندبكم نبيكم محمدٌ ﷺ بأن تُتبعوا رمضان بستٍّ من شوال؛ فمن فعل فكأنما صامَ الدهرَ كله.

تقبَّلَ اللهُ منا ومنكم الصيامَ والقيامَ وسائر الطاعات والأعمال الصالحات.

ثم صلُّوا وسلِّموا على الرحمة المهداة، والنعمة المُسداة: نبيكم محمدٍ رسول الله، فقد أمركم بذلك ربُّكم، فقال -عزَّ قائلاً علياً-: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وذريته، وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن سائر الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.





فضل عشر ذي الحجة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضِلِّ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جَلَّ عن الشبيه والمثيل والكفاء والنظير.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصِفِيُّهُ وخَلِيلُهُ، وخيرُته من خَلِقِهِ، وأمينه على وحيه، أرسله ربُّهُ رحمةً للعالمين، وحُجَّةً على العباد أجمعين، فهدى الله تعالى به من الضلالة، وبصَّر به من الجهالة، وكَثَّر به بعد القِلَّة، وأغنى به بعد العَيْلَة، ولمَّ به بعد الشتات، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغرِّ الميامين، ما اتصلت عينٌ بنظر، ووعت أذنٌ بخبر، وسلِّم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها الإخوة الكرام: الحمد لله القائل لما ذكر جل وعلا خلقه في عباده قال سبحانه وتعالى عن تفضيله بين الناس في الخلق وتفضيله بعض الأيام على بعض، وتفضيله بعض الأشهر على بعض، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

فقد خلق الله تعالى الملائكة فاختار منهم جبريل ليكون أفضلهم، وخلق الله تعالى البشر فاختار الأنبياء ليكونوا أفضلهم، واختار الله تعالى الشهور فاختار منها رمضان ليكون هو أفضلها، وخلق الله تعالى الأيام فجعل هذا اليوم وما بعده من أيام هي أفضلها؛

فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة»^(١). وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الذي رواه البخاري ومسلم، قال النبي ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى تعالى من عشر ذي الحجة»، العمل الصالح عموماً، من ذكر لله تعالى، أو صدقة على الفقراء والمساكين، أو برّ للوالدين، أو صلة للأرحام، أو صلاة، أو صيام، أو قيام، أو جهاد، إلى غير ذلك من أنواعه. قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى تعالى من عشر ذي الحجة»، قال الصحابة: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟.

وقد كان متقررًا عندهم، أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وأنه ما تقرب عبد إلى الله تعالى بعد تلفظه بالشهادتين بأفضل من أن يتقرب إلى الله تعالى بتقديم روحه في سبيل الله، فقالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ فهم كانوا يسمعون الأحاديث والآيات في فضل الجهاد، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله»، يعني أن العمل الصالح في هذه الأيام لا يعدله حتى لو خرج إنسان مجاهداً، فأيام ذلك المجاهد هي أقل أجراً، وهي أنزل فضلاً من المتعبد في هذه العشر.

ثم اشترط النبي ﷺ شرطاً، واستثنى حالة معينة، فقال: «إلا رجل خرج بنفسه وماله»، خرج بنفسه، وأخذ ماله، خرج بنفسه وماله، «ثم لم يرجع من ذلك بشيء»^(٢). أي: إلا رجل بذل نفسه وبذل ماله لله عزَّ وجلَّ، وقله من المجاهدين من يأخذ أمواله معه، فإنهم في الغالب يخرجون بأجسادهم للجهاد في سبيل الله، وهناك من يتولى نفقتهم، أو أنهم ربما تركوا أموالهم وأخذوا بعضها نفقة، فقال عليه الصلاة والسلام: لا يفضل المجاهد الخارج في سبيل الله في عمله، عمل الذي هو قاعدٌ لكنه يتعبد في العشر، إلا إذا خرج المجاهد بنفسه واستشهد وخرج بماله كله في سبيل الله!

(١) صحيح الترغيب (١١٥٠).

(٢) رواه البخاري (٩٦٩) ولفظ البخاري: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه». قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء».



وروى الترمذي عنه عليه الصلاة والسلام: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» فقالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»^(١)

وفي صحيح الترغيب: قال عليه الصلاة والسلام: «ما من عمل أزكى عند الله ولا أعظم أجراً من خير يعمل في عشر الأضحى». قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء». قال: فكان سعيد بن جبيرة إذا دخل أيام العشر اجتهد اجتهاداً شديداً، حتى ما يكاد يقدر عليه^(٢)

أيها المسلمون: دل هذا على أن فضل هذه العشر هو أفضل من التعبد في أيام رمضان، لا في لياليه، فإن ليالي رمضان أفضل من ليالي العشر، لكن أيام العشر، ما بعد صلاة الفجر إلى المغرب هي أفضل من أيام رمضان، بل هي أفضل من جميع أيام العام؛ لما تقدم في حديث جابر رضي الله تعالى عنه.

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ لما تكلم في فقه حديث ابن عباس: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من العشر»، قال الإمام ابن حجر: (وذلك لاجتماع رؤوس العبادات، أو قال أمهات العبادات في هذه العشر، فإنه يجتمع فيها الصدقة، ويجتمع فيها الصلاة، ويجتمع فيها الحج، ويجتمع فيها الصوم، أي: التطوع، وهذه الأربعة يستطيع أن يعملها الإنسان خلال هذه العشر؛ أما في رمضان فإنه يستطيع أن يعمل الصلاة، والزكاة، والصيام، لكنه لا يستطيع أن يحج).

وكذلك قل غير ذلك في غيره من الأيام التي لها فضل، أما في هذه العشر فإن الله جل وعلا فضّلها فجعلها سبحانه وتعالى عشراً ولم يجعلها خمسا، فلو كانت تنتهي في الخامس من ذي الحجة فكان ليس فيها حج، لكنه لما مدّها ربنا جل وعلا وضمّنها يوم عرفة، وهو اليوم العظيم الذي ينظر إلى عباده وهم ما بين متعبد وداعٍ وبالكٍ ومنكسر في أرض عرفات، فيباهي ملائكته بهم.

(١) صحيح الترمذي (٧٥٧).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (١١٤٨).



فدخول يوم عرفة في هذه العشر زاد من فضلها، ثم دخول يوم النحر، يوم الحج الأكبر الذي أكمل الله تعالى فيه الدين، وأنزل الشريعة، وأتم فيه النعمة.

ولقد بين النبي ﷺ فضل العشر الأوائل من ذي الحجة، وحث على اغتنامها، فحري بالمسلم إذا سمع من نبينا عليه الصلاة والسلام الكلام عن فضل شيء من الأعمال أن يرى ذلك في عمله، وألا تكون المسألة عندنا فقط معلومات نجمعها دون أن يكون لها تأثير في حياتنا.

ما هو تأثير قول النبي عليه الصلاة والسلام لما مدحها فقال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه العشر»؟ كيف يؤثر فيك هذا الكلام؟ هل يدفعك فعلا إلى أن تصلي الضحى في هذه الأيام العشر، وتقول: ما دام أن صلاة الضحى في هذه العشر أفضل من صلاة الضحى في غيرها، إذا فسأكثر فيها من صلاة الضحى وأداوم عليها.

ما تأثيرها عليك في قراءة القرآن؟ بعضنا ربما ختم القرآن في رمضان، ثم مرَّ عليه الآن أكثر من شهرين وهو لم يختم القرآن مرة أخرى، ما تأثير الحديث الذي مدح هذه العشر عليك؟ هل دفعك إلى أن تختم القرآن خلال هذه العشر بإذن الله، فأقرأ في كل يوم ثلاثة أجزاء تستغرق أكثر من ساعة لتختم القرآن في هذه العشر؛ لأن قراءة القرآن أفضل وأعظم أجراً من غيرها، هل يؤثر فيك هذا الحديث فعلا في دفعك إلى أن تكثر من قراءة القرآن فيها؟ ما دام أنك تمسك المصحف وأنت تعلم أن الله يراك فتقول في نفسك: ما دام أن ربي يحب مني قراءة القرآن الآن في هذه العشر أكثر مما يحبه في غيرها، أكثر منها.

هل يدفعك هذا الحديث إلى الصدقة إلى البذل من مالك؟ فتنفق المساكين والمحتاجين، والأقارب والأرحام المعوزين، والجيران القريين؟ تسأل عن أحوالهم، وتجوّد بما تستطيع ولو بالقليل، وتقول في نفسك: يا ربي، لما سمعت نبيك ﷺ يقول: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه العشر»، يا ربي، أنا أسرع لأعمل بمحوباتك ما دام أنك تحب الصدقة في هذه العشر أكثر من محبتك لها في غيرها، فانظر إلّي الآن وأنا أتصدق تقرباً إليك يا ربي.



وأفضل الصدقة كما بيّن النبي ﷺ الصدقة على ذي الرحم الكاشح، يعني على ذي الرحم الذي ربها يعاملك معاملة سيئة، ومع ذلك أنت تحسن إليه وتتصدق عليه، ربها يكون عندك أخ يعاملك معاملة جافة أو أخت أو عمّة أو خالة أو ربها كان أباً أو أما أيضاً، كل من كان ذا رحم عندك فالسنة أن تقدمه في الصدقة على غيره، فإن كان رحماً كاشحاً ربها يعاملك معاملة جافة وأنت مع ذلك تحسن إليه فهذا أفضل الصدقة، لأن في ذلك ترفّعاً عن حظوظ النفس والإخلاص فيه أجدر.

عن ميمونة، زوج النبي ﷺ قال: كانت لي جارية فاعتقته، فدخل عليّ النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «أجرِك الله، أما إنك لو كنت أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرِك»^(١) فالعتق له فضل عظيم، لكن إعطاءها خادمتها لأخوالها أعظم أجراً؛ لأنهم فقراء ويحتاجون إلى من يساعدهم في البيت، فجعل عليه الصلاة والسلام الإحسان إلى ذي الرحم والصدقة عليه والهبة له أفضل عند الله تعالى من العتق، مع ما في العتق من الأجر العظيم.

وما أجمل أن يعود الإنسان نفسه أنه إذا رأى مسكيناً في الطريق أو محتاجاً بادية عليه الحاجة فيحسن إليه، ويعود أولاده على ذلك، يعطي ولده مبلغاً صغيراً من المال ويقول: اعط هذا يا ولدي، ليعتاد على البذل والكرم وفعل الخير.

والصدقة -أيها الأحبة- ينتفع بها المرء في حياته قبل مماته، وكم من مشكلة وقعت فيها يسر الله حلها بسبب صدقة تصدقت بها يوماً! وكم من مصيبة نزلت بك فخففها الله عنك أو رفعها بسبب صدقة تصدقت بها! وكم من ظلم كان سيقع عليك ثم رده الله تعالى عنك بسبب صدقة تصدقت بها! وكم من إنسان كان في كروبات فلما تعرف إلى الله تعالى برحمته لعباده أنزل الله تعالى عليه رحمته.

ونحن نحتاج أن نتعرف إلى الله ببعض الأعمال، حتى إذا وقعت في كربة كذا قلت: اللهم اكشف عني هذه الكربة بعملتي ذاك الذي قدمته بين يديك، (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة).

(١) صحيح أبي داود (١٦٩٠).

أيضاً: أكثر من قراءة القرآن، ف «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله كان له به حسنة، لا أقول: (لم) حرف، ولكن (ألف) حرفٌ، و(لامٌ) حرف، و(ميمٌ) حرف»، والحسنة بعشر أمثالها، أكثر من تلاوة القرآن، وربُّ أولادك على ذلك حتى لو جعلت لهم جوائز فهذا أمر حسن لترغيبهم وتشجيعهم، المهم أن يشعروا بأن هذه الأيام هي أفضل في القربة إلى الله تعالى من غيرها.

أيها الحبيب: أكثر من نوافل الصلاة أيضاً، قل: يا رب، ما دمت تحب صلاة النافلة والرواتب والضحي في هذه العشر أكثر مما تحبها في غيرها، فسأقطع عملي وأقوم وأتوضأ وأستقبل القبلة تقرباً إليك بما أنت له أشد حباً، فاقبلني واقبل مني، وأعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللهم ربي فعاملني بالحسنى، فوفقني لما تحب وترضى، وأكرمني بما أحب من الخير، وفقني لما تحب، لتكافئني بما أحب، فأنا أحب صلاح ولدي فأصلح ولدي يا رب، يا رب أنا أحب البركة في مالي فبارك لي في مالي يا رب، يا رب أنا أحب سلامة جسدي من المرض يا رب فاصنع إلي ما أحب كما صنعتُ إليك ما تحب، وأنت إلى البر والكرم أسبق؛ فإن الله جل وعلا يعامل العبد بمثل ما يعامله العبد به وأكثر، قال الله جل وعلا: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فمن أراد أن يذكره الله تعالى في السموات فليذكر الله تعالى في الأرض، وهكذا يكون العكس، كما قال الله جل وعلا عن قوم: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ﴾ [التوبة: ٦٧]، فلما نسوا الله، كيف عاملهم الله؟ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، نسوا الله فلا يتصدقون ولا يذكرون ولا يتقربون، نسوا أن يتقربوا إلى الله، إنما ذكروا أنفسهم، ذكروا شهواتهم، ذكروا دنياهم، لكنهم نسوا الله فهنا يكون جزاؤهم كما يقول الله جل وعلا: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

ويبين الله جل وعلا ذلك في كتابه في عدة مواضع من القرآن، بين أنه يصنع بالعبد كما يتعامل العبد معه، إلا أنه تعالى أرحم بالعبد، وأقدر على الإحسان إليه، فربما أساء العبد مع ربه ولا يزال الله تعالى يعامله بالإحسان فضلاً وإمهالاً، وكرماً وجوداً، ورحمةً وإحساناً من ربنا جل في علاه.

أيها الإخوة الكرام: وكما أن العمل الصالح في هذه العشر عملٌ متنوعٌ، فإن من أفضله أن يكثر الإنسان من ذكر الله جل وعلا، وهناك ذكرٌ مخصوصٌ، وهو أن يكثر العبد من التكبير، فردد قائلاً: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، والله أكبر، والله الحمد.

يقولها من بداية أيام العشر من اليوم حتى تنتهي هذه العشر، فإن كان حاجا وأحرم بالحج في اليوم الثامن فيُسَنُّ له أن يكثر من التلبية، لا من هذا التكبير، وإن جمع بينهما فلا بأس، ثم إذا رمى الجمرة يوم العيد، وهي جمرة العقبة الكبرى، فإنه يقطع التلبية؛ لكنه يستمر في التكبير المقيد بعد الصلوات، أو المطلق أيضا، لا بأس به عليه، فأكثرُوا من التكبير، أكثرُوا من قول الله: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

وقد كان عمر رضي الله تعالى عنه يبكر في الذهاب إلى مكة بالحج، ثم يقعد في خيمته في منى يقضي أمور الناس، ويحكم بينهم، ويفصل في خصوماتهم، ويفتيهم في مسائلهم، وهو يبكر من قبل يوم الثامن يذهب إلى منى، فكان رضي الله تعالى عنه وهو في خيمته يكبر: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد، فيسمعه الذين خارج الخيمة فيكبرون بتكبيره، يذكّرهم فيكبرون، قال فيسمعهم الذين وراءهم فيكبرون، حتى ترتج منى تكبيرا.

وكان ابن عمر وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهما كانوا يخرجون إلى السوق في أيام العشر، ويرفعون أصواتهم بالتكبير، فيسمع الناس تكبيرهم فيكبرون.

اجعل هذه سنة منشورة بسببك لا مهجورة إذا خرجت إلى السوق أو جئت إلى المسجد أو في أي موطن كنت فارفع صوتك بالتكبير، فإنه نشر للسنة، وتذكير للناس، وتنبية للغافل، وتعليم للجاهل، لمن سوف يعجب يقول: لماذا يكبر هذا؟ فيقال له: هذه أيام العشر يُسَنُّ فيها أن يكثر العبد من التكبير، عندها يكبر هذا الإنسان ويكون لك مثل أجره.

كَبَّرَ وَعَلَّ الصَّوْتِ بِالتَّكْبِيرِ لَا تَتَّصِفُ بِالشَّحِّ وَالتَّقْوِيرِ
كَبَّرَ وَكُنَ اللهُ عَبْدًا ذَاكِرًا فَاللهُ أَكْبَرُ فَوْقَ كُلِّ كَبِيرِ

فالله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.

أسأل الله جل وعلا أن يعيننا على اغتنام الأيام والساعات الفاضلات، وأن يجعلنا الله تعالى فيها من المقبولين، أستغفر الله العظيم الجليل من كل ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله أهل الحمد والثناء، أحمده سبحانه وأشكره في السراء والضراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأرض والسماء، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القضاء.

أما بعد:

أيها الإخوة الكرام: ومن أفضل الأعمال في هذه العشر الصيام، فإن الله جل وعلا جعله خاصاً به سبحانه، كما قال عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم يُضاعفُ الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ. قال الله عزَّ وجلَّ: إلا الصوم. فإنه لي وأنا أجزي به. يدعُ شهوته وطعامه من أجلي. للصائم فرحتان: فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربِّه. ولخُلوْفٍ فيه أطيْبٌ عند الله من رِيحِ المسكِ»^(١).

ولو لم يأت في الصوم في هذه الأيام فضيلة خاصة أو دليلاً خاصاً، إلا أنه من أحب الطاعات إلى الله تعالى، كما أنه من جملة الأعمال الصالحات التي هي أحب إلى الله في هذه الأيام.

أيها المسلمون: ومن أحكام هذه العشر أن مَنْ أراد الأضحية في هذه العشر فإنه لا يأخذ من شعره ولا أظفاره شيئاً، لا شعر رأسك ولا من شعرٍ آخر في الجسد، لا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً، يجرم ويستثنى من ذلك مَنْ كان سوف يُحجُّ متمتعاً أو قارناً وسوف ينحر هدياً في مكة، فإن الهدي يقوم مقام الأضحية، فإذا كنت سوف تحج قارناً أو متمتعاً وسوف تذبح هدياً في مكة فليس عليك أضحية أصلاً، وبالتالي لا بأس عليك خلال هذه العشر أن تأخذ من شعرك وأظفارك حتى يدخل عليك وقت الحج وتُحرم، عندها قف عن قص شعرك وأظفارك. هذه مسألة.

(١) رواه البخاري (٧٤٩٢) ومسلم (١١٥١).

المسألة الثانية: الذي يجب عليه الإمساك عن شعره وأظفاره هو صاحب الأضحية المسؤول عنها، كالأب، فِيمَسْكُ دون أولاده، ولا يلزمهم أن يمسكوا، إلا إن كان الإنسان يفعل ذلك تبرعا عن مُتَوَقِّفٍ، فإنه يمسك؛ لأنه هو الذي تتعلق به أحكام الأضحية.

وتكفي الأضحية لمن يسكنون في بيت واحد، والأضحية سنة وليست واجبة، وكذلك لو أن إنساناً سافر إلى أهله في عيد الأضحى، هل تسن له الأضحية أم يدخل في أضحية أبيه، الجواب أنها سنة في حقه، لأنه مستقل طوال السنة، ومكوته أيام الذبح مع أبيه لا يسقطها.

والنبي ﷺ بين أن أفضل ما يتقرب به العبد لله تعالى يوم العيد إراقة الدم، وهي تأتي يوم القيامة بقرونها وأظفارها وشعرها فتوزن للعبد، وفي حديث حسَّنه بعض أهل العلم أن للمضحى بكل شعرة حسنة، فطيبوا بها نفسا كما قال عليه الصلاة والسلام.

أيها الأحبة الكرام: تقرّبوا في هذه الأيام إلى ربكم بالصالحات من أعمالكم، وأكثروا من ذكر الله في بيوتكم وطرقاتكم، وذكروا أولادكم وأهليكم، وأمروهم بالصلاة واصطبروا عليها، يبارك لكم ربكم فيما رزقكم، ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، بادروا إلى طاعة ربكم، واستغلال أعماركم، سارعوا، وسابقوا، وتنافسوا، ﴿ ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

أسأل الله جل وعلا أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستثمرون الأيام والساعات الفاضلات، وأن يجعلنا الله تعالى من المقبولين.



خطبة عيد الأضحى (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبِعَفْوِهِ تُغْفَرُ الذُّنُوبُ
والسيئات، وبِكَرَمِهِ تُقْبَلُ العَطَايَا والقُرْبَات، وبِلُطْفِهِ تُسْتَرُ العُيُوبُ والزَّلَّات، الحمد لله الذي
أَمَاتَ وأَحْيَا، وَمَنَعَ وَأَعْطَى، وَأَرْشَدَ وَهَدَى، وَأَضْحَكَ وَأَبْكَى؛ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُخْذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

الله أكبر، الله أكبر ما لبس الحجاج ملابس الإحرام، الله أكبر ما رأوا الكعبة فبدؤوها
بالتحية والسلام، الله أكبر ما استلموا الحجر، وطافوا بالبيت، وصلوا عند المقام، الله أكبر ما
اهتدوا بنور القرآن، وفرحوا بهدي الإسلام، الله أكبر ما وقف الحجاج في صعيد عرفات، الله
أكبر ما تضرعوا في الصفا والمروة بخالص الدعوات، الله أكبر ما غفر لهم ربهم، وتحمل عنهم
التبعات، الله أكبر ما رموا وحلقوا وتحللوا ونحروا، فتمت بذلك حجة الإسلام، الله أكبر
كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً.

الحمد لله الذي جعل الأعياد في الإسلام مصدرًا للهناء والسُرور، الحمد لله الذي تفضل
في هذه الأيام العشر على كلِّ عبدٍ شكور، سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.
الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً.

ربنا لك الحمد سرًّا وجهراً، ولك الحمد دومًا وكرًّا، ولك الحمد شعرًا ونثرًا.
لك الحمد يوم أن كفر كثيرٌ من الناس وأرشدتنا للإسلام، لك الحمد يوم أن ضلَّ كثيرٌ
من الناس وهديتنا للإيمان، لك الحمد يوم أن جاع كثيرٌ من الناس، وأطعمتنا من رزقك.



لك الحمدُ يومَ أن غفل كثيرٌ من الناس، ووفقتنا لطاعتك.

وَاللهَ لَوْلَا اللّهُمَّ اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فلك الحمدُ ربنا عددَ الحجَر، لك الحمدُ عددَ الشجر، لك الحمدُ عددَ البشر.

أيها المسلمون، عبادَ الله: الأعياد في الإسلام تبدأ بالتكبير، وتُعلن للفرحة النفير؛ ليعيشها

الرجل والمرأة، ويحيهاها الكبير والصغير، أعيادنا تهليلٌ وتكبيرٌ.

إذا أذنا كَبَّرنا الله، وإذا أقمنا كَبَّرنا الله، وإذا دَخَلنا في الصلاة كَبَّرنا الله، وإذا ذَبَحنا كَبَّرنا

الله، وإذا وُلِد المولود كَبَّرنا الله، وإذا خُضنا المعارك كَبَّرنا الله، وإذا جاء العيدُ بالتكبير

استقبلناه، وقلنا: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة: ١٨٥].

كان لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَبَّة في منى، فإذا جاء العيد كَبَّر عمر فكَبَّرت منى، فكَبَّرت

الأرض، وكأنَّك أَمَام أُمَّة تُعلن أن الخنوع والخضوع لا يكون إلا لله، وأنَّ الذلَّة والانكسار لا

يكونان إلا لذات الله، وأنَّ الاستِمْدَاد والاستِلهَام لا يكونان إلا من الله، وأنَّ الاعتماد

والتوكُّل لا يكونان إلا على الله، وأنَّ الحفظ والاستِعاية لا يكونان إلا بالله سبحانه وتعالى.

العيد: هو كلُّ يومٍ فيه جمعٌ، وأصل الكلمة من عاد يَعُود؛ قال ابن الأعرابي: (سُمِّيَ العيد

عيداً؛ لأنَّه يَعُود كلُّ سنة بفرحٍ مُجدِّد) [لسان العرب]، العيد في الإسلام كلمةٌ رقيقةٌ عذبةٌ تملأ

النفس أنساً وبهجةً، وتملأ القلب صفاءً ونشوةً، وتملأ الوجه نضارةً وفرحةً، كلمةٌ تُذكِّر

الوحيدَ بأسرته، والمرِيضَ بصحَّته، والفقيرَ بحاجته، والضعيفَ بقوَّته، والبعيدَ ببلده

وعشيرته، والجارَ بجاره، والصديقَ بصديقه، وذو الرحمَ برحمه، وتُذكِّر كلَّ هؤلاء بالله

سبحانه وتعالى وأفضاله وإنعامه.

أيها الناس: الأعياد في الإسلام ليست انطلاقاً وراء الشَّهوات، وليست سباقاً إلى

النِّزوات، وليست انتهاكاً للمُحرَّمات، أو سَطُوعاً على الحدود أو الحرَمات.

عيد الفطر ارتبط بشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفيه الصوم الذي يذكر بهدي القرآن، موسم يُحْتَم بالشكر والتكبير؛ ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وعيد الأضحى ارتبط بفريضة الحج، موسم يُحْتَم بالذكر والتكبير؛ ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، عيد الفطر بعد اجتهاد في العشر الأواخر من رمضان، أفضل ليالي العام، وعيد الأضحى بعد العشر الأوائل من ذي الحجة، أفضل أيام السنة.

إنها ذكريات تتجدد عبر الزمان والمكان، وتحيها الأجيال جيلاً بعد جيل، فتتعمق إيماناً، وتتألق يقيناً، وترداد صفاءً ولمعاناً، عشرة أيام، كل يوم بليلته يهبُّ على قلبك المكدود يضحُّ فيه الدماء، ويُنبت فيه الحياء، ويُجدد فيه الرُّوح، ويزيد فيه الإيمان، كل يوم يُناديك: يا باغي الشر أقصر، يا باغي الخير أقبل، يا نفوس الصالحين افرحي، ويا قلوب المتقين اطمئني، يا عشاق الجنة تأهبوا، ويا عباد الرحمن ارغبوا، ارغبوا في طاعة الله، وفي حب الله، وفي جنة الله. فطوبى للذين صاموا وقاموا، طوبى للذين ضحوا وأعطوا، طوبى للذين كانوا مُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، مُنْفِقِينَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، مُسْتَغْلِينَ لِلْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ.

ما أعظم هذا الدين! يدعو الله عَزَّوَجَلَّ عباده لزيارة بيته الحرام، الذي جعله مثابة للناس وأمتاً؛ ليجتمعوا أمرهم، وليوحِّدوا صفهم، ويشحذوا همهم، وليقضوا تفثهم، وليوفوا ندورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق، نفحات الله، ورحمات الله، كانت بالأمس القريب في أفضل يوم، عرفات الله، يوم المناجاة، يوم المباهاة، يوم الذكر والدعاء، يوم الشكر والثناء، يوم النقاء والصفاء، يوم إذلال الشيطان المرید واندحاره، يوم وحدة المسلمين العُظمى، يوم مؤتمر المؤمنين الأكبر، يجتمع فيه المسلمون من أجناس الأرض على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، على اختلاف لغاتهم وأوطانهم، اجتمعوا في هذا المكان لهدفٍ واحدٍ ولربِّ واحدٍ، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، إنهم يصنعون وحدة الهدف، ويبنون وحدة العمل، إنهم جميعاً مسلمون، لربِّ واحدٍ يعبدون، ولرسولٍ واحدٍ يتبعون، ولقبلةٍ واحدةٍ يتجهون، ولكتابٍ واحدٍ يقرؤون، ولأعمالٍ واحدةٍ يُؤدُّون، هل هناك وحدة أعظم من هذه الوحدة؟! ليكن ذلك

سبيلاً إلى سلامة العبادة وصحة العقيدة؛ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ليكن ذلك طريقاً لبلوغ التقوى وزيادة الإيمان؛ ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، الإسلام يوحد الأمة، فلماذا تتشتت؟! الإسلام يعز الأمة، فلماذا تذلل؟! الإسلام يُغني الأمة، فلماذا تفتقر؟! الإسلام يهدي الأمة، فلماذا تضل؟! ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

نعم، إنه يوم عرفة؛ ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

إنها مشاعر لا توصف، وأحاسيس لا تكتب، إنما يتذوقها الذي يؤدبها، ويستشعرها الذي يحضرها، ومحسها الذي يلبي نداءها، فينظر الكعبة، ويعانق الحجر، ويصلي عند المقام، يسعى كما سعت هاجر عليها السلام ويضحى كما ضحى إبراهيم عليه السلام ويطيع كما أطاع إسماعيل عليه السلام، ويطوف كما طاف محمد عليه الصلاة والسلام عن حب ورغبة وخضوع وإخلاص، لعلّ قدماً تأتي مكان قدم، وطوافاً يأتي مكان طواف، وسعيّاً يأتي مكان سعي، فيزداد الإيمان، ويكون الغفران، ويتنشر الأمان، ويحيى الجنان.

أيها المؤمنون: إن عيد الأضحى هو يوم التضحية والفداء، يوم الفرح والصفاء، يوم المكافأة من ربّ السماء للنبیین الكريمین إبراهيم وإسماعيل صاحبي الفضل والعطاء، أراد الأعداء بإبراهيم سوءاً، لكن الله خذهم وأبعدهم، وجعلهم من الأسفلين، كما يجعل كل أعداء الدين إلى يوم الدين؛ ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨].

إبراهيم عليه السلام يُمتحن؛ ليُمنح، ويُختبر؛ ليعلو، ويبتلى؛ ليسمو؛ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] بدأ يمشي، وهنا أعظم مرحلة الحب من الوالد لولده، لكن الله أراد إخلاص قلبه، وتمحيص فؤاده، واصطفاء نفسه، واجتباء وجهته؛ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا بَيْنِي وَإِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِرِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَنْتَابِتِ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].



رؤيًا فيها ذبح الابن؛ طاعةً لله، ويُبلغ الابنُ من الوالد ذاته: ﴿يَبْتِئِي إِتَى أَرَى فِي الْمَنَامِ آتَى
 أَذْبَحَكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفات: ١٠٢]؛ ليعي دُعاة اليوم وعلما التربية هذا الأسلوب
 الرائع، من الحب المتبادل، والأدب المتبادل، في أحلك الظروف، وأشد المحن، وأصعب
 المواقف، فيردُّ الغلام بالمستوى نفسه من الشجاعة والإخلاص، من التضحية والفداء، من
 الأدب الرفيع، والذوق العالي، وتقديم المشيئة؛ لأنَّ الموقف موقف فتنة واختبار، ولا يتصر
 عليها المرء، ولا يخرج منها المبتل إلا بإذن الله، وعون الله، وفضل الله؛ ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا
 تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

وجاءت لحظة الحسم؛ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣]، فكان الاستسلام من
 النبيين لأمر الله، وكان الحب من الكريمين لطاعة الله بالمستوى نفسه، والأداء ذاته؛ ﴿أَسْلَمَا﴾
 وهنا تكون المفاجأة، الله يشهد الموقف، ويصدق عليه، فنادى وجازى؛ ﴿وَوَدَّيْنَهُ أَنْ
 يَأْتِيَاهُمُ ۗ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصفات: ١٠٤-١٠٥].

امتحان ما أشده! اختبار ما أصعبه! ابتلاء ما أعظمه! أن يضع فلذة كبده ليذبحه بيده،
 فينجح في أعظم امتحان لإيثار ما يجب الله على ما تحبه النفس، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾
 [الصفات: ١٠٦]، اجتاز إبراهيم عليه السلام الامتحان بامتياز مع مراتب الشرف إن صح التعبير،
 بتوفيق الله له مع منازل الإخلاص، وبعون الله له مع مقامات اليقين، فكان الفداء من السماء
 في يوم الفداء، ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصفات: ١٠٧]؛ ليعلو ذكر آل إبراهيم في العالمين؛
 ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۗ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ٧٨-٧٩].

أسرة ثابتة قدمت للإسلام، وعاشت الإيمان واليقين، إلا من هاجر جديدة تفدي
 الإسلام، وتعلم المسلمين حقيقة التوكل، وروعة اليقين في الله رب العالمين، إذا لن يضيعنا،
 وكذلك جمال السعي إلى يوم الدين، إلا من إسماعيل جديد يقدم روحه ونفسه وحياته طاعة
 لربه، وتنفيذاً لأمره، وطلباً لرضاه؛ ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

فجاء التقدير والاصطفاء لإبراهيم في الدنيا والآخرة، ولئن لا يسفه نفسه بالرغبة في طريق آخر؛ ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ليت الأمة تتعلم الفداء، والترفع عن الشهوات والأهواء، مرضاة لرب الأرض والسماء، ليس في ذلك عبرة وعظة لكل مؤمن؟ إنه ليس أحد يسرع في مرضاة الله بترك ما يهوى، إلا أسرع إليه فضل الله!

إن الإسلام أحوج ما يكون الآن إلى مُضحّين وفادين، من أوقاتهم ومن أموالهم ومن أبنائهم، ومن كل ما أعطاه الله لهم، حتى يسمو الفرد وتعلو الأمة، حتى ينتصر الدين، وتعلو راية الحق المبين، ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

إن العاملين للدين يربحون مع الله ولا يخسرون، فيضاعف أجرهم، ويسهل الله طريقهم، ويرفع شأنهم، ويعلي الله ذكرهم؛ ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، فتذكرهم الأجيال جيلاً بعد جيلٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أقول قولي هذا.. وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئة فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر! أوجد الكائنات بقدرته، فأتقن ما صنع. الله أكبر! شرع الشرائع فأحكم ما شرع.

الله أكبر! لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله الأصفياء، وأصحابه النجباء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.
الله أكبر.. لا إله إلا الله.. والله أكبر.. الله أكبر.. والله الحمد.

أما بعد:

أيها الناس: العيد في الإسلام فرحُ الأفراس، لكن لمن هذه الأفراس؟!

فرحة العيد لمن؟! إنها للذي جعل يديه مكرماً لعطاء الله، راح يُنفق بالليل والنهار سراً وعلانية، بكرة وعشيّاً، للذي يهتم بأمر المسلمين، فيُصلح بين المتخاصمين، ويضع عن كاهل المُستضعفين، ويدعو للمُحاصرين، للذي كان وقفاً عند حدود الله لا يتعدّها، ولا ينساها، إنها يحفظها ويرعاها.

للذي هو لِيِّنٌ في طاعة الله، مطواعاً لأمر الله، مُجَبِّاً لرسول الله ﷺ عاملاً بمنهج الله، إذا قرئ عليه القرآن سمع وأنصت، وإذا نُودي بالإيمان آمن ولبى؛ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

للذي أحسن إلى والديه طائعاً لهما في غير معصية، باراً ورحيماً بهما، للذي يصل رحمه، ويحسن إلى جاره، للذي يقرأ القرآن بتدبر وتفكير، ويصلي بخشوع وخضوع، ويعمل لدينه بفهم صحيح.

للذي يُحافظ على صلاة الجماعة، وخاصة صلاة الفجر التي تشهدا الملائكة، وتصغرُها الدنيا وما فيها، «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها»^(١)، وإنه ليفرح الربُّ تعالى بمشي عبده

(١) رواه مسلم (٧٢٥).



إلى المسجد مُتَوَضِّئًا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَتَوَضَّأُ أَحَدٌ فَيَحْسَنُ وَضُوءَهُ وَيَسْبِغُهُ ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ، إِلَّا تَشَبَّشَ اللَّهُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَشَبَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِطَلْعَتِهِ»^(١)، وَبُوبَ لَهُ ابْنُ خَزِيمَةَ فِي صَحِيحِهِ: بَابُ ذِكْرِ فَرَحِ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَشْيِ عَبْدِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ مُتَوَضِّئًا.

هُؤَلَاءَ فَرِحُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ، يُؤَدُّونَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ لَا يَمْلُؤُونَ وَلَا يَكْلُونُ، وَهُمْ عَلَى عَهْدِهِمْ وَوَعْدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لَا يَنْقَطِعُونَ وَلَا يُفَرِّطُونَ، وَإِنَّمَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ يَسْتَقِيمُونَ، لِذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْفَرَحِ وَمَلُوكُهُ، يَفْرَحُونَ فَرَحًا مَحْمُودًا، يَفْرَحُونَ فَرَحًا مَشْرُوعًا، يَفْرَحُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، يَفْرَحُونَ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَيَفْرَحُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فَطُوبَى لِشَابِّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَطُوبَى لِرَجُلٍ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَطُوبَى لِفَتَاةٍ أَمَرَتْ بِالْحِجَابِ، فَقَالَتْ: لَبَّيْكَ يَا اللَّهُ، وَطُوبَى لَامْرَأَةٍ أَطَاعَتْ زَوْجَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَصَلَّتْ خَمْسَهَا حَبًّا فِي اللَّهِ، وَطُوبَى لِمَنْ أَطْعَمَ أَفْوَاهًا، وَكَسَا أَجْسَادًا، وَرَحِمَ أَيْتَامًا، وَوَصَلَ أَرْحَامًا، طُوبَى لِمَنْ عَفَا عَمَّنْ هَفَا، وَتَجَاوَزَ عَمَّنْ فِي حَقِّهِ تَجَاوَزَ، طُوبَى لِمَنْ وَصَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَلَ، وَاحْتَمَلَ لِأَجْلِ اللَّهِ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْتَمَلَ، فَعَفَا وَصَفَحَ، وَتَغَاضَى لِأَجْلِ اللَّهِ وَسَمَحَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَعْيَادُنَا يَوْمٌ أَنْ تَتَحَرَّرَ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلذَّاتِ، وَيَوْمٌ أَنْ تَتَحَرَّرَ الْقُلُوبُ مِنَ الْكُذْبِ وَالنَّفَاقِ، وَيَوْمٌ أَنْ تَتَحَرَّرَ الصُّدُورُ مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالْبَغْضَاءِ، وَيَوْمٌ أَنْ تَتَحَرَّرَ الْحَقُوقُ بِالْعَدْلِ مِنَ الْفَسَادِ وَالِاسْتِبْدَادِ، فَيَبْذُلُ كُلُّ ذِي وَاجِبٍ وَاجِبَهُ غَيْرَ مُقَصِّرٍ، وَيَأْخُذُ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ لَا يَزِيدُ.

أَعْيَادُنَا يَوْمٌ أَنْ يَتَّحِدَ الْمُسْلِمُونَ، وَيَتَحَرَّرَ الْأَفْصَى الْمُبَارَكُ مِنَ بَطْشِ الْيَهُودِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَنْتُمْ مَأْمُورُونَ بِالْفَرَحَةِ، فِي هَذَا الْيَوْمِ كُنْتُمْ فِي طَاعَةِ وَتَتَقَلَّبُونَ إِلَى أُخْرَى، افْرَحُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ فَرَحًا يَجِبُهُ اللَّهُ، تَوَجَّرُوا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(١) صحيح ابن خزيمة (١٤٩١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣).



فاجعلوا هذه الأيام أيام العيد فرحاً لا ترحاً، أيام اتفاق لا اختلاف، أيام سعادة لا شقاء، أيام حب وصفاء، لا بغضاء ولا شحناء، تسامحوا وتصافحوا، توادوا وتحابوا، تعاونا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، أفسوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، وارحموا الأيتام، وتحلقوا بأخلاق الإسلام.. عسى أن تدخلوا الجنة بسلام، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

اللهم تقبل منا واصلنا، واجعلنا من المقبولين، اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل..



أيام التشريق: فضائل وأحكام^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، أحمده سبحانه وأشكره، ففتح أبوابه للتائبين، ورحمته قريبٌ من المحسنين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، بعثه رحمةً للعالمين، أدّى الرسالة، ونصح الأمة، وبلغ البلاغ المبين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته أجمعين، ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المسلمون: إن هذه الأيام هي أيام عظيمة عند الله جل وعلا، أعلى مكانتها، ورفع قدرها، وبيّن فضلها ومكانتها في الدين، وإن من أعظمها يوم عيد الأضحى الذي سمّاه: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر»^(٢).

وهو من الأيام المعلومات الفاضلة التي قال ربنا جل وعلا فيها: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

(١) حسين بن عبدالعزيز آل الشيخ.

(٢) صحيح الجامع (١٠٦٤).

وفي المسند أن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام - يعني: أيام العشر-، فأكثرُوا فيهن من التهليل والتحميد والتكبير»^(١).

ألا فلتتخذ من هذا اليوم موسماً للتقرب بالطاعات، والعمل بالصالحات إلى الممات، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

إخوة الإسلام: في هذا اليوم العظيم يتقرب المسلمون إلى مولا هم بإراقة الدماء؛ استجابة لقول المولى جل وعلا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

ألا إن أهم ما ينبغي أن يعلمه المرء أن أبرز المقاصد العظمى لشعائر الإسلام كلها: إسلام الوجه لله جل وعلا، وتحقيق توحيده، والوصول إلى كمال محبته وغاية التذلل لله - عز شأنه-، ولهذا يقول ربنا جل وعلا لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وفي ثنايا بيان أحكام الحجِّ وأحكام الهدايا يقول الله جل وعلا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالضَّالِّينَ عَلَىٰ مَا آصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، وبذلك يصل المرء إلى العبادة الحقيقية التي أمر الله جل وعلا عباده بها، وخلقهم من أجلها.

يقول ابن القيم رحمه الله:

مع ذل عابده هما قطبان	وعبادة الرحمن غاية جبه
ما دار حتى قامت القطبان	وعليهما فلك العبادة دائر
لا بالهوى والنفس والشيطان	ومداؤه بالأمر أمر رسوله

(١) مسند أحمد وصححه أحمد شاكر (٧/٢٢٤).

ولهذا، فيا عباد الله: أعظمُ حِكْمَ مشروعية الأضاحي: تحقيقُ توحيد الله جل وعلا، وتعظيمه وإجلاله والمهابة منه، ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

إخوة الإسلام: في هذه الأيام العظيمة التي يتقربُ الحجاجُ إلى ربهم في مناسك الحج المتعددة، وفي هذه الأيام التي يعيش أهل الإسلام في سائر البلدان بالتقرب إلى الله جل وعلا بإراقة الدماء، تقرباً إلى المولى عزَّوجلَّ، فرحين مُستبشرين. فإنه ينبغي أن يعلم كلُّ مسلم أن من الفرض اللازم على كل أحد بحسب طاقته، أن يعلم أن مسؤوليته عظيمة عند الله جل وعلا في الوقوف مع إخوان له في الإسلام في بلدان أصاب المسلمين فيها من اللأواء والضراء والبلاء ما لا نشكوه إلا إلى الله جل وعلا.

ولا يبخلن كل امرئ بما يقدر عليه، ولو بالدعاء، فإنه يدفع معظم البلاء، ونبينا ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

ويقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»^(٢).

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

أيها المسلمون: في مثل هذا اليوم العظيم يتذكَّر المسلمون تلك الحجَّة العظيمة حجَّة النبي ﷺ المسماة بـ(حجَّة الوداع)، والتي قرَّر فيها النبي ﷺ أصول الإسلام العظمى، وقواعد الدين الكبرى، وعلم مناسك الحج للناس.

ألا وإن مما عهد به هذه الأمة إلى يوم الدين: وصية عظيمة تكفل السعادة والحياة الطيبة، والعيشة الرضية في الدنيا وفي الآخرة، تكفل لهذه الأمة العزة والكرامة والرِّفعة والسُّودد.

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

ألا وهي وصية النبي ﷺ في خطبة الوداع بقوله: «تركتُ فيكم أمرين؛ لن تضلُّوا ما إن تمسَّكتمُ بهما: كتابَ الله وسُنَّتِي، ولن يتفرَّقا حتَّى يرِدَا عليَّ الحوضَ»^(١)، وبدون ذلك فستعيشُ الأمةُ في حياة الذلِّ والهوان، وسيخطِّفُها الأعداءُ من كلِّ جانبٍ، ولن تصلَّ إلى سعادةٍ، ولا إلى رخاءٍ، ولا إلى رغدٍ عيشٍ؛ إلا بعودتها إلى كتاب ربها وسنة نبيها.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «تكفَّلَ اللهُ لمن قرأ هذا القرآنَ وعَمِلَ به أن لا يضلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ قول الله جل وعلا: ﴿أَهَيْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا نِينَكَم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» [طه: ١٢٣-١٢٤].

بارك الله لنا في القرآن، ونفعنا بما فيه من الهدى والبيان، أقولُ هذا القولَ، وأستغفرُ الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنبٍ، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) حسَّنه الألباني في منزلة السنة (١٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله.. الحمد لله الصادق في قيله الهادي إلى سبيله، أحمده سبحانه وأشكره على وافر إنعامه وجزيله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف الحق بدليله، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله.. خيارًا من خيار.. أكرم بشفيعنا وإمامنا حبيب الرحمن وخليله.. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.. صحبوا المصطفى في وحيه وتنزيله، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليماً كثيراً..

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: ما هي أيام التشريق؟ هي الثلاثة الأيام بعد يوم عيد الأضحى المبارك، وهي المرادة بقول الله جل وعلا: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وهي التي أمر النبي ﷺ أن تظهر فيها شعائر الله من الذكر والشكر لله جل وعلا؛ يقول ﷺ فيما رواه مسلم: «أيام التشريق أيام أكلٍ وشربٍ وذكُرٍ لله جل وعلا»^(١).

وفي المسند: «لا تصوموا هذه الأيام؛ فإنها أيام أكلٍ وشربٍ وذكُرٍ لله جل وعلا»^(٢). وإن مما يُشرع فيها: الذكُر المطلق في سائر الأوقات، وكما يُشرع فيها أيضًا: الذكُر المقيّد، التكبير المقيّد بأدبار الصلوات المفروضات، وتستمر هذه الشعيرة إلى صلاة العصر من آخر يومٍ من أيام التشريق.

فلهجوا بذكر الله والحمد له والتعظيم له - عزّ شأنه -.

وإن من أعظم ما يتقرب به من الله عزّ وجلّ في هذه الأيام الأضاحي، فهي سنة الخليلين إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وما عمل ابن آدم يوم النحر من عملٍ أحب إلى الله من إراقة دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا.

(١) صحيح الجامع (٢٦٨٩).

(٢) صحيح الجامع (٧٣٥٥).

ولتعلموا - وفقني الله وإياكم لصالح العمل - أن وقت الذبح يبدأ من بعد صلاة العيد إلى غروب الشمس في آخر أيام التشريق، ولا يجزئ في الأضاحي المريضة البين مرضها، ولا العوراء البين عورها، ولا العرجاء التي لا تطيق المشي مع الصحيحة، ولا الهزيلة التي لا مخ فيها، ولا الهماء التي ذهبت ثناياها من أصلها، ولا العضباء التي ذهب قرنها أو قطعت أذنها، ولا الجدباء التي نشف ضرعها ويبس من الكبر.

ولا يجزئ من الإبل إلا ما تم له خمس سنين، ومن البقر ما تم له سنتان، ومن المعز ما تم له سنة، ومن الضأن ما تم له ستة أشهر، وتجزئ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، والشاة تجزئ عن الرجل وأهل بيته، ولا يبيع منها شيئاً، ولا يعطي الجزار أجرته منها.

فاتقوا الله عباد الله! وأنفقوا من مال الله الذي آتاكم، وأكثروا من ذكر الله، وصلوا الأرحام، وبروا بالديكم، وأكرموا اليتامى والمساكين، وتصافحوا وتناصحوا وتسامحوا، وأزيلوا الغل والشحناء من قلوبكم، وتزاوروا وتهادوا، واحذروا الكبر والغيبة والنميمة، وكونوا عباد الله إخواناً.

ثم صلوا وسلموا على المبعوث رحمةً للعالمين؛ فقد أمركم بذلك ربكم، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



نهاية العام (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد القهار، جعل في تعاقب الليل والنهار عبرةً لأولي الأبصار، وأشهد أن لا إله إلا الله العزيز الغفار، حكم بفناء هذه الدار، وأمر بالتزود لدار القرار، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار، وصحبة الأبرار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أَمَّا بَعْدُ:

فيا أيها المسلمون: اتَّقُوا اللَّهَ واشكروه على ما أولاكم من الإنعام وطوّل، وقصّروا الأمل، واستعدّوا لبغية الأجل، فما أطال عبدُ الأمل إلا أساء العمل، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أيها الأحبة: بوابةٌ عجبًا لها ما أعظمها! ما أوسعها! ما أكبرها! اتسعت لملايين البشر على مر التاريخ، كلٌّ يدخل منها ويمضي، دخل منها آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء كلهم -عليهم الصلاة والسلام-، دخل منها الأغنياء والفقراء، والكبراء والحقراء، والرجال والنساء، اتسعت لملايين الأحداث، أممٌ تُباد ودولٌ تُشاد، حروبٌ طاحنة ونوازل ساخنة، عجبًا لها من بوابة، لم تضبّق يومًا بالموتى ولا بالمواليد، ولا بالأفراح ولا بالأتراح، عجبًا لها من بوابة قد أشرعت أبوابها يوم أن حطَّ آدم قدمه على الأرض، وستغلق -بإذن ربها- يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويأذن الله بخراب الدنيا وزوال العالم.

نعم -يا رعاكم الله-، إنها بوابة الحياة الدنيا الفانية تلج من بوابتها السنون تلو السنين، وها هو العام الثلاثون بعد الأربعمئة والألف للهجرة قد أزف رحيله، وقرب تحويله، ها هو



يطوي بساطه، ويقوِّض خيامه، ويشدُّ رحاله، يا لله! العام الثلاثون قطعناه من أعمارنا، أين ليله؟! أين نهاره؟! أين يومه؟! أين شهره؟! أين صيفه؟! أين شتاؤه؟! أين أفراحه؟! أين أحزانه؟! أين أنفاسه؟! أين لحظاته؟! إي وربي، إنها دوامة الحياة الدنيا لا تقف لأحد، لا تنتظر أحدًا، لا تحابي أحدًا.

الإسان منذ أن نزل من بطن أمه وهو يغذ السير في طريقه المقدر، ومرور الأيام والأعوام يدينه شيئًا فشيئًا من نهاية الطريق، فهو اليوم أقرب منه أمس، وهو غدًا أقرب منه اليوم، وكما أن لعامنا هذا يومًا أخيرًا، فلكل حيٍّ من المخلوقين يوم أخير، فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله!! وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يدركه!! والموفق السعيد لا يركن إلى الخُدَع، ولا يغرتر بالطمع.

عباد الله: إن لكل شيء بداية ونهاية، ونهاية عامنا قد أوشكت على الاقتراب، فقد آذن عامنا بالرحيل وولى الأعقاب، اثنا عشر شهرًا، عام كامل تصرمت أيامه وتفرقت أوصاله، وها هو يلفظ أنفاسه الأخيرة، يودعنا إلى الآخرة، وقد حوى بين جنبيه وفي خزائنه ما حوى، من الحكيم والعبر، والأحداث والغير، وأعمال الخير والشر، فلا إله إلا الله، كم شقي فيه من أناس، وكم سعد فيه من آخرين!! كم من طفل قد تيتم، وكم من امرأة قد ترملت، وكم من متأهل قد تأيم!! كم من مريض قوم قد تعافى، وسليم قوم في التراب توارى!! كم من أهل بيت يشيعون ميتهم، وآخرون يزفون عروسهم!! دار تفرح بمولود، وأخرى تعزى بمفقود!! كم من دموع فرح في العيون ترقرت، وعبرات حزن على الخدود تحدرت، آلام تنقلب أفراحًا، وأفراح تنقلب أتراحًا، أيام تمر على أصحابها كالأعوام، وأعوام تمر على أصحابها كالأيام.

إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدني من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا فإنما الربح والخسران في العمل



فالعاقل من اتعظ بأمره، واجتهد لمرسه، والليالي والأيام خزائن الأعمال ومراحل الآجال، تبلي الجديد وتقرّب البعيد، أيام تمر فإذا هي أعوام، وأقوام تمضي في إثر أقوام، هذا مقبل وهذا مدبر، وهذا محسن، وهذا مسيء، والكل إلى الله يسير، فإليه المنتهى والمصير.

عباد الله: هذا العام من أعماركم قد تصرّمت أيامه، وقوّضت خيامه، وغابت شمسُه، واضمحَلَّ هلاله، إيداناً بأن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وأن ما بعدها دارٌ إلى الجنة أو النار، فاحذروا الدنيا ومكائدها، فكم غرّت من راكن إليها، وصرعت من مُكبِّ عليها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله بمنكبي فقال: «كُن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(١).

ذهب عامكم شاهداً لكم أو عليكم، فاحملوا زاداً كافياً، وأعدّوا جواباً شافياً، واستكثروا في أعماركم من الحسنات، وتداركوا ما مضى من الهفوات، وبادروا فرصة الأوقات، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي وهو يعظ رجلاً ويقول له: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(٢).

فيا من قد بقي من عمره القليل، ولا يدري متى يقع الرحيل، يا من تعدّ عليه أنفاسه: استدرِكها، ويا من ستفوت أيامه: أدركها، نفسك أعزُّ ما عليك فلا تهلكها، فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبائعُ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا»^(٣).

ويا من أقعدته الحرمان، وأركسه العصيان: كم ضيّعت من أعوام، وقضيتها في اللهو والمنام، كم أغلقت باباً على قبيح!! كم صلاة تركتها، ونظرة أصبتها، وحقوق أضعتها، ومناهي أيتها، وشرور نشرتها!! راجع نفسك فلعله لم يبق من عمرك إلا ساعات أو أيام، فاستدرك

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) صحيح الترغيب (٣٣٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٢٣).

عمرًا قد أضعت أوله، ألا تنظر فقد وهن العظم وبيض الشعر ورحل الأقران ولم يبق إلا الرحيل؟! عجيب حال هذا الغافل: يوقن بالموت ثم ينساه! ويتحقق من الضرر ثم يغشاه! يخشى الناس والله أحق أن يخشاه! يغتر بالصحة وينسى السقم! ويفرح بالعافية ولا يتذكر الألم! يزهو بالشباب ويغفل عن الهرم! يحرص على العاجل ولا يفكر في خسران الآجل! يطول عمره ويزداد ذنبه! يبيض شعره ويسود قلبه! قلوب مريضة عز شفاؤها، وعيون تكحلت بالحرام فقل بكاءؤها، وجوارح غرقت في الشهوات فحقت عزاءؤها.

سبحان الله! ألم يأن لأهل الغفلة أن يدركوا حقيقة هذه الدار؟! فهل رجم الموت منّا مريضًا لضعف حاله وأوصاله؟! هل ترك كاسبًا لأجل أطفاله؟! هل أمهل ذا عيال من أجل عياله؟! أين من كانوا معًا في الأعوام الماضية؟! أتاهم هادم اللذات وقاطع الشهوات ومفرق الجماعات، فأخلى منهم المجالس والمساجد، تراهم في بطون الألحاد صرعى، لا يجدون لما هم فيه دفعا، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا.

فيا قوم: ﴿يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

فيا من تمر عليه سنة بعد سنة وهو في نوم الغفلة والسنة، قل لي بربك: لأي يوم أخرت توبتك؟! ولأيّ عام أخرت أوبتك؟! إلى عام قابل وحول حائل؟! فما إليك مدّة الأعمار ولا معرفة المقدار، فبادر التوبة واحذر التسويف، وأصلح من قلبك ما فسد، وكن من أجلك على رصد، فقد أزف الرحيل، وقرب التحويل، والعمر أمانة، سيسأل عنه المرء يوم القيامة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟! وعن شبابه فيم أبلاه؟! وعن ماله من أين اكتسبه؟! وفيم أنفقه؟! وماذا عمل فيم علم؟!»^(١).

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي».



عباد الله: دعونا نتأمل في عامنا الماضي، دعونا نتساءل: كيف أمضيته؟! وعن وقتنا: كيف قضيته؟! ثم لننظر في كتاب أعمالنا وكيف طويناه، ونتبين ما قدمناه، فإن كان خيرًا حمدنا الله وشكرناه، وإن كان شرًا تبنا إلى الله واستغفرناه، كفى تجرؤًا على حدود الله، كفى اقتراءً لمعاصي الله، كفى قسوة للقلوب وتفريطًا في جنب علام الغيوب، يا تاركًا للصلاة ومتهاونًا بها: كفاك تركًا لما يصلك بالله، أتى عليك المحرم ومن بعده صفر، وشهر إثر شهر، وأنت تنام عن الفجر والعصر، لم تعرف روضة المسجد لك مكأنًا، فأنت دائمًا في صلاتك تقضي، وبسرعة منها تمضي، ما لحالك لا يتغير؟! زدت في دنياك وتقدمت، ونقصت في آخرتك وتأخرت.

يا مطلقًا لسانه بالحرام: إلى متى وأنت تطلق لسانك يفري في أعراض الناس، ينهش لحومهم، غيبة ونميمة كذبًا واقتراءً؟!!

يا رعاة البيوت، يا أمناء البيوت: جلبتم آلات اللهو في بيوتكم، ونشأتم عليها صغاركم ونساءكم، وجعلتم الأطباق الفضائية تاج عز فوق رؤوسكم، وعمن لا يصلي من أبنائكم ويفجر ويعصي غضضتم طرفكم، ألا تتقون مولاكم الذي ولاكم!!

يا من منَّ الله عليكم بالإسلام ومنَّ عليكم بالعلم: مضى عام كامل وأمتكم كثيرٌ من أبنائها يغرق في أحوال الشهوات والشبهات، ماذا قدمتم لدينكم؟! ثلاثائة وستون يومًا كم كلمة فيها ألقيت؟! كم شريطًا وزَّعت؟! وكم كتيبًا نشرت؟! وكم عاصيًا نصحت؟! كم اهتدى على يديك؟! ماذا قدمت لدينك؟! ماذا قدمت لأمتك؟!!

عباد الله: وإنما - ونحن نودع هذا العام - لا ننسى ما يجل بإخواننا المسلمين في أكثر من بلاد، سل نفسك: كم مرة فكَّرت في حال المسلمين فاغتممت ففاضت عيناك؟! وكم مرة احترق قلبك وأنت ترى ما حل بالمسلمين؟! وكم مرة رفعت يديك في ضراعة وخشوع تدعو لإخوانك المساكين المستضعفين؟!!

أخي الحبيب المبارك: كم حصلت من أحداث وكم مرت بنا من عبر فلا من مدكر ولا من معتبر!! فمن أعظم الغفلة أن يعلم الإنسان أنه يسير في هذه الحياة إلى أجله، يتقص عمره، وتدنو نهايته، وهو مع ذلك لاهٍ غافلٍ لا يحسب ليوم الحساب، ولا يتجهز ليوم المعاد، يؤمِّل



الآمال، ويبنى في الخيال، كم رأينا في هذه الحياة من بنى، وسكن غيره، وجمع من أجل وارثه، وتعب واستراح من بعده، فيا عبد الله: استدرِك من العمر ذاهبًا، ودع اللهو جانبًا، وقم في الدُّجى نادبًا، وقف على الباب تائبًا، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١). أَنْ وَاللهُ أَنْ تَرْجِعَ النَّفْسَ وَتَتُوبَ، وَتَتَّجِهَ لِخَالِقِهَا وَتُتُوبَ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعني وإياكم بما فيها من الآيات والحكمة، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا هو تعظيماً لشأنه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]. فحياة الإنسان مراحل، والناس في هذه الدنيا ما بين مستعداً للرحيل وراحل، وكل نفس يديني من الأجل، ودقات قلب المرء تباعد عن الأمل، فالكيس الحازم من حاسب نفسه يوماً بيوم، وساعة بساعة، فما ترون الناس إلا حياً أدركته منيته، فواراه التراب، وصغير بل سنَّ الشباب، وشابَّ امتدَّت به الحياة حتى شاب، ومن وراء الجميع نقاش وحساب، فهنيئاً لمن أحسن واستقام، والويل لمن أساء وارتكب الآثام، ويتوب الله على من تاب، ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

أيها المسلمون: يحسنُ التذكيرُ وتجدرُ المحاسبة حينما تكون المناسبة، وها أنتم في مفتتح عام، وقد ودعتم عاماً قبله، وعامكم المنصرم جرت فيه أحداثٌ وتجلت فيه آيات، ولكن الغفلة والركون إلى الأسباب والتعلق بها تغلظ من قساوة القلوب.

أيها الأحبة.. لينظر كل منا في نفسه، كم بلغ من العمر؟ هل كانت تلك السنون إلا كلمح البصر؟ كأننا لم نعش لحظة منذ ولدتنا أمهاتنا إلى اليوم، وكذلك ستقضي بقية أعمارنا، طالت أم قصرت.

أيها الناس: لتتذكر بانقضاء العام انقضاء العمر، وبسرعة مرور الأيام قرب الموت، وبتغير الأحوال زوال الدنيا وحلول الآخرة، فالأيام تطوى، والأعمار تقنى، والأبدان تبلى، والسعيد من طال عمره وحسن عمله، والشقي من طال عمره وساء عمله كما صح بذلك الخبر، والأعمال بالخواتيم، فمن أصلح فيما بقي غُفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وما بقي، الموتى يتحسرون على فوات الحسنات الباقية، والأحياء يتحسرون على فوات أطعام



الدنيا الفانية، ما مضى من الدنيا وإن طال أوقاته فقد ذهبت لذاته وبقيت تبعاته، وكأن لم يكن إذا جاء الموت وميقاته.

عباد الله: وما يجب التنبيه عليه أنه لا يجوز تخصيص آخر العام بشيء من العبادات، ولم يفعل النبي ﷺ ذلك ولا أحد من أصحابه، فمن جاء بعبادة يخصص لها وقتاً معيناً يحسب أن في ذلك فضيلة فعمله مردود عليه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١).

والمسلم عبدٌ لله في كل وقت وحين، فحياته كلها عبودية لله تعالى، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فاتقوا الله -عباد الله-، وتمسكوا بكتاب ربكم وسنة نبيكم، واعلموا -رحمكم الله- أن من أفضل الطاعات وأشرف القربات كثرة صلواتكم وسلامكم على خير البريات، فقد أمركم بذلك ربكم في آيات بينات، فقال تعالى قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

أولادنا والامتحانات (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، أعطى فأجزل، ومنَّ فأفضل، أحده سبحانه وأشكره، أتم علينا النعمة ورضي لنا الدين وأكمل، وأتوب إليه وأستغفره من التقصير فيما أقول وأعمل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو الظاهر والباطن، والآخر والأول، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، والخلق الأفضل والأكمل، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما ليل أدير وصبح أقبل، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، فبالتقوى كل حبلٍ يقوى.

معاشر المسلمين: في هذه الأيام نعيش حالة اهتمام واستنفار، تصافرت فيها الجهود، واستفرت الطاقات، صُدِّرت التعليمات، وكثرت التوجيهات، وتعددت الإرشادات. قُدِّمت للمُجِدِّين الحوافز والتشجيعات، ولوَّحت للمتهاونين الملامة والتوبيخات. إنها أيام الامتحانات، نعيشها بما فيها من حلوٍ ومرٍّ، وفرحةٍ وحُزنٍ، مشاعرٍ مُختلفةٍ، ومواقفٍ متباينةٍ، وكلُّ يُجني ما زرع، ويحصد ما بذر.

بَقَدْرِ الكَدِّ تُعْطَى ما تُرُومُ وَمَنْ طَلَبَ العُلا لِيلاً يَقومُ

نعم، أيام الامتحانات أيامٌ قلائل، لكنها مع قلتها معبأةٌ بكثيرٍ من التغيرات، من الممكن أن نستثمرها تربوياً في توجيه أبنائنا وشبابنا، وتصحيح مسارهم، وتقويم رؤيتهم، فمن أهم وأنفع التربية: التربية بالحدِّث.

فيا كلِّ والدٍ وأبٍ، يا كلِّ مُرشدٍ ومُربٍّ، أُرِعْ لنا السَّمْعَ، واستجِيع معنا القلبَ إلى حديث الأخطاء - وكلِّنا ذلك الخطَّاء - إلى (لاءات) سبع، نتعرَّفُها وننقِّيها، فمعرفةُ الخطأ سبيلٌ للوصولِ إلى الصواب.

اللاءُ الأوَّلُ: لا للكسلِ: نرى في أيامِ الامتحاناتِ اشتعالَ العزائمِ، وتوقُّدَ الهَمَمِ، يطيرُ النومُ عن الأَجفانِ، ويحُلُّ التحفُّزُ والاهتمامُ، نفوسٌ كبيرةٌ، وهممٌ عاليةٌ، تُشُدُّ الدُّرى المَجيدةَ، والمعاليَ الرَّفيعةَ.

في مثلِ هذهِ الأيامِ يُقتلُ التَّسويفُ بسكينِ الجَدِّ، تُبعدُ المُلْهياتِ، وتُهَجَّرُ الصَّوارفُ والمُشغِلاتِ، حتى لا تكادُ ترى لها ذِكْرًا في قاموسِ الطُّلابِ والطالباتِ.

الامتحاناتُ نَقْلَةٌ نَوْعيَّةٌ في حياةِ النَّاسِ، وبرنامِجهم اليومي، ترى تنظيمَ الوقتِ واستغلاله واقعًا ملموسًا لدى كثيرٍ من الشباب، وقد قيل: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

فحريٌّ بنا أن نربي ونتربى على هذه الجديَّة، وتلك المثابرة، وأن نجعلها جزءًا من شخصيتنا في هذه الحياة، إذ أنَّ عالمَ اليوم، لا مكانَ فيه للكُسالى، وإنَّما هو لأولئك الرِّجال، الذين يسري الجُدُّ في أعماقهم وأرواحهم، من أجلِ تحقيقِ أهدافهم.

وإذا كان الجُدُّ عنوانَ شخصيَّةِ المرءِ، ارتقى صاحبه في سُلَّمِ الرِّيادة، وتبوَّأ موقعه في المجتمع، وسَطَّرَ اسمَه في سجلِّ أبناءِ المستقبل. وكتابُ ربنا يوضِّح لنا الأخذَ بمبدأ الجُدِّ والمثابرةِ أتمَّ الإيضاح، قال تعالى: ﴿يَنبَحِي حُدَّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَيْتَنَّهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ [مريم: ١٢].

اللاءُ الثانيَّة: لا للتفريطِ في جنبِ الله: في مثلِ هذهِ الأيامِ نرى الإقبالَ على الخيرِ، تُعَمَّرُ المساجدُ بالمصلين، وتكثرُ الدعواتُ والابتهالاتُ، مع الإقلاعِ عن المعاصي، وتركِ المنكراتِ، وهذه أمورٌ تُثَلِّجُ الصدورَ، وتدُلُّ على أنَّ في النفوسِ الغافلةِ بقايا من الخيرية.

فما أجملَ أن نجعلَ أيامَ الامتحاناتِ موسمًا للطاعة، والمصافاةِ مع الله عزَّ وجلَّ، وما أجملَ أن تكون النيةُ صادقةً على الاستمرارِ والمداومةِ في طاعةِ الله تعالى، لا كما قال القائل:

صلى وصام لأمرٍ كان يقصدهُ
لما انقضى الأمرُ لا صلى ولا صاماً



ولنذكر أولئك العائدين والمتغيّرين، بأنهم قد أصابوا الطريق، وساروا في المسار الصحيح، ليسمعوا منا عبارات الثناء، وكلمات التشجيع. لنذكرهم بسعة رحمة الله، وتوفيقه لمن طلبه ورجاه، وأن الطاعة سهلة ميسورة، وأن كل خيرٍ وصلاحٍ وتوفيقٍ في هذه الدنيا، مُرْتَبِنٌ بطاعة الله، وأن طاعة الله تعالى فوزٌ للعبد في دنياه قبل آخره ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

اللاء الثالثة: لا تكن الدنيا هي الغاية والمقصد. يا أيها الأب الرحيم الحنون، الذي أجهد نفسه، وأذهب راحته من أجل نجاح ابنه.

أيها الأب المبارك: حسن منك اهتمامك بابنك، وبصيرتك بمستقبله، إذ أن الامتحانات فيها ثمرة العلم، ويقظة الوعي، وخلاصة التجربة... ولكن هل سألت نفسك أيها الأب المبارك، هل عملت مع ولدك لامتحان الآخرة ما تعمله الآن معه في امتحان الدنيا؟

هل بذلت الجهد المتواصل في تعليمه وإفهامه ما يُعينه على اجتياز امتحان الآخرة؟ قف مع نفسك بصراحة وصدق، وكل إنسان خصيم نفسه: هل أيقظت ابنك لصلاة الفجر، بنفس الحرص الذي توظفه لإدراك الامتحان؟ هل تعتنى بتوجيهه وإرشاده إذا أخطأ في أمر شرعي، كما تعتنى بتصحيح أخطائه في مذاكرته؟ هل ترغبه في الأدب الرفيع والخلق الحسن والعمل الصالح، وما يقربه إلى الله، كما ترغبه في أمور دنياه؟

تذكر - يا رعاك الله - أن أعظم مسئولية تحمّلتها، وستبقى تبعاً لها لك، أو عليك: هي ذريتك وفلذات كبدك، ماذا قدمت لهم من النصح والتوجيه، والتربية والتأديب ما يقوم أخلاقهم، ويهدب سلوكهم، ويغرس في قلوبهم شجرة الإيمان، ومحبة الله ورسوله. وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عودّه أبوه وما دان الفتى بحجى ولكن يعوده التدئين أقربوه

اللاء الرابعة: لا تنس امتحان الآخرة: كم نحن بحاجة ونحن نرى رهبة الامتحانات في نفوس الأبناء والشباب، أن نستغل هذه الوقفة التربوية فنربطهم بامتحان عصيب في يوم عظيم، سل نفسك كم من المواقف سمعها منك ابنك عن امتحان الآخرة؟ ذلك الامتحان

الذي تجتو من هوله الركب، وتشيب له مفارق الصبيان، امتحان فضل، وما هو بالهزل، لا يستوي فيه من آمن وعمل صالحًا، ثم اهتدى، ممن أغفل قلبه عن ذكر ربه وأتبع هواه وكان أمره فرطًا.

امتحان سيقف فيه جميع المخلوقين، صالحهم وطالحهم، إنسهم وجنهم، بل وحتى صفوتهم من الأنبياء والمرسلين ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦]، امتحان.. ليس في فصل دراسي أو منهج محدد، بل لجميع سنوات العمر، وأيام الحياة ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٩٢].

سؤال عن كل كبير وصغير، وعظيم وحقير، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴾ [القمر: ٥٣].
امتحان للجوارح والضمائر ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ ١٩ ﴿ فَآلَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٩-١٠].
اختبارًا يمتحن فيه الصادقون ﴿ لَنَسْأَلُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨].
وتسأل الأمم ماذا أجبتكم المرسلين ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥].

امتحان لا ظلم فيه ولا تظلم، ولا اعتراض ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].
امتحان لا إعادة فيه ولا إكمال، ونتيجته لا تستدرك ولا رجوع فيها ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١].

هذا الامتحان، ليس في مكان وفير، ومقاعد مريحة، بل هو وقوف بين يدي ملك الملوك، وعلام الغيوب ﴿ وَقَفُّهُمْ أَتَيْنَاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤] ﴿ إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ١٣ ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ ١٤ ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

يقول النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١).

(١) رواه البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦).



هذا الامتحان أسألته مكشوفة معلومة، قد بينها لنا النبي ﷺ:

سُئِلَ يا عبد الله... عن عُمْرِكَ ماذا أفنيت فيه؟ وعن شبابِكَ فيما أبليت؟

وعن مالِكَ كيف كسبته؟ ثم في أي شيء أنفقت؟ وستسأل عن تعلمك وعلمك

ماذا عملت به؟

وستسأل يا عبد الله أوّل ما تسأل... عن صلاتك؟ مدى حفاظك عليها وإقامتك لها، فان

صلحت صلاتك، فقد أفلحت ونجحت، وان فسدت خسرت وخبث.

وستسأل أيضًا... عن أقرب الناس لك من زوجة وأولاد «ألا كلكم راع وكلكم

مسئول عن رعيته»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيّع

حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»^(٢).

وستسأل أيضًا... عن كل نعمة أسديت لك، أفي الحلال استعملتها، أم في الحرام سخرتها

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

إنها والله أسئلة عظيمة، ومواقف منتظرة مهولة، بكت من أجلها دموع الخاشعين وفرقت

لهولها قلوب الصالحين.

ولو أننا إذا مُتْنَا تُرْكُنَا لكان الموت راحة كل حيٍّ

ولكنّا إذا مُتْنَا بُعْثُنَا ونُسأل بعدها عن كل شيء

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَيْرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَّا

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بهدي سيد المرسلين، أقول ما سمعتم

وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه، انه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٩٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن اجتبى. أما بعد فيا عباد الله: إن من علامات التوفيق أن يتأمل الإنسان صحة الطريق، سواء في نفسه أو من هم تحت يده، فالموفق من عمل على تربية نفسه، وتربية من يرعاهم التربية الصحيحة المستقيمة.

اللاء الخامسة: لا للنظرة المفرطة في الامتحانات:

بعض الآباء لا يسأل عن دراسة ابنه وتحصيله إلا إذا أظلت الامتحانات، وبعض المعلمين دائماً ما يلوح لتلاميذه شبَّح الامتحانات، بين تارة وأخرى، ومناسبة وغير مناسبة، حتى أضحي مقياس العلم والتعليم لدى كثير من الناس مختصراً في ذلك الاختبار، ونُسيت الغايات النبيلة، التي قامت عليها الرسالة التعليمية، من إصلاح الجيل، وتربية النشء، وبناء العقول، وترسيخ المعلومات طوال العام، وتوثيق عرى الدين، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب.

فالواجب التوسط والاعتدال في نظرنا لامتحانات، نعم نوصي الأبناء والتلاميذ بالجد والاجتهاد فيها، ولكن لا تطغى قضية الامتحانات على جوانب الإصلاح والتربية.

اللاء السادسة: لا تكن الامتحانات هي المقياس.

بعض الآباء، يجعل نجاح الولد أو إخفاقه في الامتحان، علامة على نجاح الولد في حياته، أو فشله. فإذا نجح الولد كآل له أبوه ألوان الثناء وأنواع المديح، التي ربما لا يجد الابن شطرها عندما يقوم بأداء واجبات دينية، وحقوق شرعية، وعلى النقيض من ذلك، لو أخفق الولد في امتحاناته، عاتبه والده وأنبه، ووبَّخه وبكَّته، ولا يجد الولد معشار ذلك التأنيب، حينما يقصر في أداء واجبات شرعية، أو يرتكب بعض المحرمات، ولا شك أن هذا خلل في التربية، وتقصير في ترتيب الأولويات، وإعطاء كل ذي حق حقه، والاتزان مطلوب، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.



اللاء السابعة: أيها الأب والمعلم! لا تغفل عن متابعة الأولاد والطلاب أيام الاختبارات.

وبالأخص في ساعات الصباح بعد الخروج من قاعات الامتحانات، فأحياناً تتلقاهم أيادي الخبث، وقرناء السوء إلى مهاوي الردى. وقلْبُ نَظَرَكَ في المقاهي، أو محلات الإنترنت، أو في المتسكّعين في الشوارع لترى حجم أولئك الشباب، الذي ما عَرَفَ بعضُهم هذه الأماكن إلا في أيام الامتحانات، فكانت تلك الأيام شرارة الانحراف في حياة بعض الشباب، وتغيّر كثيرٍ من أخلاقياتهم، والسبب: غفلة الآباء والمربين عن أبنائهم.

عوّد بنيك على الآداب في الصغر كيما تقرّ بهم عينك في الكبر
فإنما مثل الآداب تجمعها في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر

فاتقوا الله -أيها المسلمون- في أمانة الأبناء، واحرصوا على متابعتهم وتربيتهم وحفظهم، وصلاحتهم وإصلاحهم، فهم قرة عين لكم في الحياة، وذخر لكم بعد الوفاة..
هذا وصلوا وسلموا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية.



الإجازة الصيفية وفلذات الأكباد (١)

الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المسلمون: لقد اهتم الإسلام بتربية الأولاد اهتمامًا عظيمًا؛ لأنهم اللبنة الأولى للمجتمع، بهم يقوى شأنه، ويعلو أمره، ويظهر صيته، وعلى أكتافهم تقوم الأمم، وتعلو الهمم، وهم الساعد الأيمن لأمتهم.

وأي أمة خلت من هذه اللبنة ضعفت أركانها، وخارت قواعدها، وأصبحت فريسة لأعدائها. والأمة المسلمة تحتاج إلى مزيد من الرجال ليحملوا رسالتها، ويبلغوا دعوتها، ويدافعوا عن وجودها. ولن تتحقق لها ذلك إلا إذا تربي أبناءها تربية صالحة، قائمة على ما شرعه الله ورسوله.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

ولهذا اهتم الإسلام بتربية الأبناء، وحث على العناية بهم وإحسان تربيتهم، وأوجب على الآباء والأمهات القيام بحق الله فيهم.

أيها المسلمون: إن من أعظم نعم الله على الإنسان في هذه الحياة نعمة الأولاد، فهم منحة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده ولو كان فقيراً، ويمنعها عن من يشاء من خلقه ولو كان غنياً، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤١﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

عباد الله: إن فلذات الأكباد هم زينة الحياة الدنيا، وهم زهرتها، يخفون عن آبائهم متاعب الحياة وهمومها، وجودهم في البيت كالأزهار في الحدائق، يصفون عليه البهجة والسرور تسرُّ الفؤاد مشاهدتهم، وتقرُّ العين رؤيتهم، وتبهج النفس بمحادثتهم، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦]. وهم بسمة الأمل، وأريج النفس، وريحان القلب، وهم الأكباد التي تمشي على الأرض.

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا
تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمض
أيها المسلمون: إن الأولاد أمانة عند الوالدين، كلفها الله بحفظها ورعايتها، وأوصاهما بتربيتهم تربية صالحة في دينهم ودنياهم، وهم أولى الناس بالبر وأحقهم بالمعروف. والأبوان مسئولان بين يدي الله عن تربية أبنائهم، قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في بيته، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسئولة عن رعيته...»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيِّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٩٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).



قال ابن عمر رضي الله عنهما: «أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته وماذا علّمته؟ وهو مسئول عن برّك وطواعيته لك»^(١). فهل قام الآباء بالحق الذي أوجب الله تجاه أبنائهم؟ وهل حفظ الآباء هذه الأمانة التي حمّلهم الله إياها؟! وهل أدى الآباء المسؤولية التي كلفهم الله بها؟! إنها أمانة عظيمة، ومسئولية كبيرة.

أيها المسلمون: إن أياماً يقضي فيه فلذات الأكباد، وأمل الأمة، إجازة عن الدراسة لحري بالوالدين أن يتنبهوا ويستيقظوا للأمانة والمسئولية التي حملوها أمام أبنائهم، فيعملوا على تربيتهم، وتعليمهم، واستغلال أوقاتهم فيما ينفعهم، فالأيام التي يقضون فيها الإجازة تضيع في اللهو واللعب، فماذا يجب عليك أيها الأب الكريم وأنت أيتها الأم الفاضلة أمام أبنائكم في الإجازات والعطل؟ إنها أمور كثيرة، وواجبات عظيمة، فهناك وسائل كثيرة يمكن أن يستخدمها الآباء في تربية أولادهم منها:

القدوة الحسنة: إن القدوة من أفضل الوسائل في تربية الأولاد وأعظمها أثراً، وذلك لأن الولد ينظر إلى والديه على أنها مثل أعلى له، فهو يحاكي فعلهما، ويقلد سلوكهما، فإذا رأى أبويه يحافظان على أوقاتهم، ويرتبان أعمالهما، بجدية وانتظام، فالابن حين يجد من أبويه القدوة الصالحة في كل شيء فإنه يتشرب مبادئ الخير، ويتربى على الفضيلة والأخلاق الطيبة، وحب القراءة والحفظ واستغلال الأوقات والفراغ، والعكس فإنه حين يجد من أبويه القدوة السيئة من تضييع للأوقات واللامبالاة فإنه ينهج طريق الضياع واللهو واللعب.

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عودُه أبوه
ومادان الفتى بحجى ولكن يعوده التمدن أقربوه

ولاشك أن للتربية أثر كبير في صلاح الأولاد؛ فالأولاد يُولدون على الفطرة، ثم يأتي دور التربية في المحافظة على هذه الفطرة أو حرقها فكل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه. فالولد الصغير أمانة عند والديه إن عوداه الخير اعتاده، وإن عوداه الشر اعتاده، والولد في صغره أكثر استقبالاً واستفادةً من التربية.

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٤٨٧٧).

قد ينفَعُ الأدبُ الأولادَ في صغرٍ وليس ينفَعُهُم من بعده أدبٌ
إن الغصونُ إذا عدلتها اعتدلت ولا يلينُ ولو ليتتهُ الخشب

ألا فاتقوا الله أيها الآباء في أولادكم، وكونوا قدوةً صالحةً لهم، فهم بكم يتأثرون، وعلى طريقتكم يمشون، وعنكم يأخذون ويتركون، وبكم يقتدون وعلى ما أنتم يكونون.

إن تربية الأولاد مسؤولية في أعناق الآباء والأمهات، إذ هي أمانة يسأل عنها يوم القيامة هل رعاها وحفظها أم أهملها وضيعها، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»^(١) فالأولاد فلذات الأكباد يجب الاعتناء بتربيتهم، فهم جيل الغد، وأمل المستقبل، بهم تعتر الأمة وبهم تذلل.

أيها المسلمون: إن الإنسان العاقل لا يفرط أو يضيع شيئاً هو محبوب إليه فهو حريص كل الحرص على الحفاظ عليه والاستفادة منه، فإذا حصل على مال سعى جاهداً في الحفاظ عليه، وتنميته ورعايته، وغيره من الأمور التي يحبها الإنسان، فكيف بفلذات الأكباد أليسوا أحق بالحفاظ عليهم من ما يسوؤهم؟! أليسوا أحق برعايتهم؟ أليسوا أحق بتربيتهم التربية الحسنة؟ أليسوا أحق من أي شيء بالاهتمام بهم في جميع شؤونهم؟.

أيها الآباء، وإن من وسائل تربية الأبناء وفلذات الأكباد الوعظ بأحسن أسلوب، والتذكير بأجمل خطاب، فذلك من وسائل التربية المؤثرة التي استخدمها القرآن كثيراً يقول تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعُظُهُ ۚ يَبْنَئُ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [لقمان: ١٣]، وقد كان النبي ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة بين حين وآخر، والأبناء يصغون ويرغبون في سماع النصيحة والتوجيه من الأبوين أو من يحبونه ويتأثرون به.

فينبغي على الأبوين أن يستخدموا في الأصل الأسلوب السهل اللين، والخطاب المتعقل، والحوار المقنع، بعيداً عن الشدة والقوة، وأن يراعي الزمان والمكان الذي يعيشه الأبناء، فالأبناء يعيشون في زمان كثر فيه الفساد، وظهر فيه المفسدون، فالإعلام الفاسد دخل إلى البيوت فأثر على الأبناء بل وعلى الأبوين. ورفقاء السوء ملؤا الشوارع والطرق فأخذوا

(١) السلسلة الصحيحة (١٦٣٦).



البنين والبنات، والسبيل إلى التخلص من هذا كله أن يتخلله بالموعظة، والترغيب والتشجيع، وغرس القناعات، وأن يدفعه إلى أماكن الخير، ودور التعليم والتربية، لكي يحفظ وقته، وينفع نفسه، ويصون عقيدته وأخلاقه.

عباد الله: إن وسائل التربية كثيرة فالملاحظة والمتابعة للأبناء داخل وخارج البيت أمرٌ مطلوب وضروري، فالوالدان يتابعان الأبناء في سلوكهم، وأخلاقهم، وفي أقوالهم وأفعالهم، فإن كان الخير أكرمهم وشجعهم عليه، وإن كان غير ذلك نهوهم عنه وحذروهم منه، فالمحافظة على الصلوات والأذكار وفعل الخيرات، والعمل على استغلال أوقات الإجازات في حفظ القرآن والسنة، وتعلم الآداب وغيرها من العلوم النافعة أمرٌ يشجع عليه الأبناء من قبل الوالدين، والعكس، فإذا أقبل الأبناء على عمل غير صحيح يحذروا منه وقد يعاقبوا عليه، بحيث يضعوا العقوبة في موضعها، دون إفراط أو تفريط.

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم وبما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين..
أما بعد:

أيها المسلمون: بعد أن عرفنا عظمة المسؤولية أمام أبنائنا، وعرفنا بعض الوسائل التربوية التي تعين الوالدين على تربية أبنائهم، والاهتمام بحفظ أوقاتهم، فإن هناك سؤال يطرح نفسه: على ماذا نربي أولادنا؟ وبأي شيء يحفظ أوقاتهم؟ إن تربية الأبناء وفلذات الأكباد تكون على العقيدة الصحيحة أولاً فالآباء ينبغي عليهم أن يعلموا أبناءهم أصول الإيمان، ومبادئ العقيدة الصحيحة، فيعرفوهم بربهم، ويغرسوا محبته في نفوسهم، وأنه الخالق والمحي والمميت، والمعز والمذل، الكريم الرحيم، وأنه واحد لا شريك له؛ وأنه لا معبود بحق إلا الله ويجذرانهم من الشرك وأهله وتعرفيهم بأركان الإسلام والإيمان.

ثانياً: تربية الأبناء على مراقبة الله وخشيته، فهو الذي خلق السماوات السبع والأرضين وما بينهما وهو الذي يقول للشيء: (كن فيكون)، والقادر والمطلع على كل شيء خفي أو أعلن، فلقد كان السلف الصالح يعلمون أبناءهم مخافة الله فهذا عبد الله بن دينار يقول: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة ففي الطريق انحدر علينا راع من الجبل، فقال له عمر: «يا راعي بعنا شاة من هذه الغنم، فقال الراعي: إنه مملوك فقال له عمر: قل لسيدك أكلها الذئب، فقال العبد: أين الله؟ فبكى عمر، وغدا على سيد الراعي فاشتراه منه وأعتقه، وقال: كلمة أعتقتك في الدنيا أرجو أن تعتقك يوم القيامة».

فالصحابة كانوا يربون أبناءهم ومن تحت أيديهم على مراقبة الله في كل أعمالهم وأقوالهم.
ثالثاً: غرس حب رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس الأبناء فحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان فعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١). فتكون محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعته واقتفاء أثره وموالاة من كان يوالي،

(١) رواه البخاري (١٥).



ومعاداة من كان يعادي، وتصديقه في كل ما أخبر به، وإحياء سنته وإظهار شريعته، وإبلاغ دعوته، وإنفاذ وصاياه، وحب الصالحين وموالاتهم بحبه، وبغض الفاسقين ومعاداتهم ببغضه.

رابعاً: تعليم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً، ففيه آداب كثيرة تعلمنا آداب الاستئذان، والصدق، والتواضع، والأمانة، والإيثار، وبر الوالدين، والرفق في معاملة اليتيم والمسكين، والعفة والصيانة، وغص البصر وخفض الصوت، وإخفاء الصدقات والصبر، والشجاعة بلا تهور ولا تعدد، وغير ذلك من الآداب والأخلاق، فعلى الآباء أن يحرصوا على تعليم أبنائهم القرآن؛ لأنه من أهم أسس التربية الإسلامية.

أيها المسلمون: إن تربية الأبناء على الأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة مسئولية الأبوين والمعلمين إذ الأخلاق غاية التربية الإسلامية وروحها، فالإسلام حث على حسن الخلق لأهميته في حياة الأبناء، والأخلاق عبارة عن سلوك الفرد في حياته اليومية، فالأبناء يأخذون هذه الأخلاق من الوالدين والمجتمع المحيط بهم.

لقد عني الإسلام بالتربية الخلقية عناية كبيرة حيث جعل الدين الإسلامي هو أساس الأخلاق الفاضلة، التربية الأخلاقية هي تنشئة الأبناء على المبادئ الأخلاقية، وتكوينهم بها تكويناً كاملاً وذلك بتكوين استعداد أخلاقي للالتزام بها في كل مكان، وإشباع روحه بروح الأخلاق، وتكوين عاطفتهم وبصيرتهم الأخلاقية حتى يصبح مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر.

لقد اهتم الإسلام بالتربية الأخلاقية للأبناء اهتماماً كبيراً، حيث جعل الدين الإسلامي هو أساس الأخلاق الفاضلة، وحرص العلماء كل الحرص على العناية بالتربية الخلقية للأبناء عن طريق تعويده على الأخلاق الفاضلة كالصدق، والأمانة والرحمة، لكي تكون له صفة وسلوكاً في جميع شؤون حياته الخاصة والعامة لكي يحصل على خير الدنيا والآخرة.

ومما يلحق بذلك تعريف الجيل والنشء بأهمية الأوقات، وسرعة انقضاء الأعمار، وقيمتها عند الله تعالى، وأنها مادة الحياة، فيعلموا كيفية تنظيمها واستغلالها، وليجعل للولد أو الطالب هدف أو إنجاز يسعى لتحقيقه أثناء عطلته، سواء كان هدفاً علمياً أو عملياً، كحفظ

أجزاء من القرآن الكريم، أو تعلم شيء من الأمور النافعة، أو إنجاز عمل يكون فيه إثراء لرصيده واقتراب من تحقيق أهدافه، فيمزج في إجازته بين المتعة والفائدة، وبين الترفيه والعمل، والجد والمرح، وهذا يرجع إلى حكمة المربي، وتوازنه التربوي.

نسأل الله تعالى أن يصلح شباب المسلمين، وأولاد المسلمين، وبنات المسلمين، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويأخذ بنواصينا للبر والتقوى..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد والحمد لله رب العالمين.



الفراغ وفقه الترويح عن النفس (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتوحد بالجلال بكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتديراً، المتعالي بعظمته ومجده الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فاتقوا الله - معاشر المسلمين -، واعلموا أن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين، فإن يد الله على الجماعة، ومن شذّ عنهم فمات فميتته جاهليّة.

أيها المسلمون: إنّ حياة النّاس بعامّة مليئة بالشّواغل والصّوارف المتضخّمة، والتي تفتقر من حيث الممارسات المتنوّعة إلى شيء من الفرز والترتيب لقائمة الأولويات منها، مع عدم إغفال النّظر حول تقديم ما هو أنفع على ما هو نافع فحسب. ثمّ إنّ الضغوط النفسيّة والاجتماعيّة الكبيرة الناتجة عن هذا التضخّم ربّما ولدت شيئاً من النّهم واللّهث غير المعتاد تجاه البحث عمّا يبرد غلّة هذه الرواسب المتراكمة ويطفئ أوارها^(٢). يقول تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ١-٤].

إنّ الحضارة العالميّة حينما توفّر للإنسان بالتقدّم العمليّ والاجهد الصناعيّ قوّة الإنسان ونشاطه، وتوفّر له مزيداً من الوقت، ثمّ يكون في نفسه وقلبه وروحه ذلكم الفراغ، فهنا

(١) سعود الشريم.

(٢) الأوار: حرّ النار والشمس.



تحدث المشكلة ويكمن الداء الذي يجعل أوقات الفراغ في المجتمعات تعيش آتساعاً خطيراً، حتى صارت عبئاً ثقيلاً على حركتها وأمنها الفكري والذاتي، ومنفذاً لإهدار كثير من الجهود والطاقات المثمرة.

إن غياب الضبط والتحليل والترشيد للظاهرة الحضارية الجديدة المنشئة لأوقات الفراغ ليمثل دليلاً بارزاً على وجود شرخ في المشروع الحضاري والعودة الحرة، غير بعيد أن تؤتى الأمة المسلمة من قبله.

وإن عدم وعينا التام بخطورة هذا المسلك تجاه أوقات الفراغ وعدم وعينا التام بالمادة المناسبة لشغل تلك الأوقات في استغلال العمليات التنموية والفكرية والاقتصادية البناءة لجدير بأن يقلب صورته إلى معول هدم يضاف إلى غيره من المعاول، من حيث نشعر أو لا نشعر، والتي ما فتئ الأجنبي عنّا يبثها ليل نهار، لنسف حضارة المسلمين على كافة الأصعدة بلا استثناء، كيف لا؟! ورسول الله يقول: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»^(١).

إن الإسلام دينٌ صالح للواقع والحياة، يعامل الناس على أنهم بشر، لهم أشواقهم القلبية وحظوظهم النفسية، فهو لم يوجب عليهم أن يكون كل كلامهم ذكراً، وكل شرودهم فكراً، وكل تأملاتهم عبرة، وكل فراغهم عبادة. كلاً، ليس الأمر كذلك، وإنما وسّع الإسلام التعامل مع كل ما تتطلبه الفطرة البشرية السليمة من فرح وترح، وضحك وبكاء، وهو ومرح، في حدود ما شرعه الله، محكوماً بأداب الإسلام وحدوده.

عباد الله: إن قضية إشغال الفراغ باللهو واللعب والمرح والفرح هي قضية لها صبغة واقعية على مضمار الحياة اليومية، لا يمكن تجاهلها لدى كثير من المجتمعات، بل قد يشتد الأمر ويزداد عند وجود موجبات الفراغ كالعطل ونحوها، حتى أصبحت عند البعض منهم مصنفة ضمن البرامج المنظمة في الحياة اليومية العامة، وهي غالباً ما تكون غوغائية تلقائية

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).



ارتجاليّة، ينقصها الهدف السليم، ولا تحكّمها ضوابط زمنيّة ولا مكانيّة، فضلا عن الضوابط الشرعية وما يحسّن من اللّهُو وما يقبح.

التّرويح والتّرفيه عبادة الله هو إدخال السّرور على النفس، والتنفيس عنها، وتجديد نشاطها، وزمّها عن السّامة والملل.

وواقع النّبّي إبان حياته يؤكّد أحقيّة هذا الجانب في حياة الإنسان، يقول سهاك بن حرب: قلتُ لجابر بن سمرة: أكنتَ تجالس رسول الله؟ قال: «نعم، كان طويل الصّمت، وكان أصحابه يتناشدون الشعر عنده، ويذكرون أشياء من أمر الجاهليّة، ويضحكون فيتسمّ معهم إذا ضحكوا»^(١).

وأخرج البخاريّ في الأدب المفرد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: (لم يكن أصحاب رسول الله منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء من دينه دارت حماليق عينيه)^{(٢)(٣)}.

وذكر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ عن أبي الدرداء أنّه قال: «إني لأستجم نفسي بالشيء من اللّهُو غير المحرّم، فيكون أقوى لها على الحقّ»^(٤).

وذكر ابن أبي نجيح عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إني ليعجبني أن يكون الرّجل في أهله مثل الصبيّ، فإذا بُغِيَ منه حاجة وُجد رجلا»^(٥).

يقول ابن الجوزيّ: (ولقد رأيت الإنسان قد حُمّل من التكليف أمورًا صعبة، ومن أثقل ما حُمّل مداراة نفسه وتكليفها الصبر عمّا تحبّ وعلى ما تكره، فرأيت الصّواب قطع طريق الصّبر

(١) رواه مسلم (٦٧٠) بنحوه، واللفظ لأحمد (٨٦/٥، ٨٨).

(٢) حماليق العين: هو ما يسوده الكحل من باطن أجفان العين، وهو كناية عن فتح العينين، والنظر الشديد.

(٣) الأدب المفرد (٨١)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٧٨/٥)، وحسن إسناده الحافظ في الفتح

(٥٤٠/١٠)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٣٢).

(٤) ذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس والذهبي في السير (٤٢١/٥).

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٢٩٢/٦).



بالتسلية والتلطف للنفس). ويمثل هذا تحدّث أبو الوفاء بن عقيل فقال: (العاقل إذا خلا بزوجاته وإمائه لآعب ومازح وهازل، يعطي للزوجة والنفس حقّها، وإن خلا بأطفاله خرج في صورة طفلٍ وهجر الجدّ في بعض الوقت).

هذه -عباد الله- بعض الشّدرات حول مفهوم اللّهُو والتّسلية والتّرويح، يُؤكّد من خلاله أنّ الإسلام قد عُني بهذا الجانب حقّ العناية، غير أنّنا نودّ أن نبين هنا وجه الهوّة بين مفهوم الإسلام للتّرويح والتّسلية وبين اللّهُو والمرح في عصرنا الحاضر، والذي هو بطبيعته يحتاج إلى دراساتٍ موسّعة تقتنص الهدف للوصول إلى طريقةٍ مثلى للإفادة منها في الإطار المشروع.

فينبغي دراسة الأنشطة الترويحية الإيجابية منها والسلبيّة، والربط بينها وبين الخلفيّة الشرعيّة والاجتماعيّة للطبقة الممارسة لهذا النشاط، ومدى الإفادة من الترويح والإبداع في الوصول إلى ما يقرب المصالح ولا يبعدها، وما يرضي الله ولا يسخطه، وتحليل الفعل وردود الفعل، بين معطيات المتطلّبات الشرعيّة والاجتماعيّة، وبين متطلّبات الرغبات الشخصية المشبوهة، وأثر تلك المشاركات في إذكاء الطاقات والكفاءات الإنتاجيّة العائدة للأسر والمجتمعات بالنّفع في دينهم ودنياهم.

إنّ علينا جميعاً كمسلمين أن نشدّ عزائمنا لصيانتها ما أمكن من أيّ ضياع في مرحٍ أو لهو غير سليم، أو ممّا إثمه أكبر من نفعه، فلا ينبغي للمسلمين أن يطلقوا لأنفسهم العنان في التّرويح، بحيث يزاحم آفاق العمل الجادّ واليقظة المستهدفة، ولا أن يشغل عن الواجبات أو تضييع بسبب الانغماس فيه الفرائض والحقوق، إذ ليست إباحة التّرويح وسطاً ركام الجدّ إلا ضرباً من ضروب العون وشحذِ الهمة على تحمّل أعباء الحقّ، والصبر على تكاليفه، والإحساس بأنّ ما للجدّ أولى بالتّقديم ممّا للهُو والتّرويح، وبهذا يُفهم قول النبيّ لحنظلة بن عامر وقد شكّا إليه تخلّل بعض أوقاته بشيءٍ من الملاطفة للصّبيان والنساء، فقال له: «ولكن ساعة وساعة»^(١).

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠).

أما أن يصيَح الترويح للنفس طابع الحياة في الغدو والآصال والحلوة والجلوة، وهماً أساساً من هموم المجتمعات في الحياة، فهو خروجٌ به عن مقصده وطبيعته، واتجاهٌ بالحياة إلى العبث والضياع، وفي الحديث: «ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تيمت القلب»^(١)، فنهى عن الإفراط في ذلك مع جواز الأصل.

فالإنسان الجادّ عليه أن يجعلَ من اللّهُ والترويح له ولمن يعوله وقتاً ما، ويجعل للعمل والجدّ أوقاتاً، لا العكس، فاللهو والاستجمام والترويح وسيلة لا غاية، فهو كاستراحة المحارب، لا سبباً ونحن نعيش في عصرٍ استهوت معظم النفوس فيه كلّ جديد وطريف، حتّى صارت أكثر انجذاباً إلى احتضان واعتناق ما هو وافد عليها في ميدان اللّهُ والمرح، ولا غرو في ذلك عباد الله، فإن الاسترخاء الفكريّ وهشاشة الضابط القيميّ لدى البعض منّا هما أنسب الأوقات لنفاذ الطرائف والبدايع إلى النفوس، وهنا تكمن الخطورة ويستفحل الداء.

فاللهو المنفتح -عباد الله- والذي لا يضبط بالقيود الواعية، إنّه ولا شكّ يتهدّد الأصالة الإسلاميّة، من خلال بعض المسابقات تُدعى ثقافيّة، والتي تقوم في الغالب على جمع للتضادّ الفكريّ، أو تنمية الصراع الثقافيّ، أو تصديق الثوابت العقائدية والقيم الأخلاقية والحدود الشرعية لدى المسلمين، من خلال وسائل للترويح والتسلية سواء عبر الملتقيات والأماكن التي لا تتقيد بقيود القيم ولا تُحدّد بحدود الشرع، أو عبر القنوات المرئيّة التي تنتج مفاهيمٍ وطرائق مضلّلة، عبر طرق جاذبة في الثقافات والشهوات، لاسترقاق الفكر من خلال فنونٍ أو أساطيرٍ أو عروضٍ لما يفتن أو للسّحر والشعوذة وما شاكلها.

وما حال من يقع في مثل هذا الترويح إلا كقول من يقول: (وداوني بالنبي كانت هي الداء)^(٢).

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنه كان غفاراً.

(١) ابن ماجه (٤٢١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٢١).

(٢) شطر بيت لأبي نواس، وشطره الأول: (دع عنك لومي فإن اللوم إغراء)، وهو في ديوانه (٢١/١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن من أعظم الدلائل على عظمة دين الإسلام أن تشريعاته قامت على جلب المصالح ودرء المفاسد؛ المبنية على رفع الحرج، ومراعاة التيسير، ومجافة العنت والتشديد؛ وهي بذلك تراعي الفطرة البشرية ومتطلباتها؛ فلم تكبتها أو تضيق عليها، وفي الوقت نفسه لم تطلق لها العنان، أو تترك لها الحبل على الغارب، وإنما حرصت على الموازنة بين الحقوق والواجبات، وما يباح وما يمنع، في مختلف جوانب الحياة البشرية.

وإن من أبرز ما تتصف به النفس البشرية أنها تصاب بالملل والفتور؛ فتحتاج إلى الترويح لتستعيد نشاطها، وتواصل سيرها بجد نحو البناء والتقدم.

ونظراً لهذه الطبيعية البشرية نجد أن الإسلام شرع مبدأ الترويح عن النفس؛ تخفيفاً لما تتحملة من تكاليف ومشاق؛ فقد صحَّح أن النبي قال: «كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ هُوَ وَلَعِبٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَرْبَعَةً: مَلَاعِبَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَتَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَعْلِيمُ الرَّجُلِ السَّبَاحَةَ»^(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ معلقاً على هذا الحديث: (والباطل من الأعمال هنا ما ليس فيه منفعة ولم يكن محرماً، فهذا يرخَّص فيه للنفوس التي لا تصبر على ما ينفع، وهذا الحق في القدر الذي يُحتاج إليه في الأوقات التي تقتضي ذلك، كالأعياد والأعراس وقدم الغائب ونحو ذلك) انتهى كلامه^(٢)، ويقول ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ عن هذا الحديث: (ليس مراده

(١) صحيح الجامع (٤٥٣٤) صححه الألباني.

(٢) الاستقامة (١/٢٧٧).



بقوله: «باطل» أي: أنه حرام، وإثما يريد به أنه عارٍ من الثواب، وأنه للدنيا محض، لا تعلق له بالآخرة، والمباح منه باطل) انتهى كلامه (١).

هذا في اللهو المباح عباد الله، وأما اللهو المحرم أو اللهو المباح الذي قد يفضي إلى محرم فاستمعوا يا رعاكم الله إلى كلام الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه حيث يقول: (باب: كلُّ هوٍ باطل إذا أشغله عن طاعة الله) (٢)، ويعلق الحافظ ابن حجر على هذا فيقول: (أي: كمن التهيء بشيء من الأشياء مطلقاً، سواء كان مأذوناً في فعله أو منهيّاً عنه، كمن اشتغل بصلاة نافلة أو بتلاوة أو ذكر أو تفكيرٍ في معاني القرآن مثلاً، حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمداً، فإنه يدخل تحت هذا الضابط، وإذا كان هذا في الأشياء المرغَّب فيها المطلوب فعلها، فكيف حال ما دونها؟! (٣).

عباد الله: إن الترويح عن النفس أمر أباحتها الشرائع؛ لكونه من متطلبات الفطرة البشرية؛ فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن إخوة يوسف حينما احتالوا لأخذ أحيهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبين أباهم بقولهم: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَاغِدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]؛ يقول الإمام الجصاص رَحِمَهُ اللهُ: (وفي الآية دلالة على أن اللعب الذي ذكروه كان مباحاً، لولا ذلك لأنكره يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم) (٤).

وقال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (يقصد منه الاستجمام ودفع السامة، وهو مباح في كافة الشرائع إذا لم يصير دأباً) (٥).

وقال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ اللهُ: (وفيه دليل أن القوم إذا خرجوا من المضر، فلا بأس بالمطايبة والمزاح، في غير مآثم) (٦). ومن دلائل إباحة الترويح واللعب المباح، ما جاء في

(١) انظر: فيض القدير (٥/٤٠٢).

(٢) وذلك في كتاب الاستئذان من صحيحه.

(٣) فتح الباري (١١/٩١).

(٤) أحكام القرآن (٤/٣٨١).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/٣٩).

(٦) بحر العلوم (٢/٣٦٧).

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي قِصَّةِ لَعْبِ الْحِشَّةِ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْعِيدِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ»^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَى حَتَّى أَسَابِقَكَ؛ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَى حَتَّى أَسَابِقَكَ فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ بَيْتُكَ»^(٢).

ومع هذه الفسحة في الترويح عن النفس، إلا أنه ينبغي للمسلم أن لا يجعلها غاية له وهدفاً في هذه الحياة الدنيا، وأن لا يتخذها وسيلة ومطية لانتهاك حرمانات الله، وتعدي حدوده، وإنما عليه أن ينظر إليها كوسيلة لغاية عظيمة وهدف أسمى؛ هو بقاء الإنسان نشيطاً، ذا همّة وعطاء، من أجل بناء المجتمعات، وعمارة الأرض، وإقامة الشرع؛ وهذا وفقاً للتوجيه الرباني: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ومن هنا نعلم أن الترويح عن النفس لا بد أن ينضبط بضوابط الشرع وقواعده، ويُعرض على ميزانه؛ لضمان تحقيق أهدافه التي أبيض من أجلها، حتى لا يؤول إلى وسيلة لضياح الأوقات وهدر المَقَدَّرَاتِ، والتَرَدِّي فِي مَهَاوِي الخمول والكسل والانحراف والضياع، وإلا كان وبالاً وهلاكاً؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْرَحَ وَيَلْهَوْ فليكن فرح العقلاء الأتقياء، وهو في نفس الوقت لا يزيغ ولا يبغي، بل يتقي الأهازيج والصَّجِيج التي تقلق الذَاكِرَ وتكسر قلب الشاكر. ويمكن إجمال ضوابط اللهو المباح فيما يلي:

أولاً: النية والاحتساب في الترويح:

من أهم ما تؤثر فيه النية المباحات والعادات؛ فإنها تتحول بالنية إلى عبادات وقربات؛ والترويح من جملة المباحات التي يثاب عليها الإنسان إذا نوى بها الاستجمام والنشاط للطاعة

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أحمد.



والعبادة، وأداء الواجبات الدنيوية، كما أنه قد يأثم إذا قصد به الهروب من المسؤوليات، وتضييع الواجبات؛ فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(١).

وقد كان السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تعالى يحرصون على ذلك ويتعاهدون نياتهم في جميع أعمالهم؛ فعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لكنني أنام ثم أقوم فأقرأ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»^(٢)، وعن زبيد الياامي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء؛ حتى في الطعام والشراب)، وقال أيضاً: (انو في كل شيء تريده الخير، حتى خروجك إلى الكُنَاسَةِ)^(٣). فلا ينبغي للمسلم أن يغفل عن تلك اللحظات؛ فإنه يُسأل عنها يوم القيامة؛ لم فعله؟ وما الذي قصد به.

ثانياً: اختيار الصحبة الطيبة للترويح:

يشعر الإنسان بمتعة أكبر وسعادة غامرة إذا كان ترويجه في رفقة أو صحبة من الناس، ونظراً لكون اللهو والمرح مما يشغل القلب عن أداء الواجبات والتكاليف؛ فيحتاج المسلم إلى من يذكره بها؛ ولذا ينبغي أن يختار من الرفقة من يعينوه على الطاعة، ويحذروه من المعصية؛ من يَقْدُرُ لِلدِّينِ قَدْرَهُ، وَيَعْرِفُ أَنَّ لِلشَّرْعِ حَدَّهُ، وَإِنْ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(٤).

ثالثاً: اختيار أوقات الترفيه وعدم تعدي حدود الله في ذلك:

ينبغي للمسلم أن ينظم وقته بين العمل واللهو، والجد واللعب، فلا يعتدي على الوقت الذي هو حق لله تعالى؛ كوقت الصلوات المفروضة، أو أن يغفل عن ذكر الله في أوقات هو

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن حبان.

(٣) جامع العلوم والحكم.

(٤) متفق عليه.

أحوج ما يكون فيها إلى القرب من ربه؛ كإهدار ساعات الليل كلها في السمر واللّهو والحرام، فلا هو في نوافل العبادات قضاها، ولا لأمر واجب أحيها.

ومما ينبغي أن يجتنبه المسلم أيضاً التعدي على الأوقات التي تتعلق بأداء حقوق العباد؛ كالعمل الرسمي؛ فلا ينبغي أن يقضيه المسلم في الترفيه والترويح، تاركاً وراءه مسؤوليات أنيطت به؛ فوقت العمل مرتبط بما التزم به الإنسان من عقود ومواريث يجب الوفاء بها واحترامها؛ قال عزّ وجلّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

رابعاً: أن لا يستهلك الترويح جُلّ وقت الإنسان:

إن من أخطر الأمور في ممارسة الترفيه والترويح؛ أن لا يكون الإنسان حكيمًا في سياسة نفسه، فيستهلك كل وقته أو معظمه في اللهو والترفيه حتى يضيع عمره وتنفرد عليه أموره؛ فهذه الأوقات يسأل عنها الإنسان يوم القيامة؛ كيف قضاها، كما أخبر بذلك النبي ﷺ؛ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»^(١).

فالوقت عند المسلم له قيمة، وهو يعلم أن ما ضاع منها سُدَى لا يُعوَدُ، وأن ما يقضيه في الترويح والترفيه يهدف من ورائه مضاعفة الهمة والنشاط؛ لتعويض ما فات، وأن الحكمة والتعقُّل في استغلال الأوقات لا في إهدارها وتضييعها.

والوقت أنفُسُ ما عُيِنَتْ بحفظه وإراة أسهل ما عليك يضيع

خامساً: أن تكون وسيلة الترويح مشروعة:

أما كون الوسيلة مشروعة؛ فتأتي هذه المشروعية من وجهين:

الأول: أن تكون مباحة في ذاتها؛ بمعنى أنه لم يرد في الشرع الكريم نهي عنها لذاتها، وإلا كانت ممنوعة؛ فلا يجوز للمسلم أن يترفّه أو يلهو فيها ما حرّمه الله تعالى؛ كالضحك والسخرية من الآخرين، أو الاستهزاء بهم، أو ترويعهم وتخويفهم، أو إزعاجهم في طرقهم ومساكنهم،

(١) رواه الترمذي.



أو استعمال آلات اللهو والطرب للترويح عن النفس، أو اللهو بألعاب محرمة كالنرد والقمار، وغير ذلك مما وردت النصوص الشرعية بتحريمها.

الثاني: أن تكون الغاية - التي تستعمل لها الوسيلة المباحة - مشروعة أيضًا؛ ذلك أن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فالوسيلة وإن كانت مشروعة أو مباحة في ذاتها، وقصد بها التوصل إلى ما حرم الله، كانت محرمة تبعًا لمقصدها؛ فالسفر بحد ذاتها وسيلة مشروعة أو مباحة؛ فإن استعملها الإنسان في التوصل إلى خير؛ كان السفر جائزًا مشروعًا، أما إذا قصد الإنسان بسفره هذا ارتكاب المحرمات، وفعل المنكرات؛ كان السفر والحالة هذه ممنوعًا غير مشروع؛ تبعًا للمقصد الذي استعمل لأجله.

عباد الله: التوازن مطلوب في هذه الحياة، فهل فقهننا عن الله أحكامه؟ وهل فهمنا يسر الشريعة وسماحة الدين كما ينبغي؟ أليس من الإفراط والتفريط أن ترى المسلم عابسًا جافًا يتكلف الرزانة ويحرم على نفسه ما أحل الله حتى يشق على من حوله؟ أو أن تراه معظم وقته مازحًا هازلًا حتى يقع في المحظور ويترك المأمور ويثقل على من حوله من الحضور؟ لذا كانت الحكمة تقتضي التوازن بلا إفراط ولا تفريط، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ههذا وصلوا - رحمكم الله - على خير البرية وأزكى البشرية محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم، صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، وثلت بكم فقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



حرارة الصيف دروس وعبر (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، أحمدته تعالى حمد الشاكرين، واستغفره استغفار المنيبين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيوم يوم الدين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين إلى العالمين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تبارك وتعالى حق التقوى، أطيعوه ولا تعصوه، وراقبوه ولا تنسوه، واعلموا أنكم لديه محضرون، وعلى أعمالكم محاسبون، وعلى تفريطكم نادمون، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

عباد الله: نُعَاشِشُ هذه الأيام شدة الحرِّ اللافتح، والصيف القائظ، والشمسُ تزداد سطوعاً، لترسل نورها وشيئاً من نارها، فتنتشر سياط لهبها على الأرض والأبدان، ولا تسأل عن حال الناس في هذه الأيام مع شدة الحر وهم يطلبون الظل الظليل، والهواء العليل، والماء البارد السلسيل؛ لذا كان لا بد لنا مع الصيف من وقفات، ومع الحر من خطرات، ومع القيظ من عبر وعظات.

إن الزمان بليته ونهاره، وشهوره وأعوامه، وصيفه وشتائه آيةٌ من آيات الله تبارك وتعالى التي نصبها للعباد موعظةً وذكرى، موعظةٌ في تقلب الأحوال وتصرفها، وغيّر الأيام وتصرفها.

يذكرنا كَرُّ الغداة ومُرُّ العشي بأن الحياةَ مراحل، وأن كُـلَّ مرحلة لها قيمتها ومكانتها، ولكل منها تَبِعَةٌ مطلوبةٌ، وحسابٌ قائمٌ، قال الحسنُ البصري رَحِمَهُ اللهُ: (ما من يوم ينشق فجره وتشرق شمسُه إلا ينادي منادٍ يا ابن آدمَ أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيدٌ، فتزود مني بعملٍ صالحٍ، فإني لا أعودُ إلى يومِ القيامة).

إنَّ في هذا الحرِّ دليلاً من دلائل ربوبية الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يقَلِّبُ الأيام والشهور، ويطوي الأعوام والدهور، وهو الواحد الأحد الصمد، المستحق للعبادة، سبحانه وبحمده! قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]؛ فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهرُ من كل شيء على الإطلاق.

وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تعالى -: (ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحرِّ والبرد، وقيام الحيوان والنبات عليهما، وفكَّر في دخول أحدهما على الآخر بالتدرُّج والمهلة حتى يبلغ نهايته، ولو دخل عليه مفاجأة لأضُرَّ ذلك بالأبدان وأهلكها، وبالنبات، ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك).

عباد الله: ونحن نعيش ونعايش الهجير والرمضاء وهذا الحرُّ اللافح، نتذكر ما منَّ به ربنا علينا وأنعم من الوسائل التي تقي الناس الصيفَ وقيظَه، من الظلال الوارفة، والأشجار اليانعة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَفِيكُمُ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

وفوق هذا هل استشعرنا عظيم نعمة الله علينا حين يَسِّرُ لنا من وسائل التبريد والتكييف المختلفة ما تطمئن به النفوس، ونتقي بها أذى الشمس وسمومها؟ أجهزة تقلِّبُ الصيفَ شتاءً والشتاءَ صيفاً، وتخففُ من لأواءِ الهجير، وتطفئُ هبَّ القَيْظِ في المنزل والمسجد والسيارة والعمل! هل تأملنا ذلك فشكرنا ربنا على ذلك، وتركنا الإسراف في استعمال هذه الأجهزة؟!.



هل تأملنا فيمن يسكنون بيوت الصفيح والخيام والقش، فحمدنا ربنا وعبدناه حق عبادته! وإن هذا يدعوننا لأن نتذكر أسراً تعيش بيننا لا يملكون ما نملك من هذه الوسائل الحديثة، وإن ملكوها فلا يستطيعون دفع ما يترتب على عملها من أموال؛ فأعينوا إخوانكم - عباد الله - في النائية والبلدان الفقيرة، واحتسبوا الأجر من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا نُفْقِدُكُمْ إِلَّا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّا تَحْتَدُونَ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١)، وقال أيضاً: «إِنَّ ظِلَّ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقْتُهُ»^(٢). وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

إن ابن آدم ظلوم جهول، مزاجي ملول، ومن جهله عدم الرضا عن حاله، فإذا جاء الصيف تضرَّج منه، وإذا جاء الشتاء تضرَّج منه، وفي ذلك يقول الناظم:

يتمنَّى المرءُ في الصيفِ الشِّتَا فإذا جاء الشِّتَا أَنْكَرَهُ
فهو لا يرضى بحالٍ واحدٍ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ!

وهذا من طبع البشر؛ ولكن المسلم يرضى بما قدر الله له من خير أو شر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، أخرج مسلم عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٣).

ولن يعدم المؤمن أحد هذين الخيرين بشرط الرضا والشكر والصبر، وَمَنْ حُرِمَ الصَّبْرِ عَلَى مَا قَدَرَ اللَّهُ فَهُوَ الْمَحْرُومُ، وَمَنْ أُعْطِيَ الصَّبْرَ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

أيها الناس: إن الحرَّ ابتلاء من الله تعالى لعباده، فلا يجوز أن يترك المسلم ما أمره الله به من واجبات، فحين خرج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة وكانت في حرِّ

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦).

(٢) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٨٦٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩).

شديد، وسَفَرٍ بعيد، توأصى المنافقون فيما بينهم بعدم النفير في هذا الحر، فجاء الوعيد من الله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

إن الحر ليس عائقاً عن عبادة الله، ولا صاداً عن طاعته، فالصفوة من عباد الله يرون أن في الحر غنيمة لا تفوت، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، في اليوم الحار الشديد الحر، وإن الرجل لِيَضَعُ يده على رأسه من شدة الحر، وما في القوم أحدٌ صائمٌ إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة». رواه ابن ماجه بإسناد صحيح. ويقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من صام يوماً في سبيل الله باعَدَ الله بذلك اليوم حرَّ جهنم عن وجهه سبعين خريفاً»^(١)

حين يخرج المصلّي إلى صلاة الظهر أو العصر فيرى الشمس اللاهبة ويحس بالحر اللافتح، ولكنه يطمع في رحمة رب العالمين، ويدخر هذا المخرج عند الله، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

إن صيام الهواجر، ومكابدة الجوع والعطش في يوم شديد حرّه، بعيد ما بين طرفيه، ذاك دأب الصالحين، وسنة السابقين، والمحروم من حُرْم.

روي أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَصُومُ فِي الصَّيْفِ وَيُفْطِرُ فِي الشِّتَاءِ، وَوَصَّى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ فَقَالَ: «عليك بخصال الإيمان»، وسمّى منها الصومَ في شدّة الحرِّ في الصيف.

ولما مرض معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَضَ وَفَاتَهُ قَالَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُوِّفِي فِيهَا: «أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت، حبيباً جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجُرِّي الأنهار، ولا لغرس الأشجار؛ ولكن لظماً الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

لم يتأسف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مال ولا ولد، ولم يبك على فراق نعيم الدنيا، ولكنه تأسف على قيام الليل، ومزاحمة العلماء بالركب، وعلى ظماً الهواجر بالصيام في أيام الحر الشديد!.

(١) رواه النسائي وصححه الألباني (٢٢٥١).



خرج ابن عمر في سفر معه أصحابه فوضعوا سفرة لهم فمر بهم راع فدعوه إلى أن يأكل معهم فقال: إني صائم، فقال ابن عمر: «في مثل هذا اليوم الشديد حرُّه، وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم، وأنت صائم!» فقال: أبادر أيامي هذه الخالية. ويقول أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موصياً أصحابه: «صوموا يوماً شديداً حرُّه لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور».

هكذا كان الصالحون حال الحر، وكان ابنُ عمر وغيره من السلف إذا شربوا ماءً بارداً بكوا وذكروا أمانة أهل النار، وأنهم يشتهون الماء البارد، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، ويقولون لأهل الجنة: ﴿أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فيقولون لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

إن اشتداد الحر يا عباد الله -يُذَكِّرُنَا- بِحَرِّ جَهَنَّمَ -أعاذنا الله منها-، تلکم النار التي أعدها الله جل وعلا للكافرين، ويعذب بها من يشاء من عباده المؤمنين العاصين.

وإن اشتداد الحرِّ في هذه الدنيا هو من نفس النار، قال النبي ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربِّ، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشدُّ ما تجدون من الحر، وأشدُّ ما ترون من الزمهرير -يعني البرد-»^(١)، وفي رواية للبخاري قال: «فإذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم»^(٢)، والمقصود تأخير صلاة الظهر إلى قرب صلاة العصر عند اشتداد الحر.

فإذا كان هذا الحر الشديد والشمس المحرقة إنما هي نفس من أنفاس جهنم، فيا ترى ما عذابها إذا؟.

رأى عمر بن عبد العزيز قوماً في جنازة قد هربوا من الشمس إلى الظل وتوقوا الغبار، فبكى وأنشد:

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٧).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩).

من كان حين تصيبُ الشمسُ جبهته
ويألفُ الظلَّ كي يُبقى بشاشته
فسوف يسكنُ يومًا - راغِمًا - جدًّا
في ظلِّ مُقْفِرَةٍ غبراءِ مُظْلِمَةٍ
يُطيلُ تحت الثرى في ظلها اللبثا
تجهَّزي بجهَّازِ تبلغين به
يا نفسُ قبل الردى لم تُخلقي عبثا

عباد الله: هل تذكر العاصي - وكلنا عصاة - تلك النار التي توقد وتغلي بأهلها حين أقدم على معصية الجبار سبحانه مستهينًا بمولاه، وجاحدًا لنعمته عليه، ومتناسيًا ما أُعدَّ من العذاب والنكال للكفرة والفجرة والعصاة؟ ﴿إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُمِغَّوْا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٤-٢١].

نسيت لظي عند ارتكابك للهوى
وأنت تُوقى حرَّ شمسِ الهواجر
كأنك لم تدفن حميمًا ولم تكن
له في سياق الموت يومًا بحاضر
ما أنذر العباد - رعاكم الله - بشيءٍ أشرَّ من النار، النارُ موحشةٌ، أهوالها عظيمةٌ، وأخطارها جسيمةٌ، وعذابها أبدًا في مزيد، لا يُفترَّ عنهم وهم فيه ملبسون، كلما خبت زادها الله سعيًّا.

قال رسول الله ﷺ: «إن الصخرة العظيمة لتلقى من سفير جهنم فتهمي فيها سبعين عامًا، ما تفضي إلى قرارها» (١)، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو راوي الحديث: «أكثرُوا ذَكَرَ النَّارِ، فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرَهَا بَعِيدٌ، وَإِنْ مَقَامُهَا حَدِيدٌ» رواه الترمذي.

(١) صحيح الترمذي (٢٥٧٥).



ذكر رسول الله ﷺ النار يوماً، فقال لأصحابه: «أترونها حمراء كمناركم هذه؟ هِيَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ!»^(١). أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفُ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، وَأَلْفُ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَتْ، وَأَلْفُ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءٌ مَظْلَمَةٌ، لَهَا تَغِيظٌ وَزَفِيرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [١٢] وَإِذَا الْقَوْمُ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿﴾ [الفرقان: ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤٣] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [٧١] ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا ﴿﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

اللهم أظننا تحت ظلِّ عرشك يوم لا ظلَّ إلا ظلك، اللهم هون علينا الحساب، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أجرنا من النار، اللهم أجرنا من النار، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه كان للأوابين غفورًا.

(١) رواه مالك وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٦٧٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون عباد الله: إنَّ الناس حريصون كُلِّ الحرص على راحة أنفسهم وأهليهم، ولكن كم هو عظيم الأسى عندما نرى أكثرهم لا يقيم وزناً لنار جهنم، ولا يعمل على وقاية نفسه وأهله ومن تحت يده منها، والله عزَّ وجلَّ قد خاطب عباده المؤمنين، وحذرهم منها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

فيا من لا يطيقون حرارة الجو، يا من لا يتحمل الوقوف في الشمس ساعة، يا من يخافون على أبنائهم ويجنبونهم شدة الحر، كيف أنتم في وقايتهم من عذاب الله وحر جهنم؟! إن حرَّها شديد، وقعرها بعيد، جاء في الحديث انه ﷺ قال: «إن أنعم أهل الأرض من أهل الدنيا يؤتى به يوم القيامة، فيغمس في النار غمسة، فيقال: هل رأيت خيراً قط؟ هل مَرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مرَّ بي نعيم قط»^(١). ينسى كل نعيم الدنيا بمجرد غمسة واحدة في

جهنم، مع أنه أنعم أهل الأرض!

يقول الألبيري رَحِمَهُ اللهُ مخاطباً ابنه:

فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْنَا؟	تَفَرُّ مِنَ الْمَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ
ولو كنت الحديد ذبَّتا	ولست تطيق أهونها عذابا
وليس كما حسبت ولا ظننتا	ولا تُنكر فإنَّ الأمر جدُّ

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).



عباد الله: ولئن كان حرُّ الدنيا يُتقى بالملابس والثياب وغيرها؛ فإن حرَّ الآخرة لا يتقى بشيء من ذلك، إنما يتقى بالأعمال الصالحة، والكف عن المحارم والمظالم، يوم تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، فعند مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار، ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إجمًا» قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه^(١).

سيأتي يومٌ شديدُ الحرِّ، عظيم الكرب، الذي لا مفر منه، أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»^(٢).

ومنهم من ينعم بالاستظلال بظل الله يوم لا ظل إلا ظله، فيكون المؤمن في ظل صدقته يوم القيامة، وهناك سبعة يظلهم الله ذلك اليوم في ظله، قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(٣).

فهل عرضت نفسك أيها الحبيب على هذا الحديث؟ هل لك نصيب فيه؟ هل تقدر على أن تفوز ببعض ما فيه من الصفات والطاعات؟ لعلك أن تفوز بظل رب الأرض والسموات؟ إن في قلب المناخ والأجواء، واختلاف الأيام والليالي، لعبرة وعظة، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، جعلني الله وإياكم من أولي الألباب، الذين يفقهون ويتفكرون ويتذكرون، إنه قريب مجيب.

هذا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر...

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٢).

(٣) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

الشتاء البارد (١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

لبس الشتاء من الجليد جلودا	فالبس فقد برد الزمان بُرودا
كم مؤمن قرصته أظفار الشتا	فغدا لسكان الجحيم حسودا
وترى طيور الماء في وكناتها	تختار حر النار والسفودا
وإذا رميت بفضل كأسك في الهوا	عادت عليك من العقيق عقودا
يا صاحب العودين لا تهملهما	حرك لنا عودًا وحرّق عودا

إن الله تعالى هو الذي خلق السماء والأرض، وهو الذي أوجد اليابس والماء، وهو الذي يكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل.

وهو الذي يأتي بالصيف الحار، وبالشتاء البارد، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ولنا مع قدوم قليل من البرد هذه الأيام بعض تأملات، وذكر بعض الأحكام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهِيَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِرِيرِ»^(١). وهذا من أمور الغيب الذي يؤمن به المسلم. قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: (هذه الشكوى بلسان المقال).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: (إنه الأظهر). وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: (لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته). قال: (وإذا أخبر الصادق بأمر جائز لم يحتج إلى تأويله، فحملة على حقيقته أولى).

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ نحو ذلك، ثم قال: (حملة على حقيقته هو الصواب، وتنفسها على الحقيقة، والمراد بالزمهيرير شدة البرد، ولا إشكال من وجوده في النار، ففيها طبقة زمهيريرية) نسأل الله العافية.

فهذه النار اشتكت إلى خالقها، فكيف بالذي في داخلها؟ وكيف بمن يعذب فيها؟ وكيف بمن حكم الله عليه بالخلود فيها؟ نسأل الله العفو والعافية.

فشفقة من الله بهذه النار التي خلقها لإحراق الكفار والمنافقين والعصاة، ومن يستحق دخولها أذن لها بنفسين، نفس في كل موسم فأشد ما نجد من الحر ما هو إلا نفس من أنفاس جهنم، وأشد ما نجد من البرد أيضًا ما هو إلا نفس من أنفاس جهنم، قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، وقالت: أكل بعضي بعضًا؟ فجعل لها نفسين: نفسا في الشتاء، ونفسا في الصيف، فأما نفسها في الشتاء فزمهيرير، وأما نفسها في الصيف فسموم»^(٢).

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٧).

(٢) صحيح الترمذي (٢٥٩٢) وقال الألباني: (صحيح على شرط الشيخين).



وهذا سؤال وجه لفضيلة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: هناك من ينسب شدة البرد أو الحر للعوامل المناخية أو لطبقة الأوزون أو لدوران الكرة الأرضية، فهل يصح هذا التأويل؟ فأجاب بقوله: لا شك أن شدة الحر وشدة البرد لها أسباب طبيعية معلومة، ووجودها بأسبابها من تمام حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، وبيان أنه سبحانه وتعالى خلق الخلق على أكمل نظام، وهناك أسباب مجهولة لا نعلمها نحن، مثل قول الرسول ﷺ: «اشْتَكَّتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ، نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِرِ». وهذا سبب غير معلوم، لا يعلم إلا بطريق الوحي، ولا حرج على الإنسان أن يضيف الشيء إلى سبب معلوم حسًا أو شرعًا، لكن بعد ثبوت أنه سبب حقيقي.

وإن كان سببًا وهميًا، أو كان سببًا مبنياً على نظريات لا أساس لها، فإنه لا يجوز اعتمادها؛ لأن إثبات الوقائع أو الحوادث إلى أسباب غير معلومة، لا عن طريق الشرع، ولا عن طريق الحس، يدخل في ما نهى الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أيها المسلمون: وقد ينزعج بعض الناس من برودة الشتاء، كما يتضايق البعض من حر الصيف، وفي كلٍ منهما، وتقلب الأحوال عمومًا مصالح وحكم، قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه، فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف، وكذلك لو كان ربيعًا كله أو خريفًا كله).

ولشيخ ابن القيم، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كلام نفيس كان يتحدث فيه رَحِمَهُ اللهُ على هروب الشيء من ضده، وأن كثيرًا من الأشياء يمكن أن تقاوم بأضدادها، وهذه قاعدة مهمة يحتاجها الجميع عامة والمصلحون خاصة، فمثل لقاعدته بكلام يناسب موضوعنا، فقال رَحِمَهُ اللهُ: (ويسخن جوف الإنسان في الشتاء، ويبرد في الصيف؛ لأنه في الشتاء يكون الهواء باردًا، فيبرد ظاهر البدن، فتهرب الحرارة إلى باطن البدن؛ لأن الضد يهرب من

الضد والشبيه يجذب إلى شبيهه، فتظهر البرودة إلى الظاهر، ولهذا يسخن جوف الأرض في الشتاء، وجوف الحيوان كله، وتبرد الأجواف في الصيف لسخونة الظواهر فتهرب البرودة إلى الأجواف) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ومن الوقفات التربوية هنا: أنك إذا عرفت بأن الضد يهرب من الضد، والشبيه يجذب إلى شبيهه، أدركت وعرفت بأنه لا طريق للتخلص من رِقِّ المعصية إلا بضدها، وهي الطاعة، وأنه إذا ارتاحت نفسك بالجلوس مع العصاة، فهذا من انجذاب الشبيه إلى شبيهه - والله المستعان -.

أيها المسلمون: ومن الأحكام أن السنة قد جاءت بالإبراد بصلاة الظهر في حر الصيف تخفيفاً على الناس؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ» (١)

وكان رسول الله ﷺ إذا اشتد البرد بكرَّ بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة؛ عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَرَادَ الْمُؤَذِّنُ أَنْ يُؤَذِّنَ لِلظُّهْرِ، فَقَالَ ﷺ: «أَبْرِدْ» ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُؤَذِّنَ، فَقَالَ لَهُ: «أَبْرِدْ» حَتَّى رَأَيْنَا فِيءَ التَّلْوْلِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ شَدَّ الْحَرُّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ» (٢)

وهذا الحكم خاص بصلاة الظهر، وأما صلاة الجمعة، وإن كانت في وقت الظهر، فإنها تصل في وقتها، حتى في الحر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (وأما الجمعة، فالسنة أن تصل في أول وقتها في جميع الأزمنة؛ لأن النبي ﷺ كان يصلها في أول الوقت شتاءً وصيفاً، ولم يؤخرها هو ولا أحد من أصحابه، بل ربما كانوا يصلونها قبل الزوال وذلك؛ لأن الناس يجتمعون لها إذ السنة التبكير إليها، ففي تأخيرها إضرار بهم).

ونعلم بأن السنة أن يقرأ الإمام في ركعتي الجمعة بسورة الجمعة والمنافقون، وثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بسبح والغاشية (٣).

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٥).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩).

(٣) رواهما مسلم.



والسنة أن يقرأ الإمام مرة بهذا ومرة بهذا؛ لئلا تهجر السنة، ولكن كما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: (لو أن الإمام راعى أحوال الناس، ففي الشتاء البارد قرأ بسبح والغاشية، ولم يقرأ بالجمعة والمنافقون تيسيراً على الناس، ومثله في أيام الحر الشديد، وذلك؛ لأن من هدي النبي ﷺ أنه ما حُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إتِّماً).

أيها المسلمون: بوب الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللهُ في سننه، فقال: (باب ما جاء في الصوم في الشتاء)، ثم أخرج بسنده عن عامر بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ الصَّوْمِ فِي الشِّتَاءِ»^(١).

وكانت غنيمةً باردةً لحصول المؤمن على الثواب بلا تعب كثير، فالصوم في الشتاء البارد لا يحس فيه الصائم بالعطش لبرودة الجو، ولا بألم الجوع لقصر النهار، فحقاً إنها لغنيمة باردة فأين أصحابها؟

أيها المسلمون: من عبر التاريخ أن الله عذب أقواماً بالريح الباردة في الشتاء كقوم عاد كما قد ذكر ذلك أهل التفسير، وقد كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة وهو السحاب الذي يخال فيه المطر، أقبل وأدبر، وتغير وجهه، فقالت له عائشة: إن الناس إذا رأوا مخيلة استبشروا، فقال يا عائشة: «وما يؤمنني قد رأى قوم عاد العذاب عارضاً مستقبلاً أوديتهم، فقالوا: هذا عارض ممطرنًا» قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]^(٢). وهذا من شدة خشيته ﷺ وخوفه من الله تعالى، وقد أمّنه ربه من العذاب، فما عسانا نقول؟

ومن عجائب فصل الشتاء: أن من حكم الله تعالى أن نبات وفواكه الشتاء لو أُكِلَ في الصيف، أو العكس، لربما أضر البدن وسبب له الأذى، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (فلو كان نبات الصيف إنما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية، واستثقالاً بوروده، مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها، وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف، أو ما في خريفها في الربيع، لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذاذه ذلك الالتذاد، ولهذا تجد

(١) صحيح الترمذي (٧٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٨٢٨) ومسلم (٨٩٩).

التأخر منها عن وقته مملوًا محلول الطعم، ولا يظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك، فإن العادة إنما جرت به؛ لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخجل بها الحكيم الخبير^(١).

ومن عجائب الحر والبرد والصيف والشتاء: هذا الحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه ضمن كرامات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: كَانَ أَبُو لَيْلَى يَسْمُرُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يَلْسُ ثِيَابَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَثِيَابَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقُلْنَا: لَوْ سَأَلْتَهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيَّ وَأَنَا أَرْمَدُ الْعَيْنِ يَوْمَ حَيْبَرَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْمَدُ الْعَيْنِ فَتَقَلَّ فِي عَيْنِي، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ» قَالَ: فَمَا وَجَدْتُ حَرًّا وَلَا بَرْدًا بَعْدَ يَوْمَيْدٍ^(٢).

رضي الله عن علي بن أبي طالب، وعن سائر الأصحاب والتابعين، وألحقنا بهم في عباده الصالحين.

(١) انتهى كلامه.

(٢) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٩٥).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، الحمد لله مُصَرِّف الأحوال، ومُقَدِّر الآجال، لا إله إلا هو الكبيرُ المتعال، سبحانه وبحمده كريمٌ لا يبخل، وحليمٌ لا يعجل، الحَكْمُ حُكْمُهُ، والأمرُ أمرُهُ، تُسَبِّحُ له السماوات والأرض ومن فيهنَّ بالغدوِّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المُتَفَرِّدُ بالكمال والجمال والجلال، وأشهد أن سيِّدنا ونبيِّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله عظيمُ المقام شريفُ الخصال، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارَكَ عليه، وعلى الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين خيرِ صحبٍ وأكرمِ آل، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ المآل، وسلَّمَ تسليماً كثيراً. أما بعد:

وكيف تكون فيه القرفصاء
إذا اصطكت وجاوبها الفضاء
يجور عليه في الليل الغطاء
فإن الشيخ آفته الشتاء
يهده من الفقر العناء
وتصدمه المذلة والشقاء
فتجمد في الشرابين الدماء
وترفل تحته نعمٌ وشاء
فهل يرضيك يزعجه الشتاء
ولا أرض تقيه ولا سماء
وظفل الجيل يصرعه الشتاء
ولا تحنو؟ فما هذا الجفاء
ألا يكفيك ما جرح الشتاء

أتدري كيف قابلني الشتاء
وكيف البرد يفعل بالثنايا
وكيف نبت فيه على فراش
فإن حل الشتاء فأدفتوني
أتدري كيف جارك يا ابن أُمي
وكيف يداه ترتجفان بؤساً
يصب الزمهرير عليه ثلجاً
خراف الأرض يكسوهن عهن
وهذا الأدمي بغير دار
يجوب الأرض من حي لحي
معاذ الله أن ترضى بهذا
أتلقاني وبى عوز وضيق
أخي بالله لا تجرح شعوري

أيها الأحبة: إن للفقراء علينا حقٌّ دائم، ويتأكد هذا الحق لهم في الأزمات والملمات، وفي النكبات والصعوبات، ومن ذلك: أن نرحمهم، ونعطف عليهم، مع برد الشتاء، هل تذكرنا أحوال المشردين والمستضعفين؟ والفقراء والمحتاجين؟ هلا تفقدنا جيراننا وأرحامنا ممن قد لا يملكون ما يستدفئون به من برد الشتاء القارس؟ الله الله في إخوانكم وجيرانكم وأرحامكم، انظروا إليهم بعين الرحمة والرأفة، لعل الله أن ينظر إليكم بها، وأنفقوا يُنفق عليكم، وتراحموا تُرحموا، فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

إخواني في الله: ومن مواطن العبر، وفرص الأمل: ما أوصى به الفاروقُ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابْنَهُ بإتمام الوضوء عند البرد قائلاً: «وإسباغ الوضوء في اليوم الشتوي». ذلكم أن إسباغ الوضوء على المكاره مما مُحطُّ به الخطايا، وتُرفعُ به الدرجات؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟!». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١). والمكاره: شدة البرد وآلام الجسم.

وإسباغ الوضوء: تكميله وإيعابه مع شدة البرد وآلم الجسم، وما يلحق ذلك من مشقة. على أن تعلموا -رحمكم الله- أنه لا مانع من الوضوء بالماء الدافئ، وتسخين الماء، وتنشيف الأعضاء بعد الفراغ من الوضوء؛ بل يُباح التيمم إذا خاف على نفسه شدة البرد، فضلاً من الله ورحمة، وتيسيراً ونعمة.

وفي مثل هذا جاءت مكاتبةُ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ووصاياه لعماله وولاته إذا حضر الشتاء، يقول لهم: «إن الشتاء قد حصر وهو عدوُّ لكم، فتأهبوا له أهبتَه من الصوف والخفاف والجوارب، واتخذوا الصوف شعاعاً». أي: مما يلي الأجساد، «ودثاراً» أي: فوق الملابس، «فإن البرد عدوٌّ سريعٌ دخوله، بعيدٌ خروجه».

بل لقد امتنَّ اللهُ على عباده بما يسر من وسائل استدفاءٍ باللباس وغيره، فقال -عزَّ شأنه-: ﴿وَاللَّاتَمَعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]. فتأمل كيف أفرد الدَّفءَ بالذكر وخصَّه بالتنويه، مع أنه من جملة المنافع!

وقال عزَّ شأنه: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

ومما تقتضيه المناسبة -عباد الله-: التنبيه إلى أن بعض الناس يُوقد النار للتدفئة، كما يستخدم بعض أجهزة التدفئة، وهذا من فضل الله ونعمته، وتيسيره وتسخيره، ولكن قد أرشد نبيكم محمد ﷺ إلى إطفاء النار قبل النوم؛ فقد جاء في الخبر الصحيح في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «إن هذه النار إنما هي عدو لكم، فإذا نمتُمْ فأطفئوها عنكم». وما ذلك إلا لما تُسببه من الاحتراق أو الاختناق.

ومن الأحكام التي تحتاجها الناس والمتعلقة بالشتاء غالباً: مسألة المسح على الجوربين، وهي مسألة عقدية فقهية، وقد ذكرها بعض العلماء في كتب العقائد منهم ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية، وسبب ذكره لذلك أن هناك بعض الفرق الباطنية والمنحرفة ينكرون سنة المسح على الخفين منهم الرافضة والمعتزلة، وغيرهم، وقد تواترت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين، يقول الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (ليس في قلبي من المسح على الخفين شيء، فيه أربعون حديثاً عن رسول الله ﷺ). وقال الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في زاد المعاد: (صح عنه ﷺ أنه مسح في الحضر والسفر، ولم ينسخ ذلك حتى توفي ووقت للمقيم يوماً وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن في عدة أحاديث حسان وصحاح. وكان ﷺ يمسح ظاهر الخفين، ولم يصح عنه، مسح أسفلهما، ومسح على الجوربين والنعلين، ومسح على العمامة مقتصرًا عليها ومع الناصية، وثبت عنه ذلك فعلاً وأمرًا في عدة أحاديث، ولم يكن يتكلف ضد حاله التي عليها قدماه، بل إن كانتا في الخف مسح عليهما ولم ينزعهما، وإن كانتا مكشوفتين غسل القدمين ولم يلبس الخف ليمسح عليه)^(١).

وكيفية المسح: أن يبل يديه بالماء، ثم يمرهما على ظهر الخفين من أطرافها مما يلي الأصابع إلى الساق مرة واحدة، ولو مسح اليمنى على اليمنى واليسرى على اليسرى، فهذا حسن، ولو مسح كليهما بيده اليمنى، فلا حرج في ذلك.

ويلبسها على طهارة، ثم يبدأ مدة المسح من أول مسحة مسحها، وليس الابتداء من

(١) انتهى كلامه.



الحدث بعد اللبس، كما قال به البعض، فإذا لبس الإنسان الجورب لصلاة الفجر، ولم يمسح عليهما أول مرة إلا لصلاة الظهر، فابتداء المدة من الوقت الذي مسح فيه لصلاة الظهر، فيمسح المقيم إلى مثل ذلك الوقت من الغد. وإذا تمت المدة، وهو على طهارته باقية، حتى تنتقض، فإذا انتقضت بعد تمام المدة وجب عليه غسل رجليه إذا توضأ، ثم يلبس من جديد. ومن تمت مدته فنسى ومسح بعد تمام المدة، فعليه: أن يعيد الصلاة التي صلاها بالمسح الذي بعد تمام المدة.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، اللهم فقهننا في الدين، واجعلنا هداة مهتدين.



الاستسقاء (١)

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، سبحانه وبحمده، أوجد الكون ودبره، وخلق الإنسان من نطفة فقدره، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ. والشكر لربنا على جميل لطفه، وجزيل ثوابه، وواسع فضله، عَظُمَ حِلْمُهُ فَسْتَرَ، واستغفره المذنبون فغفر، وبسط يده بالعطاء فأكثر، قَصَدَتْهُ الخَلَائِقُ بِحَاجَاتِهَا فَأَعْطَاهَا، وتوجهت إليه القلوب بلهفاتنا فهداها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تكفل برزق جميع الخلائق، وتعرّف إلى خلقه بالدلائل والحقائق، له الحكمة فيما قدر وقضى، وإليه وحده تُرْفَعُ الشكوى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أرفعُ عباد الله قدرًا، وأكثرهم لمولاه شكرًا، وأعظمهم لربه ذكراً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، صفوة الله من خلقه، وخيرته من عباده، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، سبحانه ربنا، أنت إلهنا، ونحن عبيدك، أنت الملك، لا إله إلا أنت، ظلمنا أنفسنا، واعترفنا بذنوبنا، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، وما أنت أعلم به منا، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله رحمكم الله، واستغفروه وتوبوا إليه، فالكرامة كرامة التقوى، والعزُّ عزُّ الطاعة، والوحشة وحشة الذنوب، والأنسُ أنسُ



الإيمان والعمل الصالح، من لم يعتزَّ بطاعة الله لم يزل ذليلاً، ومن لم يستشفِ بكتاب الله لم يزل عليلاً، ومن لم يستغنِ بالله ظلَّ طولَ دهره فقيراً.

عباد الله: أجيئوا داعيَ الله إذ دعاكم يُجيبكم إذا دعوتوه، قدّموا لأنفسكم ما طلبه منكم من طاعته يؤتكم ما رجوتوه من رحمته، لولا فضل الخالق لم يكن المخلوق شيئاً مذكوراً، ولولا كرمُ الرازق لم يملك المرزوق نقيراً ولا قطميراً.

أيها الناس: تأملوا في هذه الحياة، مُدِيرٌ مُقْبِلُهَا، ومائلٌ مُعْتَدِلُهَا، كثيرةٌ عللها، إن أضحكت بزخرفها قليلاً، فلقد أبكت بأكدارها طويلاً.

تفكروا في حال من جمَعها ثم مُنِعها، انتقلت إلى غيره، وحملَ إثمها ومغرمها، فيا لحسرة من فرط في جنب الله! ويا لندامة من اجترأ على محارم الله! أقوام غافلون، جاءتهم المواعظ فاستقلوها، وتوالت عليهم النصائح فرفضوها، توالت عليهم نعم الله فما شكروها، ثم جاءهم ريب المنون، فأصبحوا بأعمالهم مرتين، وعلى ما قدمت أيديهم نادمين: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

أيها المسلمون: من صفا مع الله صافاه، ومن أوى إلى الله آواه، ومن فوّض إليه أمره كفاه، ومن باع نفسه من الله اشتراه، وجعل ثمنه جنته ورضاه. وعدُّ من الله صادق، وعهدٌ منه سابق، ومن أوفى بعهده من الله؟! معاشر الأحيّة، ربُّنا الرحيم الرحمن أعلمُ بخلقهِ، يعلم عجزهم وضعفهم، ويعلم نقصهم وتقصيرهم، فتح لهم بمنه وكرمه باب الرجاء في عفوه والطمع في رحمته والأمل في مرضاته ومغفرته، دعاهم إلى ساحة جوده وكرمه، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»^(١)، ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. رحمة من ربكم فيأضة لا ينقطع مددُها، ونعمة من عنده

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).



دَفَاقَةٌ لَا يَضَعُفُ سَبَبُهَا، مِنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَغْفِرَ ذُنُوبَ عِبَادِهِ؟! ﴿وَمَنْ يَغْفِرْ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وَمِنْ مَنَّةِ اللَّهِ الْكَبِيرِ وَفَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يَدْعُوَ عِبَادَهُ لِعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، ثُمَّ يَتَّبِعُهَا بِمَنَّةٍ
أُخْرَى، يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى مَهَلَةٍ يَرِاجِعُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتَدَبَّرُونَ فِيهَا أَحْوَالَهُمْ، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

الذُّنُوبُ يَا عِبَادَ اللَّهِ مَغْفُورَةٌ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، فَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ، وَمِنْ عَظَمَتِ ذُنُوبِهِ وَكَثْرَتِ آثَامِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَمَغْفِرَتَهُ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.

وَالْتَقْصِيرُ مِنْ شَأْنِ الْبَشَرِ، فَإِنْ نَبِيَكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَوْ لَمْ تَذُنُبُوا
لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذُنُبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١).

وَلَكِنْ أَيْنَ الْمُسْتَغْفِرُونَ؟ أَيْنَ التَّائِبُونَ الْعَائِدُونَ؟ أَيْنَ النَّادِمُونَ الصَّادِقُونَ؟ إِنْ اللَّهُ لِيَفْرَحَ
بِهِمْ فَأَيْنَ هُمْ؟

سُبْحَانَكَ رَبَّنَا، جَلَّ شَأْنُكَ، تَبَارَكَتْ وَتَعَالَيْتَ، أَنْتَ غَفَّارُ الذُّنُوبِ، وَسَاتِرُ الْعُيُوبِ،
تَبْسُطُ يَدَكَ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ، وَتَبْسُطُ يَدَكَ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ، وَتَنَادِي
عِبَادَكَ وَلَكَ الْحَمْدُ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: طُوبَى لِمَنْ عَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا رَحِيمًا، عَفْوًا كَرِيمًا، يَقْبَلُ تَوْبَةَ النَّادِمِينَ، وَيُقْبِلُ
عَثْرَاتِ الْعَاثِرِينَ إِذَا لَجُّوا إِلَيْهِ صَادِقِينَ مَخْلَصِينَ، غَيْرَ يَائِسِينَ وَلَا مُصْرِّينَ، كَيْفَ لَا؟! وَقَدْ أَمَرَ
بِذَلِكَ نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾
[محمد: ١٩].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِذَا كَثُرَ الْإِسْتِغْفَارُ فِي الْأُمَّةِ وَصَدَرَ عَنْ قُلُوبٍ صَادِقَةٍ، وَأَفْئِدَةٍ خَاشِعَةٍ،
وَنَفُوسٍ مُحِبَّةٍ خَجَلَةٍ مِنْ ذُنُوبِهَا وَتَقْصِيرِهَا، دَفَعَ اللَّهُ عَنْهَا ضَرْبًا مِنَ النِّقَمِ، وَصَرَفَ عَنْهَا

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

صنوفاً من البلايا والمحن، ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلِلَّةُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلِلَّةُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

أيها الإخوة: إن هناك صلةً قويّةً بين طهارة الفرد والمجتمع من الذنوب والخطايا وقضاء الحاجات وتحقيق الرغبات، هناك ارتباطٌ متين بين القوة والرزق وبين الاستغفار. الاستغفار جالبٌ للخصب والبركة وكثرة النسل والنماء. الاستغفار مصدرٌ للعزة والمنعة، اقرؤوا وإن شئتم في خبر نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وفي خبر عاد الشداد مع نبيهم هود عليه السلام: ﴿ وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢].

المستغفرون يمتنعهم ربهم متاعاً حسناً من سعة الرزق وبسط الأمن ومدد العافية ورغد العيش والقناعة بالموجود وعدم الحزن على المفقود. بالاستغفار يبلغ كلُّ ذي منزل منزله، وينال كلُّ ذي فضل فضله، اقرؤوا إن شئتم في خبر نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ [هود: ٣].

إن الاستغفار الحقُّ صدقٌ في العزم على ترك الذنب، والإجابة بالقلوب إلى علام الغيوب. إن الخير كله معلقٌ بصلاح القلوب وقبول الإيمان، وحيث ياتي الغفران، ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

ألا فاتقوا الله رحمكم الله، اتقوا الله ربكم، وتوجهوا إليه بقلوبكم، وأحسنوا به الظن. ارجعوا على أنفسكم بالمحاسبة، ومن صدق في اللجوء صحّت عنده التوبة. جانّبوا أهل الفحش والتفحش، ومجالسة أصحاب الردى، وممارسة السفهاء. احفظوا للناس حقوقهم، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

إنها لا تفسد الأحوال ولا تضطرب الأوضاع إلا بطغيان الشهوات وعبادة الأهواء والنزوات واختلاط النيات واختلاف الغير والمداهنات، لا يكون الفساد إلا حين يترك للناس الحبل على الغارب، يعيشون كما يشتهون، بالأخلاق يعبثون، وللأعراض ينتهكون،

ولحدود الله يتجاوزون، من غير وازع ولا رادع، ولقد تقرّر عند أهل العلم بما صحّ من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ منع الزكاة وأكل الحرام وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسبابٌ خاصة في منع القطر من السماء وعدم إجابة الدعاء. إذا كثُر الخبثُ استحقَّ القومُ الهلاك، وبكثرة الخبثِ تُنتقص الأرزاق، وتُنزع البركات، وتفسد الأمراض، وتضطرب الأحوال.

أيها الناس: إنّ للمعاصي شؤمها، وللذنوب أثرها، فكم أهلكت من أمم، وكم دمّرت من شعوب، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

وها أنتم عباد الله قد حضرتم في هذا المكان الطيب الطاهر المبارك، تقفون بين يدي ربكم، تشكون جدب دياركم، وتبسطون إليه حاجتكم، وكلّ ذلك الجذب وكلّ تلك الحاجة بلاءٌ من ربكم لتقبلوا عليه، وتتقربوا بصالح الأعمال لديه، فتعجلوا الإنابة رحمة الله، وبادروا بالتوبة، وأحسوا في المسألة، فبالتوبة النصوح تُغسل الخطايا، وبكثرة الاستغفار تُستمطر السماء وتسدّر الخيرات وتستنزل البركات، فأظهروا رحمة الله صدق التوبة، ورقّة القلوب وافتقار النفوس والذلّ بين يدي العزيز الغفار، استكينوا لربكم، وارفعوا أكفّ الضراعة إليه، ابتهلوا وادعوا وتضرّعوا واستغفروا.

إن خشوع الناس وصدق إخبارهم وندمهم هو أقوى وسيلة لاستئصال رحمة الله تعالى. حدث ذات مرّة قحط شديد في الأندلس، فأرسل الملك الناصر رسولا من عنده يدعو القاضي المنذر بن سعيد رَحِمَهُ اللهُ لإمامة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال المنذر للرسول: (ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا؛ إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لا يلبس أحسن الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أترأى تُعدّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني. قال: فتهلّل وجه المنذر بن سعيد عندما سمع قوله، وقال: يا غلام؛ احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض، رحم جبار السماء). وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلّا عن السقيا!

نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه، نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه.

اللهم بعلمك بحالنا وبقدرتك علينا وبرحمتك بنا أتمم علينا نعمتك، واكتب لنا رضاك، وتفَضَّل علينا بلطفك وخفيِّ عنايتك. اللهم لا تحرمنا عطاءك، ولا تحيِّب رجاءنا فيك. اللهم ولا تحرمنا خيرك، ولا تمنع عنا بذنوبنا فضلك، يا من أظهر الجميل، وستر القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك السريرة، برحمتك نستغيث، ومن عذابك نستجير، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحدٍ من خلقك.

ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين. اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا. اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً طبقاً سحاً مجللاً عامماً، نافعاً غير ضار، عاجلاً غير آجل. اللهم تحيي به البلاد، وتغيث به العباد، وتجعله بلاغاً للحاضر والباد. اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب ولا هدم ولا بلاء ولا غرق. اللهم اسق عبادك وبلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت. اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، وأنزل علينا من بركاتك، واجعل ما أنزلته قوة لنا على طاعتك، وبلاغاً إلى حين.

اللهم إنا خلق من خلقك، فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك، اللهم إنا خلق من خلقك، فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك. سبحان الله، سبحانك ربَّنَا، على الله توكلنا، ربَّنَا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين.

اللهم ارفع عنا من الجوع والجهد والعري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه إلا أنت. اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً، فأرسل السماء علينا مدراراً.

اللهم اسقنا الغيث، وآمنا من الخوف، ولا تجعلنا آيسين، ولا تهلكنا بالسنين. اللهم اسقنا الغيث، وآمنا من الخوف، ولا تجعلنا آيسين، ولا تهلكنا بالسنين.



اللهم ارحم الأطفال الرُّضَّع والبهائم الرثع والشيخ الرُّكع، وارحم الخلائق أجمعين.
ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربَّنَا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من
قبلنا، ربَّنَا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا
على القوم الكافرين.

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك محمد ﷺ وعبادك الصالحين.
اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا ديانا التي فيها معاشنا، وأصلح
لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر،
وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.
اللهم ارفع عنا الغلا والوبا والربا والزنا والزلازل والمحن وسوء الفتن ما ظهر منها وما
بطن، عن بلدنا وعن سائر بلاد المسلمين يا رب العالمين.

اللهم من أرادنا وأراد بلادنا ومقدساتنا بسوء فأشغله بنفسه، واجعل كيده في نحره،
واجعل تدبيره تدميره. اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. اللهم ردَّ عنا
كيد الكائدين وعدوان المعتدين، واقطع دابر الفساد والمفسدين.

عباد الله: اقلبوا أرواحكم تأسيًا بنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، واجتهدوا في الدعاء،
والحُثْوا في المسألة، وادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وأكثرُوا الاستغفارَ والصدقةَ وصلَّةَ
الأرحام، واحفظوا الحقوق، ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم، عسى ربكم أن يرحمكم، فيغيث
القلوب بالرجوع إليه، والبلدَ بإنزال الغيث عليه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الصفات: ١٨٠-١٨٢].

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.



نعمة الأمطار (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله وسعت رحمته ذنوب المسرفين، وأعجزت آلاؤه عد العادين، أحمده سبحانه لا تحجب عنه دعوة، ولا تخيب لديه طلبه، ولا يضل عنده سعي، وأشكره وأثني عليه، رضي من عظيم النعم بقليل الشكر، وغفر بالندم كبير الذنب، ومحا بتوبة ساعة خطايا سنين.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تبلغ الآمال، وتهدى من الضلال، وتحفظ النعم من الزوال. وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله ربه هدىً ورحمةً، وسراجًا منيرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، وعلى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم وأعد لهم مغفرة وأجرًا كبيرًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، فتقوى الله أكرم زاد، وأوثق عماد، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

عباد الله: إنا في هذه الأيام نتقلب في نعمة من نعم الله وافرة، فسمأونا تمطر، وأشجارنا تثمر، وأرضنا تخضر، وما هذا إلا نعمة ورحمة من المنعم الرحمن المنان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، أجاج أي: شديد الملوحة.

اللهم لك الشكر على الأثك التي لا تعد ولا تحصى، اللهم لو شئت لجعلت ماءنا أجاجًا، ولكن رحمتك أدركتنا فجعلته عذبًا زلالًا، فلك الشكر لا نحصي ثناءً عليك، فما بنا من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك.

(١) يزيد بن الخضر بن قاسي.

عباد الله: وكيف لا نشكر الله وقد كنا بالأمس القريب فقط نشكو الجذب والقحط وقلة المياه، وكانت مشكلة نقص المياه تُعد من أكبر أزمات البلاد، فنزلت رحمة الله الواسعة، فرويت الأرض، وجرت الوديان، وامتألت الآبار، وسالت العيون، وفاضت السدود برحمة من الله وفضله.

أيها الإخوة المسلمون: إن رحمة الله بنا عظيمة، ونعمه علينا كثيرة، فالواجب علينا أن نشكر الله على هذه النعمة، وأن ننسب الفضل له، فما مطرنا إلا بفضل الله ورحمته.

جاء في صحيح البخاري ومسلم عن زيد الجهني أنه قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت ليليل، أي: بعد ليلة ممطرة، فلما انصرف النبي ﷺ - أي: سلم من صلاة الفجر - أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا أو كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(١). لقد كان أهل الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة كوكب من الكواكب اسمه النوء، فلا ينزل المطر إلا بظهور ذلك النجم، فبدل أن يجعلوه علامةً كانوا يعتقدون أنه هو الموجد والفاعل المحدث للمطر، يجيء المطر بمجيئه وظهوره، فأنكر الله عليهم ذلك وأبطل قولهم، وجعله كفراً.

فالشاهد من الحديث أن على كل المسلم أن ينسب نزول المطر لله وحده لا شريك له، وأن يشكره تعالى ويقول بعد نزول المطر: (مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ)، وأن لا يعلق نزول المطر بشيء من المخلوقات كوكب كان أو نجم أو طبيعة كما يزعم البعض، وما الطبيعة؟ بل رب الطبيعة وحده لا شريك الله.

أيها المسلمون: إن المؤمن المستبصر دوماً وأبداً يتأمل ويتدبر في مخلوقات الله، ويتخذ من كل حركة وسكون في هذا الكون آية تدل على عظمته سبحانه وتعالى وقوته وقدرته وكرمه وفضله.

(١) رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

فيا عجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وفي نزول المطر عبر وآيات عظيمة ذكرها الله في كتابه العزيز فينبغي أن نعتبر بها حق الاعتبار.

ومن هذه العبر والآيات ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

نعم ففي إنزال المطر دليل ومثال على قدرة الله العظيمة، ويتجلى ذلك في إنشائه سبحانه للسحب بعدما كانت ماءً يتبخر، فتتراكم وتتجمع على أشكال مختلفة، ثم تأتي الرياح بأمره فتسوقها إلى بلد محدد دون بلد آخر، وإلى مكان محدد دون مكان آخر، فينزل المطر بقدر معلوم وفي أوقات معلومة، ذلك تقدير العزيز العليم، ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ١٢ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]، أي: شديد القوة سبحانه، إنها قوة لا حدود لها، فما يعجزه شيء سبحانه.

ومن آيات الله إنزال المطر وإحياءه للأرض بعد موتها: ﴿أَلَمْ تَرَ الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَزَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. خاشعة أي: يابسة. نرى الأرض جرداء قاحلة قد تشققت، ونال منها القحط وجفت، وعجز في إصلاحها الناس، ويئس منها المزارع، فبينما هي كذلك إذا بها تهتز خضراء رابية، قال الله تعالى:



وفي إحيائه للأرض بعد موتها العبرة ومثال لقدرته في إحيائه للموتى يوم القيامة، ولذا نجد أن الله كثيرا ما يربط بين إحياء الأرض بعد موتها وبين إحياء الموتى من قبورهم، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ [الزخرف: ١١]، أي: كذلك خروجكم من قبوركم بعد موتكم، فالذي أحى الأرض بعد موتها قادر على بعثكم بعد موتكم.

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ونفعمني وإياكم بها في من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه كان غفارا.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي استوى على عرشه فوق السماوات، وأحاط بعلمه مكنون الضمائر والخفيات، له الأيام يُداوِلها، وبيده الأحوال يُقلبها، وفي الكون آياته الظاهراتُ وسُننه الباهرات، وفي أحوال الأرضِ والأممِ عبرٌ وعِظات، فتلك أرضٌ ترتجُ وتتزلزلُ ويطغى عليها البحرُ وبعلوها الموجُ فتصبحُ آيةً وخبراً، وتلك دولٌ تدولُ تتغيَّرُ وجوهها وأحوالها، والله هو المعزُّ وهو المذلُّ، وهو الحكيمُ في تصاريفِ القدرِ، وإنَّ في ذلك لُمُدكراً، ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

الحمد لله المحمود بكلِّ حال، الحمد لله المؤمِّل لكلِّ عطاءٍ ونوال، الحمد لله حمدَ الشاكرِ في النعماء، وحمدَ الصابرِ في البلاء، أحمده تعالى وأشكره، وأثني عليه وأستغفره.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عزَّ جاره، وجلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، لا يُخلف وعده، ولا يُهزمُ جنده، سبحانه وبحمده. اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِل لمن هديت، ولا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلَّى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمَّا بعد:

فاتَّقوا الله تعالى أيها المسلمون: فتقوا مفتاح الأغلاق وباب الأرزاق، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

أيها الإخوة المسلمون: لا بد أن نقف على حقيقة قد يغفل عنها الكثير من الناس، وتتمثل هذه الحقيقة في طرحنا لسؤال على أنفسنا: ما هي أسباب تنزل الرحمات من رب البريات؟

وهل نستحق هذه الأمطارَ حقيقة؟ وهل يظن الواحدُ منا أن هذا المطرَ الذي نزل هو جزاءٌ نستحقه لما قدمناه من أعمال؟ وهل نحن من أهل الاستقامة ليصدق فينا قوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا﴾ [الجن: ١٦]، أي: لو استقاموا على طريقة الهدى وملة الإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً لأسقيناهم ماءً كثيراً، فهل تشملنا هذه الآية الكريمة؟ إن لم تكن كذلك فهل نحن ممن يكثر الاستغفار ليصدق علينا قول الله على لسان نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١]؟ وخاصة بالنظر إلى حالنا وحال المسلمين اليوم من كثرة الذنوب والعصيان والفسوق والطغيان والظلم والعدوان والتقصير في حق الله والبعد عن دينه. فهل تشملنا هذه الآية الكريمة؟ كلا، ولكنها رحمة الله الواسعة التي أدركتنا، بل هي رحمة الله التي غلبت غضبه، فوالله لولا رحمةُ الله وحلمه ما رأينا هذا الخيرَ كله.

ولذا ينبغي التنبه إلى الحذر مما يمنع نزول الأمطار ويمحق بركة الأرزاق، يقول ﷺ: «لم ينقص قومٌ المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم ما أمطروا»^(١).

اسمعوا جيدا أيها الإخوة المسلمون إلى قوله: «ولولا البهائم ما أمطروا»، نعم هذه هي الحقيقة، لولا هذه البهائم والحيوانات، ولولا رحمة الله ما رأينا هذا الخيرَ كله. وبهذا معشر المسلمين ندرك مدى رحمة الله الواسعة، ومدى حلمه الكبير مع تقصيرنا في حقه.

فتوجهوا إلى الكريم الرحيم، وأقبلوا عليه، وتقربوا بصالح العمل لديه، ابتهلوا وتضرعوا وادعوا واستغفروا، فقد ربط سبحانه في كتابه بين الاستغفار وحصول الغيث المدرار، اقرؤوا وصية نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] ووصية هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْجَحْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٦٢).



راجعوا أنفسكم رحمكم الله بالاعتراف بتقصيركم وعيوبكم، وتوبوا إلى ربكم من جميع ذنوبكم، وجهوا قلوبكم إلى من بيده خزائن الرحمة والأرزاق، وأمّلوا الفرج من الرحيم الخلاق، توبوا إلى ربكم من ذنوبٍ تمنع نزول الغيث، وأقلعوا من مظالم تحجب أبواب البركات.

تعطفوا على فقرائكم بالرحمة والإحسان، أدوا الحقوق إلى أصحابها، وردوا المظالم إلى أهلها، قوموا بمسؤولياتكم على وجهها، أحسنوا إلى من تحت أيديكم، أدوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل، مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وأصلحوا ذات بينكم، وأحسنوا تربية بناتكم وأبنائكم، وبروا والديكم، وصلوا أرحامكم، أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم، وتصدقوا من فضول أموالكم، واتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن الصدقة تطفيء الخطيئة، وتطفئ غضب الرب سبحانه.

أيها الإخوة المسلمون: لقد علمنا رسول الله ﷺ أدعية وأذكارا تقال آناء الليل وأطراف النهار، ومنها ما هو مخصوص بحسب الحال والمكان، وما ذلك إلا ليبقى المسلم دائما متصلا ومتعلقا بربه جل وعلا، ذاكرا وداعيا إياه مستغيثا ومناجيا.

روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال: «اللهم صيِّبنا نفعا»^(١). وعندما يتوقف كما تقدم يقول: «مطرنا بفضل الله ورحمته»^(٢).. وكان إذا نزل المطر خشني منه الضرر دعا وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر»^(٣). وإذا هبت الرياح نهانا عن سبها لأنها مأمورة، وكان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني نسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»^(٤).

(١) رواه البخاري (١٠٣٢).

(٢) رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

(٣) رواه البخاري (١٠١٤) ومسلم (٨٩٧).

(٤) رواه مسلم (٨٩٩).

وجاء في الأثر بسند صحيح عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»^(١).

فلا ينبغي للمسلم أن تفوته مثل هذه الأدعية و الأذكار.

والدعاء عند نزول الغيث مستجاب، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلبوا إجابة الدعاء عند التقاء الجيوش وإقامة الصلاة ونزول المطر»^(٢). فهذا من فضائل نزول الغيث، فما لنا لا نغتنمها؟! الدعاء الدعاء عباد الله، هو سلاح المؤمن، وملجأ الملهوف والمهموم، والمكروب والمحزون، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، لم يأمر الكريم بالدعاء إلا ليستجيب ويعطي.

ولا بأس أن نذكر إخواننا ببعض الرخص الصحيحة التي تؤدى عند نزول الغيث، فقد ثبت عن النبي ﷺ الجمع بين الصلاتين في المسجد، وذلك لرفع المشقة عن أمته، وكما رخص للمسلم أن يصلي في رحله أو بيته، فإذا صلى الناس الظهر ونزل المطر، أو كانت هناك ريح شديدة، أو سيول ومخاضات في الطين والماء في طرقات المصلين، حتى تشق عليهم العودة إلى الصلاة، فحيثئذ يجمعون بين الظهر والعصر، وهكذا يقال في الجمع بين المغرب والعشاء، فالجمع تقرره المشقة، من مطر، أو ريح، أو نحو ذلك، والمشقة تجلب التيسير، والله أعلم.

اللهم اغفر لنا إنك كنت غفارا، اللهم أنزل علينا من بركات السماء، وأخرج لنا من بركات الأرض، واكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عن سواك..

عباد الله: صلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير...



(١) صحيح الأدب المفرد (٥٥٦).

(٢) صحيح الجامع (١٠٢٦).